ص:5

الجزء العشرون

(۷۰) سورة المعارج مكية و هى أربع و أربعون آية (۴۴)

[سورة المعارج (۷۰): الآيات ۱ الى ۱۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (۱) لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (۲) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (۳) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (۴)

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (۵) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (۶) وَ نَراهُ قَرِيباً (۷) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (۸) وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (۹)

وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (۱۰) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (۱۱) وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (۱۲) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (۱۳) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (۱۴)

كَلاَّ إِنَّها لَظى (۱۵) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (۱۶) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (۱۷) وَ جَمَعَ فَأَوْعى (۱۸)

بيان

الذى يعطيه سياق السورة أنها تصف يوم القيامة بما أعد فيه من أليم العذاب للكافرين. تبتدئ السورة فتذكر سؤال سائل سأل عذابا من الله للكا فرين فتشير إلى أنه واقع ليس له دافع قريب غير بعيد كما يحسبونه ثم تصف اليوم الذى يقع فيه و العذاب الذى أعد لهم فيه و تستثنى المؤمنين الذين قاموا بوظائف الاعتقاد الحق و العمل الصالح.

و هذا السياق يشبه سياق السور المكية غير أن المنقول عن بعضهم أن قوله:

«وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ» مدنى و الاعتبار يؤيده لأن ظاهره الزكاة و قد شرعت بالمدينة بعد الهجرة، و كون هذه الآية مدنية يستتبع كون الآيات الحافة بها الواقعة تحت الاستثناء و هى أربع عشرة آية (قوله: إِلَّا الْمُصَلِّينَ- إلى قوله- فِي

ص:6

جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ) مدنية لما فى سياقها من الاتحاد و استلزام البعض للبعض.

و مدنیة هذه الآیات الواقعة تحت الاستثناء تستدعی ما استثنیت منه و هو علی الأقل ثلاث آیات (قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً- إلی قوله- مَنُوعاً).

علی أن قوله: «فَما لِ الَّذِینَ کَفَرُوا قِبَلَکَ مُهْطِعِینَ » متفرع علی ما قبله تفرعا ظاهرا و هو ما بعده إلی آخر السورة ذو سیاق واحد فتکون هذه الآیات أیضا مدنیة.

و من جهة أخری مضامین هذا الفصل من الآیات تناسب حال المنافقین الحافین حول النبی ص عن الیمین و عن الشمال عزین و ه‍م الرادون لبعض ما أنزل الله من الحکم و خاصة قوله: «أَ یَطْمَعُ کُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ» إلخ، و قوله: «عَلی أَنْ نُبَدِّلَ خَیْراً مِنْهُمْ» إلخ علی ما سیجیء، و موطن ظهور هذا النفاق المدینة لا مکة، و لا ضیر فی التعبیر عن هؤلاء بالذین کفروا فنظیر ذلک موجو د فی سورة التوبة و غیرها.

علی أنهم رووا أن السورة نزلت فی قول القائل: «اللَّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِیمٍ»: الأنفال: ۳۲ و قد تقدم فی تفسیر الآیة أن سیاقها و التی بع‍دها سیاق مدنی لا مکی. لکن المروی عن الصادق (ع) أن المراد بالحق المعلوم فی الآیة حق یسمیه صاحب المال فی ماله غیر الزکاة المفروضة.

و لا عبرة بما نسب إلی اتفاق المفسرین أن السورة مکیة علی أن الخلاف ظاهر و کذا ما نسب إلی ابن عباس أنها نزلت بعد سورة الحاقة.

قول‍ه تعالی: «سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ» السؤال بمعنی الطلب و الدعاء، و لذا عدی بالباء کما فی قوله: «یَدْعُونَ فِیها بِکُلِّ فاکِهَةٍ آمِنِینَ»: الدخان: ۵۵ و قیل: الفعل مضمن معنی الاهتمام و الاعتناء و لذا عدی بالباء، و قیل: الباء زائدة للتأکید، و مآل الوج‍وه واحد و هو طلب العذاب من الله کفرا و عتوا.

و قیل: الباء بمعنی عن کما فی قوله: «فَسْئَلْ بِهِ خَبِیراً»: الفرقان: ۵۹، و فیه أن کونها فی الآیة المستشهد بها بمعنی عن ممنوع. علی أن سیاق الآیات التالیة و خاصة قوله:

«فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِیلًا» لا یلائم کون الس‍ؤال بمعنی الاستفسار و الاستخبار.

فالآیة تحکی سؤال العذاب و طلبه عن بعض من کفر طغیانا و کفرا، و قد وصف العذاب المسئول من الأوصاف بما یدل علی إجابة الدعاء بنوع من التهکم و التحقیر و هو قوله: «واقِعٍ»

ص:7

و قوله: «لَیْسَ لَهُ دافِعٌ».

و المعنى سأل سائل من الكفار عذابا للكافرين من الله سيصيبهم و يقع عليهم لا محالة و لا دافع له أى أنه واقع عليهم سأل أو لم يسأل ففيه جواب تحقيرى و إجابة لمسئوله تهكما.

قوله تعالى: «لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ » للكافرين متعلق بعذاب و صفة له، و كذا قوله : «لَيْسَ لَهُ دافِعٌ» و قد مرت الإشارة إلى معنى الآية.

قوله تعالى: «مِنَ اللَّهِ ذِی الْمَعارِجِ » الجار و المجرور متعلق بقوله : «دافِعٌ» أى ليس له دافع من جانب الله و من المعلوم أنه لو اندفع لم يندفع إلا من جانب الله سبحانه، و من المحتمل أن يتعلق بقوله: «بِعَذابٍ».

و المعارج جمع معرج و فسروه بالمصاعد و هى الدرجات و هى مقامات الملكوت التى يعرج إليها الملائكة عند رجوعهم إلى الله سبحانه على ما يفسره قوله بعد: «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِی يَوْمٍ» إلخ فله سبحانه معارج الملكوت و مقاماتها المترتبة علوا و شرفا التى تعرج فيها الملائكة و الروح بحسب قربهم من الله و ليست بمقامات وهمية اعتبارية.

و قيل: المراد بالمعارج الدرجات التى يصعد فيها الاعتقاد الحق و العمل الصالح قال تعالى : «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»: الفاطر ١٠، و قال: «وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ»: الحج: ٣٧.

و قيل: المراد به مقامات القرب التى يعرج إليها المؤمنون بالإيمان و العمل الصالح قال تعالى: «هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بما يَعْمَلُونَ»: آل عمران: ١٦٣ و قال: «لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ »: الأنفال: ۴ و قال: «رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ»: المؤمن: ١۵.

و الحق أن مآل الوجهين إلى الوجه الأول، و الدرجات المذكورة حقيقية ليست بالوهمية الاعتبارية.

قوله تعالى: «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِی يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » المراد بهذا اليوم يوم القيامة على ما يفيده سياق الآيات التالية.

و المراد بكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة على ما ذكروا أنه بحيث لو وقع فى الدنيا و انطبق على الزمان الجارى فيها كان مقداره من الزمان خمسين ألف سنة من سنى الدنيا

ص:8

و المراد بعروج الملائكة و الروح إليه يومئذ رجوعهم إليه تعالى عند رجوع الكل إليه فإن يوم القيامة يوم بروز سقوط الوسائط و تقطع الأسباب و ارتفاع الروابط بينها و بين مسبباتها و الملائكة وسائط موكلة على أمور العالم و حوادث الكون فإذا تقطعت الأسباب عن مسبباتها و زيل الله بينهم و رجع الكل إلى الله عز اسمه رجعوا إليه و عرجوا معارجهم فحفوا من حول عرش ربهم و صفوا قال تعالى : «وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ »: الزمر- ٧۵، و قال : «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا »: النبأ: ٣٨.

و الظاهر أن المراد بالروح الروح الذى هو من أمره تعالى كما قال: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی»: إسراء: ۸۵ و هو غير الملائكة كما هو ظاهر قوله تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ»: النحل: ۲.

فلا يعبأ بما قيل: إن المراد بالروح جبرئيل و إن أطلق عليه الروح الأمين و روح القدس فى قوله : «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِکَ»: الشعراء: ۱۹۴ و قوله: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ»: النحل: ۱۰۳ فإن المقيد غير المطلق.

قوله تعالى: «فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا» لما كان سؤال السائل للعذاب عن تعنت و استكبار و هو مما يشق تحمله أمر نبيه ص بالصبر و وصفه بالجميل- و الجميل من الصبر ما ليس فيه شائبة الجزع و الشكوى، و علله بأن اليوم بما فيه من العذاب قريب.

قوله تعالى: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً» ضميرا «يَرَوْنَهُ» و «نَراهُ» للعذاب أو ليوم القيامة بما فيه من العذاب الواقع و يؤيد الأول قوله فيما بعد: «يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ» إلخ.

و المراد بالرؤية الاعتقاد بنوع من العناية المجازية و رؤيتهم ذلك بعيدا ظنهم أنه بعيد من الإمكان فإن سؤال العذاب من الله سبحانه استكبارا عن دينه و ردا لحكمه لا يجامع الإيمان بالمعاد و إن تفوه به السائل، و رؤيته تعالى ذلك قريبا علمه بتحققه و كل ما هو آت قريب.

و فى الآيتين تعليل أمره (ص) بالصبر الجميل فإن تحمل الأذى و الصبر على المكاره يهون على الإنسان إذا استيقن أن الفرج قريب و تذكر ذلك فالكلام فى معنى قولنا فاصبر على تعنتهم و استكبارهم فى سؤالهم العذاب صبرا جميلا لا يشوبه جزع و شكوى فأنا نعلم أن

العذاب قريب على خلاف ما يستبعدونه، و علمنا لا يتخلف عن الواقع بل هو نفس الواقع.

قوله تعالى: «يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ» المهل المذاب من المعدنيات كالنحاس و الذهب و غيرهما، و قيل: دردى الزيت، و قيل: عكر القطران «۱».

و الظرف متعلق بقوله: «واقِعٍ» على ما يفيده السياق.

قوله تعالى: «وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ » العهن مطلق الصوف، و لعل المراد المنفوش منه كما فى قوله تعالى : «وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ»: القارعة: ۵.

و قيل: هو الصوف الأحمر، و قيل: المصبوغ ألوانا لأن الجبال ذات ألوان مختلفة فمنها جدد بيض و حمر و غرابيب سود «۲».

قوله تعالى: «وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً» الحميم القريب الذى تهتم بأمره و تشفق عليه.

إشارة إلى شدة اليوم فالإنسان يومئذ تشغله نفسه عن غيره حتى أن الحميم لا يسأل حميمه عن حاله لاشتغاله بنفسه.

قوله تعالى: «يُبَصَّرُونَهُمْ» الضميران للأحماء المعلوم من السياق و التبصير الإراءة و الإيضاح أي يرى و يوضح الأحماء للأحماء فلا يسألونهم عن حالهم اشتغالا بأنفسهم.

و الجملة مستأنفة في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قيل : لا يسأل حميم حميما سئل فقيل : هل يرى الأحماء يومئذ أحماءهم؟ فأجيب: يبصرونهم و يمكن أن يكون «يُبَصَّرُونَهُمْ» صفة «حَمِيماً».

و من ردىء التفسير قول بعضهم : إن معنى قوله : «يُبَصَّرُونَهُمْ» يبصر الملائكة الكفار، و ما قيل : إن المعنى يبصر المؤمنون أعداءهم من الكفار و ما هم فيه من العذاب فيشمتون بهم، و ما قيل : إن المعنى يبصر اتباع الضلالة رؤساءهم . و هي جميعا وجوه لا دليل عليها.

قوله تعالى: «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ» قال في المجمع،: المودة مشتركة بين التمني و بين المحبة يقال : وددت الشيء أي تمنيته و وددته أي أحببته أود فيهما جميعا. انتهى، و يمكن أن يكون استعماله بمعنى التمني من باب التضمين.

---

(١) أي ردية و خبيثه

(٢) كما في الآية من سورة فاطر

و قال: و الافتداء الضرر عن الشيء ببدل منه انتهى، و قال: الفصيلة الجماعة المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى أبوة خاصة عن أبوة عامة. انتهى، و ذكر بعضهم أن الفصيلة عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم كالآباء الأدنين.

و سياق هذه الآيات سياق الإضراب و الترقي بالنسبة إلى قوله : «وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً » فيفيد أن المجرم يبلغ به شدة العذاب إلى أن يتمنى أن يفتدي من العذاب بأحب أقاربه و أكرمهم عليه بنيه و صاحبته و أخيه و فصيلته و جميع من في الأرض ثم ينجيه الافتداء فيود ذلك فضلا عن عدم سؤاله عن حال حميمه.

و المعنى «يَوَدُّ» و يتمنى «الْمُجْرِمُ» و هو المتلبس بالأجرام أعم من الكافر «لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ» و هذا هو الذي يتمناه، و الجملة قائمة مقام مفعول يود. «بِبَنِيهِ» الذين هم أحب الناس عنده «وَ صاحِبَتِهِ» التي كانت سكنا له و كان يحبها و ربما قدمها على أبويه «وَ أَخِيهِ» الذي كان شقيقه و ناصره «وَ فَصِيلَتِهِ» من عشيرته الأقربين «الَّتِي تُؤْوِيهِ» و تضمه إليها «وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» من أولي العقل «ثُمَّ يُنْجِيهِ» هذا الافتداء.

قوله تعالی: «كَلَّا إِنَّها لَظى‏ نَزَّاعَةً لِلشَّوى‏ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى وَ جَمَعَ فَأَوْعى‏ » کلا للردع، و ضمیر «إِنَّها» لجهنم أو للنار و سمیت لظی لکونها تتلظی و تشتعل، و النزاعة اسم مبالغة من النزع بمعنی الاقتلاع، و الشوی الأطراف کالید و الرجل یقال: رماه فأشواه أی أصاب شواه کذا قال الراغب، و إیعاء المال إمساکه فی وعاء.

فقوله: «كَلَّا» ردع لتمنیه النجاة من العذاب بالافتداء و قد علل الردع بقوله : «إِنَّها لَظى‏» إلخ و محصله أن جهنم نار مشتعلة محرقة للأطراف شأنها أنها تطلب المجرمین لتعذبهم فلا تصرف عنهم بافتداء کائنا ما کان.

فقوله: «إِنَّها لَظى‏» أی نار صفتها الاشتعال لا تنعزل عن شأنها و لا تخمد، و قوله:

«نَزَّاعَةً لِلشَّوى‏» أی صفتها إحراق الأطراف و اقتلاعها لا یبطل ما لها من الأثر فیمن تعذبه.

و قوله: «تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى وَ جَمَعَ فَأَوْعى‏ » أی تطلب من أدبر عن الدعوة الإلهیة إلی الإیمان بالله و أعرض عن عبادته تعالی و جمع المال فأمسکه فی وعائه و لم ینفق منه للسائل و المحروم.

و هذا المعنی هو المناسب لسیاق الاستثناء الآتی و ذکر الصلاة و الإنفاق فیه.

ص:11

بحث روائی

فی المجمع، حدثنا السید أبو الحمد قال: حدثنا الحاکم أبو القاسم الحسکانی و ساق السند عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه (ع) قال*: لما نصب رسول الله ص علیا و قال : من کنت مولاه فعلی مولاه، طار ذلک فی البلاد- فقدم علی النبی ص النعمان بن الحارث الفهری.

فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله- و أنک رسول الله و أمرتنا بالجهاد- و الحج و الصوم و الصلاة و الزکاة فقبلناها- ثم لم ترض حتی نصبت هذا الغلام- فقلت: من کنت مولاه فعلی مولاه، فهذا شی ء منک أو أمر من عند الله؟ فقال : و الله الذی لا إله إلا هو أن هذا من الله.

فولی النعمان بن الحارث و هو یقول : اللهم إن کان هذا هو الحق من عندک- فأمطر علینا حجارة من السماء- فرماه الله بحجر علی رأسه فقتله- و أنزل الله تعالی: «سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ».

أقول: و هذا المعنی مروی بغیر طریق من طرق الشیعة، و قد رد الحدیث بعضهم بأنه موضوع لکون سورة المعارج مکیة، و قد عرفت الکلام فی مکیة السورة.

و فی الدر المنثور، أخرج الفاریابی و عبد بن حمید و النسائی و ابن أبی حاتم و الحاکم و صححه و ابن مردویه عن ابن عباس"* فی قوله: «سَأَلَ سائِلٌ» قال هو النضر بن الحارث- قال: اللهم إن کان هذا هو الحق من عندک- فأمطر علینا حجارة من السماء.

و فیه، أخرج ابن أبی حاتم عن السدی": فی قوله: «سَأَلَ سائِلٌ» قال. نزلت بمکة فی النضر بن الحارث- و قد قال: «اللَّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ» الآیة- و کان عذابه یوم بدر.

أقول: و هذا المعنی مروی أیضا عن غیر السدی، و فی بعض روایاتهم أن القائل:

اللَّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ الآیة هو الحارث بن علقمة رجل من عبد الدار، و فی بعضها أن سائل العذاب هو أبو جهل بن هشام سأله یوم بدر و لازمه مدنیة السورة و المعتمد علی أی حال نزول السورة بعد قول القائل : اللَّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ الآیة و قد تقدم کلام فی سیاق الآیة.

و فی أمالی الشیخ، بإسناده إلی أبی عبد الله (ع) فی حدیث: ألا فحاسبوا أنفسکم قبل

ص:12

أن تحاسبوا- فإن فی القیامة خمسین موقفا- کل موقف مثل ألف سنة مما تعدون-   ثم تلا هذه الآیة «فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ»:.

أقول: و روی هذا المعنی فی روضة الکافی، عن حفص بن غیاث عنه (ع).

و فی المجمع، روی أبو سعید الخدری قال: قیل لرسول الله ص: ما أطول هذا الیوم- فقال: و الذی نفس محمد بیده- إنه لیخف علی المؤمن- حتی یکون أخف علیه من صلاة مکتوبة یصلیها فی الدنیا:.

أقول: و رواه فی الدر المنثور، عن عدة من الجوامع عن أبی سعید عنه (ص).

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی: «یَوْمَ تَکُونُ السَّماءُ کَالْمُهْلِ» قال: الرصاص الذائب و النحاس کذلک تذوب السماء.

و فیه، فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قوله تعالی: «یُبَصَّرُونَهُمْ» یقول:

یعرفونهم ثم لا یتساءلون.

و فیه،: فی قوله تعالی: «نَزّاعَةً لِلشَّوی» قال: تنزع عینه و تسود وجهه.

و فیه،: فی قوله تعالی: «تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلّی» قال: تجره إلیها.

[سورة المعارج (۷۰): الآيات ۱۹ الى ۳۵]

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (۱۹) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (۲۰) وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (۲۱) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (۲۲) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (۲۳)

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (۲۴) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۲۵) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (۲۶) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۲۷) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (۲۸)

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۲۹) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۳۰) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (۳۱) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (۳۲) وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (۳۳)

وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (۳۴) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (۳۵)

ص:13

بيان

تشير الآيات إلى السبب الأولى الذى يدعو الإنسان إلى رذيلة الإدبار و التولى و الجمع و الإيعاء التى تؤديه إلى دخول النار الخالدة التى هى لظى نزاعة للشوى على ما تذكره الآيات.

و ذلك السبب صفة الهلع التى اقتضت الحكمة الإلهية أن يخلق الإنسان عليها ليهتدى بها إلى ما فيه خيره و سعادته غير أن الإنسان يفسدها على نفسه و يسى ء استعمالها فى سبيل سعادته فتسلك به إلى هلكة دائمة إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فهم فى جنات مكرمون.

قوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً » الهلوع صفة مشتقة من الهلع بفتحتين و هو شدة الحرص، و ذكروا أيضا أن الهلوع تفسره الآيتان بعده فهو الجزوع عند الشر و المنوع عند الخير و هو تفسير سديد و السياق يناسبه.

و ذلك أن الحرص الشديد الذى جبل عليه الإنسان ليس حرصا منه على كل شىء خيرا كان أو شرا أو نافعا أو ضارا بل حرصا على الخير و النافع و لا حرصا على كل خير أو نافع سواء ارتبط به أو لم يرتبط و كان له أو لغيره بل حرصا منه على ما يراه خيرا لنفسه أو نافعا فى سبيل الخير، و لازم هذا الحرص أن يظهر منه التزعزع و الاضطراب عند مس الشر و هو خلاف الخير و أن يمتنع عن ترك الخير عند مسه و يؤثر نفسه على غيره إلا أن يرى الترك أكثر خيرا و أنفع بحاله فالجزع عند مس الشر و المنع عند مس الخير من لوازم الهلع و شدة الحرص.

و ليس الهلع و شدة الحرص المجبول عليه الإنسان- و هو من فروع حب الذات- فى حد نفسه من الرذائل المذمومة كيف؟ و هى الوسيلة الوحيدة التى تدعو الإنسان إلى بلوغ سعادته و كمال وجوده، و إنما تكون رذيلة مذمومة إذا أساء الإنسان فى تدبيرها

ص:14

فاستعملها فيما ينبغى و فيما لا ينبغى و بالحق و بغير حق كسائر الصفات النفسانية التى هى كريمة ما لزمت حد الاعتدال و إذا انحرفت إلى جانب الإفراط أو التفريط عادت رذيلة ذميمة.

فالإنسان فى بدء نشأته و هو طفل يرى ما يراه خيرا لنفسه أو شرا لنفسه بما جهز به من الغرائز العاطفة و هى التى تهواه نفسه و تشتهيه قواه من غير أن يحده بحد أو يقدره بقدر فيجزع إذا مسه ألم أو أى مكروه، و يمنع من يزاحمه فيما أمسك به بكل ما يقدر عليه من بكاء و نحوه.

و هو على هذه الحال حتى إذا رزق العقل و الرشد أدرك الحق و الباطل و الخير و الشر و اعترفت نفسه بما أدرک و حينئذ يتبدل عنده كثير من مصاديق الحق و الباطل و الخير و الشر فعاد كثير مما كان يراه خيرا لنفسه شرا عنده و بالعكس.

فإن أقام على ما كان عليه من اتباع أهواء النفس و العكوف على المشتهيات و اشتغل بها عن اتباع الحق و غفل عنه، طبع على قلبه فلم يواجه حقا إلا دحضه و لا ذا حق إلا اضطهده و إن أدركته العناية الإلهية عاد ما كان عنده من الحرص على ما تهواه النفس حرصا على الحق فلم يستكبر على حق واجهه و لا منع ذا حق حقه.

فالإنسان فى بادئ أمره و هو عهد الصبى قبل البلوغ و الرشد مجهز بالحرص الشديد على الخير و هو صفة كمالية له بحسب حاله بها ينبعث إلى جلب الخير و اتقاء الشر قال تعالى: «وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ»: العاديات: ٨.

ثم إذا رزق البلوغ و الرشد زاد تجهيزا آخر و هو العقل الذى بها يدرک حقائق الأمور على ما هى عليها فيدرک ما هو الاعتقاد الحق و ما هو الخير فى العمل ، و يتبدل حرصه الشديد على الخير و كونه جزوعا عند مس الشر و منوعا عند مس الخير من الحرص الشديد على الخير الواقعى من الفزع و الخوف إذا مسه شر أخروى و هو المعصية و المسابقة إلى مغفرة ربه إذا مسه خير أخروى و هو مواجهة الحسنة، و أما الشر و الخير الدنيويان فإنه لا يتعدى فيهما ما حده الله له من الصبر عند المصيبة و الصبر على الطاعة و الصبر عن المعصية و هذه الصفة صفة كمالية لهذا الإنسان.

و أما إذا أعرض الإنسان عما يدركه عقله و يعترف به فطرته و عكف على اتباع الهوى و اعتنق الباطل و تعدى إلى حق كل ذى حق و لم يقف فى حرصه على الخير على حد

ص:15

فقد بدل نعمة الله نقمة و أخذ صفة غريزية خلقها الله وسيلة له يتوسل بها إلى سعادة الدنيا و الآخرة وسيلة إلى الشقوة و الهلكة تسوقه إلى الإدبار و التولى و الجمع و الإيعاء كما فى الآيات.

و قد بان مما تقدم أنه لا ضير فى نسبة هلع الإنسان فى الآيات إلى الخلقة و الكلام مسوق للذم و قد قال تعالى : «الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ»: السجدة ۷، و ذلک أن ما یلحقه من الذم إنما هو من قبل الإنسان و سوء تدبیره لا من قبله تعالى فهو کسائر نعمه تعالى على الإنسان التى یصیرها نقما بسوء اختیاره.

و ذکر الزمخشرى فرارا من الإشکال أن فى الکلام استعارة، و المعنى أن الإنسان لإیثاره الجزع و المنع و تمکنهما منه کأنه مجبول مطبوع علیهما، و کأنه أمر مخلوق فیه ضرورى غیر اختیارى فالکلام موضوع على التشبیه لا لإفادة کونه مخلوقا لله حقیقة لأن الکلام مسوق للذم و الله سبحانه لا یذم فعل نفسه، و من الدلیل علیه استثناء المؤمنین الذین جاهدوا أنفسهم فنجوا عن الجزع و المنع جمیعا.

و فیه أن الصفة مخلوقة نعمة و فضیلة و الإنسان هو الذى یخرجها من الفضیلة إلى الرذیلة و من النعمة إلى النقمة و الذم راجع إلى الصفة من جهة سوء تدبیره لا من حیث إنها فعله تعالى.

و استثناء المؤمنین لیس لأجل أن الصفة غیر مخلوقة فیهم بل لأجل أنهم أبقوها على کمالها و لم یبدلوها رذیلة و نقمة.

و أجیب أیضا عن الاستثناء بأنه منقطع و هو کما ترى.

قوله تعالى: «إِلَّا الْمُصَلِّینَ» استثناء من الإنسان الموصوف بالهلع، و فى تقدیم الصلاة على سائر الأعمال الصالحة المعدودة فى الآیات التالیة دلالة على شرفها و أنها خیر الأعمال.

على أن لها الأثر البارز فى دفع رذیلة الهلع المذموم و قد قال تعالى: «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ»: العنکبوت ۴۵.

قوله تعالى: «الَّذِینَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ» فى إضافة الصلاة إلى الضمیر دلالة على أنهم مداومون على ما یأتون به من الصلاة کائنة ما کانت لا أنهم دائما فى الصلاة، و فیه إشارة إلى أن العمل إنما یکمل أثره بالمداومة.

قوله تعالى: «وَ الَّذِینَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ» فسره بعضهم بالزکاة المفروضة،

و فى الحدیث عن الصادق (ع): أن الحق المعلوم لیس من الزکاة- و إنما هو مقدار

ص:16

معلوم ینفقونه للفقراء، و السائل هو الفقیر الذى یسأل، و المحروم الفقیر الذى یتعفف و لا یسأل

و السیاق لا یخلو من تأییده فإن للزکاة موارد مسماة فی قوله : «إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساکِینِ وَ الْعامِلِینَ عَلَیْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِی الرِّقابِ وَ الْغارِمِینَ وَ فِی سَبِیلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ فَرِیضَةً مِنَ اللّهِ»: التوبة ۶۰ و لیست مختصة بالسائل و المحروم علی ما هو ظاهر الآیة.

قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ یُصَدِّقُونَ بِیَوْمِ الدِّینِ » الذی یفیده سیاق عد الأعمال الصالحة أن المراد بتصدیقهم یوم الدین التصدیق العملی دون التصدیق الاعتقادی و ذلک بأن تکون سیرتهم فی الحیاة سیرة من یری أن ما یأتی به من عمل سیحاسب علیه فیجازی به إن خیرا فخیرا و إن شرا فشرا.

و فی التعبیر بقوله: «یُصَدِّقُونَ» دلالة علی الاستمرار فهو المراقبة الدائمة بذکره تعالی عند کل عمل یواجهونه فیأتون بما یریده و یترکون ما یکرهه.

قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» أی خائفون، و الکلام فی إشفاقهم من عذاب ربهم نظیر الکلام فی تصدیقهم بیوم الدین فهو الإشفاق العملی الظاهر من حالهم.

و لازم إشفاقهم من عذاب ربهم مع لزومهم الأعمال الصالحة و مجاهدتهم فی الله أن لا یثقوا بما یأتون به من الأعمال الصالحة و لا یأمنوا عذاب الله فإن الأمن لا یجامع الخوف.

و الملاک فی الإشفاق من العذاب أن العذاب علی المخالفة فلا منجی منه إلا بالطاعة من النفس و لا ثقة بالنفس إذ لا قدرة لها فی ذاتها إلا ما أقدرها الله علیه و الله سبحانه مالک غیر مملوک، قال تعالی: «قُلْ فَمَنْ یَمْلِکُ مِنَ اللّهِ شَیْئاً»: المائدة ۱۷.

علی أن الله سبحانه و إن وعد أهل الطاعة النجاة و ذکر أنه لا یخلف المیعاد لکن الوعد لا یقید إطلاق قدرته فهو مع ذلک قادر علی ما یرید و مشیته نافذة فلا أمن بمعنی انتفاء القدرة علی ما یخالف الوعد فالخوف علی حاله و لذلک نری أنه تعالی یقول فی ملائکته: «یَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ یَفْعَلُونَ ما یُؤْمَرُونَ » فیصفهم بالخوف و هو یصرح بعصمتهم، و یقول فی أنبیائه : «وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لا یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللّهَ »: الأحزاب: ۳۹، و یصف المؤمنین فی هذه الآیة بالإشفاق و هو یعدهم فی آخر الآیات بقول جازم فیقول:

«أُولئِکَ فِی جَنّاتٍ مُکْرَمُونَ».

قوله تعالی: «إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَیْرُ مَأْمُونٍ» تعلیل لإشفاقهم من عذاب ربهم فیتبین به أنهم مصیبون فی إشفاقهم من العذاب و قد تقدم وجهه.

ص:17

قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ- إلی قوله- هُمُ العادُونَ» تقدم تفسیر الآیات الثلاث فی أول سورة المؤمنون.

قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ» المتبادر من الأمانات أنواع الأمانة التی یؤتمنون علیها من المال و سائر ما یوصی به من نفس أو عرض و رعایتهم لها أن یحفظوها و لا یخونوها قیل: و لکثرة أنواعها جیء بلفظ الجمع بخلاف العهد.

و قیل: المراد بها جمیع ما کلفهم الله من اعتقاد و عمل فتعم حقوق الله و حقوق الناس فلو ضیعوا شیئا منها فقد خانوه.

و قیل: کل نعمة أعطاها الله عبده من الأعضاء و غیرها أمانة فمن استعمل شیئا منها فی غیر ما أعطاه الله لأجله و أذن له فی استعماله فقد خانه.

و ظاهر العهد عقد الإنسان مع غیره قولا أو فعلا علی أمر و رعایته أن یحفظه و لا ینقضه من غیر مجوز.

و قیل: العهد کل ما التزم به الإنسان لغیره فإیمان العبد لربه عهد منه عاهد به ربه أن یطیعه فی کل ما کلفه به فلو عصاه فی شیء مما أمره به أو نهاه عنه فقد نقض عهده.

قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ » الشهادة معروفة، و القیام بالشهادة عدم الاستنکاف عن تحملها و أد اء ما تحمل منها کما تحمل من غیر کتمان و لا تغییر، و الآیات فی هذا المعنی کثیرة.

قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ هُمْ عَلی صَلاتِهِمْ یُحافِظُونَ» المراد بالمحافظة علی الصلاة رعایة صفات کمالها علی ما ندب إلیه الشرع.

قیل: و المحافظة علی الصلاة غیر الدوام علیها فإن الدوام متعلق بنفس الصلاة و المحافظة بکیفیتها فلا تکرار فی ذکر المحافظة علیها بعد ذکر الدوام علیها.

قوله تعالی: «أُولئِکَ فِی جَنَّاتٍ مُکْرَمُونَ» الإشارة إلی المصلین فی قوله: «إِلَّا الْمُصَلِّینَ» و تنکیر جنات للتفخیم، و «فِی جَنَّاتٍ» خبر و «مُکْرَمُونَ» خبر بعد خبر أو ظرف لقوله: «مُکْرَمُونَ».

ص:18

بحث روائی

فی تفسیر القمی،": «إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً» قال: الشر هو الفقر و الفاقة «وَ إِذا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً» قال: الغنی و السعة.

و فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع) قال*: ثم استثنی فقال «إِلَّا الْمُصَلِّینَ» فوصفهم بأحسن أعمالهم «الَّذِینَ هُمْ عَلی صَلاتِهِمْ دائِمُونَ» یقول: إذا فرض علی نفسه شیئا من النوافل دام علیه.

أقول: قوله: إذا فرض علی نفسه «إلخ» استفاد (ع) هذا المعنی من إضافة الصلاة إلی ضمیر «هُمْ» و قد أشرنا إلیه فیما مر.

و فى الكافى، بإسناده إلى الفضيل بن يسار قال : سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله عز و جل : «وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ» قال: هى الفريضة. قلت: «الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ» قال: هى النافلة.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ»: و

روى عن أبى عبد الله (ع) أنه قال: الحق المعلوم ليس من الزكاة- و هو الشىء الذى تخرجه من مالک- إن شئت كل جمعة و إن شئت كل يوم، و لكل ذى فضل فضله.

قال: و روى عنه أيضا أنه قال: هو أن تصل القرابة و تعطى من حرمک و تصدق على من عاداک.

أقول: و روى هذا المعنى فى الكافى، عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع) بعدة طرق و رواه فى المحاسن عن أبى جعفر (ع).

و فى الكافى، بإسناده عن صفوان الجمال عن أبى عبد الله (ع)* فى قول الله عز و جل «لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ» قال: المحروم المحارف- الذى قد حرم كد يمينه فى الشراء و البيع.

قال: و فى رواية أخرى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع) أنهما قالا*: المحروم الرجل الذى ليس بعقله بأس- و لم يبسط له فى الرزق و هو محارف.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ»:

روى محمد بن الفضيل

ص:19

عن أبى الحسن (ع) أنه قال*: أولئک أصحاب الخمسين صلاة من شيعتنا.

أقول: و لعله مبنى على ما ورد عنهم ((ع)) أن تشريع النوافل اليومية لتتميم الفرائض.

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٣۶ الى ۴۴]

فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَکَ مُهْطِعِينَ (٣۶) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (٣٧) أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (۴٠)

عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۴١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (۴٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (۴٣) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِکَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (۴۴)

بيان

لما ذكر سبحانه فى الفصل الأول من آيات السورة فى ذيل ما حكى من سؤالهم العذاب أن لهم عذابا واقعا ليس له دافع و هو النار المتلظية النزاعة للشوى التى تدعو من أدبر و تولى و جمع فأوعى.

ثم بين فى الفصل الثانى منها الملاک فى ابتلائهم بهذه الشقوة و هو أن الإنسان مجهز بغريزة الهلع و حب خير نفسه و يؤديه اتباع الهوى فى استعمالها إلى الاستکبار على کل حق يواجهه فيورده ذلک النار الخالدة، و لا ينجو من ذلک إلا الصالحون عملا المصدقون ليوم الدين المشفقون من عذاب ربهم.

انعطف فى هذا الفصل من الآيات- و هو الفصل الثالث- على أولئک الکفار کالمتعجب

ص:20

من أمرهم حيث يجتمعون على النبى ص : مهطعين عن اليمين و عن الشمال عزين مقبلين عليه بأبصارهم لا يفارقونه فخاطبه (ص): ما بالهم يحيطون بک مهطعين عليک يلازمونک؟

هل يريد کل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم و هو کافر و قد قدر الله سبحانه أن لا يکرم بجنته إلا من استثناه من المؤمنين فهل يريدون أن يسبقوا الله و يعجزوه بنقض ما حکم به و إبطال ما قدره کلا إن الله الذى خلقهم من نطفة مهينة قادر أن يبدلهم خيرا منهم و يخلق مما خلقهم منه، غيرهم ممن يعبده و يدخل جنته.

ثم أمر النبى ص أن يقطع خصامهم و يذرهم يخوضوا و يلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون.

قوله تعالى: «فَما لِ الَّذِينَ کَفَرُوا قِبَلَکَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ » قال فى المجمع،: قال الزجاج: المهطع المقبل ببصره على الشى ء لا يزايله و ذلک من نظر العدو، و قال أبو عبيدة الإهطاع الإسراع، و عزين جماعات فى تفرقة، واحدتهم عزة. انتهى، و قبل الشىء بالکسر فالفتح الجهة التى تليه و الفاء فى «فما» فصيحة.

و المعنى: إذا کان الإنسان بکفره و استکباره على الحق مصيره إلى النار إلا من استثنى من المؤمنين فما للذين کفروا عندک مقبلين عليک لا يرفعون عنک أبصارهم و هم جماعات متفرقة عن يمينک و شمالک أ يطمعون أن يدخلوا الجنة فيعجزوا الله و يسبقوه فيما قضى به أن لا يدخل الجنة إلا الصلحاء من المؤمنين.

قوله تعالى: «أَ يَطْمَعُ کُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ »، الاستفهام للإنکار أى- ما هو الذى يحملهم على أن يحتفوا بک و يهطعوا عليک؟- هل يحملهم على ذلک طمع کل منهم أن يدخل جنة نعيم و هو کافر فلا مطمع للکافر فى دخول الجنة.

و نسب الطمع إلى كل امرئ منهم و لم ينسب إلى جماعتهم بأن يقال : أ يطمعون أن يدخلوا «إلخ» كما نسب الإهطاع إلى جماعتهم فقيل: مهطعين لأن النافع من الطمع فى السعادة و الفلاح هو الطمع القائم بنفس الفرد الباعث له إلى الإيمان و العمل الصالح دون القائم بالجماعة بما أنها جماعة فطمع المجموع من حيث إنه مجموع لا يكفى فى سعادة كل واحد واحد.

و فى قوله: «أَنْ يُدْخَلَ» مجهولا من باب الإفعال إشارة إلى أن دخولهم فى الجنة ليس منوطا باختيارهم و مشيتهم بل لو كان فإنما هو إلى الله سبحانه فهو الذى يدخلهم الجنة

إن شاء و لن يدخل بما قدر أن لا يدخلها كافر.

قيل: إن النبى ص كان يصلى عند الكعبة و يقرأ القرآن فكان المشركون يجتمعون حوله حلقا حلقا و فرقا يستمعون و يستهزءون بكلامه، و يقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ص فلندخلها قبلهم فنزلت الآيات.

و هذا القول لا يلائمه سياق الآيات الظاهر فى تفرع صنعهم ذلک على ما مر من حرمان الناس من دخول الجنة إلا من استثنى من المؤمنين إذ من الضرورى على هذا أن اجتماعهم حوله (ص) و إهطاعهم عليه إنما حملهم عليه إفراطهم فى عداوته و مبالغتهم فى إيذائه و إهانته، و أن قولهم : سندخل الجنة قبل المؤمنين- و هم مشركون مصرون على إنكار المعاد غير معترفين بنار و لا جنة- إنما كان استهزاء و تهكما.

فلا مساغ لتفريع عملهم ذاک على ما تقدم من حديث النار و الجنة و السؤال- فى سياق التعجيب- عن السبب الحامل لهم عليه ثم استفهام طمعهم فى دخول الجنة و إنكاره عليهم.

فبما تقدم يتأيد أن يكون المراد بالذين كفروا فى قوله : «فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا» قوما من المنافقين آمنوا به (ص) ظاهرا و لازموه ثم كفروا برد بعض ما نزل عليه كما يشير إليه أمثال قوله تعالى : «ذلِکَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ»: المنافقون ٣، و قوله:

«لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ»: التوبة ۶۶، و قوله: «فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ»: التوبة ٧٧.

فهؤلاء قوم كانوا قد آمنوا و دخلوا فى جماعة المؤمنين و لازموا النبى ص مهطعين عليه عن اليمين و عن الشمال عزين ثم كفروا ببعض ما نزل إليه لا يبالون به فقرعهم الله سبحانه فى هذه الآيات أنهم لا ينتفعون بملازمته و لا لهم أن يطمعوا فى دخول الجنة فليسوا ممن يدخلها و ليسوا بسابقين و لا معجزين.

و يؤيده قوله الآتى: «إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ» إلخ على ما سنشير إليه.

قوله تعالى: «كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ» ردع لهم عن الطمع فى دخول الجنة مع كفرهم.

و قوله: «إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ» المراد بما يعلمون النطفة فإن الإنسان مخلوق منها.

و الكلام مرتبط بما بعده و المجموع تعليل للردع، و محصل التعليل أنا خلقناهم من النطفة

ص:22

- و هم يعلمون به- فلنا أن نذهب بهم و نخلق مكانهم قوما آخرين يكونون خيرا منهم مؤمنين غير رادين لشيء من دين الله، و لسنا بمسبوقين حتى يعجزنا هؤلاء الكفار و يسبقونا فندخلهم الجنة و ينتقض به ما قدرنا أن لا يدخل الجنة كافر.

و قيل: «من» فی قوله: «مِمَّا يَعْلَمُونَ» تفيد معنى لام التعليل، و المعنى أنا خلقناهم لأجل ما يعلمون و هو الاستكمال بالإيمان و الطاعة فمن الواجب أن يتلبسوا بذلک حتى ندخلهم الجنة فكيف يطمعون فی دخولها و هم كفار؟ و إنما علموا بذلک من طريق إخبار النبی ص.

و قيل: «من» لابتداء الغاية، و المعنى : أنا خلقناهم من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس و الطهارة حتى تتطهر بالإيمان و الطاعة و تتخلق بأخلاق الملائكة فتدخل و أنى لهم ذلک و هم كفار.

و قيل: المراد بما فی «مِمَّا يَعْلَمُونَ» الجنس، و المعنى أنا خلقناهم من جنس الآدميين الذين يعلمون أو من الخلق الذين يعلمون لا من جنس الحيوانات التی لا تعقل و لا تفقه فالحجة لازمة لهم تامة عليهم، و الوجوه الثلاثة سخيفة.

قوله تعالى: «فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » المراد بالمشارق و المغارب مشارق الشمس و مغاربها فإن لها فی كل يوم من أيام السنة الشمسية مشرقا و مغربا لا يعود إليهما إلى مثل اليوم من السنة القابلة، و من المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم و مغاربها.

و فی الآية على قصرها وجوه من الالتفات ففی قوله : «فَلا أُقْسِمُ» التفات من التكلم مع الغير فی «إِنَّا خَلَقْناهُمْ» إلى التكلم وحده، و الوجه فيه تأكيد القسم بإسناده إلى الله تعالى نفسه.

و فی قوله: «بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ» التفات من التكلم وحده إلى الغيبة، و الوجه فيه الإشارة إلى صفة من صفاته تعالى هی المبدأ فی خلق الناس جيلا بعد جيل و هی ربوبيته للمشارق و المغارب فإن الشروق بعد الشروق و الغروب بعد الغروب الملازم لمرور الزمان دخلا تاما فی تكون الإنسان جيلا بعد جيل و سائر الحوادث الأرضية المقارنة له.

و فی قوله: «إِنَّا لَقادِرُونَ» التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير، و الوجه فيه الإشارة

ص:23

إلى العظمة المناسبة لذكر القدرة، و فى ذكر ربوبيته للمشارق و المغارب إشارة إلى تعليل القدرة فإن الذى ينتهى إليه تدبير الحوادث فى تكونها لا يعجزه شىء من الحوادث التى هى أفعاله عن شىء منها و لا يمنعه شىء من خلقه من أن يبدله خيرا منه و إلا شاركه المانع فى أمر التدبير و الله سبحانه واحد لا شريك له فى ربوبيته فافهم ذلك.

و قوله: «إِنّٰا لَقٰادِرُونَ عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ» «عَلىٰ» متعلق بقوله: «لَقٰادِرُونَ» و المفعول الأول لنبدل ضمير محذوف راجع إليهم و إنما حذف للإشارة إلى هوان أمرهم و عدم الاهتمام بهم، و «خَيْراً» مفعوله الثانى و هو صفة أقيمت مقام موصوفها، و التقدير إنا لقادرون على أن نبدلهم قوما خيرا منهم، و خيريتهم منهم أن يؤمنوا بالله و لا يكفروا به و يتبعوا الحق و لا يردوه.

و قوله: «وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» المراد بالسبق الغلبة على سبيل الاستعارة، و كونه تعالى مسبوقا هو أن يمنعه خلقهم أن يذهب بهم و يأتى بدلهم بقوم خير منهم.

و سياق الآية لا يخلو من تأييد ما لما تقدم من كون المراد بالذين كفروا قوما من المنافقين دون المشركين المعاندين للدين النافين لأصل المعاد فإن ظاهر قوله: «خَيْراً مِنْهُمْ» لا يخلو من دلالة أو إشعار بأن فيهم شائبة خيرية و لله أن يبدل خيرا منهم، و المشركون لا خير فيهم لكن هذه الطائفة من المنافقين لا يخ لو تحفظهم على ظواهر الدين مما آمنوا به و لم يردوه من خير للإسلام.

فقد بان بما تقدم أن قوله: «إِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ مِمّٰا يَعْلَمُونَ» إلى آخر الآيات الثلاث تعليل للردع بقوله: «كَلاّٰ»، و أن محصل مضمون الآيات الثلاث أنهم مخلوقون من نطفة- و هم يعلمون ذلك- و هى خلقة جارية و الله الذى هو رب الحوادث الجارية التى منها خلق الإنسان جيلا بعد جيل و المدبر لها قادر أن يذهب بهم و يبدلهم خيرا منهم يعتنون بأمر الدين و يستأهلون لدخول الجنة، و لا يمنعه خلق هؤلاء أن يبدلهم خيرا منهم و يدخلهم الجنة بكمال إيمانهم من غير أن يض طر إلى إدخال هؤلاء الجنة فلا ينتقض تقديره أن الجنة للصالحين من أهل الإيمان.

قوله تعالى: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّٰى يُلاٰقُوا يَوْمَهُمُ اَلَّذِي يُوعَدُونَ» أمر للنبى ص أن يتركهم و ما هم فيه، و لا يلح عليهم بحجاج و لا يتعب نفسه فيهم بعظة، و قد سمى ما هم عليه بالخوض و اللعب دلالة على أنهم لا ينتفعون به انتفاعا حقيقيا على ما لهم

ص:24

فيه من الإمعان و الإصرار كاللعب الذى لا نفع فيه وراء الخيال فليتركوا حتى يلاقوا اليوم الذى يوعدون و هو يوم القيامة.

و فى إضافة اليوم إليهم إشارة إلى نوع اختصاص له بهم و هو الاختصاص بعذابهم.

قوله تعالى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ اَلْأَجْدٰاثِ سِرٰاعاً كَأَنَّهُمْ إِلىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ» بيان ليومهم الذى يوعدون و هو يوم القيامة.

و الأجداث جمع جدث و هو القبر، و سراعا جمع سريع، و النصب ما ينصب علامة فی الطريق يقصده السائرون للاهتداء به، و قيل: هو الصنم المنصوب للعبادة و هو بعيد من كلامه تعالى، و الإيفاض الإسراع و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِی کانُوا يُوعَدُونَ» الخشوع تأثر خاص فی القلب عن مشاهدة العظمة و الكبرياء، و يناظره الخضوع فی الجوارح، و نسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور آثاره فيها، و الرهق غشيان الشیء بقهر.

و قوله: «ذلِکَ الْيَوْمُ الَّذِی کانُوا يُوعَدُونَ» الإشارة إلى ما مر من أوصافه من الخروج من الأجداث سراعا و خشوع الأبصار و رهق الذلة.

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد عن عبادة بن أنس قال *: دخل رسول الله ص المسجد فقال : ما لی أراكم عزين حلقا حلق الجاهلية قعد رجل خلف أخيه.

أقول:

و رواه عن ابن مردويه عن أبی هريرة و لفظه: خرج رسول الله ص و أصحابه جلوس حلقا حلقا- فقال: ما لی أراكم عزين

، و روى هذا المعنى أيضا عن جابر بن سمرة.

و فی تفسير القمی، ": و قوله: «کَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ » قال: من نطفة ثم علقة، و قوله : «فَلا أُقْسِمُ» أی أقسم «بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ» قال: مشارق الشتاء و مشارق الصيف- و مغارب الشتاء و مغارب الصيف.

و فی المعانی، بإسناده إلى عبد الله بن أبی حماد رفعه إلى أمير المؤمنين (ع) قال: لها ثلاثمائة و ستون مشرقا و ثلاثمائة و ستون مغربا- فيومها الذی تشرق فيه لا تعود فيه إلا من قابل.

و فی تفسير القمی، ": و قوله: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً» قال: من القبر «کَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» قال: إلى الداعی ينادون، و قوله: «تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ» قال: تصيبهم ذلة.

ص:25

(۷۱) سورة نوح مكية و هی ثمان و عشرون آية (۲۸)

[سورة نوح (۷۱): الآيات ۱ الى ۲۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱) قالَ يا قَوْمِ إِنِّی لَکُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (۳) يَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ يُؤَخِّرْکُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴)

قالَ رَبِّ إِنِّی دَعَوْتُ قَوْمِی لَيْلاً وَ نَهاراً (۵) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِی إِلاَّ فِراراً (۶) وَ إِنِّی کُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَکْبَرُوا اسْتِکْباراً (۷) ثُمَّ إِنِّی دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (۸) ثُمَّ إِنِّی أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (۹)

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کانَ غَفَّاراً (۱۰) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْکُمْ مِدْراراً (۱۱) وَ يُمْدِدْکُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَکُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَکُمْ أَنْهاراً (۱۲) ما لَکُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (۱۳) وَ قَدْ خَلَقَکُمْ أَطْواراً (۱۴)

أَ لَمْ تَرَوْا کَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (۱۵) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (۱۶) وَ اللَّهُ أَنْبَتَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (۱۷) ثُمَّ يُعِيدُکُمْ فِيها وَ يُخْرِجُکُمْ إِخْراجاً (۱۸) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (۱۹)

لِتَسْلُکُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (۲۰) قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (۲۱) وَ مَکَرُوا مَکْراً کُبَّاراً (۲۲) وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً (۲۳) وَ قَدْ أَضَلُّوا کَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (۲۴)

بيان

تشير السورة إلى رسالة نوح (ع) إلى قومه و إجمال دعوته و عدم استجابتهم له ثم شكواه إلى ربه منهم و دعائه عليهم و استغفاره لنفسه و لوالديه و لمن دخل بيته مؤمنا و للمؤمنين و المؤمنات ثم حلول العذاب بهم و إهلاكهم بالإغراق و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» «أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَکَ» إلخ، تفسير لرسالته أي أوحينا إليه أن أنذر «إلخ».

و في الكلام دلالة على أن قومه كانوا عرضة للعذاب بشركهم و معاصيهم كما يدل عليه ما حكى من قوله (ع) في الآية التالية: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ» و ذلك أن الإنذار تخويف و التخويف إنما يكون من خطر محتمل لا دافع له لو لا التحذر، و قد أفاد قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» إنه متوجه إليهم غير تاركهم لو لا تحذرهم منه.

قوله تعالى: «قالَ يا قَوْمِ إِنِّی لَکُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ» بيان لتبليغه رسالته إجمالا بقوله: «إِنِّی لَکُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» و تفصيلا بقوله: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ» إلخ.

و فی إضافته الیوم إلی نفسه إظهار إشفاق و رحمة أی أنکم قومی یجمعکم و إیای مجتمعنا القومی تسوؤنی ما أساءکم فلست أرید إلا ما فیه خیرکم و سعادتکم إنی لکم نذیر إلخ.

و فی قوله: «أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ» دعوتهم إلی توحیده تعالی فی عبادته فإن القوم کانوا وثنیین یعبدون الأصنام، و الوثنیة لا تجوز عبادة الله سبحانه لا وحده و لا مع غیره، و إنما یعبدون أرباب الأصنام بعبادة الأصنام لیکونوا شفعاء لهم عند الله، و لو جوزوا

ص:27

عبادته تعالی لعبدوه وحده فدعوتهم إلی عبادة الله دعوة لهم إلی توحیده فی العبادة.

و فی قوله: «وَ اتَّقُوهُ» دعوتهم إلی اجتناب معاصیه من کبائر الإثم و صغائره و هی الشرک فما دونه، و فعل الأعمال الصالحة التی فی ترکها معصیة.

و فی قوله: «وَ أَطِیعُونِ» دعوة لهم إلی طاعة نفسه المستلزم لتصدیق رسالته و أخذ معالم دینهم مما یعبد به الله سبحانه و یستن به فی الحیاة منه (ع) ففی قوله: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِیعُونِ» ندب إلی أصول الدین الثلاثة: التوحید المشار إلیه بقوله:

«اعْبُدُوا اللَّهَ» و المعاد الذی هو أساس التقوی «۱» و التصدیق بالنبوة المشار إلیه بالدعوة إلی الطاعة المطلقة.

قوله تعالی: «یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ» مجزوم فی جواب الأمر و کلمة «مِنْ» للتبعیض علی ما هو المتبادر من السیاق، و المعنی أن تعبدوه و تتقوه و تطیعونی یغفر لکم بعض ذنوبکم و هی الذنوب التی قبل الإیمان: الشرک فما دونه، و أما الذنوب التی لم تقترف بعد مما سیستقبل فلا معنی لمغفرتها قبل تحققها، و لا معنی أیضا للوعد بمغفرتها إن تحققت فی المستقبل أو کلما تحققت لاستلزام ذلک إلغاء التکالیف الدینیة بإلغاء المجازاة علی مخالفتها.

و یؤید ذلک ظاهر قوله تعالی: «یا قَوْمَنا أَجِیبُوا داعِیَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ»: الأحقاف ۳۱، و قوله: «یَدْعُوکُمْ لِیَغْفِرَ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ»: إبراهیم ۱۰ و قوله: «قُلْ لِلَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ یَنْتَهُوا یُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ»: الأنفال ۳۸.

و أما قوله تعالی یخاطب المؤمنین من هذه الأمة: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلی تِجارَةٍ تُنْجِیکُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ یُدْخِلْکُمْ جَنَّاتٍ» الصف ۱۲ فهو و إن کان ظاهرا فی مغفرة جمیع الذنوب لکن رتبت المغفرة فیه علی استمرار الإیمان و العمل الصالح و إدامتهما ما دامت الحیاة فلا مغفرة فیه متعلقة بما لم یتحقق بعد من المعاصی و الذنوب المستقبلة و لا وعد بمغفرتها کلما تحققت.

و قد مال بعضهم اعتمادا علی عموم المغفرة فی آیة الصف إلی القول بأن المغفور بسبب الإیمان فی هذه الأمة جمیع الذنوب و فی سائر الأمم بعضها کما هو ظاهر قول نوح لأمته:

(۱) إذ لو لا المعاد بما فيه من الحساب و الجزاء لم يكن للتقوى الدينى وجه، منه.

ص:28

«يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » و قول الرسل : كما فى سورة إبراهيم «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » و قول الجن كما فى سورة الأحقاف لقومهم: «يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ».

و فيه أن آية الصف موردها غير مورد المغفرة بسبب الإيمان فقط كما أشرنا إليه . على أن آية الأنفال صريحة فى مغفرة ما قد سلف، و المخاطب به كفار هذه الأمة.

و ذهب بعضهم إلى كون «مِنْ» فى قوله: «مِنْ ذُنُوبِكُمْ» زائدة، و لم تثبت زيادة «من» فى الإثبات فهو ضعيف و مثله فى الضعف قول من ذهب إلى أن «مِنْ» بيانية، و قول من ذهب إلى أنها لابتداء الغاية.

قوله تعالى: «وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » تعليق تأخيرهم إلى أجل مسمى على عبادة الله و التقوى و طاعة الرسول يدل على أن هناك أجلين أجل مسمى يؤخرهم الله إليه إن أجابوا الدعوة، و أجل غيره يعجل إليهم لو بقوا على الكفر، و إن الأجل المسمى أقصى الأجلين و أبعدهما.

ففى الآية وعدهم بالتأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا و فى قوله : «إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ» تعليل للتأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا فالمراد بأجل الله إذا جاء مطلق الأجل المقضى المتحتم أعم من الأجل المسمى و غير المسمى فلا راد لقضائه تعالى و لا معقب لحكمه.

و المعنى: أن اعبدوا الله و اتقوه و أطيعونى يؤخركم الله إلى أجل مسمى هو أقصى الأجلين فإنكم إن لم تفعلوا ذلک جاءكم الأجل غير المسمى بكفركم و لم تؤخروا فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ففى الكلام مضافا إلى وعد التأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا، تهديد بعذاب معجل إن لم يؤمنوا.

و قد ظهر بما تقدم عدم استقامة تفسير بعضهم لأجل الله بالأجل غير المسمى و أضعف منه تفسيره بالأجل المسمى.

و ذكر بعضهم: أن المراد بأجل الله يوم القيامة و الظاهر أنه يفسر الأجل المسمى أيضا بيوم القيامة فيرجع معنى الآية حينئذ إلى مثل قولنا: إن لم تؤمنوا عجل الله إليكم بعذاب الدنيا و إن آمنتم أخركم إلى يوم القيامة أنه إذا جاء لا يؤخر.

و أنت خبير بأنه لا يلائم التبشير الذى فى قوله: «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ».

ص:29

و قوله: «لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» متعلق بأول الكلام أى لو كنتم تعلمون أن لله أجلين و أن أجله إذا جاء لا يؤخر استجبتم دعوتى و عبدتم الله و اتقيتموه و أطعتمونى هذا فمفعول «تَعْلَمُونَ» محذوف يدل عليه سابق الكلام.

و قيل: إن «تَعْلَمُونَ» منزل منزلة الفعل اللازم، و جواب لو متعلق بأول الكلام، و المعنى: لو كنتم من أهل العلم لاستجبتم دعوتى و آمنتم، أو متعلق بآخر الكلام، و المعنى: لو كنتم من أهل العلم لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

قوله تعالى: «قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً » القائل هو نوح (ع) و الذى دعا إليه هو عبادة الله و تقواه و طاعة رسوله، و الدعاء ليلا و نهارا كناية عن دوامه من غير فتور و لا توان.

و قوله: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً » أى من إجابة دعوتى فالمراد بالفرار التمرد و التأبى عن القبول استعارة، و إسناد زيادة الفرار إلى دعائه لما فيه من شائبة السببية لأن الخير إذا وقع فى محل غير صالح قاومه المحل بما فيه من الفساد فأفسده فانقلب شرا، و قد قال تعالى فى صفة القرآن : «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً »: إسراء ٨٢.

قوله تعالى: «وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ » إلخ ذكر مغفرته تعالى غاية لدعوته و الأصل (دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم)» لأن الغرض الإشارة إلى أنه كان ناصحا لهم فى دعوته و لم يرد إلا ما فيه خير دنياهم و عقباهم.

و قوله: «جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ» كناية عن استنكافهم عن الاستماع إلى دعوته، و قوله : «وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ» أى غطوا بها رءوسهم و وجوههم لئلا يرونى و لا يسمعوا كلامى و هو كناية عن الترفر و عدم الاستماع إلى قوله.

و قوله: «وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً» أى و ألحوا على الامتناع من الاستماع و استكبروا عن قبول دعوتى استكبارا عجيبا.

قوله تعالى: «ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً» «ثُمَ» للتراخى بحسب رتبة الكلام و الجهار النداء بأعلى الصوت.

قوله تعالى: «ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً» الإعلان و الإسرار متقابلان

ص:30

و هما الإظهار و الإخفاء، و ظاهر السياق أن مرجع ضمير لهم فى الموضعين واحد فالمعنى دعوتهم سرا و علانية فتارة علانية و تارة سرا سالكا فى دعوتى كل مذهب ممكن و سائرا فى كل مسير مرجو.

قوله تعالى: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً - إلى قوله- أَنْهاراً» علل أمرهم بالاستغفار بقوله: «إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً» دلالة على أنه تعالى كثير المغفرة و هى مضافا إلى كثرتها منه سنة مستمرة له تعالى.

و قوله: «يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً» مجزوم فى جواب الأمر، و المراد بالسماء السحاب، و المدرار كثير الدرور بالأمطار.

و قوله: «وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ » الأمداد إلحاق المدد و هو ما يتقوى به الممد على حاجته، و الأ موال و البنون أقرب الأعضاد الابتدائية التى يستعين بها المجتمع الإنسانى على حوائجه الحيوية.

و قوله: «وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً » هما من قسم الأموال غير أنهما لكونهما من أبسط ضروريات المعاش خصا بالذكر.

و الآيات- كما ترى- تعد النعم الدنيوية و تحكى عنه (ع) أنه يعد قومه توافر النعم و تواترها عليهم أن استغفروا ربهم فلمغفرة الذنوب أثر بالغ فى رفع المصائب و النقمات العامة و انفتاح أبواب النعم من السماء و الأرض أى إن هناك ارتباطا خاصا بين صلاح المجتمع الإنسانى و فساده و بين الأوضاع العامة الكونية المربوطة بالحياة الإنسانية و طيب عيشه و نكده.

كما يدل عليه قوله تعالى: «ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ » الروم ۴۱، و قوله: «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »: الشورى ۳۰، و قوله: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ » الأعراف ۹۴، و قد تقدم فى تفسير الآيات ما لا يخلو من نفع فى هذا المقام.

قوله تعالى: «ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً » استفهام إنكارى و الوقار- كما فى المجمع،- بمعنى العظمة اسم من التوقير بمعنى التعظيم، و الرجاء مقابل الخوف و هو الظن بما فيه مسرة، و المراد به فى الآية مطلق الاعتقاد على ما قيل، و قيل : المراد به الخوف للملازمة بينهما.

ص:31

و المعنى: أى سبب حصل لكم حال كونكم لا تعتقدون أو لا تخافون لله عظمة توجب أن تعبدوه.

و الحق أن المراد بالرجاء معناه المعروف و هو ما يقابل الخوف و نفيه كناية عن اليأس فكثيرا ما يكنى به عنه يقال : لا أرجو فيه خيرا أى أنا آيس من أن يكون فيه خير، و الوقار الثبوت و الاستقرار و التمكن و هو الأصل فى مع ناه كما صرح به فى المجمع، و وقاره تعالى ثبوته و استقراره فى الربوبية المستتبع لألوهيته و معبوديته.

كان الوثنيين طلبوا ربا له وقار فى الربوبية لعبدوه فيئسوا منه تعالى فعبدوا غيره و هو كذلك فإنهم يرون أنه تعالى لا يحيط به أفهامنا فلا سبيل للتوجه العبادى إليه ، و العبادة أداء لحق الربوبية التى يتفرع عليها تدبير الأمر و تدبير أمور العالم مفوض إلى أصناف الملائكة و الجن فهم أربابنا الذين يجب علينا عبادتهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله، و أما هو تعالى فليس له إلا الإيجاد إيجاد الأرباب و مربوبيهم جميعا دون التدبير.

و الآية أعنى قوله: «ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً » و ما يتلوها إلى تمام سبع آيات مسوقة لإثبات وقاره تعالى فى الربوبية و حجة قاطعة فى نفى ما لفقوه لوجوب عبادة غيره من الملائكة و غيرهم لاستناد تدبير العالم إليهم، و يتبين به إمكان التوجه العبادى إليه تعالى.

و محصل الحجة: ما الذى دعاكم إلى نفى ربوبيته تعالى المستتبع للألوهية و المعبودية و اليأس عن وقاره؟ و أنتم تعلمون أنه تعالى خلقكم و خلق العالم الذى تعيشون فيه طورا من الخلق لا ينفک عن هذا النظام الجارى فيه، و ليس تدبير الكون و من فيه من الإنسان إلا التطورات المخلوقة فى أجزائه و النظام الجارى فيه فكونه تعالى خالقا هو كونه مالكا مدبرا فهو الرب لا رب سواه فيجب أن يتخذ إلها معبودا.

و يتبين به صحة التوجه إليه تعالى بالعبادة فإنا نعرفه بصفاته الكريمة من الخلق و الرزق و الرحمة و سائر صفاته الفعلية فلنا أن نتوجه إليه بما نعرفه من صفاته «۱».

---

(۱) و إنما أخذناه بما نعرفه من صفاته الفعلية لأن من المنسوب إليهم أنهم ينكرون صفاته الذاتية و يفسرونها بسلب النقائص فمعنى كونه حيا قديرا عليما عندهم أنه ليس بميت و لا عاجز و لا جاهل على أن الآيات أيضا تصفه بالصفات الفعلية، منه.

ص:32

قوله تعالى: «وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً» حال من فاعل «لا تَرْجُونَ» و الأطوار جمع طور و هو حد الشىء و حاله التى هو عليها.

و محصل المعنى- لا ترجون لله وقارا فى ربوبية- و الحال أنه أنشأكم طورا بعد طور يستعقب طورا آخر فأنشأ الواحد منكم ترابا ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينا ثم طفلا ثم شابا ثم شيخا و أنشأ جمعكم مختلفة الأفراد فى الذكورة و الأنوثة و الألوان و الهيئات و القوة و الضعف إلى غير ذلک، و هل هذا إلا التدبير فهو مدبر أمركم فهو ربكم.

قوله تعالى: «أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً » مطابقة السماوات السبع بعضها لبعض كون بعضها فوق بعض أو تطابقهن و تماثلهن على الاحتمالين المتقدمين فى تفسير أوائل سورة الملک.

و المراد بالرؤية العلم، و توصيف السماوات السبع- و الكلام مسوق سوق الحجة- يدل على أنهم كانوا يرون كونها سبعا و يسلمون ذلک فاحتج عليهم بالمسلم عندهم.

و كيف كان فوقوع حديث السماوات السبع فى كلام نوح دليل على كونه مأثورا من الأنبياء ((ع)) من أقدم العهود.

قوله تعالى: «وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً » الآيات- كما يشهد به سياقها- مسوقة لبيان وقوع التدبير الإلهى على الإنسان بما يفيض عليه من النعم حتى تثبت ربوبيته فتجب عبادته.

و على هذا فكون الشمس سراجا هو كونها مضيئة لعالمنا و لولاها لانغمرنا فى ظلمة ظلماء، و كون القمر نورا هو كونه منورا لأرضنا بنور مكتسب من الشمس فليس منورا بنفسه حتى يعد سراجا.

و أما أخذ السماوات ظرفا للقمر فی قوله : «وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِیهِنَّ نُوراً » فالمراد به كما قيل كونه فی حيزهن و إن كان فی واحدة منها كما تقول: إن فی هذه الدور لبئرا و إن كانت فی واحدة منها لأن ما كان فی إحداهن كان فيهن و كما تقول: أتيت بنی تميم و إنما أتيت بعضهم.

قوله تعالی: «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» أی أنبتكم إنبات النبات و ذلک أن

الإنسان تنتهی خلقته إلی عناصر أرضية تركبت تركبا خاصا به يغتذی و ينمو و يولد المثل، و هذه حقيقة النبات، فالكلام مسوق سوق الحقيقة من غير تشبيه و استعارة.

قوله تعالی: «ثُمَّ یُعِیدُكُمْ فِیها وَ یُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً » الإعادة فيها بالإماتة و الإقبار، و الإخراج للجزاء يوم القيامة فالآية و التی قبلها قريبتا المعنی من قوله تعالی: «فِیها تَحْیَوْنَ وَ فِیها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ»: الأعراف: ٢٥.

و فی قوله : «وَ یُخْرِجُكُمْ» دون أن يقول : ثم يخرجكم إيماء إلی أن الإعادة و الإخراج كالصنع الواحد و الإعادة مقدمة للإخراج، و الإنسان فی حالتی الإعادة و الإخراج فی دار الحق كما أنه فی الدنيا فی دار الغرور.

قوله تعالی: «وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً» أی كالبساط يسهل لكم التقلب من جانب إلی جانب، و الانتقال من قطر إلی قطر.

قوله تعالی: «لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً » السبل جمع سبيل بمعنی الطريق و الفجاج جمع فج بمعنی الطريق الواسعة، و قيل : الطريق الواقعة بين الجبلين.

قوله تعالی: «قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ یَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَساراً » رجوع منه (ع) إلی شكواه من قومه إلی ربه بعد ما ذكر تفصيل دعوته لهم و ما ألقاه من القول إليهم من قوله: «ثُمَّ إِنِّی دَعَوْتُهُمْ جِهاراً» إلی آخر الآيات.

و شكواه السابق له قوله: «فَلَمْ یَزِدْهُمْ دُعائِی إِلَّا فِراراً» بعد ما أخبر بإجمال دعوته بقوله: «رَبِّ إِنِّی دَعَوْتُ قَوْمِی لَیْلًا وَ نَهاراً».

و فی الآية دلالة علی أن العظماء المترفين من قومه (ع) كانوا يصدون الناس عنه و يحرضونهم علی مخالفته و إيذائه.

و معنی قوله: «لَمْ یَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَساراً»- و قد عد المال و الولد فی سابق كلامه من النعم- أن المال و الولد اللذين هما من نعمک و كان يجب عليهم شكرهما لم يزيداهم إلا كفرا و أورثهم ذلک خسرانا من رحمتک.

قوله تعالی: «وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً» الكبار اسم مبالغة من الكبر.

قوله تعالی: «وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا یَغُوثَ وَ یَعُوقَ وَ نَسْراً » توصية منهم بالتمسک بآلهتهم و عدم ترک عبادتها.

ص:34

و ود و سواع و يغوث و يعوق و نسر خمس من آلهتهم لهم اهتمام تام بعبادتهن و لذا خصوها بالذكر مع الوصية بمطلق الآلهة، و لعل تصدير ود و ذكر سواع و يغوث بلا المؤكدة للنفى لكونها أعظم أمرا عندهم من يعوق و نسر و الله أعلم.

قوله تعالى: «وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاّ ضَلالاً » ضمير «أَضَلُّوا» للرؤساء المتبوعين و يتأيد به أنهم هم المحدث عنهم فى قوله: «وَ مَكَرُوا» «وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ» و قيل: الضمير للأصنام فهم المضلون، و لا يخلو من بعد.

و قوله: «وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاّ ضَلالاً» دعاء من نوح على الظالمين بالضلال و المراد به الضلال مجازاة دون الضلال الابتدائى فهو دعاء منه أن يجازيهم الله بكفرهم و فسقهم مضافا إلى ما سيحكى عنه من دعائه عليهم بالهلاک.

بحث روائى

فى نهج البلاغة،: و قد جعل الله سبحانه الاستغفار سببا لدرور الرزق- و رحمة الخلق فقال سبحانه : «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً- يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ» فرحم الله امرأ استقبل توبته، و استقال خطيئته، و بادر منيته

أقول: و الروايات فى استفادة سببية الاستغفار لسعة الرزق و الأمداد بالأولاد من هذه الآيات كثيرة.

و فى الخصال، عن على (ع) فى حديث الأربعمائة*: أكثر الاستغفار تجلب الرزق.

و فى تفسير القمى، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع)* فى قوله تعالى : «لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقاراً » قال؟ لا تخافون لله عظمة:.

أقول: و قد روى هذا المعنى من طرق أهل السنة عن ابن عباس.

و فيه، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع)* فى قوله تعالى: «سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً» يقول بعضها فوق بعض.

و فيه،: فى قوله تعالى: «رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي- وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّ خَساراً» قال: اتبعوا الأغنياء.

ص:35

و فى الدر المنثور، أخرج البخارى و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال "*: صارت الأصنام و الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد.

أما ود فكانت لكلب فى دومة الجندل، و أما سواع فكانت لهذيل، و أما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف عند سبإ، و أما يعوق فكانت لهمدان، و أما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع.

و كانوا أسماء رجال صالحين من قوم نوح- فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم- أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا- و سموها بأسمائهم ففعلوا- فلم تعبد حتى إذا هلک أولئک و نسخ العلم عبدت.

أقول: لعل المراد بصيرورة تلک الأصنام التى كانت لقوم نوح إلى العرب مطابقة ما عند العرب لما كان عندهم فى الأسماء أو فى الأوصاف و الأسماء، و أما انتقال تلک الأصنام بأشخاصهن إلى العرب فبعيد غايته.

و روى القصة أيضا فى علل الشرائع، بإسناده عن جعفر بن محمد (ع) كما فى الرواية

و فى روضة الكافى، بإسناده عن المفضل عن أبى عبد الله (ع) فى حديث: فعمل نوح سفينته فى مسجد الكوفة بيده- فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها.

قال: فالتفت عن يساره- و أشار بيده إلى موضع دار الداريين- و هو موضع دار ابن حكيم، و ذاک فرات اليوم، فقال لى يا مفضل و هنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث و يعوق و نسر.

[سورة نوح (٧١): الآيات ٢٥ الى ٢٨]

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (٢٥) وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَکَ وَ لا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً (٢٨)

ص:36

بيان

تتضمن الآيات هلاک القوم و تتمة دعاء نوح (ع) عليهم.

قوله تعالى: «مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً» إلخ «مِنْ» لابتداء الغاية تفيد بحسب المورد التعليل و «مِمَّا» زائدة لتأكيد أمر الخطايا و تفخيمه، و الخطيئات المعاصى و الذنوب، و تنكير النار للتفخيم.

و المعنى: من أجل معاصيهم و ذنوبهم أغرقوا بالطوفان فأدخلوا- أدخلهم الله- نارا لا يقدر عذابها بقدر، و من لطيف نظم الآية الجمع بين الإغراق بالماء و إدخال النار.

و المراد بالنار نار البرزخ التى يعذب بها المجرمون بين الموت و البعث دون نار الآخرة، و الآية من أدلة البرزخ إذ ليس المراد أنهم أغرقوا و سيدخلون النار يوم القيامة، و لا يعبأ بما قيل: إن من الجائز أن يراد بها نار الآخرة.

و قوله: «فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً» أى ينصرونهم فى صرف الهلاک و العذاب عنهم. تعريض لأصنامهم و آلهتهم.

قوله تعالی: «وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکافِرِینَ دَیَّاراً » الدیار نازل الدار، و الآیهٔ تتمهٔ دعائه (ع) علیهم، و کلن قوله: «مِمَّا خَطِیئاتِهِمْ أُغْرِقُوا» إلخ معترضا واقعا بین فقرتی الدعاء للإشارهٔ إلی أنهم أهلکوا لما عد نوح من خطیئاتهم و لتکون کالتمهید لسؤاله الهلاک فیتبین أن إغراقهم کان استجابهٔ لدعائه، و أن العذاب استوعبهم عن آخرهم.

قوله تعالی: «إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبادَکَ وَ لا یَلِدُوا إِلَّا فاجِراً کَفَّاراً» تعلیل لسؤال إهلاکهم عن آخرهم مفاده أن لا فائدهٔ فی بقائهم لا لمن دونهم من المؤمنین فإنهم یضلونهم، و لا فیمن یلدونه من الأولاد فإنهم لا یلدون إلا فاجرا کفارا- و الفجور الفسق الشنیع و الکفار المبالغ فی الکفر.

و قد استفاد (ع) ما ذکره من صفتهم من الوحی الإلهی علی ما تقدم فی تفسیر قصهٔ نوح من سورهٔ هود.

قوله تعالی: «رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَیْتِیَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ»

ص:37

«إلخ» المراد بمن دخل بیته مؤمنا المؤمنون به من قومه، و بالمؤمنین و المؤمنات عامتهم إلی یوم القیامهٔ.

و قوله: «وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِینَ إِلَّا تَباراً » التبار الهلاک، و الظاهر أن المراد بالتبار ما یوجب عذاب الآخرهٔ و هو الضلال و هلاک الدنیا بالغرق، و قد تقدما جمیعا فی دعائه، و هذا الدعاء آخر ما نقل من کلامه (ع) فی القرآن الکریم.

(۷۲) سورهٔ الجن مکیهٔ و هی ثمان و عشرون آیهٔ (۲۸)

[سورهٔ الجن (۷۲): الآیات ۱ الی ۱۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

قُلْ أُوحِیَ إِلَیَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (۱) یَهْدِی إِلَی الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِکَ بِرَبِّنا أَحَداً (۲) وَ أَنَّهُ تَعالی جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَهً وَ لا وَلَداً (۳) وَ أَنَّهُ کانَ یَقُولُ سَفِیهُنا عَلَی اللَّهِ شَطَطاً (۴)

وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَی اللَّهِ کَذِباً (۵) وَ أَنَّهُ کانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ یَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (۶) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا کَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ یَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (۷) وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِیداً وَ شُهُباً (۸) وَ أَنَّا کُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ یَسْتَمِعِ الْآنَ یَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (۹)

وَ أَنَّا لا نَدْرِی أَ شَرٌّ أُرِیدَ بِمَنْ فِی الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (۱۰) وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِکَ کُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (۱۱) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِی الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (۱۲) وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدی آمَنَّا بِهِ فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا یَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً (۱۳) وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِکَ تَحَرَّوْا رَشَداً (۱۴)

وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (۱۵) وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (۱۶) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (۱۷)

ص:38

بيان

تشير السورة إلى قصة نفر من الجن استمعوا القرآن فآمنوا به و أقروا بأصول معارفه، و تتخلص منها إلى تسجيل نبوة النبى ص، و الإشارة إلى وحدانيته تعالى فى ربوبيته و إلى المعاد، و السورة مكية بشهادة سياقها.

قوله تعالى: «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ» أمر للنبى ص أن يقص القصة لقومه، و الموحى هو الله سبحانه، و مفعول «اسْتَمَعَ» القرآن حذف لدلالة الكلام عليه، و النفر الجماعة من ثلاثة إلى تسعة على المشهور، و قيل: بل إلى أربعين.

و العجب بفتحتين ما يدعو إلى التعجب منه لخروجه عن العادة الجارية فى مثله، و إنما وصفوا القرآن بال عجب لأنه كلام خارق للعادة فى لفظه و معناه أتى به رجل أمي ما كان يقرأ و لا يكتب.

و الرشد إصابة الواقع و هو خلاف الغي، و هداية القرآن إلى الرشد دعوته إلى عقائد و أعمال تتضمن للمتلبس بها سعادته الواقعية.

و المعنى: يا أيها الرسول قل للناس: أُوحِيَ- أى أوحى الله- إلى أنه استمع القرآن جماعة من الجن فقالوا- لقومهم لما رجعوا إليهم- إنا سمعنا كلاما مقروا خارقا للعادة يهدى إلى معارف من عقائد و أعمال فى التلبس بها إصابة الواقع و الظفر بحقيقة السعادة.

ص:39

كلام فى الجن

الجن نوع من الخلق مستورون من حواسنا يصدق القرآن الكريم بوجودهم و يذكر أنهم بنوعهم مخلوقون قبل نوع الإنسان، و أنهم مخلوقون من النار كما أن الإنسان مخلوق من التراب قال تعالى: «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ»: الحجر ۲۷.

و أنهم يعيشون و يموتون و يبعثون كالإنسان قال تعالى: «أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ»: الأحقاف ۱۸.

و أن فيهم ذكورا و إناثا يتكاثرون بالتوالد و التناسل قال تعالى: «وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ»: الجن ۶.

و أن لهم شعورا و إرادة و أنهم يقدرون على حركات سريعة و أعمال شاقة كما فى قصص سليمان (ع) و تسخير الجن له و قصة ملكة سبإ.

و أنهم مكلفون كالإنسان، منهم مؤمنون و منهم كفار، و منهم صالحون و آخرون طالحون، قال تعالى: «وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»: الذاريات ۵۴ و قال تعالى: «إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ »: الجن: ۲ و قال: «وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ»: الجن ۱۴ و قال: «وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ»: الجن ۱۱ و قال تعالى: «قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ»: الأحقاف ۳۱ إلى غير ذلك من خصوصيات أحوالهم التى تشير إليها الآيات القرآنية.

و يظهر من كلامه تعالى أن إبليس من الجن و أن له ذرية و قبيلا قال تعالى : «كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»: الكهف ۵۰ و قال تعالى: «أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي »: الكهف: ۵۰ و قال تعالى : «إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ » الأعراف ۲۷.

[بيان]

قوله تعالى: «فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً » إخبار عن إيمانهم بالقرآن و تصديقهم بأنه حق، و قوله : «وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً» تأكيد لمعنى إيمانهم به أن إيمانهم بالقرآن إيمان بالله الذى أنزله فهو ربهم، و أن إيمانهم به تعالى إيمان توحيد لا يشركون به أحدا أبدا.

ص:40

قوله تعالى: «وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً» فسر الجد بالعظمة و فسر بالحظ، و الآية فى معنى التأكيد لقولهم : «وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً».

و القراءة المشهورة «أَنَّهُ» بالفتح، و قرئ بالكسر فى هذه الآية و فيما بعدها من الآيات- اثنا عشر موردا- إلى قوله: «وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا» فبالفتح و هو الأرجح لظهور سياق الآيات فى أنها مقولة قول الجن.

و أما قراءة الفتح فوجهها لا يخلو من خفاء، و قد وجهها بعضهم بأن الجملة «وَ أَنَّهُ» «إلخ» معطوفة على الضمير المجرور فى قوله «فَآمَنَّا بِهِ» و التقدير و آمنا بأنه تعالى جد ربنا إلخ فهو إخبار منهم بالإيمان بنفى الصاحبة و الولد منه تعالى على ما يقول به الوثنيون.

و هذا إنما يستقيم على قول الكوفيين من النحاة بجواز العطف على الضمير المتصل المجرور، و أما على قول البصريين منهم من عدم جوازه فقد وجهه بعضهم كما عن الفراء و الزجاج و الزمخشرى بأنها معطوفة على محل الجار و المجرور و هو النصب فإن قوله:

«فَآمَنَّا بِهِ» فى معنى صدقناه، و التقدير و صدقنا أنه تعالى جد ربنا إلخ، و لا يخفى ما فيه من التكلف.

و وجهه بعضهم بتقدير حرف الجر فى الجملة المعطوفة و ذلک مطرد فى أن و أن، و التقدير آمنا به و بأنه تعالى جد ربنا «إلخ».

و يرد على الجميع أعم من العطف على الضمير المجرور أو على محله أو بتقدير حرف الجر أن المعنى إنما يستقيم حينئذ فى قوله: «وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا» إلخ، و قوله: «وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا » إلخ، و أما بقية الآيات المصدرة بأن كقوله: «وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ» إلخ، و قوله: «وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ» إلخ، و قوله: «وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ» فلا يصح قطعا فلا معنى لأن يقال: آمنا أو صدقنا أنا ظننا أن لن تقول الإنس و الجن على الله شططا، أو يقال: آمنا أو صدقنا أنه كان رجال من الإنس يعوذون إلخ، أو يقال: آمنا أو صدقنا أنا لمسنا السماء إلخ.

و لا يندفع الإشكال إلا بالمصير إلى ما ذكره بعضهم أنه إذا وجه الفتح فى الآيتين الأوليين بتقدير الإيمان أو التصديق فليوجه فى كل من الآيات الباقية بما يناسبها من التقدير.

و وجه بعضهم الفتح بأن قوله: «وَ أَنَّهُ تَعالى» إلخ و سائر الآيات المصدرة بأن

ص:41

معطوفة على قوله: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» إلخ.

و لا يخفى فساده فإن محصله أن الآيات فى مقام الإخبار عما أوحى إلى النبى ص من أقوالهم و قد أخبر عن قولهم: إنا سمعنا قرآنا عجبا فآمنا به بعنوان أنه إخبار عن قولهم ثم حكى سائر أقوالهم بألفاظها فالمعنى أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا كذا و كذا و أوحى إلى أنه تعالى جد ربنا «إلخ» و أوحى إلى أنه كان يقول سفيهنا إلى آخر الآيات.

فيرد عليه أن ما وقع فى صدر الآيات من لفظة «أَنَّهُ» و «أَنَّهُمْ» و «أَنَّا» إن لم يكن جزء من لفظهم المحكى كان زائدا مخلا بالكلام، و إن كان جزء من كلامهم المحكى بلفظه لم يكن المحكى من مجموع أن و ما بعدها كلاما تاما و احتاج إلى تقدير ما يتم به كلاما حتى تصح الحكاية، و لم يرفع فى ذلک عطفه على قوله: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» شيئا فلا تغفل.

قوله تعالى: «وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً » السفه- على ما ذكره الراغب- خفة النفس لنقصان العقل، و الشطط القول البعيد من الحق.

و الآية أيضا فى معنى التأكيد لقولهم : «لَنْ نُشْرِکَ بِرَبِّنا أَحَداً » و مرادهم بسفيههم من سبقهم من مشركى الجن، و قيل : المراد إبليس و هو من الجن، و هو بعيد من سياق قوله: «كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا » إلخ.

قوله تعالى: «وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً » اعتراف منهم بأنهم ظنوا أن الإنس و الجن صادقون فيما يقولون و لا يكذبون على الله فلما وجدوهم مشركين و سمعوهم ينسبون إليه تعالى الصاحبة و الولد أذعنوا به و قلدوهم فيما يقولون فأشركوا مثلهم حتى سمعوا القرآن فانكشف لهم الحق، و فيه تكذيب منهم للمشركين من الإنس و الجن.

قوله تعالى: «وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً » قال الراغب: العوذ الالتجاء إلى الغير، و قال: رهقه الأمر غشيه بقهر انتهى. و فسر الرهق بالإثم، و بالطغيان، و بالخوف، و بالشر، و بالذلة و الضعف، و هى تفاسير بلازم المعنى.

ص:42

و المراد بعوذ الإنس بالجن- على ما قيل: إن الرجل من العرب كان إذا نزل الوادى فى سفره ليلا قال: أعوذ بعزيز هذا الوادى من شر سفهاء قومه، و نقل عن مقاتل أن أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا فى العرب.

و لا يبعد أن يكون المراد بالعوذ بالجن الاستعانة بهم فى المقاصد من طريق الكهانة، و إليه يرجع ما نقل عن بعضهم أن المعنى كان رجال من الإنس يعوذون برجال من أجل الجن و من معرتهم و أذاهم.

و الضميران فى قوله: «فَزادُوهُمْ» أولهما لرجال من الإنس و ثانيهما لرجال من الج ن و المعنى فزاد رجال الإنس رجال الجن رهقا بالتجائهم إليهم فاستكبر رجال الجن و طغوا و أثموا، و يجوز العكس بأن يكون الضمير الأول لرجال الجن و الثانى لرجال الإنس، و المعنى فزاد رجال الجن رجال الإنس رهقا أى إثما و طغيانا أو ذلة و خوفا.

قوله تعالى: «وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً» ضمير «أنهم» لرجال من الإنس، و الخطاب فى «ظَنَنْتُمْ» لقومهم من الجن، و المراد بالبعث بعث الرسول بالرسالة فالمشركون ينكرون ذلك، و قيل: المراد به الإحياء بعد الموت، و سياق الآيات التالية يؤيد الأول.

و عن بعضهم أن هذه الآية و التى قبلها ليستا من كلام الجن بل كلامه تعالى معترضا بين الآيات المتضمنة لكلام الجن، و عليه فضمير «أَنَّهُمْ» للجن و خطاب «ظَنَنْتُمْ» للناس، و فيه أنه بعيد من السياق.

قوله تعالى: «وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً » لمس السماء الاقتراب منها بالصعود إليها، و الحرس- على ما قيل- اسم جمع لحارس و لذا وصف بالمفرد و المراد بالحرس الشديد الحفاظ الأقوياء فى دفع من يريد الاستراق منها و لذا شفع بالشهب و هى سلاحهم.

قوله تعالى: «وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً » يفيد انضمام صدر الآية إلى الآية السابقة أن مل ء السماء بالحرس الشديد و الشهب مما حدث أخيرا و أنهم كانوا من قبل يقعدون من السماء مقاعد لاستماع كلام الملائكة و يفيد ذيل الآية بالتفريع على جميع ما تقدم أن من يستمع الآن منا بالقعود منها مقعدا للسمع يجد له

ص:43

شهابا من صفته أنه راصد له يرميه به الحرس.

فيتحصل من مجموع الآيتين الإخبار بأنهم عثروا على حادثة سماوية جديدة مقارنة لنزول القرآن و بعثة النبى ص و هى منع الجن من تلقى أخبار السماء باستراق السمع.

و من عجيب الاستدلال ما عن بعضهم أن فى الآيتين ردا على من زعم أن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله ص لظهور قوله : «مُلِئَتْ حَرَساً» فى أن الحادث هو المل ء و كثرة الحرس لا أصل الحرس، و ظهور قوله : «نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ» فى أنا كنا نجد فيها بعض المقاعد خاليا من الحرس و الشهب، و الآن ملئت المقاعد كلها فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا.

و يدفعه أنه لو كان المراد بالآيتين هو الإخبار عن مل ء السماء بالحرس و تكثير عددهم بحيث لا يوجد فيها مقاعد خالية منهم و قد كانت توجد قبل ذلك كان الواجب أن يتوجه النفى فى قوله : «فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً» إلى السمع عن جميع المقاعد قبال إثبات السمع من بعض تلك المقاعد لا نفى مجرد السمع.

سلمنا أن المراد نفى السمع على الإطلاق و هو يكفى فى ذلك لكن تعلق الغرض فى الكلام بالإخبار عن الامتلاء بالحرس مع كون بعض المقاعد خالية عنهم قبل ذلك، و كذا تقييد قوله : «فَمَنْ يَسْتَمِعِ» إلخ، بقوله: «الْآنَ» يدل على حدوث أمر جديد فى رجم الجن و هو استيعاب الرجم لهم فى أى مقعد قعدوا و المنع من السمع مطلقا بعد ما كانوا يستمعون من بعض المقاعد من غير منع، و هذا المقدار كاف للمدعى فيما يدعيه.

و ليتنبه أن مدلول الآية حدوث رجم الجن بشهاب رصد و هو غير حدوث الشهاب السماوى و هو ظاهر فلا ورود لما قيل : إن الشهب السماوية كانت من الحوادث الجوية الموجودة قبل زمن النبى ص و نزول القرآن.

وجه عدم الورود أن الذى يظهر من القرآن حدوث رجم الشياطين من الجن بالشهب من غير تعرض لحدوث أصل الشهب، و قد تقدم فى تفسير أول سورة الصافات بعض ما يتعلق بهذا المقام.

قوله تعالى: «وَ أَنّا لا نَدْرِی أَ شَرٌّ أُرِیدَ بِمَنْ فِی الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً»

ص:44

الرشد بفتحتين و الرشد بالضم فالسكون خلاف الغى و تنكير «رَشَداً» لإفادة النوع أى نوعا من الرشد.

هذا منهم إظهار للجهل و التحير فيما شاهدوه من أمر الرجم و منع شياطين الجن من الاطلاع على أخبار السماء غير أنهم تنبهوا على أن ذلك لأمر ما يرجع إلى أهل الأرض إما خير أو شر و إذا كان خيرا فهو نوع هدى لهم و سعادة و لذا بدلوا الخير و هو المقابل للشر من الرشد، و يؤيده قولهم: «أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ» المشعر بالرحمة و العناية.

و قد صرحوا بالفاعل لإرادة الرشد و حذفوه فی جانب الشر أدبا و لا یراد شر من جانبه تعالی إلا لمن استحقه.

قوله تعالی: «وَ أَنّٰا مِنَّا الصّٰالِحُونَ وَ مِنّٰا دُونَ ذٰلِکَ کُنّٰا طَرٰائِقَ قِدَداً » الصلاح مقابل الطلاح، و المراد بدون ذلک ما یقرب منه رتبة- علی ما قیل-، و الظاهر أن دون بمعنی غیر، و یؤیده قوله: «کُنّٰا طَرٰائِقَ قِدَداً» الدال علی التفرق و التشتت و الطرائق جمع طریقة و هی الطریق المطروقة المسلوکة، و القدد القطع جمع قدة بمعنی قطعة من القد بمعنی القطع و صفت الطرائق بالقدد لأن کل واحدة منها مقطوعة عن غیرها تنتهی بسالکها إلی غایة غیر ما ینتهی به إلیه غیرها، و إلی هذا المعنی یرجع تفسیر القدد بالطرائق المتفرقة المتشتتة.

و الظاهر أن المراد بقوله: «الصّٰالِحُونَ» الصالحون بحسب الطبع الأولی فی المعاشرة و المعاملة دون الصالحین بحسب الإیمان، و لو کان المراد صلاح الإیمان لکان الأنسب أن یذکر بعد ما سیجیء من حدیث إیمانهم لما سمعوا الهدی.

و ذکر بعضهم أن قوله: «طَرٰائِقَ قِدَداً» منصوب علی الظرفیة أی فی طرائق قدد و هی المذاهب المتفرقة المتشتتة، و قال آخرون إنه علی تقدیر مضاف أی ذوی طرائق، و لا یبعد أن یکون من الاستعارة بتشبیههم أنفسهم فی الاختلاف و التباین بالطرق المقطوع بعضها من بعض الموصلة إلی غایات متشتتة.

و المعنی: و أنا منا الصالحون طبعا و منا غیر ذلک کنا فی مذاهب مختلفة أو ذوی مذاهب مختلفة أو کالطرق المقطوعة بعضها عن بعض.

قوله تعالی: «وَ أَنّٰا ظَنَنّٰا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللّٰهَ فِی الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً» الظن هو

ص:45

العلم الیقینی، و الأنسب أن یکون المراد بقوله : «لَنْ نُعْجِزَ اللّٰهَ فِی الْأَرْضِ » إعجازه تعالی بالغلبة علیه فیما یشاء فیها و ذلک بالإفساد فی الأرض و إخلال النظام الذی یجری فیها فإن إفسادهم لو أفسدوا من القدر، و المراد بقوله : «وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً» إعجازه تعالی بالهرب منه إذا طلبهم حتی یفوتوه فلا یقدر علی الظفر بهم و قیل: المعنی لن نعجزه تعالی کائنین فی الأرض و لن نعجزه هربا إلی السماء أی لن نعجزه لا فی الأرض و لا فی السماء هذا و هو کما تری.

قوله تعالی: «وَ أَنّٰا لَمّٰا سَمِعْنَا الْهُدیٰ آمَنّٰا بِهِ فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاٰ یَخٰافُ بَخْساً وَ لاٰ رَهَقاً » المراد بالهدی القرآن باعتبار ما یتضمنه من الهدی، و البخس النقص علی سبیل الظلم، و الرهق غشیان المکروه.

و الفاء فی قوله: «فَمَنْ یُؤْمِنْ» للتفریع و هو من تفریع العلة علی المعلول لإفادة الحجة فی إیمانهم بالقرآن من دون ریث و لا مهل.

و محصل المعنى: أنا لما سمعنا القرآن الذى هو الهدى بادرنا إلى الإيمان به من دون مكث لأن من آمن به فقد آمن بربه و من يؤمن بربه فلا يخاف نقصانا فى خير أو غشيانا من مكروه حتى يكف عن المبادرة و الاستع جال و يتروى فى الإقدام عليه لئلا يقع فى بخس أو رهق.

قوله تعالى: «وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِکَ تَحَرَّوْا رَشَداً» المراد بالإسلام تسليم الأمر لله تعالى فالمسلمون المسلمون له الأمر المطيعون له فيما يريده و يأمر به، و القاسطون هم المائلون إلى الباطل قال فى المجمع، : القاسط هو العادل عن الحق و المقسط العادل إلى الحق، انتهى.

و المعنى: أنا معشر الجن منقسمون إلى من يسلم لأمر الله مطيعين له، و إلى من يعدل عن التسليم لأمر الله و هو الحق.

و قوله: «فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِکَ تَحَرَّوْا رَشَداً» تحرى الشيء توخيه و قصده، و المعنى فالذين أسلموا فأولئک قصدوا إصابة الواقع و الظفر بالحق.

قوله تعالى: «وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَکانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً» فيعذبون بتسعرهم و اشتعالهم بأنفسهم كالقاسطين من الإنس قال تعالى: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النَّاسُ»: البقرة ۲۴.

ص:46

و قد عد كثير منهم قوله : «فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِکَ»- إلى قوله- لِجَهَنَّمَ حَطَباً تتمة لكلام الجن يخاطبون به قومهم و قيل : إنه من كلامه تعالى يخاطب به النبى ص.

قوله تعالى: «وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ»:

«أَنْ» مخففة من الثقيلة، و المراد بالطريقة طريقة الإسلام، و الاستقامة عليها لزومها و الثبات على ما تقتضيه من الإيمان بالله و آياته.

و الماء الغدق الكثير منه، و لا يبعد أن يستفاد من السياق أن قوله : «لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً» مثل أريد به التوسعة فى الرزق، و يؤيده قوله بعده: «لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ».

و المعنى: و أنه لو استقاموا أى الجن و الإنس على طريقة الإسلام لله لرزقناهم رزقا كثيرا لنمتحنهم فى رزقهم فالآية فى معنى قوله: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ»: الأعراف ۹۶.

و الآية من كلامه تعالى معطوف على قوله فى أول السورة: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» إلخ.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً» العذاب الصعد هو الذى يتصعد على المعذب و يغلبه، و قيل : هو العذاب الشاق.

و الإعراض عن ذكر الله لازم عدم الاستقامة على الطريقة و هو الأصل فى سلوك العذاب، و لذا وضع موضعه ليدل على السبب الأصلى فى دخول النار.

و هو الوجه أيضا فى الالتفات عن التكلم مع الغير إلى الغيبة فى قوله : «ذِكْرِ رَبِّهِ» و كان مقتضى الظاهر أن يقال: ذكرنا و ذلك أن صفة الربوبية هى المبدأ الأصلى لتعذيب المعرضين عن ذكره تعالى فوضعت موضع ضمير المتكلم مع الغير ليدل على المبدإ الأصلى كما وضع الإعراض عن الذكر موضع عدم الاستقامة ليدل على السبب.

قيل: و قوله: «يَسْلُكْهُ» مضمن معنى يدخله و لذا عدى إلى المفعول الثانى، و المعنى ظاهر.

بحث روائى

فى المجمع، روى الواحدى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ": ما قرأ رسول الله ص على الجن و ما رآهم، انطلق رسول الله ص فى طائفة من أصحابه- عامدين إلى

ص:47

سوق عكاظ، و قد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء- فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم: قالوا: حيل بيننا و بين خبر السماء- و أرسلت علينا الشهب- قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث- فاضربوا مشارق الأرض و مغاربها.

فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبى ص- عامدين إلى سوق عكاظ- و هو يصلى بأصحابه صلاة الفجر- فلما سمعوا القرآن استمعوا له و قالوا: هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء- فرجعوا إلى قومهم و قالوا: «إِنّٰا سَمِعْنٰا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنّٰا بِهِ- وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنٰا أَحَداً» فأوحى الله إلى نبيه ص: «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ»".:

و رواه البخارى و مسلم أيضا فى الصحيح.

أقول: و روى القمى فى تفسيره ما يقرب منه و قد أوردنا الرواية فى تفسير سورة الأحقاف فى ذيل قوله : «وَ إِذْ صَرَفْنٰا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ» إلخ.

لكن ظاهر روايته أن النفر الذين نزلت فيهم آيات سورة الأحقاف هم النفر الذين نزلت فيهم هذه السورة و ظاهر آيات السورتين لا يلائم ذلك فإن ظاهر قولهم المنقول فى سورة الأحقاف : «إِنّٰا سَمِعْنٰا كِتٰاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ (مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ) يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ» الآية أنهم كانوا مؤمنين بموسى و مصدقين للتوراة و ظاهر آيات هذه السورة أنهم كانوا مشركين لا يرون النبوة و لازم ذلك تغاير الطائفتين اللهم إلا أن يمنع الظهور.

و فیه، عن علقمهٔ بن قیس قال ": قلت لعبد الله بن مسعود : من کان منکم مع النبی ص لیلهٔ الجن؟ فقال : ما کان منا معه أحد فقدناه ذات لیلهٔ و نحن بمکهٔ- فقلنا: اغتیل رسول الله ص أو استطیر- فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقیناه مقبلا من نحو حراء- فقلنا:

یا رسول الله أین کنت؟ لقد أشفقنا علیک، و قلنا له : بتنا اللیلهٔ بشر لیلهٔ بات بها قوم حین فقدناک، فقال لنا : إنه أتانی داعی الجن فذهبت أقرئهم القرآن- فذهب بنا و أرانا آثارهم و آثار نیرانهم- فأما أن یکون صحبهٔ منا أحد فلا.

و فیه، و عن الربیع بن أنس قال": لیس لله تعالی جد و إنما قالته الجن بجهالهٔ- فحکاه الله سبحانه کما قالت:، و روی ذلک عن أبی جعفر و أبی عبد الله (ع).

أقول: المراد بالجد المنفی عنه تعالی الحظ و البخت.

و فی الاحتجاج، عن علی (ع) فی حدیث: فأقبل إلیه الجن و النبی ص ببطن

ص:48

النخل- فاعتذروا بأنهم ظنوا کما ظننتم أن لن یبعث الله أحدا، و لقد أقبل إلیه أحد و سبعون ألفا منهم- فبایعوه علی الصوم و الصلاهٔ و الزکاهٔ- و الحج و الجهاد و نصح المسلمین- فاعتذروا بأنهم قالوا علی الله شططا.

أقول: بیعتهم للنبی ص علی الصوم و الصلاهٔ إلخ، یصدقها قولهم المحکی فی أول السورهٔ : «فَآمَنَّا بِهِ» و قولهم: «وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدی آمَنَّا بِهِ»، و أما کیفیهٔ عملهم بها و خاصهٔ بالزکاهٔ و الجهاد فمجهولهٔ لنا، و اعتذارهم الأول المذکور لا یخلو من خفاء.

و فی تفسیر القمی، بإسناده إلی زرارهٔ قال: سألت أبا جعفر عن قول الله: «وَ أَنَّهُ کانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ- یَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً» قال: کان الرجل ینطلق إلی الکاهن- الذی یوحی إلیه الشیطان- فیقول: قل للشیطان: فلان قد عاذ بک.

و فیه،: فی قوله تعالی: «فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا یَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً» قال: البخس النقصان، و الرهق العذاب.

: و سئل العالم عن مؤمنی الجن أ یدخلون الجنهٔ؟ فقال: لا و لکن لله حظائر بین الجنهٔ و النار- یکون فیها مؤمنوا الجن و فساق الشیعهٔ.

أقول: لعل المراد بهذه الحظائر هی بعض درجات الجنهٔ التی هی دون جنهٔ الصالحین .

و اعلم أنه ورد فی بعض الروایات من طرق أئمهٔ أهل البیت (ع) تطبیق ما فی الآیات من الهدی و الطریقهٔ علی ولایهٔ علی (ع) و هی من الجری و لیست من التفسیر فی شیء.

[سورهٔ الجن (۷۲): الآیات ۱۸ الی ۲۸]

وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (١٨) وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (١٩) قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّی وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (٢٠) قُلْ إِنِّی لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّی لَنْ يُجِيرَنِی مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢)

إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (٢٣) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّی أَمَداً (٢٥) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧)

لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨)

ص:49

بيان

فی الآيات تسجيل للنبوة و ذكر وحدانيته تعالى و المعاد كالاستنتاج من القصة و تختتم بالإشارة إلى عصمة الرسالة.

قوله تعالى: «وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً » معطوف على قوله: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» إلخ، و جملة «أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ» فی موضع التعليل لقوله: «فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً» و التقدير لا تدعوا مع الله أحدا غيره لأن المساجد له.

و المراد بالدعاء العبادة و قد سماها الله دعاء كما فی قوله : «وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِی سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ»: المؤمن ۶۰.

و قد اختلف فی المراد من المساجد فقيل : المراد به الكعبة، و قيل المسجد الحرام، و قيل : المسجد الحرام و بيت المقدس، و يدفعها كون المساجد جمعا لا ينطبق على الواحد و الاثنين.

و قيل: الحرم، و هو تهكم لا دليل عليه، و قيل: الأرض كلها

لقوله (ص): جعلت لی الأرض مسجدا و طهورا

، و فيه أنه لا يدل على أزيد من جواز العبادة فی أی بقعة من

ص:50

بقاع الأرض خلافا لما هو المعروف عن اليهود و النصارى من عدم جواز عبادته تعالى فی غير البيع و الكنائس، و أما تسمية بقاعها مساجد حتى يحمل عليها عند الإطلاق فلا.

و قيل: المراد به الصلوات فلا يصلى إلا لله، و هو تهكم لا دليل عليه.

و عن الإمام الجواد (ع): أن المراد بالمساجد الأعضاء السبعة- التى يسجد عليها فى الصلاة- و هى الجبهة و الكفان و الركبتان و أصابع الرجلين

، و ستوافيک روايته فى البحث الروائى التالى إن شاء الله، و نقل ذلک أيضا عن سعيد بن جبير و الفراء و الزجاج.

و الأنسب على هذا أن يكون المراد بكون مواضع السجود من الإنسان لله اختصاصها به اختصاصا تشريعيا، و المراد بالدعاء السجدة لكونها أظهر مصاديق العبادة أو الصلاة بما أنها تتضمن السجود لله سبحانه.

و المعنى: و أوحى إلى أن أعضاء السجود يختص بالله تعالى فاسجدوا له بها- أو اعبدوه بها- و لا تسجدوا- أو لا تعبدوا- أحدا غيره.

قوله تعالى «وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً » اللبد بالكسر فالفتح جمع لبدة بالضم فالسكون المجتمعة المتراكمة، و المراد بعبد الله النبى ص كما تدل عليه الآية التالية، و التعبير بعبد الله كالتمهيد لقوله فى الآية التالية: «قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّى».

و الأنسب لسياق الآيات التالية أن يكون مرجع ضميرى الجمع فى قوله: «كادُوا يَكُونُونَ» المشركين و قد كانوا يزدحمون عليه (ص) إذا صلى و قرأ القرآن يستهزءون و يرفعون أصواتهم فوق صوته على ما نقل.

و المعنى: و أنه لما قام النبى ص يعبد الله بالصلاة كاد المشركون يكونون بازدحامهم لبدا مجتمعين متراكمين.

و قيل: الضميران للجن و أنهم اجتمعوا عليه و تراكموا ينظرون إليه متعجبين مما يشاهدون من عبادته و قراءته قرآنا لم يسمعوا كلاما يماثله.

و قيل: الضميران للمؤمنين بالنبى ص المجتمعين عليه اقتداء به فى صلاته إذا صلى و إنصاتا لما يتلوه من كلام الله.

و الوجهان لا يلائمان سياق الآيات التالية تلک الملاءمة كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّى وَ لا أُشْرِکُ بِهِ أَحَداً» أمر منه تعالى للنبى ص

أن يبين لهم وجه عبادته بيانا يزيل عنهم الحيرة حيث رأوا منه ما لم يكونوا رأوه من أحد غيره، و يتعجبون حاملين له على نوع من المكيدة و المكر بأصنامهم أو خدعة بهم لأغراض أخر دنيوية.

و محصل البيان: أنى لست أريد بما آتى به من العمل شيئا من المقاصد التى تحسبونها و ترموننى بها و إنما أدعو ربى وحدة غير مشرك به أحدا و عبادة الإنسان لمن عرفه ربا لنفسه مما لا ينبغى أن يلام عليه أو يتعجب منه.

قوله تعالى: «قُلْ إِنِّی لا أَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً » الذى يفيده سياق الآيات الكريمة أنه (ص) يبين فيها بأمر من ربه موقع نفسه و بالنسبة إلى ربه و بالنسبة إلى الناس.

أما موقعه بالنسبة إلى ربه فهو أنه يدعوه و لا يشرك به أحدا و هو قوله: «قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّی وَ لا أُشْرِکُ بِهِ أَحَداً».

و أما موقعه بالنسبة إليهم فهو أنه بشر مثلهم لا يملك لهم ضرا و لا رشدا حتى يضرهم بما يريد أن يرشدهم من الخير إلى ما يريد بما عنده من القدرة، و أنه مأمور من الله بدعوتهم أمرا ليس له إلا أن يمتثله فلا مجير يجيره منه و لا ملجأ يلتجئ إليه لو خالف و عصى كما ليس لهم إلا أن يطيعوا الله و رسوله و من يعص الله و رسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا، و سيعلمون إذا رأوا ما يوعدون.

و لازم هذا السياق أن يكون المراد بملك الضر القدرة على إيقاع الضر بهم ف يوقعه بهم إذا أراد، و المراد بملك الرشد القدرة على إيصال النفع إليهم بإصابة الواقع أى إنى لا أدعى أنى أقدر أن أضركم أو أنفعكم، و قيل : المراد بالضر الغى المقابل للرشد تعبيرا باسم المسبب عن السبب.

قوله تعالى: «قُلْ إِنِّی لَنْ یُجِیرَنِی مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ » الإجارة إعطاء الجوار و حكمه حماية المجير للجار و منعه ممن يقصده بسوء، و الظاهر أن الملتحد اسم مكان و هو المكان الذى يعدل و ينحرف إليه للتحرز من الشر، و قيل: المدخل و يتعلق به قوله: «مِنْ دُونِهِ» و هو كالقيد التوضيحى و الضمير لله و البلاغ التبليغ.

و قوله: «إِلَّا بَلاغاً» استثناء من قوله: «مُلْتَحَداً» و قوله: «مِنَ اللَّهِ» متعلق بمقدر

ص:52

أى كائنا من الله و ليس متعلقا بقوله : «بَلاغاً» لأنه يتعدى بعن لا بمن و لذا قال بعض من جعله متعلقا ببلاغا : إن «من» بمعنى عن، و المعنى على أى حال إلا تبليغ ما هو تعالى عليه من الأسماء و الصفات.

و قوله: «وَ رِسالاتِهِ» قيل: معطوف على «بَلاغاً» و التقدير إلا بلاغا من الله و إلا رسالاته و قيل : معطوف على لفظ الجلالة و من بمعنى عن، و المعنى إلا بلاغا عن الله و عن رسالاته.

و فيما استثنى منه بلاغا قول آخر و هو أنه مفعول «لا أَمْلِکُ» و المعنى لا أملك لكم ضرا و لا رشدا إلا تبليغا من الله و رسالاته، و يبعده الفصل بين المستثنى و المستثنى منه بقوله: «لَنْ یُجِیرَنِی مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ» إلخ و هو كلام مستأنف.

و معنى الآيتين على ما قدمنا: قل لن يجيرنى من الله أحد فيمنعنى منه و لن أجد من دونه مكانا التجئ إليه إلا تبليغا كائنا منه و رسالاته أى إلا أن أمتثل ما أمرنى به من التبليغ منه تعالى ببيان أسمائه و صفاته و إلا رسالاته فى شرائع الدين.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً » إفراد ضمير «اللَّهِ» باعتبار لفظ «مِنَ» كما أن جمع «خالِدِينَ» باعتبار معناها.

و عطف الرسول على الله فى قوله : «وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ » لكون معصيته معصية لله تعالى إذ ليس له إلا رسالة ربه فالرد عليه فيما أتى به رد على الله سبحانه و طاعته فيما يأمر به طاعة لله قال تعالى: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ»: النساء ٨٠.

و المراد بالمعصية- كما يشهد به سياق الآيات السابقة- معصية ما أمر به من التوحيد أو التوحيد و ما يتفرع عليه من أصول الدين و فروعه فلا يشمل التهديد و الوعيد بخلود النار إلا الكافرين بأصل الدعوة دون مطلق أهل المعصية المتخلفين عن فروع الدين فالاحتجاج بالآية على تخليد مطلق العصاة فى النار فى غير محله.

و الظاهر أن قوله: «وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ» إلى آخر الآية من كلام الله سبحانه لا من تتمة كلام النبى ص.

قوله تعالى: «حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً » لقوله: «حَتَّى» دلالة على معنى مدخولها غاية له و مدخولها يدل على أنهم كانوا يستضعفون النبى ص بعد ناصريه- و هم المؤمنون- ضعفاء و استقلال عدده بعد عددهم قليلا

ص:53

فالكلام يدل على معنى محذوف هو غايته كقولنا : لا يزالون يستضعفون ناصريک و يستقلون عددهم حتى إذا رأوا ما يوعدون إلخ.

و المراد بما يوعدون نار جهنم لأنها هى الموعودة فى الآية، و الآية من كلامه تعالى يخاطب النبى ص و لو كانت من كلامه و هى مصدرة بقوله تعالى «قُلْ» لكان من حق الكلام أن يقال: حتى إذا رأيتم ما توعدون فستعلمون إلخ.

قوله تعالى: «قُلْ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّی أَمَ داً» الأمد الغاية التى ينتهى إليها، و الآية بمنزلة دفع دخل تقتضيه حالهم كأنهم لما سمعوا الوعيد قالوا: متى يكون ذلک فقيل له: «قُلْ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِيبٌ» إلخ.

قوله تعالى: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً» إظهار الشىء على الشىء إعانته و تسليطه عليه، و «عالِمُ الْغَيْبِ» خبر لمبتدإ محذوف، و التقدير هو عالم الغيب، و مفاد الكلمة بإعانة من السياق اختصاص علم الغيب به تعالى مع استيعاب علمه كل غيب، و لذا أضاف الغيب إلى نفسه ثانيا فقال : «عَلى غَيْبِهِ» بوضع الظاهر موضع المضمر ليفيد الاختصاص و لو قال : فلا يظهر عليه لم يفد ذلک.

و المعنى هو عالم كل غيب علما يختص به فلا يطلع على الغيب و هو مختص به أحدا من الناس فالمفاد سلب كلى و إن أصر بعضهم على كونه سلبا جزئيا محصل معناه لا يظهر على كل غيبه أحدا و يؤيد ما قلنا ظاهر ما سيأتى من الآيات.

قوله تعالى: «إِلّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ» استثناء من قوله: «أَحَداً» و «مِنْ رَسُولٍ» بيان لقوله «مَنِ ارْتَضى» فيفيد أن الله تعالى يظهر رسله على ما شاء من الغيب المختص به فالآية إذا انضمت إلى الآيات التى تخص علم الغيب به تعالى كقوله : «وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلّا هُوَ»: الأنعام: ۵۹، و قوله: «وَ لِلّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ»: النحل: ۷۷، و قوله: «قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّهُ»: النمل: ۶۵ أفاد ذلک معنى الأصالة و التبعية فهو تعالى يعلم الغيب لذاته و غيره يعلمه بتعليم من الله.

فهذه الآيات نظيرة الآيات المتعرضة للتوفى كقوله : «اللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ»: الزمر: ۴۲ الدال على الحصر، و قوله : «قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ»: الم السجدة: ۱۱، و قوله:

«حَتّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا»: الأنعام: ۶۱ فالتوفى منسوب إليه تعالى على

ص:54

نحو الأصالة و إلى الملائكة على نحو التبعية لكونهم أسبابا متوسطة مسخرة له تعالى.

قوله تعالى: «فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً - إلى قوله- عَدَداً» ضمير «فَإِنَّهُ» لله تعالى، و ضميرا «يَدَيْهِ» و «خَلْفِهِ» للرسول، و الراصد المراقب للأمر الحارس له، و الرصد الراصد يطلق على الواحد و الجماعة و هو فى الأصل مصدر، و المراد بما بين يدى الرسول ما بينه و بين الناس المرسل إليهم، و بما خلفه ما بينه و بين مصدر الوحى الذى هو الله سبحانه و قد اعتبر فى هذا التصوير ما يوهمه معنى الرسالة من امتداد متوهم يأخذ من المرسل- اسم فاعل- و ينتهى إلى المرسل إليه يقطعه الرسول حتى ينتهى إلى المرسل إليه فيؤدى رسالته، و الآية تصف طريق بل وغ الغيب إلى الرسول و هو الرسالات التى توحى إليه كما يشير إلى ذلک قوله: «لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ».

و المعنى: فإن الله يسلک ما بين الرسول و من أرسل إليه و ما بين الرسول و مصدر الوحى مراقبين حارسين من الملائكة- و من المعلوم أن سلوک الرصد من بين يديه و من خلفه لحفظ الوحى من كل تخليط و تغيير بالزيادة و النقصان يقع فيه من ناحية الشياطين بلا واسطة أو معها.

و قوله: «لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ» ضمير «لِيَعْلَمَ» لله سبحانه، و ضميرا «قَدْ أَبْلَغُوا» و «رَبِّهِمْ» لقوله: «مَنِ» باعتبار المعنى أو لرسول باعتبار الجنس، و المراد بعلمه تعالى بإبلاغهم رسالات ربهم العلم الفعلى و هو تحقق الإبلاغ فى الخارج على حد قوله: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ»: العنكبوت: ۳ و هو كثير الورود فى كلامه تعالى.

و الجملة تعليل لسلوک الرصد بين يدى الرسول و من خلفه، و المعنى ليتحقق إبلاغ رسالات ربهم أى لتبلغ الناس رسالاته تعالى على ما هى عليه من غير تغير و تبدل.

و من المحتمل أن يرجع ضميرا «بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ » إلى «غَيْبِهِ» فيكون الرصد الحرس مسلوكين بين يدى الغيب النازل و من خلفه إلى أن يبلغ الرسول، و يضعفه أنه لا يلائم قوله : «لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ » بالمعنى الذى تقدم لعدم استلزام بلوغ الغيب للرسول سليما من تعرض الشياطين حصول العلم بإبلاغه إلى الناس.

و إلى هذا المعنى يرجع قول بعضهم إن الضميرين يرجعان إلى جبريل حامل الوحى.

و يضعفه مضافا إلى ما مر عدم سبق ذكره.

ص:55

و قيل: ضمير ليعلم للرسول و ضميرا «قَدْ أَبْلَغُوا» و «رَبِّهِمْ» للملائكة الرصد و المعنى يرصد الملائكة الوحى و يحرسونه ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا إليه الوحى كما صدر فتطمئن نفسه أنه سليم من تعرض الشياطين فإن لازم العلم بإبلاغهم إياه العلم ببلوغه.

و يبعده أن ظاهر السياق- و يؤيده سبق ذكر الرسول- أن المراد بالرسالات الرسالات التى حملها الرسول ليبلغها إلى الناس لا ما حملها ملك الوحى فضمير «رَبِّهِمْ» للرسل دون الملائكة، على أن الآية تشير إلى الملائكة بعنوان الرصد و هو غير عنوان الرسالة و شأن الرصد الحفظ و الحراسة دون الرسالة.

و قيل: المعنى ليعلم محمد ص أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم، و هو وجه سخيف لا دليل عليه، و أسخف منه ما قيل : إن المعنى ليعلم مكذب الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم إليهم.

و قوله : «وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ » ضمير الجمع للرسل بناء على ما تقدم من المعنى و الظاهر أن الجملة متممة لمعنى الحراسة المذكورة سابقا فقوله: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» يشير إلى رصد ما بين الرسول و المرسل إليهم، و قوله: «وَ مِنْ خَلْفِهِ» إلى حفظ ما بينه و مصدر الوحى، و قوله: «وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ» يشير إلى ظرف نفس الرسول و الإحاطة إحاطة علمية فالوحى فى أمن من تطرق التغيير و التبديل فيما بين مصدر الوحى و الرسول و فى نفس الرسول و فى ما بين الرسول و المرسل إليهم.

و يمكن أن يكون المراد بما لديهم جميع ما له تعلق ما بالرسل أعم من مسير الوحى أو أنفسهم كما أن قوله : «وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً» مسوق لإفادة عموم العلم بالأشياء غير أنه العلم بعددها و تميز بعضها من بعض.

فقد تبين مما مر فى الآيات الثلاث:

أولا: أن اختصاصه تعالى بعلم الغيب على نحو الأصالة بالمعنى الذى أوضحناه فهو تعالى يعلم الغيب بذاته و غيره يعلمه بتعليم منه.

و به یظهر أن ما حکی فی کلامه تعالی من إنکارهم العلم بالغیب أرید به نفی الأصالهٔ و الاستقلال دون ما کان بوحی کقوله تعالی: «قُلْ لا أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللّهِ وَ لا

أَعْلَمُ الْغَیْبَ»: الأنعام: ۵۰، و قوله: «وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لَاسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ » الأعراف: ۱۸۸ و قوله: «قُلْ ما کُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِی ما یُفْعَلُ بِی وَ لا بِکُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا ما یُوحی إِلَیَّ»: الأحقاف: ۹.

و ثانیا: أن عموم قوله: «فَلا یُظْهِرُ عَلی غَیْبِهِ أَحَداً» لما خصص بقوله: «إِلّا مَنِ ارْتَضی مِنْ رَسُولٍ» عاد عاما مخصصا لا یأبی تخصیصا بمخصص آخر کما فی مورد الأنبیاء فإن الآیات القرآنیهٔ تدل علی أنهم یوحی إلیهم کقوله : «إِنّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ»: النساء: ۱۶۳ و تدل علی أن الوحی من الغیب فالنبی ینال الغیب کما یناله الرسول هذا علی تقدیر أن یکون المراد بالرسول فی الآیهٔ ما یقابل النبی و أما لو أرید مطلق من أرسله الله إلی الناس و النبی ممن أرسله الله إلیهم کما یشهد به قوله: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِیٍّ» الآیهٔ: الحج: ۵۲، و قوله: «وَ ما أَرْسَلْنا فِی قَرْیَهٍٔ مِنْ نَبِیٍّ » الأعراف: ۹۴ فالنبی خارج من عموم النفی من غیر تخصیص جدید.

و کذا فی مورد الإمام بالمعنی الذی یستعمله فیه القرآن فإنه تعالی یصفه بالصبر و الیقین کما فی قوله : «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّهًٔ یَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا وَ کانُوا بِآیاتِنا یُوقِنُونَ »: الم السجدهٔ ۲۴ و یعرفهم بانکشاف الغطاء لهم کما فی قوله : «وَ کَذلِکَ نُرِی إِبْراهِیمَ مَلَکُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ »: الأنعام: ۷۵، و قوله: «کَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ »: التکاثر: ۶ و قد تقدم کلام فی ذلک فی بعض المباحث السابقهٔ.

و أما الملائکهٔ فما یحملونه من الوحی السماوی قبل نزوله و کذا ما یشاهدونه من عالم الملکوت شهادهٔ بالنسبهٔ إلیهم و إن کان غیبا بالنسبهٔ إلینا. علی أن قوله: «فَلا یُظْهِرُ عَلی غَیْبِهِ أَحَداً» إنما یشمل أهل الدنیا ممن یعیش علی بسیط الأرض و إلا لانتقض بالأموات المشاهدین لأمور الآخرهٔ و هی من الغیب بنص القرآن فلم یبق تحت عموم النفی حتی فرد واحد إذ ما من أحد إلا و هو مبعوث ذلک یوم مجموع له الناس و ذلک یوم مشهود، و کما أن الأموات نشأتهم غیر نشأهٔ الدنیا کذلک نشأهٔ الملائکهٔ غیر نشأهٔ المادهٔ.

و ثالثا: أن قوله: «فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ » إلی آخر الآیتین یدل علی أن الوحی الإلهی محفوظ من لدن صدوره من مصدر الوحی إلی بلوغه الناس مصون فی طریق نزوله إلی أن یصل إلی من قصد نزوله علیه.

أما مصونیته من حین صدوره من مصدره إلی أن ینتهی إلی الرسول فیکفی فی الدلالهٔ علیه قوله «مِنْ خَلْفِهِ» «۱» و أما مصونیته حین أخذ الرسول إیاه و تلقیه من ملک الوحی بحیث یعرفه و لا یغلط فی أخذه، و مصونیته فی حفظه بحیث یعیه کما أوحی إلیه من غیر أن ینساه أو یغیره أو یبدله، و مصونیته فی تبلیغه إلی الناس من تصرف الشیطان فیه فالدلیل علیه قوله :

«لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ» حيث يدل على أن الغرض الإلهى من سلوک الرصد أن يعلم إبلاغهم رسالات ربهم أى أن يتحقق فى الخارج إبلاغ الوحى إلى الناس، و لازمه بلوغه إياهم و لو لا مصونيهٔ الرسول فى الجهات الثلاث المذكورهٔ جميعا لم يتم الغرض الإلهى و هو ظاهر، و حيث لم يذكر تعالى للحصول على هذا الغرض طريقا غير سلوک الرصد دل ذلک على أن الوحى محروس بالملائکهٔ و هو عند الرسول كما أنه محروس بهم فى طريقه إلى الرسول حتى ينتهى إليه، و يؤكده قوله بعد: «وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ».

و أما مصونيته فى مسيره من الرسول حتى ينتهى إلى الناس فيكفى فيه قوله: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» على ما تقدم من معناه.

أضف إلى ذلک دلالهٔ قوله: «لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ» بما تقدم من تقريب دلالته.

و يتفرع على هذا البيان أن الرسول مؤيد بالعصمهٔ فى أخذ الوحى من ربه و فى حفظه و فى تبليغه إلى الناس مصون من الخطإ فى الجهات الثلاث جميعا لما مر من دلالهٔ الآيهٔ على أن ما نزله الله من دينه على الناس من طريق الرسالهٔ بالوحى مصون فى جميع مراحله إلى أن ينتهى إلى الناس و من مراحله مرحلهٔ أخذ الرسول للوحى و حفظه له و تبليغه إلى الناس.

و التبليغ يعم القول و الفعل فإن فى الفعل تبليغا كما فى القول فالرسول معصوم من المعصيهٔ باقتراف المحرمات و ترک الواجبات الدينيهٔ لأن فى ذلک تبليغا لما يناقض الدين فهو معصوم من فعل المعصيهٔ كما أنه معصوم من الخطإ فى أخذ الوحى و حفظه و تبليغه قولا.

و قد تقدمت الإشارهٔ إلى أن النبوهٔ كالرسالهٔ فى دورانها مدار الوحى فالنبى كالرسول فى خاصهٔ العصمهٔ، و يتحصل بذلک أن أصحاب الوحى سواء كانوا رسلا أو أنبياء

---

(١) هذا بناء على رجوع الضمير إلى الرسول و أما بناء على احتمال رجوع الضمير إلى الغيب فالدال عليه مجموع «من بين يديه و من خلفه» لكنه ضعيف كما تقدم.

معصومون فى أخذ الوحى و فى حفظ ما أوحى إليهم و فى تبليغه إلى الناس قولا و فعلا.

و رابعا: أن الذى استثنى فى الآيهٔ من الإظهار على الغيب إظهار الرسول على ما يتوقف عليه تحقق إبلاغ رسالته أعم من أن يكون متن الرسالهٔ كالمعارف الاعتقاديهٔ و شرائع الدين و القصص و العبر و الحكم و المواعظ أو يكون من آيات الرسالهٔ و المعجزات الدالهٔ على صدق الرسول فى دعواه كالذى حكى عن بعض الرسل من الإخبار بالمغيبات كقول صالح لقومه: «تَمَتَّعُوا فِى دارِكُمْ ثَلاثَهَ أَيّامٍ ذلِکَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ»: هود: ۶۵، و قول عيسى لبنى إسرائيل: «وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذلِکَ لَآيَهً لَكُمْ» آل عمران: ۴۹، و كذا ما ورد من مواعد الرسل، و ما ورد فى الكتاب العزيز من الملاحم كل ذلک من إظهارهم على الغيب.

بحث روائى

عن تفسير العياشى، عن أبى جعفر (ع): أنه سأله المعتصم عن السارق من أى موضع يجب أن يقطع؟ فقال : إن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع- فتترک الکف.

فقال: و ما الحجة فى ذلک؟ قال: قول رسول الله ص: السجود على سبعة أجزاء:

الوجه و اليدين و الركبتين و الرجلين- فإذا قطع من الكرسوع أو المرفق- لم يدع له يدا يسجد عليها و قال الله : «وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ» يعنى به هذه الأعضاء السبعة التى يسجد عليها- «فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً» و ما كان لله فلا يقطع.

الحديث.

و فى الكافى، بإسناده عن حماد بن عيسى عن أبى عبد الله (ع) فى حديث: و سجد يعنى أبا عبد الله (ع) على ثمانية أعظم: الكفين و الركبتين و إبهامى الرجلين و الجبهة و الأنف، و قال : سبعة منها فرض يسجد عليها- و هى التى ذكرها الله فى كتابه فقال: «وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً » و هى الجبهة و الكفان و الركبتان و الإبهامان- و وضع الأنف على الأرض سنة.

و عن الخرائج و الجرائح، روى محمد بن الفضل الهاشمى عن الرضا (ع): أنه نظر إلى ابن هذاب فقال : إن أنا أخبرتک أنک ستبتلى فى هذه الأيام- بدم ذى رحم لک لکنت مصدقا لى؟ قال : لا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى . قال: أ و ليس أنه يقول: «عالِمُ

ص:59

الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً- إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ» فرسول الله ص عند الله مرتضى، و نحن ورثة ذلک الرسول- الذى أطلعه الله على ما يشاء من غيبه- فعلمنا ما كان و ما يكون إلى يوم القيامة.

أقول: و الأخبار فى هذا الباب فوق حد الإحصاء، و مدلولها أن النبى ص أخذه بوحى من ربه و أنهم أخذوه بالوراثة منه (ص).

(٧٣) سورة المزمل مكية و هى عشرون آية (٢٠)

[سورة المزمل (٧٣): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (۴)

إِنَّا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلاً ثَقِیلاً (۵) إِنَّ ناشِئَةَ اللَّیْلِ هِیَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِیلاً (۶) إِنَّ لَکَ فِی النَّهارِ سَبْحاً طَوِیلاً (۷) وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ وَ تَبَتَّلْ إِلَیْهِ تَبْتِیلاً (۸) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَکِیلاً (۹)

وَ اصْبِرْ عَلى‌ ما یَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِیلاً (۱۰) وَ ذَرْنِی وَ الْمُکَذِّبِینَ أُولِی النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِیلاً (۱۱) إِنَّ لَدَیْنا أَنْکالاً وَ جَحِیماً (۱۲) وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِیماً (۱۳) یَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ کانَتِ الْجِبالُ کَثِیباً مَهِیلاً (۱۴)

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَیْکُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَیْکُمْ کَما أَرْسَلْنا إِلى‌ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (۱۵) فَعَصى‌ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِیلاً (۱۶) فَکَیْفَ تَتَّقُونَ إِنْ کَفَرْتُمْ یَوْماً یَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِیباً (۱۷) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ کانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (۱۸) إِنَّ هذِهِ تَذْکِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى‌ رَبِّهِ سَبِیلاً (۱۹)

ص:60

بيان

السورة تأمر النبی ص بقيام الليل و الصلاة فيه ليستعد بذلک لتلقی ثقل ما سيلقى عليه من القول الثقيل و القرآن الموحى إليه، و تأمره أن يصبر على ما يقولون فيه أنه شاعر أو كاهن أو مجنون إلى غير ذلک و يهجرهم هجرا جميلا، و فيها وعيد و إنذار للكفار و تعميم الحكم لسائر المؤمنين، و فی آخرها تخفيف ما للنبی ص و المؤمنين.

و السورة مكية من عتائق السور النازلة فی أول البعثة حتى قيل: إنها ثانية السور النازلة على النبی ص أو ثالثتها.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» بتشديد الزای و الميم و أصله المتزمل اسم فاعل من التزمل بمعنى التلفف بالثوب لنوم و نحوه، و ظاهره أنه (ص) كان قد تزمل بثوب للنوم فنزل عليه الوحی و خوطب بالمزمل.

و ليس فی الخطاب به تهجين و لا تحسين كما توهمه بعضهم، نعم يمكن أن يستفاد من سياق الآيات أنه (ص) كان قد قوبل فی دعوته بالهزء و السخرية و الإيذاء فاغتم فی الله فتزمل بثوب لينام دفعا للهم فخوطب بالمزمل و أمر بقيام الليل و الصلاة فيه و الصبر على ما يقولون على حد قوله تعالى : «اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ »: البقرة: ۱۵۳ فأفيد بذلک أن عليه أن يقاوم الكرب العظام و النوائب المرة بالصلاة و الصبر لا بالتزمل و النوم.

و قيل: المراد يا أيها المتزمل بعباءة النبوة أی المتحمل لأثقالها، و لا شاهد عليه من جهة اللفظ.

قوله تعالى: «قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » المراد بقيام الليل القيام فيه إلى الصلاة فالليل مفعول به توسعا كما فی قولهم:

دخلت الدار، و قيل: معمول «قُمِ» مقدر و «اللَّيْلَ» منصوب على الظرفية و التقدير قم إلى الصلاة فی الليل، و قوله : «إِلَّا قَلِيلًا» استثناء من الليل.

ص:61

و قوله: «نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » ظاهر السياق أنه بدل من «اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا » المتعلق به تكليف القيام، و ضميرا «مِنْهُ» و «عَلَيْهِ» للنصف، و ضمير «نِصْفَهُ» لليل، و المعنى قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا أو زد على النصف قليلا، و الترديد بين الثلاثة للتخيير فقد خير بين قيام النصف و قيام أقل من النصف بقليل و قيام أكثر منه بقليل.

و قيل: «نِصْفَهُ» بدل من المستثنى أعنى «قَلِيلًا» فيكون المعنى قم الليل إلا نصفه أو انقص من النصف قليلا فقم أكثر من النصف بقليل أو زد على النصف فقم أقل من النصف، و تكون جملة البدل رافعا لإبهام المستثنى بالمطابقة و لإبهام المستثنى منه بالالتزام عكس الوجه السابق.

و الوجهان و إن اتحدا فى النتيجة غير أن الوجه السابق أسبق إلى الذهن لأن الحاجة إلى رفع الإبهام عن متعلق الحكم أقدم من الحاجة إلى رفع الإبهام عن توابعه و ملحقاته فكون قوله: «نصفه» إلخ بدلا من الليل و لازمه رفع إبهام متعلق التكليف بالمطابقة أسبق إلى الذهن من كونه بدلا من «قَلِيلًا».

و قيل: إن نصفه بدل من الليل لكن المراد بالقليل القليل من الليالى دون القليل من أجزاء الليل، و المعنى قم نصف الليل أو انقص منه قليلا أو زد عليه إلا قليلا من الليالى و هى ليالى العذر من مرض أو غلبة نوم أو نحو ذلک، و لا بأس بهذا الوجه لكن الوجه الأول أسبق منه إلى الذهن.

و قوله: «وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » ترتيل القرآن تلاوته بتبيين حروفه على تواليها، و الجملة معطوفة على قوله : «قُمِ اللَّيْلَ» أى قم الليل و اقرأ القرآن بترتيل.

و الظاهر أن المراد بترتيل القرآن ترتيله فى الصلاة أو المراد به الصلاة نفسها و قد عبر سبحانه عن الصلاة بنظير هذا التعبير فى قوله: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً »: إسراء: ۷۸، و قيل: المراد إيجاب قراءة القرآن دون الصلاة.

قوله تعالى: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْکَ قَوْلًا ثَقِيلًا » الثقل كيفية جسمانية من خاصته أنه يشق حمل الجسم الثقيل و نقله من مكان إلى مكان و ربما يستعار للمعانى إذا شق على النفس

ص:62

تحملها أو لم تطقها فربما أضيف إلى القول من جهة معناه فعد ثقيلا لتضمنه معنى يشق على النفس إدراكه أو لا تطيق فهمه أو تتحرج من تلقيه كدقائق الأنظار العلمية إذا ألقيت على الأفهام العامة، أو لتضمنه حقائق يصعب التحقق بها أو تكاليف يشق الإتيان بها و المداومة عليها.

و القرآن قول إلهى ثقيل بكلا المعنيين: أما من حيث تلقى معناه فإنه كلام إلهى مأخوذ من ساحة العظمة و الكبرياء لا تتلقاه إلا نفس طاهرة من كل دنس منقطع عن كل سبب إلا الله سبحانه، و كتاب عزيز له ظهر و بطن و تنزيل و تأويل تبيانا لكل شىء، و قد كان ثقله مشهودا من حال النبى ص بما كان يأخذه من البرحاء و شبه الإغماء على ما وردت به الأخبار المستفيضة.

و أما من حيث التحقق بحقيقة التوحيد و ما يتبعها من الحقائق الاعتقادية فكفى فى الإشارة إلى ثقله قوله تعالى: «لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»: الحشر: ٢١، و قوله تعالى:

«وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى»: الرعد ٣١.

و أما من حيث القيام بما يشتمل عليه من أمر الدعوة و إقامة مراسم الدين الحنيف، و إظهاره على الدين كله فيشهد به ما لقى (ص) من المصائب و المحن فى سبيل الله و الأذى فى جنب الله على ما يشهد به الآيات القرآنية الحاكية لما لقيه النبى ص من المشركين و الكفار و المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض من أنواع الإيذاء و الهزء و الجفاء.

فقوله: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» المراد بالقول الثقيل القرآن العظيم على ما يسبق إلى الذهن من سياق هذه الآيات النازلة فى أول البعثة، و به فسره المفسرون.

و الآية فى مقام التعليل للحكم المدلول عليه بقوله: «قُمِ اللَّيْلَ» إلخ فتفيد بمقتضى السياق- و الخطاب خاص بالنبى ص- أن أمره بقيام الليل و التوجه فيه إليه تعالى بصلاة الليل تهيئة له و إعداد لكرامة القرب و شرف الحضور و إلقاء قول ثقيل فقيام الليل هى السبيل المؤدية إلى هذا الموقف الكريم و قد عد سبحانه صلاة الليل سبيلا إليه فى قوله الآتى: «إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا».

و قد زاد سبحانه وعدا على ما فى هذه الآية فى قوله: «وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً

ص:63

لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً»: إسراء: ٧٩ و قد تقدم معنى المقام المحمود فى تفسير الآية.

و إذ كان من ثقل القرآن ثقله من حيث التحقق بحقائقه و من حيث استجابته فيما يندب إليه من الشرائع و الأحكام فهو ثقيل على الأمة كما هو ثقيل عليه (ص) و معنى الآية إنا سنوحى إليك قولا يثقل عليك و على أمتك أما ثقله عليه (ص) فلما فى التحقق بحقائقه من الصعوبة و لما فيه من محنة الرسالة و ما يتبعها من الأذى فى جنب الله و ترك الراحة و الدعة و مجاهدة النفس و الانقطاع إلى الله مضافا إلى ما فى تلقيه من مصدر الوحى من الجهد، و أما ثقله على أمته فلأنهم يشاركونه (ص) فى لزوم التحقق بحقائقه و اتباع أوامره و نواهيه و رعاية حدوده كل طائفة منهم على قدر طاقته.

و للقوم فى معنى ثقل القرآن أقوال أخر:

منها: أنه ثقيل بمعنى أنه عظيم الشأن متين رصين كما يقال: هذا كلام له وزن إذا كان واقعا موقعه.

و منها: أنه ثقيل فى الميزان يوم القيامة حقيقة أو مجازا بمعنى كثرة الثواب عليه.

و منها: أنه ثقيل على الكفار و المنافقين بما له من الإعجاز و بما فيه من الوعيد.

و منها: أن ثقله كناية عن بقائه على وجه الدهر لأن الثقيل من شأنه أن يبقى و يثبت فى مكانه.

و منها: غير ذلک و الوجوه المذكورة و إن كانت لا بأس بها فى نفسها لكن ما تقدم من الوجه هو الظاهر السابق إلى الذهن.

قوله تعالى: «إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَکَ فِی النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا » الآية الأولى فى مقام التعليل لاختيار الليل وقتا لهذه الصلاة، و الآية الثانية فى مقام التعليل لترک النهار و الإعراض عنه كما أن الآية السابقة أعنى قوله : «إِنَّا سَنُلْقِی عَلَيْکَ قَوْلًا ثَقِيلًا» فى مقام التعليل لتشريع أصل هذه الصلاة.

فقوله: «إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا» الناشئة إما مصدر كالعاقبة و العافية بمعنى النشأة و هى الحدوث و التكون، و إما اسم فاعل من النشأة مضاف إلى موصوفه و كيف كان فال مراد بها الليل و إطلاق الحادثة على الليل كإطلاقها على سائر أجزاء

ص:PAGE=64ص:

الخلقة و ربما قيل: إنها الصلاة فى الليل و وطء الأرض وضع القدم عليها، و كونها أشد وطأ كناية عن كونها أثبت قدما لصفاء النفس و عدم تكدرها بالشواغل النهارية و قيل:

الوطء مواطاة القلب اللسان و أيد بقراءة «أَشَدُّ وَطْئاً» و المراد بكونها أقوم قيلا كونها أثبت قولا و أصوب لحضور القلب و هدوء الأصوات.

و المعنى أن حادثة الليل أو الصلاة فى الليل هى أثبت قدما- أو أشد فى مواطاة القلب اللسان و أثبت قولا و أصوب لما أن الله جعل الليل سكنا يستتبع انقطاع الإنسان عن شواغل المعيشة إلى نفسه و فراغ باله.

و قوله: «إِنَّ لَکَ فِی النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا » السبح المشى السريع فى الماء و السبح الطويل فى النهار كناية عن الغور فى مهمات المعاش و أنواع التقلب فى قضاء حوائج الحياة.

و المعنى أن لک فى النهار مشاغ ل كثيرة تشتغل بها مستوعبة لا تدع لک فراغا تشتغل فيه بالتوجه التام إلى ربک و الانقطاع إليه بذكره فعليک بالليل و الصلاة فيه.

و قيل: المعنى أن لک فى النهار فراغا لنومک و تدبير أمر معاشک و التصرف فى حوائجک فتهجد فى الليل.

و قیل: المعنی أن لک فی النهار فراغا فإن فاتک من اللیل شی ء أمکنک أن تتدارکه فی النهار و تقضیه فیه فالآیهٔ فی معنی قوله: «وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَهً لِمَنْ أَرادَ أَنْ یَذَّکَّرَ أَوْ أَرادَ شُکُوراً»: الفرقان: ۶۲.

و الذی قدمناه من المعنی أنسب للمقام.

قوله تعالی: «وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ وَ تَبَتَّلْ إِلَیْهِ تَبْتِیلًا» الظاهر أنه یصف صلاهٔ اللیل فهو کالعطف التفسیری علی قوله: «وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلًا» و علی هذا فالمراد بذکر اسم الرب تعالی الذکر اللفظی بمواطاهٔ من القلب و کذا المراد بالتبتل التبتل مع اللفظ.

و قیل: الآیهٔ تعمیم بعد التخصیص و المراد بالذکر دوام ذکره تعالی لیلا و نهارا علی أی وجه کان من تسبیح و تحمید و صلاهٔ و قراءهٔ قرآن و غیر ذلک، و إنما فسر الذکر بالدوام لأنه (ص) لم ینسه تعالی حتی یؤمر بذکره، و المراد الدوام العرفی دون الحقیقی لعدم إمکانه. انتهی.

و فیه أنه إن أراد بالذکر الذکر اللفظی فعدم نسیانه (ص) ربه تعالی لا ینافی أمره

ص:65

بالذکر اللفظی، و إن أراد ما یعم الذکر القلبی فهو ممنوع و لو سلم ففیه أولا أن عدم نسیانه (ص) ربه إلی حین الخطاب لا ینافی أمره بذکره بعده و ثانیا أن عده الدوام الحقیقی غیر ممکن و حمل الدوام علی العرفی وهم ناش عن عدم تحصیل المعنی علی ما هو علیه فالله جل ذکره مذکور للإنسان لا یغیب عنه و لا لحظهٔ سواء تنبه علیه الإنسان أو غفل عنه . و من الممکن أن یعرفه الله نفسه بحیث لا یغفل عنه و لا فی حال قال تعالی:

«فَالَّذِینَ عِنْدَ رَبِّکَ یُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا یَسْأَمُونَ»: حم السجدهٔ: ۳۸ و قال:

«یُسَبِّحُونَ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ لا یَفْتُرُونَ »: الأنبیاء: ۲۰ و قد تقدم فی تفسیر الآیتین و آخر سورهٔ الأعراف أن ذلک لا یختص بالملائکهٔ.

و بالجملهٔ قوله: «وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ» أمر بذکر اسم من أسمائه أو لفظ الجلالهٔ خاصهٔ و قیل: المراد به البسملهٔ.

و فی قوله: «رَبِّکَ» التفات عن التکلم مع الغیر فی قوله : «إِنَّا سَنُلْقِی» إلی الغیبهٔ و لعل الوجه فیه إیقاظ ذلهٔ العبودیهٔ التی هی الرابطهٔ بین العبد و ربه، بذکر صفهٔالربوبیهٔ .

و قوله «وَ تَبَتَّلْ إِلَیْهِ تَبْتِیلًا» فسر التبتل بالانقطاع أی و انقطع إلی الله، و من المروی عن أئمهٔ أهل البیت (ع) أن التبتل رفع الید إلی الله و التضرع إلیه، و هذا المعنی أنسب بناء علی حمل الذکر علی الذکر اللفظی کما تقدم.

و «تَبْتِیلًا» مفعول مطلق ظاهرا و کان مقتضی الظاهر أن یقال: و تبتل إلیه تبتلا فالعدول إلی التبتیل قیل: لتضمین تبتل معنی بتل، و المعنی و قطع نفسک من غیره إلیه تقطیعا أو احمل نفسک علی رفع الید إلیه و التضرع حملا، و قیل: لمراعاهٔ الفواصل.

قوله تعالی: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَ غْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَکِیلًا » وصف مقطوع عن الوصفیة و التقدیر هو رب المشرق و المغرب، و رب المشرق و المغرب فی معنی رب العالم کله فإن المشرق و المغرب جهتان نسبیتان تشملان جهات العالم المشهود کلها، و إنما اختصا بالذکر لمناسبة ما تقدم من ذکو اللیل و النهار المرتبطین بالشروق و الغروب.

و إنما لم یقتصر فی الإشارة إلی ربوبیته تعالی بقوله السابق: «رَبِّکَ» للإیذان بأنه (ص) مأمور باتخاذه ربا لأنه ربه و رب العالم کله لا لأنه ربه وحده کما ربما کان الرجل

ص:66

من الوثنیین یتخذ صنما لنفسه فحسب غیر ما اتخذه غیره من الأصنام و لو کان اتخاذه (ص) له تعالی ربا من هذا القبیل أو احتمل ذلک لم تصح دعوته إلی التوحید.

و لیکون قوله: رَبِّکَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ - و هو فی معنی رب العالم کله- توطئة و تمهیدا لقوله بعده: «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» یعلل به توحید الألوهیة فإن الألوهیة و هی المعبودیة من فروع الربوبیة التی هی الملک و التدبیر کما تقدم مرارا فهو تعالی الإله وحده لا إله إلا هو لأنه الرب وحده لا رب إلا هو.

و قوله: «فَاتَّخِذْهُ وَکِیلًا» أی فی جمیع أمورک، و توکیل الوکیل هو إقامة الإنسان غیره مقام نفسه بحیث تقوم إرادته مقام إرادته و عمله مقام عمله فاتخاذه تعالی وکیلا أن یری الإنسان الأمر کله له و إلیه تعالی أما فی الأمور الخارجیة و الحوادث الکونیة فأن لا یری لنفسه و لا لشی ء من الأسباب الظاهریة استقلالا فی التأثیر فلا مؤثر فی الوجود بحقیقة م عنی التأثیر إلا الله فلا یتعلق بتأثیر سبب من الأسباب برضی أو سخط أو سرور أو أسف و غیر ذلک بل یتوسل إلی مقاصده و مآربه بما عرفه الله من الأسباب من غیر أن یطمئن إلی استقلالها فی التأثیر و یرجع الظفر بالمطلوب إلی الله لیختار له ما یرتضیه.

و أما الأمور التی لها تعلق بالعمل من العبادات و المعاملات فأن یجعل إرادته تابعة لإرادة ربه التشریعیة فیعمل علی حسب ما یریده الله تعالی منه فیما شرع من الشریعة.

و من هنا یظهر أن لقوله: «فَاتَّخِذْهُ وَکِیلًا» ارتباطا بقوله: «وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ» إلخ و ما تقدم علیه من الأوامر التشریعیة کما أن له ارتباطا بما تأخر عنه من قوله «وَ اصْبِرْ» و قوله «اهْجُرْهُمْ» و قوله: «وَ ذَرْنِی».

قوله تعالی: «وَ اصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِیلًا » معطوف هو و ما بعده علی مدخول الفاء فی قوله : «فَاتَّخِذْهُ وَکِیلًا» فالمعنی اتخذه وکیلا و لازم اتخاذه وکیلا أن تصبر علی ما یقولون مما فیه إیذاؤک و الاستهزاء بک و رمیک بما لیس فیک کقولهم:

افتری علی الله، کاهن شاعر، مجنون، أساطیر الأولین و غیر ذلک مما یقصه القرآن.

و أن تهجرهم هجرا جميلا، و المراد بالهجر الجميل على ما يعطيه السياق أن يعاملهم بحسن الخلق و الدعوة إلى الحق بالمناصحة، و لا يواجه قولهم بما فى وسعه من المقابلة بالمثل، و الآية لا تدافع آية القتال فلا وجه لقول من قال : إنها منسوخة بآية القتال.

ص:67

قوله تعالى: «وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا» تهديد للكفار يقال:

دعنى و فلانا و ذرنى و فلانا أى لا تحل بينى و بينه حتى أنتقم منه.

و المراد بالمكذبين أولى النعمة الكفار المذكورون فى الآية السابقة أو رؤساؤهم المتبوعون، و الجمع بين توصيفهم بالمكذبين و توصيفهم بأولى النعمة للإشارة إلى علة ما يهددهم به من العذاب فإن تكذيبهم بالدعوة الإلهية و هم متنعمون بنعمة ربهم كفران منهم بالنعمة و جزاء الكفران سلب النعمة و تبديلها من النقمة.

و المراد بالقليل الذى يمهلونه الزمان القليل الذى يمكثون فى الأرض حتى يرجعوا إلى ربهم فيحاسبهم و يجا زيهم قال تعالى: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً»: المعارج: ٧، و قال: «مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ»: آل عمران ١٩٧.

و الآية بظاهرها عامة، و قيل : وعيد لهم بوقعة بدر و ليس بظاهر، و فى الآية التفات عن الغيبة ف ى «رَبِّكَ» إلى التكلم وحده فى «ذَرْنِي» و لعل الوجه فيه تشديد التهديد بنسبة الأمر إليه سبحانه نفسه ثم التفت فى قوله : «إِنَّ لَدَيْنا» إلى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

قوله تعالى: «إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وَ جَحِيماً» تعليل لقوله «ذَرْنِي» إلخ و الأنكال القيود، قال الراغب يقال: نكل عن الشىء ضعف و عجز، و نكلته قيدته و النكل- بالكسر فالسكون- قيد الدابة و حديدة اللجام لكونهما مانعين، و الجمع الأنكال انتهى، و قال : الجحمة شدة تأجج النار و منه الجحيم، انتهى.

قوله تعالى: «وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِيماً» قال فى المجمع،: الغصة تردد اللقمة فى الحلق و لا يسيغها آكلها يقال: غص بريقه يغص غصصا، و فى قلبه غصة من كذا و هى كاللدغة التى لا يسوغ معها الطعام و الشراب، انتهى.

و الآيتان تذكران نقم الآخرة التى بدلت منها نعم الدنيا جزاء لكفرانهم بنعم الله.

قوله تعالى : «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا » ظرف للعذاب الموعود فى الآيتين السابقتين، قال الراغب،: الرجف الاضطراب الشديد يقال:

رجفت الأرض و البحر انتهى. و فى المجمع،: الكثيب الرمل المجتمع الكثير، و هلت أهيله هيلا فهو مهيل إذا حرك أسفله فسال أعلاه انتهى، و المعنى ظاهر.

ص:68

قوله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا» إنذار للمكذبين أولى النعمة من قومه (ص) بعد ما أوعد مطلق المكذبين أولى النعمة بما أعد لهم من العذاب يوم القيامة بقياس حالهم إلى حال فرعون المستكبر على الله و رسوله المستذل لرسول الله و من آمن معه من قومه ثم قرع أسماعهم بما انتهى إليه أمر فرعون من أخذ الله له أخذا وبيلا فليتعظوا و ليأخذوا حذرهم.

و فى الآية التفات عن الغيبة إلى الخطاب كان المتكلم لما أوعدهم بالعذاب على الغيبة هاج به الوجد على أولئك المكذبين بما يلقون أنفسهم بأيديهم إلى الهلاك الأبدى لسفاهة رأيهم فشافههم بالإنذار ليرتفع عن أنفسهم أى شك و ترديد و تتم عليهم الحجة و لعلهم يتقون، و لذا عقب قياسهم إلى فرعون و   قياس النبى ص إلى موسى (ع) و الإشارة إلى عقابه أمر فرعون بقوله «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً» إلخ.

فقوله: «إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ » إشارة إلى تصديق رسالة النبى ص من قبله تعالى و شهادته على أعمالهم بتحملها فى الدنيا و تأديتها يوم القيامة، و قد تقدم البحث عن معنى شهادة الأعمال فى الآيات المشتملة عليها مرارا، و فى الإشارة إلى شهادته (ص) نوع زجر لهم عن عصيانه و مخالفته و تكذيبه.

و قوله: «كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا» هو موسى بن عمران (ع).

قوله تعالى: «فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا» أى شديدا ثقيلا.

إشارة إلى عاقبة أمر فرعون فى عصيانه موسى   (ع)، و فى التعبير عن موسى بالرسول إشارة إلى أن السبب الموجب لأخذ فرعون مخالفته أمر رسالته لا نفس موسى بما أنه موسى، و إذا كان السبب هو مخ   الفة الرسالة فليحذروا مخالفة رسالة محمد ص.

كما أن وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله : «فَعَصى فِرْعَوْنُ» للإيماء إلى أن ما كان له من العزة و العلو فى الأرض و التبجح بكثرة العدة و سعة المملكة و نفوذ المشية لم يغن عنه شيئا و لم يدفع عنه عذاب الله فما الظن بهؤ لاء المكذبين؟ و هم كما قال الله: «جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ»: ص ١١.

قوله تعالى: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً » نسبة الاتقاء إلى اليوم من المجاز العقلى و المراد اتقاء العذاب الموعود فيه، و عليه فيوما مفعول به لتتقون،

ص:69

و قيل: مفعول «تَتَّقُونَ» محذوف و «يَوْماً» ظرف له و التقدير فكيف تتقون العذاب الكائن فى يوم، و قيل : المفعول محذوف و «يَوْماً» ظرف للاتقاء و قيل غير ذلك.

و قوله: «يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً» الشيب جمع أشيب مقابل الشاب، و جعل الولدان شيبا كناية عن شدة اليوم لا عن طوله.

قوله تعالى: «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » إشارة بعد إشارة إلى شدة اليوم، و الانفطار الانشقاق و تذكير الصفة لكون السماء جائز الوجهين يذكر و يؤنث، و ضمير «بِهِ» لليوم، و الباء بمعنى فى أو للسببية، و المعنى السماء منشقة فى ذلک اليوم أو بسبب ذلک اليوم أى بسبب شدته.

و قوله: «كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا» استئناف لتسجيل ما تقدم من الوعيد و أنه حتم مقضى و نسبة الوعد إلى ضميره تعالى لعله للإشعار بأن لا يصلح لهذا الوعد إلا الله تعالى فيكفى فيه الضمير من غير حاجة إلى ذكره باسمه.

قوله تعالى: «إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا» الإشارة بهذه إلى الآيات السابقة بما تشتمل عليه من القوارع و الزواجر، و التذكرة الموعظة التى يذكر بها ما يعمل عليه.

و قوله: «فَمَنْ شاءَ» مفعول «شاءَ» محذوف و المعروف فى مثل هذا المورد أن يقدر المفعول من جنس الجواب و السياق يلائمه، و التقدير فمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا اتخذ إلخ، و قيل : المقدر الاتعاظ، و المراد باتخاذ السبيل إليه اتخاذ السبيل إلى التقرب منه، و السبيل هو الإيمان و الطاعة هذا ما ذكره المفسرون.

و من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى ما تقدم فى صدر السورة من الآيات النادبة إلى قيام الليل و التهجد فيه، و الآية مسوقة لتوسعة الخطاب و تعميمه لغير النبى ص من المؤمنين بعد ما كان خطاب صدر الصورة مختصا به (ص)، و الدليل على هذا التعميم قوله: «فَمَنْ شاءَ» إلخ.

و يؤيد ما ذكرنا وقوع هذه الآية «إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ» إلخ بعينها فى سورة الدهر بعد ما أشير إلى صلاة الليل بقوله تعالى: «وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا» و يستنتج من ذلک أن صلاة الليل سبيل خاصة تهدى العبد إلى ربه.

ص:70

بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج البزار و الطبرانى فى الأوسط و أبو نعيم فى الدلائل عن جابر قال *: اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما يصدر الناس عنه فقالوا:

كاهن. قالوا ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا ساحر. قالوا: ليس بساحر. قالوا: يفرق بين الحبيب و حبيبه- فتفرق المشركون على ذلک.

فبلغ ذلک النبى ص فتزمل فى ثيابه و تدثر فيها- فأتاه جبريل فقال: يا أيها المزمل يا أيها المدثر.

أقول: آخر الروایة لا یخلو من شی ء حیث إن ظاهرها نزول السورتین معا . علی أن القرآن حتی فی سورة ا لمدثر یحکی تسمیتهم له (ص) بألقاب السوء کالکاهن و الساحر و المجنون و الشاعر و لم یذکر فیها قولهم: یفرق بین الحبیب و حبیبه.

و فیه، أخرج عبد الله بن أحمد فی کتاب الزهد و محمد بن نصر فی کتاب الصلاة عن عائشة قالت *: کان النبی ص قلما ینام من اللیل لما قال الله له: «قُمِ اللَّیْلَ إِلَّا قَلِیلًا».

و فی الکشاف، عن عائشة": أنها سألت: ما کان تزمیله؟ قالت: کان مرطا طوله أربع عشرة ذراعا- نصفه علی و أنا نائمة و نصفه علیه و هو یصلی. فسئلت: ما کان؟ قالت: و الله ما کان خزا و لا قزا- و لا مرعزیا و لا إبریسما و لا صوفا . کان سداه شعرا و لحمته وبرا.

أقول: الروایة مرمیة بالوضع فإن السورة من العتائق النازلة بمکة، و عائشة إنما بنی علیها النبی ص بالمدینة بعد الهجرة.

و عن جوامع الجامع، روی: أنه قد دخل علی خدیجة و قد جئث فرقا «۱» فقال: زملونی فبینا هو علی ذلک إذ ناداه جبریل : «یا أیها الْمُزَّمِّلُ».

و فی الدر المنثور، أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر قال "*: لما نزلت «یا أَیُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّیْلَ إِلَّا قَلِیلًا» مکث النبی ص علی هذه الحال عشر سنین- یقوم اللیل کما أمره الله- و کانت طائفة من أصحابه یقومون معه- فأنزل الله بعد عشر سنین «إِنَّ رَبَّکَ یَعْلَمُ أَنَّکَ تَقُومُ- إلی قوله- وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ» فخفف الله عنهم بعد عشر سنین.

---

(۱) جئث الرجل ثقل عند القیام أو عند حمل شیء ثقیل و الفرق: الفزع و الخوف.

ص:71

أقول: و روی نزول آیة التخفیف بعد سنة و روی أیضا نزولها بعد ثمانیة أشهر، و لم یکن قیام اللیل واجبا علی غیر النبی ص کما أشیر إلیه بقوله تعالی «إِنَّ هذِهِ تَذْکِرَةٌ» الآیة کما تقدم، و یؤیده ما فی الروایة من قوله: «و طائفة من أصحابه».

و فی التهذیب، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبی جعفر (ع) قال*: سألته عن قول الله تعالی : «قُمِ اللَّیْلَ إِلَّا قَلِیلًا » قال: أمره الله أن یصلی کل لیلة- إلا أن تأتی علیه لیلة من اللیالی لا یصلی فیها شیئا.

أقول: الروایة تشیر إلی أحد الوجوه فی الآیة و فی المجمع، : و قیل: إن نصفه بدل من القلیل فیکون بیانا للمستثنی، و یؤید هذا القول

ما روی عن الصادق (ع) قال: القلیل النصف أو انقص من القلیل قلیلا- أو زد علی القلیل قلیلا.

و فی الدر المنثور، أخرج العسکری فی المواعظ عن علی (ع)* أن رسول الله ص سئل عن قول الله : «وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» قال: بینه تبیینا، و لا تنثره نثر الدقل، و لا تهذه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، و حرکوا به القلوب، و لا یکن هم أحدکم آخر السورة.

أقول: و روی هذا المعنی فی أصول الکافی، بإسناده عن عبد الله بن سلیمان عن الصادق عن علی (ع)* و لفظ بینه تبیینا و لا تهذه هذ الشعر، و لا تنثره نثر الرمل، و لکن أفرغوا «۱» قلوبکم القاسیة- و لا یکن هم أحدکم آخر السورة.

و فیه، أخرج ابن أبی شیبة عن طاووس قال*: سئل رسول الله ص أی الناس أحسن قراءة- قال الذی إذا سمعته یقرأ رأیت أنه یخشی الله.

و فی أصول الکافی، بإسناده عن علی بن أبی حمزة قال قال أبو عبد الله (ع)*: إن القرآن لا یقرأ هذرمة «۲» و لکن یرتل ترتیلا- فإذا مررت بآیة فیها ذکر الجنة فقف عندها- و اسأل الله عز و جل الجنة، و إذا مررت بآیة فیها ذکر النار فقف عندها- و تعوذ بالله من النار.

و فی المجمع، فی معنی الترتیل عن أبی بصیر عن أبی عبد الله (ع) قال*: هو أن تتمکث فیه و تحسن به صوتک.

---

(۱) أفرغ الإناء: أخلاه.

(۲) الهذرمة: الإسراع فی القراءة.

و فیه، روی عن أم سلمة أنها قالت"*: کان رسول الله ص یقطع قراءته آیة آیة.

و فیه، عن أنس قال"*: کان (ص) یمد صوته مدا.

و فیه،: سأل الحارث بن هشام رسول الله ص فقال *: یا رسول الله کیف یأتیک الوحی؟ فقال (ص): أحیانا یأتینی مثل صلصلة الجرس- و هو أشد علی فیفصم «۱» عنی و قد وعیت ما قال- و أحیانا یتمثل الملک رجلا فأعی ما یقول.

قالت عائشة: إنه کان لیوحی إلی رسول الله ص- و هو علی راحلته فتضرب بجرانها.

قالت: و لقد رأیته ینزل علیه فی الیوم الشدید البرد- فیفصم عنه و إن جبینه لیرفض عرقا.

و عن تفسیر العیاشی، بإسناده عن عیسى بن عبید عن أبیه عن جده عن علی (ع) قال*: کان القرآن ینسخ بعضه بعضا، و إنما یؤخذ من أمر رسول الله ص بآخره.

و كان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة- نسخت ما قبلها و لم ينسخها شی ء- لقد نزلت عليه و هو على بغلة شهباء- و ثقل عليها الوحی حتى وقفت- و تدلى بطنها حتى رأيت سرتها تكاد تمس الأرض.

أقول: إن صحت الرواية كان ظهور أثر ثقل الوحی على الناقة أو البغلة من قبيل تجسم المعانی و كثيرا ما يوجد مثله فيما نقل من المعجزات و كرامات الأولياء، و أما اتصاف الوحی و هو كلام بالثقل المادی فغير معقول.

و فی التهذيب، بإسناده عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله (ع)* فی قول الله عز و جل:

«إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا» قال: يعنی بقوله: «وَ أَقْوَمُ قِيلًا» قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عز و جل لا يريد به غيره.:

أقول: و رواه أيضا بسندين آخرين فی التهذيب و العلل عن هشام عنه (ع).

و فی المجمع،: فی قوله تعالى: «إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ» الآية: و

المروی عن أبی جعفر و أبی عبد الله (ع) أنهما قالا: هی القيام فی آخر الليل.

---

(۱) الفصم: القطع.

ص:73

و فی الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن حسين بن علی* أنه رئی يصلی بين المغرب و العشاء- فقيل له فی ذلک؟ فقال: إنهما من الناشئة.

و فی المجمع،: فی قوله تعالى: «وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا»: و

روى محمد بن مسلم و زرارة و حمران عن أبی جعفر و أبی عبد الله (ع)* أن التبتل هذا رفع اليدين فی الصلاة.

و فی رواية أبی بصير قال: هو رفع يدک إلى الله و تضرعک.

أقول: و ينطبق على قنوت الصلاة، و فی رواية هو رفع اليدين و تحريک السبابتين، و فی رواية الإيماء بالإصبع و فی رواية الدعاء بإصبع واحدة يشير بها.

و فيه،": فی قوله تعالى: «وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ» الآية": عن عبد الله بن عمر": أن النبی ص سمع قارئا يقرأ هذا فصعق.

و فى تفسير القمى،": فى قوله: «وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا» قال: مثل الرمل ينحدر.

[سورة المزمل (۷۳): آية ۲۰]

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۰)

ص:74

بيان

آية مبنية على التخفيف فيما أمر به النبى ص فى صدر السورة من قيام الليل و الصلاة فيه ثم عمم الحكم لسائر المؤمنين بقوله: «إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ» الآية.

و لسان الآية هو التخفيف بما تيسر من القرآن من غير نسخ لأصل الحكم السابق بالمنع عن قيام ثلثى الليل أو نصفه أو ثلثه.

و قد ورد فى غير واحد من الأخبار أن الآية مكية نزلت بعد ثمانية أشهر أو سنة أو عشر سنين من نزول آيات صدر السورة لكن يوهنه اشتمال الآية على قوله تعالى:

«وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً» فإن ظاهره أن المراد بالزكاة- و قد ذكرت قبلها الصلاة و بعدها الإنفاق المستحب- هو الزكاة المفروضة و إنما فرضت الزكاة بالمدينة بعد الهجرة.

و قول بعضهم: إن الزكاة فرضت بمكة من غير تعيين الأنصباء و الذى فرض بالمدينة تعيين الأنصباء، تحكم من غير دليل، و كذا قول بعضهم: إنه من الممكن أن تكون الآية مما تأخر حكمه عن نزوله.

على أن فى الآية ذكرا من القتال إذ يقول: «وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و لم يكن من مصلحة الدعوة الحقة يومئذ ذاك و الظرف ذلك الظرف أن يقع فى متنها ذكر من القتال بأى وجه كان، فالظاهر أن الآية مدنية و ليست بمكية و قد مال إليه بعضهم.

قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ» إلى آخر الآية. الخطاب للنبى ص و فى التعبير بقوله: «رَبَّكَ» تلويح إلى شمول الرحمة و العناية الإلهية، و كذا فى قوله: «يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ» إلخ مضافا إلى ما فيه من لائحة الشكر قال تعالى: «وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً»: الدهر ۲۲.

و قوله: «تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ» أدنى اسم تفضيل من الدنو بمعنى القرب، و قد جرى العرف على استعمال أدنى فيما يقرب من الشىء و هو أقل فيقال:

إن عدتهم أدنى من عشرة إذا كانوا تسعة مثلا دون ما لو كانوا أحد عشر فمعنى قوله:

«أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ» أقرب من ثلثيه و أقل بقليل.

ص:75

و الواو العاطفة فى قوله: «وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ» لمطلق الجمع و المراد أنه يعلم أنک تقوم فى بعض الليالى أدنى من ثلثى الليل و فى بعضها نصفه و فى بعضها ثلثه.

و قوله: «وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَکَ » المراد المعية فى الإيمان و «مِنْ» للتبعيض فالآية تدل على أن بعضهم كان ىقوم الليل كما كان يقومه النبى ص. و قيل «من» بيانية، و هو كما ترى.

و قوله: «وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ» فى مقام التعليل لقوله: «إِنَّ رَبَّکَ يَعْلَمُ» و المعنى و كيف لا يعلم و هو الله الذى إليه الخلق و التقدير ففى تعيين قدر الليل و النهار تعيين ثلثهما و نصفهما و ثلثيهما، و نسبة تقدير الليل و النهار إلى اسم الجلالة دون اسم الرب و غيره لأن التقدير من شئون الخلق و الخلق إلى الله الذى إليه ينتهى كل شىء.

و قوله: «عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْ آنِ» الإحصاء تحصيل مقدار الشىء و عدده و الإحاطة به، و ضمير «لَنْ تُحْصُوهُ» للتقدير أو للقيام مقدار ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، و إحصاء ذلک مع اختلاف الليالى طولا و قصرا فى أيام السنة مما لا يتيسر لعامة المكلفين و يشتد عسرا لمن نام أول الليل و أ راد القيام بأحد المقادير الثلاثة دون أن يحتاط بقيام جميع الليل أو ما فى حكمه.

فالمراد بقوله: «عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ» علمه تعالى بعدم تيسر إحصاء المقدار الذى أمروا بقيامه من الليل لعامة المكلفين.

و المراد بقوله: «فَتابَ عَلَيْكُمْ» توبته تعالى و رجوعه إليهم بمعنى انعطاف الرحمة الإلهية عليهم بالتخفيف فلله سبحانه توبة على عباده ببسط رحمته عليهم و أثرها توفيقهم للتوبة أو لمطلق الطاعة أو رفع بعض التكاليف أو التخفيف قال تعالى : «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا»: التوبة ١١٨.

كما أن له توبة عليهم بمعنى الرجوع إليهم بعد توبتهم و أثرها مغفرة ذنوبهم، و قد تقدمت الإشارة إليه.

و المراد بقوله: «فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» التخفيف فى قيام الليل من حيث المقدار لعامة المكلفين تفريعا على علمه تعالى أنهم لن يحصوه.

و لازم ذلک التوسعة فى التكليف بقيام ا لليل من حيث المقدار حتى يسع لعامة المكلفين الشاق عليهم إحصاؤه دون النسخ بمعنى كون قيام الثلث أو النصف أو الأدنى من الثلثين

ص:76

لمن استطاع ذلک بدعة محرمة و ذلک أن الإحصاء المذکور إنما لا یتیسر لمجموع المکلفین لا لجمیعهم و لو امتنع لجمیعهم و لم یتیسر لأحدهم لم یشرع من أصله و لا یکلف الله نفسا إلا وسعها.

على أنه تعالى یصدق لنبیه (ص) و طائفة من الذین معه قیام الثلث و النصف و الأدنى من الثلثین و ینسب عدم التمکن من الإحصاء إلى الجمیع و هم لا محالة هم القائمون و غیرهم فالحکم إنما کان شاقا على المجموع من حیث المجموع دون کل واحد فوسع فی التکلیف بقوله : «فَاقْرَؤُا ما تَیَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » و سهل الأمر بالتخفیف لیکون لعامة المکلفین فیه نصیب مع بقاء الأصل المشتمل علیه صدر السورة على حاله لمن تمکن من الإحصاء و إرادة، و الحکم استحبابی لسائر المؤمنین و إن کان ظاهر ما للنبی ص من الخطاب الوجوب کما تقدمت الإشارة إلیه.

و للقوم فی کون المراد بقیام اللیل الصلاة فیه أو قراءة القرآن خارج الصلاة، و على الأول فی کونه واجبا على النبی ص و المؤمنین أو مستحبا للجمیع أو واجبا على النبی ص مستحبا لغیره ثم فی نسخ الحکم بالت خفیف بما تیسر بهذه الآیة أو تبدیل الصلاة من قراءة ما تیسر من القرآن أقوال لا کثیر جدوى فی التعرض لها و البحث عنها.

و قوله: «عَلِمَ أَنْ سَیَکُونُ مِنْکُمْ مَرْضى وَ آخَرُونَ یَضْرِبُونَ فِی الْأَرْضِ یَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ» إشارة إلى مصلحة أخرى مقتضیة للتخفیف فی أمر القیام ثلث اللیل أو نصفه أو أدنى من ثلثیه، وراء کونه شاقا على عامة المکلفین بالصفة المذکورة أولا فإن الإحصاء المذکور للمریض و المسافر و المقاتل مع ما هم علیه من الحال شاق عسیر جدا.

و المراد بالضرب فی الأرض للابتغاء من فضل الله طلب الرزق بالمسافرة من أرض إلى أرض للتجارة.

و قوله: «فَاقْرَؤُا ما تَیَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّکاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً » تکرار للتخفیف تأکیدا، و ضمیر «مِنْهُ» للقرآن، و المراد الإتیان بالصلاة على ما یناسب سعة الوقت الذی قاموا فیه.

و المراد بالصلاة المأمور بإقامتها الفریضة فإن کانت الآیة مدنیة فالفرائض الخمس الیومیة و إن کانت مکیة فبحسب ما کانت مفروضة من الصلاة، و المراد بالزکاة الزکاة

ص:77

المفروضة، و المراد بإقراضه تعالى غیر الزکاة من الإنفاقات المالیة فی سبیل الله.

و عطف الأمر بإقامة الصلاة و إیتاء الزکاة و الإقراض للتلویح إلى أن التکالیف الدینیة على حالها فی وجوب الاهتمام بها و الاعتناء بأمرها، فلا یتوهمن متوهم سریان التخفیف و المسامحة فی جمیع التکالیف فالآیة نظیرة قوله فی آیة النجوى: «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَیْکُمْ فَأَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّکاةَ وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ»: المجادلة: ١٣.

و قوله: «وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِکُمْ مِنْ خَیْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَیْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً» «مِنْ خَیْرٍ» بیان للموصول، و المراد بالخیر مطلق الطاعة أعم من الواجبة و المندوبة، و «هُوَ» ضمیر فصل أو تأکید للضمیر فی «تجدوه».

و المعنى: و الطاعة التى تقدمونها لأنفسكم- أى لتعيشوا بها فى الآخرة- تجدونها عند الله- أى فى يوم اللقاء- خيرا من كل ما تعملون أو تتركون و أعظم أجرا.

و قوله: «وَ اسْتَغْفِرُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ختم الكلام بالأمر بالاستغفار، و فى قوله : «إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » إشعار بوعد المغفرة و الرحمة، و لا يبعد أن يكون المراد بالاستغفار الإتيان بمط لق الطاعات لأنها وسائل يتوسل بها إلى مغفرة الله فالإتيان بها استغفار.

بحث روائی

فى تفسير القمى، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع)* فى قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّکَ يَعْلَمُ- أَنَّکَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ » ففعل النبى ص ذلک و بشر الناس به- فاشتد ذلک عليهم- و «عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » و كان الرجل يقوم و لا يدرى متى ينتصف الليل- و متى يكون الثلثان، و كان الرجل يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظه.

فأنزل الله «إِنَّ رَبَّکَ يَعْلَمُ أَنَّکَ تَقُومُ- إلى قوله- عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ» يقول:

متى يكون النصف و الثلث نسخت هذه الآية «فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ»، و اعلموا أنه لم يأت نبى قط إلا خلا بصلاة الليل، و لا جاء نبى قط بصلاة الليل فى أول الليل.

أقول: محصل الرواية أن صدر السورة توجب صلاة الليل و ذيلها تنسخها، و روى ما يقرب منه من طرق أهل السنة عن ابن عباس و غيره، و قد تقدم ما يتعلق به فى البيان السابق.

ص:78

و فى المجمع، روى الحاكم أبو القاسم إبراهيم الحسكانى بإسناده عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس "* فى قوله تعالى: «وَ طٰائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَکَ» قال: على و أبو ذر.

و فيه،: فى قوله تعالى: «فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ»:

روى عن الرضا عن أبيه عن جده (ع) قال*: ما تيسر منه لكم فيه خشوع القلب و صفاء السر.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ص * «فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ » قال: مائة آية.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال *: قال رسول الله ص : ما من جالب يجلب طعاما إلى بلد من بلاد المسلمين- فيبيعه بسعر يومه- إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد . ثم قرأ رسول الله ص «وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ- وَ آخَرُونَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ».

و فی تفسیر القمی، بإسناده عن زرعة عن سماعة قال*: سألته عن قول الله: «وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً» قال: هو غیر الزکاة.

و فی الخصال، عن أمیر المؤمنین (ع) فی حدیث الأربعمائة: أکثروا الاستغفار تجلبوا الرزق، و قدموا ما استطعتم من عمل الخیر تجدوه غدا.

أقول: ذیله مأخوذ من قوله تعالی: «وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِکُمْ مِنْ خَیْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَیْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً».

(۷۴) سورة المدثر مکیة و هی ست و خمسون آیة (۵۶)

[سورة المدثر (۷۴): الآیات ۱ الی ۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ (۱) قُمْ فَأَنْذِرْ (۲) وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ (۳) وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ (۴)

وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (۵) وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَکْثِرُ (۶) وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ (۷)

ص:79

بیان

تتضمن السورة أمر النبی ص بالإنذار فی سیاق یلوح منه کونه من أوامر أوائل البعثة ثم الإشارة إلی عظم شأن القرآن الکریم و جلالة قدره، و الوعید الشدید علی من یواجهه بالإنکار و الرمی بالسحر، و ذم المعرضین عن دعوته.

و السورة مکیة من العتائق النازلة فی أوائل البعثة و ظهور الدعوة حتی قیل : إنها أول سورة نزلت من القرآن و إن کان یکذبه نفس آیات السورة الصریحة فی سبق قراءته (ص) القرآن علی القوم و تکذیبهم به و إعراضهم عنهم و رمیهم له بأنه سحر یؤثر.

و لذا مال بعضهم إلی أن النازل أولا هی الآیات السبع الواقعة فی أول السورة و لازمه کون السورة غیر نازلة دفعة و هو و إن کان غیر بعید بالنظر إلی متن الآیات السبع لکن یدفعه سیاق أول سورة العلق الظاهر فی کونه أول ما نزل من القرآن.

و احتمل بعضهم أن تکون السورة أول ما نزل ع لی النبی ص عند الأمر بإعلان الدعوة بعد إخفائها مدة فی أول البعثة فهی فی معنی قوله: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ »: الحجر ۹۴، و بذلک جمع بین ما ورد من أنها أول ما نزل، و ما ورد أنها نزلت بعد سورة العلق، و ما ورد أن سورتی المزمل و المدثر نزلتا معا، و هذا القول لا یتعدی طور الاحتمال.

و کیف کان فالمتیقن أن السورة من أوائل ما نزل علی النبی ص من السور القرآنیة، و الآیات السبع التی نقلناها تتضمن الأمر بالإنذار و سائر الخصال التی تلزمه مما وصاه الله به.

قوله تعالی: «یا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ» المدثر بتشدید الدال و الثاء أصله المتدثر اسم فاعل من التدثر بمعنی التغطی بالثیاب عند النوم.

و المعنی: یا أیها المتغطی بالثیاب للنوم خطاب للنبی ص و قد کان علی هذه الحال فخوطب بوصف مأخوذ من حاله تأنیسا و ملاطفة نظیر قوله: «یا أَیُّهَا الْمُزَّمِّلُ».

و قیل.: المراد بالتدثر تلبسه (ص) بالنبوة بتشبیهها بلباس یتحلی به و یتزین و قیل:

المراد به اعتزاله (ص) و غیبته عن النظر فهو خطاب له بما کان علیه فی غار حراء، و قیل : المراد به الاستراحة و الفراغ فکأنه قیل له (ص): یا أیها المستریح الفارغ قد

ص:80

انقضی زمن الراحة و أقبل زمن متاعب التکالیف و هدایة الناس.

و هذه الوجوه و إن کانت فی نفسها لا بأس بها لکن الذی یسبق إلی الذهن هو المعنی الأول.

قوله تعالی: «قُمْ فَأَنْذِرْ» الظاهر أن المراد به الأمر بالإنذار من غیر نظر إلی من ینذر فالمعنی افعل الإنذار، و ذکر بعضه م أن مفعول الفعل محذوف، و التقدیر أنذر عشیرتک الأقربین لمناسبته لابتداء الدعوة کما ورد فی سورة الشعراء.

و ذکر آخرون أن المفعول المحذوف عام و هو جمیع الناس لقوله: «وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلّا کَافَّةً لِلنّاسِ»: سبأ: ٢٨.

و لم یذکر التبشیر مع الإنذار مع أنهما کالمتلازمین فی تمام الدعوة لأن السورة مما نزل فی ابتداء الدعوة و الإنذار هو الغالب إذ ذاک.

قوله تعالی: «وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ» أی أنسب ربک إلی الکبریاء و العظمة اعتقادا و عملا قولا و فعلا و هو تنزیهه تعالی من أن یعادله أو یفوقه شیء فلا شیء یشارکه أو یغلبهأو یمانعه، و لا نقص یعرضه، و لا وصف یحده.

و لذا ورد عن أئمة أهل البیت (ع) أن معنی التکبیر: الله أکبر من أن یوصف، فهو تعالی أکبر من کل وصف نصفه به حتی من هذا الوصف، و هذا هو المناسب للتوحید الإسلامی الذی یفوق ما نجده من معنی التوحید فی سائر الشرائع السماویة.

و هذا الذی ذکرناه هو الفرق بین کلمتی التکبیر و التسبیح- الله أکبر و سبحان الله- فسبحان الله تنزیه له تعالی عن کل وصف عدمی مبنی علی النقص کالموت و العجز و الجهل و غیر ذلک، و الله أکبر تنزیه مطلق له تعالی عن کل وصف نصفه به أعم من أن یکون عدمیا أو وجودیا حتی من نفس هذا الوصف لما أن کل مفهوم محدود فی نفسه لا یتعدی إلی غیره من المفاهیم و هو تعالی لا یحیط به حد، فافهم ذلک.

و قیل: المراد الأمر بالتکبیر فی الصلاة.

و التعبير عنه تعالى بربک لا یخلو من إشعار بأن توحیده تعالى یومئذ کان یختص به.

قال فی الکشاف، فی قوله: «فَکَبِّرْ»: و دخلت الفاء لمعنى الشرط کأنه قیل: و ما کان فلا تدع تکبیره.

ص:81

قوله تعالى: «وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ » قیل: کنایة عن إصلاح العمل، و لا یخلو من وجه فإن العمل بمنزلة الثیاب للنفس بما لها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن، و کثیرا ما یکنى فی کلامهم عن صلاح العمل بطهارة الثیاب.

و قیل: کنایة عن تزکیة النفس و تنزیهها عن الذنوب و المعاصی.

و قیل: المراد تقصیر الثیاب لأنه أبعد من النجاسة و لو طالت و انجرت على الأرض لم یؤمن أن تتنجس.

و قیل: المراد تطهیر الأزواج من الکفر و المعاصی لقوله تعالى: «هُنَّ لِباسٌ لَکُمْ» البقرة ١٨٧.

و قیل: الکلام على ظاهره و المراد تطهیر الثیاب من النجاسات للصلاة و الأقرب على هذا أن یجعل قوله : «وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ » إشارة إلى تکبیر الصلاة و تکون الآیتان مسوقتین لتشریع أصل الصلاة مقارنا للأمر بالدعوة.

و لا یرد علیه ما قیل: إن نزول هذه الآیات کان حیث لا صلاة أصلا و ذلک أن تشریع الفرائض الخمس الیومیة على ما هی علیها الیوم و إن کان فی لیلة المعراج و هی جمیعا عشر رکعات ثم زید علیها سبع رکعات إلا أن أصل الصلاة کان منذ أوائل البعثة کما یشهد به ذکرها فی هذه السورة و سورتی العلق و المزمل، و یدل علیه الروایات.

و قیل: المراد بتطهیر الثیاب التخلق بالأخلاق الحمیدة و الملکات الفاضلة.

و فی معنى تطهیر الثیاب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها لإمکان إرجاعها إلى بعض ما تقدم من الوجوه، و أرجح الوجوه المتقدمة أولها و خامسها.

قوله تعالى: «وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ» قیل: الرجز بضم الراء و کسرها العذاب، و المراد بهجره هجر سببه و هو الإثم و المعصیة، و المعنى اهجر الإثم و المعصیة.

و قیل: الرجز اسم لکل قبیح مستقذر من الأفعال و الأخلاق فالأمر بهجره أمر بترک کل ما یکرهه الله و لا یرتضیه مطلقا، أو أمر بترک خصوص الأخلاق الرذیلة الذمیمة على تقدیر أن یکون المراد بتطهیر الثیاب ترک الذنوب و المعاصی.

و قیل: الرجز هو الصنم فهو أمر بترک عبادة الأصنام.

ص:82

قوله تعالی: «وَ لاٰ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ» الذی یعطیه سیاق الآیات و یناسب المقام أن یکون المراد بالمن تکدیر الصنیعة بذکرها للمنعم علیه کما فی قوله تعالی: «لاٰ تُبْطِلُوا صَدَقٰاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ اَلْأَذیٰ»: البقرة: ۲۶۴، و قوله: «یَمُنُّونَ عَلَیْکَ أَنْ أَسْلَمُوا»: الحجرات ۱۷ و المراد بالاستکثار رؤیة الشیء و حسبانه کثیرا لا طلب الکثرة.

و المعنی: لا تمنن امتثالک لهذه الأوامر و قیامک بالإنذار و تکبیرک ربک و تطهیرک ثیابک و هجرک الرجز حال کونک تری ذلک کثیرا و تعجبه- فإنما أنت عبد لا تملک من نفسک شیئا إلا ما ملکک الله و أقدرک علیه و هو المالک لما ملکک و القادر علی ما علیه أقدرک فله الأمر و علیک الامتثال-.

و للقوم فی الآیة وجوه أخر من التفسیر لا تلائم السیاق تلک الملاءمة فقیل المعنی لا تعط عطیة لتعطی أکثر منها.

و قیل: المعنی لا تمنن ما أعطاک الله من النبوة و القرآن علی الناس مستکثرا به الأجر.

و قیل: أی لا تمنن إبلاغ الرسالة علی أمتک.

و قیل: المعنی لا تضعف فی عملک مستکثرا لطاعاتک .

و قیل: المعنی لا تمنن بعطائک علی الناس مستکثرا له.

و قیل: أی إذا أعطیت عطیة فأعطها لربک و اصبر حتی یکون هو الذی یثیبک.

و قیل: هو نهی عن الربا المحرم أی لا تعط شیئا طالبا أن تعطی أکثر مما أعطیت.

قوله تعالی: «وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ» أی لوجه ربک، و الصبر مطلق یشمل الصبر عند المصیبة و الصبر علی الطاعة و الصبر عن المعصیة، و المعنی و لوجه ربک فاصبر عند ما یصیبک من المصیبة و الأذی فی قیامک بالإنذار و امتثالک هذه الأوامر و اصبر علی طاعة الله و اصبر عن معصیته، و هذا معنی جامع لمتفرقات ما ذکروه فی تفسیر الآیة کقول بعضهم: إنه أمر بنفس الفعل من غیر نظر إلی متعلقه، و قول بعضهم: إنه الصبر علی أذی المشرکین، و قول بعضهم: إنه الصبر علی أداء الفرائض، إلی غیر ذلک.

ص:83

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج الطیالسی و عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حمید و البخاری و مسلم و الترمذی و ابن الضریس و ابن جریر و ابن المنذر و ابن مردویه و ابن الأنباری فی المصاحف عن یحیی بن أبی کثیر قال ❊: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن- فقال: یا أیها المدثر قلت: یقولون: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ اَلَّذِی خَلَقَ؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلک، قلت له مثل ما قلت. قال جابر: لا أحدثک إلا ما حدثنا رسول الله ص.

قال: جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نوديت- فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا- و نظرت عن شمالى فلم أر شيئا، و نظرت خلفى فلم أر شيئا- فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء- جالس على كرسى بين السماء و الأرض- فجثت منه رعبا فرجعت فقلت: دثرونى دثرونى- فنزلت: «يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ- إلى قوله- وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ».

أقول: الحديث معارض بالأحاديث الآخر الدالة على كون سورة اقرأ أول ما نزل من القرآن و يؤيدها سياق سورة اقرأ، على أن قوله: «فإذا الملک الذى جاءنى بحراء» يشعر بنزول الوحى عليه قبلا.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة *: قلنا: يا رسول الله كيف نقول إذا دخلنا فى الصلاة؟ فأنزل الله «وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ» فأمرنا رسول الله ص أن نفتتح الصلاة بالتكبير .

أقول: و فى الرواية شى ء فأبو هريرة ممن آمن بعد الهجرة بكثير و السورة مما نزل فى أول البعثة فأين كان أبو هريرة أو الصحابة يومئذ؟.

و فى الخصال، عن أمير المؤمنين (ع) فى حديث الأربعمائة: تشمير الثياب طهور لها قال الله تبارک و تعالى : «وَ ثِيابَکَ فَطَهِّرْ» يعنى فشمر.

أقول: و فى المعنى عدة أخبار مروية فى الكافى، و المجمع، عن أبى جعفر و أبى عبد الله.

و أبى الحسن (ع).

و فى الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه و ابن مردويه عن جابر قال *: سمعت رسول الله ص يقول: «وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ» برفع الراء، و قال: هى الأوثان.

ص:84

أقول: و قوله: «هى الأوثان» من كلام جابر أو غيره من رجال السند.

و فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى: «وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ»: و فى رواية أبى الجارود يقول:

لا تعط تلتمس أكثر منها.

[سورة المدثر (۷۴): الآيات ۸ الى ۳۱]

فَإِذا نُقِرَ فِی النَّاقُورِ (۸) فَذلِکَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (۹) عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (۱۰) ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (۱۱) وَ جَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (۱۲)

وَ بَنِینَ شُهُوداً (١٣) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِیداً (١۴) ثُمَّ یَطْمَعُ أَنْ أَزِیدَ (١۵) کَلاَّ إِنَّهُ کانَ لِآیاتِنا عَنِیداً (١۶) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧)

إِنَّهُ فَکَّرَ وَ قَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (٢٢)

ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَکْبَرَ (٢٣) فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ یُؤْثَرُ (٢۴) إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢۵) سَأُصْلِیهِ سَقَرَ (٢۶) وَ ما أَدْراکَ ما سَقَرُ (٢٧)

لا تُبْقِی وَ لا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَیْها تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِ لاَّ مَلائِکَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِینَ کَفَرُوا لِیَسْتَیْقِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ وَ یَزْدادَ الَّذِینَ آمَنُوا إِیماناً وَ لا یَرْتابَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِیَقُولَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْکافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً کَذلِکَ یُضِلُّ اللَّهُ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ وَ ما یَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّکَ إِلاَّ هُوَ وَ ما هِیَ إِلاَّ ذِکْری لِلْبَشَرِ (٣١)

بیان

فی الآیات وعید شدید للطاعنین فی القرآن الرامین له بأنه سحر و المستهزءین لبعض ما فیه من الحقائق.

قوله تعالی: «فَإِذا نُقِرَ فِی النَّاقُورِ» النقر القرع و الناقور ما ینقر فیه للتصویت، و النقر فی الناقور کالنفخ فی الصور کنایة عن بعث الموتی و إحضارهم لفصل القضاء یوم القیامة و الجملة شرطیة جزاؤها قوله «فذلک» إلخ.

قوله تعالی: «فَذلِکَ یَوْمَئِذٍ یَوْمٌ عَسِیرٌ عَلَی الْکافِرِینَ غَیْرُ یَسِیرٍ» الإشارة بقوله «فَذلِکَ» إلی زمان نقر الناقور و لا یبعد أن یکون المراد بیومئذ یوم إذ یرجعون إلی الله للحساب و الجزاء أو یوم إذ یرجع الخلائق إلی الله فیکون ظرفا لیوم نقر الناقور فمن الجائز أن تعتبر قطعة من الزمان ظرفا لبعض أجزائه کالسنة تجعل ظرفا للشهر و الشهر یجعل ظرفا للیوم لنوع من العنایة أو یعتبر زمان متعددا مختلفا باختلاف صفاته أو الحوادث الواقعة فیه ثم یجعل باعتبار بعض صفاته ظرفا لنفسه باعتبار صفة أخری.

و المعنی فزمان نقر الناقور الواقع فی یوم رجوع الخلائق إلی الله زمان عسیر علی الکافرین أو زمان نقر الناقور زمان عسیر علی الکافرین فی یوم الرجوع- بناء علی کون قوله: «یَوْمَئِذٍ» قیدا لقوله: «فَذلِکَ» أو لقوله: «یَوْمٌ».

و قال فی الکشاف،: فإن قلت: بم انتصب إذا و کیف صح أن یقع یومئذ ظرفا لیوم عسیر؟ قلت : انتصب إذا بما دل علیه الجزاء لأن المعنی إذا نقر فی الناقور عسر الأمر علی الکافرین، و الذی أجاز وقوع یومئذ ظرفا لیوم عسیر أن المعنی فذلک وقت النقر وقوع یوم عسیر لأن یوم القیامة یأتی و یقع حین ینقر فی الناقور. انتهی.

و قال: و یجوز أن یکون یومئذ مبنیا مرفوع المحل بدلا من ذلک، و یوم عسیر خبر کأنه قیل: فیوم النقر یوم عسیر. انتهی.

و قوله: «غَيْرُ يَسِيرٍ» وصف آخر ليوم مؤكد لعسره و يفيد أنه عسير من كل وجه من وجه دون وجه.

قوله تعالى: «ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً» كلمة تهديد و قد استفاض النقل أن الآية

ص:86

و ما يتلوها إلى تمام عشرين آية نزلت في الوليد بن المغيرة، و ستأتي قصته في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

و قوله: «وَحِيداً» حال من فاعل «خَلَقْتُ» و محصل المعنى: دعني و من خلقته حال كوني وحيدا لا يشاركني في خلقه أحد ثم دبرت أمره أحسن التدبير، و لا تحل بيني و بينه فأنا أكفيه.

و من المحتمل أن يكون حالا من مفعول «ذَرْنِي». و قيل: حال من مفعول خلقت المحذوف و هو ضمير عائد إلى الموصول، و محصل المعنى دعني و من خلقته حال كونه وحيدا لا مال له و لا بنون، و احتمل أيضا أن يكون «وَحِيداً» منصوبا بتقدير «أذم» و أحسن الوجوه أولها.

قوله تعالى: «وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً» أي مبسوطا كثيرا أو ممدودا بمدد النماء.

قوله تعالى: «وَ بَنِينَ شُهُوداً» أي حضورا يشاهدهم و يتأيد بهم، و هو عطف على قوله: «مالًا».

قوله تعالى: «وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً» التمهيد التهيئة و يتجوز به عن بسطة المال و الجاه و انتظام الأمور.

قوله تعالى: «ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً» أي ثم يطمع أن أزيد فيما جعلت له من المال و البنين و مهدت له من التمهيد.

و قوله: «كَلَّا» ردع له، و قوله: «إِنَّهُ كانَ» إلخ تعليل المردع، و العنيد المعاند المباهي بما عنده، قيل، ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله و ولده حتى هلك.

قوله تعالى: «سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً» الإرهاق الغشيان بالعنف، و الصعود عقبة الجبل التي يشق مصعدها شبه ما سيناله من سوء الجزاء و مر العذاب بغشيانه عقبة وعر صعبة الصعود.

قوله تعالى: «إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » التفكير معروف، و التقدير عن تفكير نظم معان و أوصاف في الذهن بالتقديم و التأخير و الوضع و الرفع لاستنتاج غرض مطلوب، و قد كان الرجل يهوى أن يقول في أمر القرآن شيئا يبطل به

ص:87

دعوته و يرضى به قومه المعاندين ففكر فيه أ يقول : شعر أو كهانة أو هذرة جنون أو أسطورة فقدر أن يقول : سحر من كلام البشر لأنه يفرق بين المرء و أهله و ولده و مواليه.

و قوله: «فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ» دعا عليه على ما يعطيه السياق نظير قوله: «قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ»: التوبة ۳۰.

و قوله: «ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ» تكرار للدعاء تأكيدا.

قوله تعالى: «ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » تمثيل لحاله بعد التكفير و التقدير و هو من ألطف التمثيل و أبلغه.

فقوله: «ثُمَّ نَظَرَ» أى ثم نظر بعد التفكير و التقدير نظرة من يريد أن يقضى فى أمر سئل أن ينظر فيه- على ما يعطيه سياق التمثيل-.

و قوله: «ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ » العبوس تقطيب الوجه، قال فى المجمع،: و عبس يعبس عبوسا إذا قبض وجهه و العبوس و التكليح و التقطيب نظائر و ضدها الطلاقة و البشاشة، و قال : و البسور بدء التكره فى الوجه انتهى، فالمعنى ثم قبض وجهه و أبدا التكره فى وجهه بعد ما نظر.

و قوله : «ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ » الإدبار عن شيء الإعراض عنه، و الاستكبار الامتناع كبرا و عتوا، و الأمران أعنى الإدبار و الاستكبار من الأحوال الروحية، و إنما رتبا فى التمثيل على النظر و العبوس و البسور و هى أحوال صورية محسوسة لظهورهما بقوله: «إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ» إلخ، و لذا عطف قوله: «فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ بالفاء دون «ثُمَ».

و قوله: «فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » أى أظهر إدباره و استكباره بقوله مفرعا عليه : «إِنْ هذا- أى القرآن- إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ» أى يروى و يتعلم من السحرة.

و قوله: «إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» أى ليس بكلام الله كما يدعيه محمد ص.

قيل: إن هذه الآية كالتأكيد للآية السابقة و إن اختلفتا معنى لأن المقصود منهما نفى كونه قرآنا من كلام الله، و باعتبار الاتحاد فى المقصود لم تعطف الجملة على الجملة.

قوله تعالى: «سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ » أى سأدخله سقر و سقر من أسماء جهنم فى القرآن أو دركة من دركاتها، و جملة

ص:88

«سَأُصْلِيهِ سَقَرَ» بيان أو بدل من قوله: «سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً».

و قوله: «وَ ما أَدْراکَ ما سَقَرُ» تفخیم لأمرها و تهویل.

و قوله: «لا تُبْقِی وَ لا تَذَرُ » قضیة إطلاق النفی أن یکون المراد أنها لا تبقی شیئا ممن نالته إلا أحرقته، و لا تدع أحدا ممن ألقی فیها إلا نالته بخلاف نار الدنیا التی ربما ترکت بعض ما ألقی فیها و لم تحرقه، و إذا نالت إنسانا مثلا نالت جسمه و صفاته الجسمیة و لم تنل شیئا من روحه و صفاته الروحیة، و أما سقر فلا تدع أحدا ممن ألقی فیها إلا نالته قال تعالی : «تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّی »: المعارج ۱۷، و إذا نالته لم تبق منه شیئا من روح أو جسم إ لا أحرقته قال تعالی : «نارُ اللّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ»: الهمزة ۷.

و یمکن أن یراد أنها لا تبقیهم أحیاء و لا تترکهم یموتون فیکون فی معنی قوله تعالی:

«الَّذِی یَصْلَی النّارَ الْکُبْری ثُمَّ لا یَمُوتُ فِیها وَ لا یَحْیی»: الأعلی: ۱۳.

و قیل: المعنی لا تبقی شیئا یلقی فیها إلا أهلکته، و إذا هلک لم تذره هالکا حتی یعاد فیعذب ثانیا.

و قیل: المراد أنها لا تبقی لهم لحما و لا تذر عظما، و قیل غیر ذلک.

قوله تعالی: «لَوّاحَةٌ لِلْبَشَرِ» اللواحة من التلویح بمعنی تغییر اللون إلی السواد و قیل:

إلی الحمرة، و البشر جمع بشرة بمعنی ظاهر الجلد.

قوله تعالی: «عَلَیْها تِسْعَةَ عَشَرَ» یتولون أمر عذاب المجرمین و قد أبهم و لم یصرح أنهم من الملائکة أو غیرهم غیر أن المستفاد من آیات القیامة- و تصرح به الآیة التالیة- أنهم من الملائکة.

و قد استظهر بعضهم أن ممیز قوله : «تِسْعَةَ عَشَرَ» ملکا ثم قال: أ لا تری العرب و هم الفصحاء کیف فهموا منه ذلک فقد روی عن ابن عباس": أنها لما نزلت «عَلَیْها تِسْعَةَ عَشَرَ» قال أبو جهل لقریش: ثکلتکم أمهاتکم- أ سمع ابن أبی کبشة یخبرکم- أن خزنة النار تسعة عشر و أنتم الدهم- أ یعجز کل عشرة منکم أن یبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأسد بن أسید بن کلدة الجمحی- و کان شدید البطش : أنا أکفیکم سبعة عشر فاکفونی أنتم اثنین انتهی، و أنت تری أن لا دلیل فی کلامه علی ما یدعیه. علی أنه سمی الواحد من الخزنة رجلا و لا یطلق الرجل علی الملک البتة و لا سیما عند المشرکین الذین قال تعالی فیهم:

ص:89

«وَ جَعَلُوا الْمَلائِکَةَ الَّذِینَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً»: الزخرف: ۱۹.

قوله تعالی: «وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النّارِ إِلاّ مَلائِکَةً » إلی آخر الآیة. سیاق الآیة یشهد علی أنهم تکلموا فیما ذکر فی الآیة من عدد خزان النار فنزلت هذه الآیة، و یتأید بذلک ما ورد من سبب النزول و سیوافیک فی البحث الروائی التالی.

فقوله: «وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النّارِ إِلاّ مَلائِكَةً » المراد بأصحاب النار خزنتها الموكلون عليها المتولون لتعذيب المجرمين فيها كما يفيده قوله: «عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ» و يشهد بذلک قوله بعد: «وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاّ فِتْنَةً» إلخ.

و محصل المعنى: أنا جعلناهم ملائكة يقدرون على ما أمروا به كما قال:

«عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ»: التحريم ۶.

فليسوا من البشر حتى يرجوا المجرمون أن يقاوموهم و يطيقوهم.

و قوله: «وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » الفتنة المحنة و الاختبار. ذكروا أن المراد بالجعل الجعل بحسب الإخبار دون الجعل بحسب التكوين فالمعنى و ما أخبرنا عن عدتهم أنها تسعة عشر إلا ليكون فتنة للذين كفروا، و يؤيده ذيل الكلام:

لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» إلخ.

و قوله: «لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» الاستيقان وجدان اليقين فى النفس أى ليوقن أهل الكتاب بأن القرآن النازل عليک حق حيث يجدون ما أخبرنا به من عدة أصحاب النار موافقا لما ذكر فيما عندهم من الكتاب.

و قوله: «وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً» أى بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلک.

و قوله : «وَ لِيَقُولَ الَّذِ ينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللّهُ بِهذا مَثَلًا » اللام فى «لِيَقُولَ» للعاقبة بخلاف اللام فى «لِيَسْتَيْقِنَ» فللتعليل بالغاية، و الفرق أن قولهم:

«ما ذا أَرادَ اللّهُ بِهذا مَثَلًا » تحقير و تهكم و هو كفر لا يعد غاية لفعله سبحانه إلا بالعرض بخلاف الاستيقان الذى هو من الإيمان، و لعل اختلاف المعنيين هو الموجب لإعادة اللام فى قوله: «وَ لِيَقُولَ».

و قد فسروا «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» بالشک و الجحود بالمنافقين و فسروا الكافرين

ص:90

بالمتظاهرين بالكفر من المشركين و غيرهم.

و قولهم: ما ذا أَرادَ اللّهُ بِهذا مَثَلًا» أرادوا به التحقير و التهكم يشيرون بهذا إلى قوله تعالى : «عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ» و المثل الوصف، و المعنى ما الذى يعنيه من وصف الخزنة بأنهم تسعة عشر؟ فهذه العدة القليلة كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقلين من الجن و الإنس.

ذنابة لما تقدم من الكلام فى النفاق

ذکر بعضهم أن قوله تعالى: «وَ لِيَقُولَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» الآیة- بناء على أن السورة بتمامها مكیة، و أن النفاق إنما حدث بالمدینة- إخبار عما سیحدث من المغیبات بعد الهجرة انتهى.

أما كون السورة بتمامها مكیة فهو المتعین من طریق النقل و قد ادعى علیه إجماع المفسرین، و ما نقل عن مقاتل أن قوله: «وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ اَلنّارِ إِلاّ مَلائِكَةً » الآیة مدنی لم یثبت من طریق النقل، و على فرض الثبوت هو قول نظری مبنی على حدوث النفاق بالمدینة و الآیة تخبر عنه.

و أما حدیث حدوث النفاق بالمدینة فقد أصر علیه بعضهم محتجا علیه بأن النبی ص و المسلمین لم یكونوا قبل الهجرة من القوة و نفوذ الأمر و سعة الطول بحیث یهابهم الناس أو یرجى منهم خیر حتى یتقوهم و یظهروا لهم الإیمان و یلحقوا بجمعهم مع إبطان الكفر و هذا بخلاف حالهم بالمدینة بعد الهجرة.

و الحجة غیر تامة- كما أشرنا إلیه فی تفسیر سورة المنافقون فی كلام حول النفاق فإن علل النفاق لیست تنحصر فی المخافة و الاتقاء أو الاستدرار من خیر معجل فمن علله الطمع و لو فی نفع مؤجل و منها العصبیة و الحمیة و منها استقرار العادة و منها غیر ذلک.

و لا دلیل على انتفاء جمیع هذه العلل عن جمیع من آمن بالنبی ص بمكة قبل الهجرة و قد نقل عن بعضهم أنه آمن ثم رجع أو آمن عن ریب ثم صلح.

على أنه تعالى یقول: «وَ مِنَ اَلنّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اَللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ اَلنّاسِ كَعَذابِ اَللّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنّا كُنّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اَللّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي

ص:91

صُدُورِ اَلْعالَمِينَ وَ لَيَعْلَمَنَّ اَللّهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ اَلْمُنافِقِينَ»: العنكبوت: ١١.

و الآیتان فی سورة مكیة و هی سورة العنكبوت، و هما ناطقتان بوجود النفاق فیها و مع الغض عن كون السورة مكیة فاشتمال الآیة على حدیث الإیذاء فی الله و الفتنة أصدق شاهد على نزول الآیتین بمكة فلم یكن بالمدینة إیذاء فی الله و فتنة، و اشتمال الآیة على قوله: «وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ» إلخ لا یدل على النزول بالمدینة فللنصر مصادیق أخرى غیر الفتح المعجل.

و احتمال أن یكون المراد بالفتنة ما وقعت بمكة بعد الهجرة غیر ضائر فإن هؤلاء المفتونین بمكة بعد الهجرة إنما كانوا من الذین آمنوا بالنبی ص قبل الهجرة و إن أوذوا بعدها.

و على مثل ذلک ینبغی أن یحمل قوله تعالى: «وَ مِنَ اَلنّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اَللّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اِطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ اِنْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ»: الحج: ١١ إن كان المراد بالفتنة العذاب و إن كانت السورة مدنیة.

[بيان]

و قوله: «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» الإشارة بذلك إلى مضمون قوله: «وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً» إلخ.

و قوله: «وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » علق تعالى العلم المنفی بالجنو د- و هی الجموع الغليظة التی خلقهم وسائط لإجراء أوامره- لا بخصوص عدتهم فأفاد بإطلاقه أن العلم بحقيقتهم و خصوصيات خلقتهم و عدتهم و ما يعملونه من عمل و دقائق الحكمة فی جميع ذلك يختص به تعالى لا يشاركه فيه أحد، فليس لأحد أن يستقل عدتهم أو يستكثر أو يطعن فی شی ء مما يرجع إلى صفاتهم و هو جاهل بها.

و قوله: «وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ» الضمير راجع إلى ما تقدم من قوله: «عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ» و تأنيثه لتأنيث الخبر، و المعنى أن البشر لا سبيل لهم إلى العلم بجنود ربک و إنما أخبرنا عن خزنة النار أن عدتهم تسعة عشر ليكون ذكرى لهم يتعظون بها.

و قيل: الضمير للجنود، و قيل: لسقر، و قيل للسورة، و قيل: لنار الدنيا و هو

ص:92

أسخف الأقوال.

و فی الآية دلالة على أن الخطابات القرآنية لعامة البشر.

بحث روائی

فی تفسير القمی، ": فی قوله تعالى: «فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ- إلى قوله- وَحِيداً» فإنها نزلت فی الوليد بن المغيرة- و كان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، و كان من المستهزءين برسول الله ص- و كان رسول الله ص يقعد فی الحجر و يقرأ القرآن- فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة- فقالوا: يا أبا عبد شمس ما هذا الذی يقول محمد؟ أ شعر هو أم كهانة أم خطب؟

فقال دعونی أسمع كلامه- فدنا من رسول الله ص فقال: يا محمد أنشدنی من شعرک- قال:

ما هو شعر و لكنه كلام الله- الذی ارتضاه لملائكته و أنبيائه و رسله- فقال: اتل علی منه شيئا! فقرأ عليه رسول الله ص حم السجدة- فلما بلغ قوله: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً- مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ » قال: فاقشعر الوليد و قامت كل شعرة فی رأسه و لحيته، و مر إلى بيته و لم يرجع إلى قريش من ذلک.

فمشوا إلى أبی جهل فقالوا: يا أبا الحكم- إن أبا عبد شمس صبا إلى دين محمد أ ما تراه لم يرجع إلينا- فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال: يا عم- نكست رءوسنا و فضحتنا و أشمت بنا عدونا- و صبوت إلى دين محمد، فقال: ما صبوت إلى دينه- و لكنی سمعت كلاما صعبا تقشعر منه الجلود- فقال له أبو جهل: أ خطب هو؟ قال: لا إن الخطب كلام متصل و هذا كلام منثور-

و لا يشبه بعضه بعضا. قال: أ فشعر هو؟ قال: لا- أما إنى لقد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها- و رملها و رجزها و ما هو بشعر. قال: فما هو؟ قال:

دعنى أفكر فيه.

فلما كان من الغد قالوا له: يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه؟ قال: قولوا: هو سحر فإنه آخذ بقلوب الناس- فأنزل على رسوله ص فى ذلک: «ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً».

و إنما سمى وحيدا لأنه قال لقريش: أنا أتوحد لكسوة البيت سنة و عليكم فى جماعتكم

ص:93

سنة، و كان له مال كثير و حدائق، و كان له عشر بنين بمكة، و كان له عشرة عبيد عند كل عبد ألف دينار يتجر بها- و تلک القنطار فى ذلک الزمان، و يقال: إن القنطار جلد ثور مملوء ذهبا.

و فى الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه و البيهقى فى الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس "* أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ص- فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له- فبلغ ذلک أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومک يريدون أن يجعلوا لک مالا ليعطوه لک- فإنک أتيت محمدا لتصيب مما عنده. قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا.

قال: فقل فيه قولا يبلغ قومک- إنک منكر أو إنک كاره له، قال: و ما ذا أقول- فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه- و لا بقصيده و لا بأشعار الجن- و الله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا، و و الله إن لقوله الذى يقوله حلاوة و إن عليه لطلاوة، و إنه لمثمر أعلاه، و مغدق أسفله، و إنه ليعلو و لا يعلى، و إنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنک قومک حتى تقول فيه- قال: دعنى حتى أفكر فلما فكر قال- ما هو إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره- فنزلت: «ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً».

و فى المجمع، روى العياشى بإسناده عن زرارة و حمران و محمد بن مسلم عن أبى عبد الله و أبى جعفر (ع)* أن الوحيد ولد الزنا. قال زرارة: ذكر لأبى جعفر (ع) عن أحد بنى هشام أنه قال فى خطبته: أنا ابن الوحيد- فقال: ويله لو علم ما الوحيد ما فخر بها فقلنا له، و ما هو؟ قال، من لا يعرف له أب.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و ابن المنذر و الترمذى و ابن أبى الدنيا فى صفة النار و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حيان و الحاكم و صححه و البيهقى فى البعث عن أبى س عيد الخدرى عن النبى ص قال *، الصعود جبل فى النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا- ثم يهوى و هو كذلک فيه أبدا.

و فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى، «ثُمَّ عَبَسَ» قال، عبس وجهه «وَ بَسَرَ» قال، ألقى شدقه «۱».

(۱) زاويهٔ الفم.

ص:94

[سورة المدثر (٧۴): الآيات ٣٢ الى ۴٨]

كَلاَّ وَ الْقَمَرِ (٣٢) وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (٣۴) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣۵) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (٣۶)

لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (۴٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (۴۱)

ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (۴٢) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (۴٣) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (۴۴) وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (۴۵) وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (۴۶)

حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (۴٧) فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (۴٨)

بيان

فى الآيات تنزيه للقرآن الكريم عما رموه به، و تسجيل أنه إحدى الآيات الإلهيهٔ الكبرى فيه إنذار البشر كافهٔ و فى اتباعه فك نفوسهم عن رهانهٔ أعمالهم التى تسوقهم إلى سقر.

قوله تعالى: «كَلَّا» ردع و إنكار لما تقدم قال فى الكشاف: إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن يكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون، أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيرا. انتهى. فعلى الأول إنكار لما تقدم و على الثانى ردع لما سيأتى، و هناك وجه آخر سيوافيک.

قوله تعالى: «وَ الْقَمَرِ وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ » قسم بعد قسم، و إدبار الليل مقابل إقباله، و إسفار الصبح انجلاؤه و انكشافه.

قوله تعالى: «إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ» ذكروا أن الضمير لسقر، و الكبر جمع كبرى،

ص:95

و المراد بكون سقر إحدى الكبر أنها إحدى الدواهى الكبر لا يعادلها غيرها من الدواهى كما يقال : هو أحد الرجال أى لا نظير له بينهم، و الجملهٔ جواب للقسم.

و المعنى أقسم بكذا و كذا أن سقر لإحدى الدواهى الكبر- أكبرها- إنذارا للبشر.

و لا يبعد أن يكون «كَلَّا» ردعا لقوله فى القرآن: «إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» و يكون ضمير «إِنَّها» للقرآن بما أنه آيات أو من باب مطابقة اسم إن لخبرها.

و المعنى: ليس كما قال أقسم بكذا و كذا أن القرآن- آياته- لإحدى الآيات الإلهية الكبرى إنذارا للبشر .

و قيل: الجملة «إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ» تعليل للردع، و القسم معترض للتأكيد لا جواب له أو جوابه مقدر يدل عليه كلا.

قوله تعالى: «نَذِيراً لِلْبَشَرِ» مصدر بمعنى الإنذار منصوب للتمييز، و قيل : حال مما يفهم من سياق قوله: «إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ» أى كبرت و عظمت حالكونها إنذارا أى منذرة.

و قيل فيه وجوه أخر لا يعبأ بها كقول بعضهم : أنه صفة للنبى ص و الآية متصلة بأول السورة و التقدير قم نذيرا للبشر فأنذر، و قول بعضهم: صفة له تعالى.

قوله تعالى: «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ» تعميم للإنذار و «لِمَنْ شاءَ» بدل من البشر، و «أَنْ يَتَقَدَّمَ» إلخ مفعول «شاءَ» و المراد بالتقدم و التأخر: الاتباع للحق و مصداقه الإيمان و الطاعة، و عدم الاتباع و مصداقه الكفر و المعصية.

و المعنى: نذيرا لمن اتبع منكم الحق و لمن لم يتبع أى لجميعكم من غير استثناء.

و قيل: «أَنْ يَتَقَدَّمَ» فى موضع الرفع على الابتداء و «لِمَنْ شاءَ» خبره كقولك لمن توضأ أن يصلى، و المعنى مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر، و هو كقوله . «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ» و المراد بالتقدم و التأخر السبق إلى الخير و التخلف عنه انتهى.

قوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» الباء بمعنى مع أو للسببية أو للمقابلة و «رَهِينَةٌ»

ص:96

بمعنى الرهن على ما ذكره الزمخشرى قال فى الكشاف، : رهينة ليست بتأنيث رهين فى قوله : «كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ » لتأنيث النفس لأنه لو قصدت لقيل : رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر و المؤنث، و إنما هى اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن. انتهى.

و كان العناية فى عد كل نفس رهينة أ ن لله عليها حق العبودية بالإيمان و العمل الصالح فهى رهينة محفوظة محبوسة عند الله حتى توفى دينه و تؤدى حقه تعالى فإن آمنت و صلحت فكت و أطلقت، و إن كفرت و أجرمت و ماتت على ذلك كانت رهينة محبوسة دائما، و هذا غير كونها رهين عملها ملازمة لما اكتسبت من خير و شر كما تقدم فى قوله تعالى:

«كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ»: الطور ٢١.

و الآيهٔ فی مقام بیان وجه التعمیم المستفاد من قوله: «نَذِيراً لِلْبَشَرِ لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ» فإن كون النفس الإنسانیهٔ رهینهٔ بما كسبت یوجب علی كل نفس أن تتقی النار التی ستحبس فیها إن أجرمت و لم تتبع الحق.

قوله تعالی: «إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ» هم الذین یؤتون كتابهم بأیمانهم یوم الحساب و هم أصحاب العقائد الحقهٔ و الأعمال الصالحهٔ من متوسطی المؤمنین، و قد تكرر ذكرهم و تسمیتهم بأصحاب الیمین فی مواضع من كلامه تعالی، و علی هذا فالاستثناء متصل.

و المتحصل من مجموع المستثنی منه و المستثنی انقسام النفوس ذوات الكسب إلی نفوس رهینهٔ بما كسبت و هی نفوس المجرمین، و نفوس مفكوكهٔ من الرهن مطلقهٔ و هی نفوس أصحاب الیمین، و أما السابقون المقربون و هم الذین ذكرهم الله فی مواضع من كلامه و عدهم ثالثهٔ الطائفتین و غیرهما كما فی قوله تعالی : «وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً – إلی أن قال– وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ»: الواقعهٔ: ١١، فهؤلاء قد استقروا فی مستقر العبودیهٔ لا یملكون نفسا و لا عمل نفس فنفوسهم لله و كذلک أعمالهم فلا یحضرون و لا یحاسبون قال تعالی : «فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ »: الصافات: ١٢٨، فهم خارجون عن المقسم رأسا.

و عن بعضهم تفسیر أصحاب الیمین بالملائكهٔ، و عن بعضهم التفسیر بأطفال المسلمین و عن بعضهم أنهم الذین ک انوا عن یمین آدم یوم المیثاق، و عن بعضهم أنهم الذین سبقت

ص:97

لهم من الله الحسنی، و هی وجوه ضعیفهٔ غیر خفیهٔ الضعف.

قوله تعالی: «فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » «فِي جَنَّاتٍ» خبر لمبتدإ محذوف و تنوین جنات للتعظیم، و التقدیر هم فی جنات لا یدرک وصفها، و یمكن أن یكون حالا من أصحاب الیمین.

و قوله: «يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ» أی یتساءل جمعهم عن جمع المجرمین.

و قوله: «ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » أی ما أدخلكم فی سقر بیان لتساؤلهم من بیان الجملهٔ بالجملهٔ، أو بتقدیر القول أی قائلین ما سلككم فی سقر.

قوله تعالی: «قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ » ضمیر الجمع للمجرمین، و المراد بالصلاهٔ التوجه العبادی الخاص إلی الله سبحانه فلا یضره اختلاف الصلاهٔ كما و كیفا باختلاف الشرائع السماویهٔ الحقهٔ.

قوله تعالی: «وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ » المراد بإطعام المسكین الإنفاق علی فقراء المجتمع بما یقوم به صلبهم و یرتفع به حاجتهم، و إطعام المسكین إشارهٔ إلی حق الناس عملا كما أن الصلاهٔ إشارهٔ إلی حق الله كذلک.

قوله تعالى: «وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ» المراد بالخوض الاشتغال بالباطل قولا أو فعلا و الغور فيه.

قوله تعالى: «وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ » و هو يوم الجزاء فهذه خصال أربع من طبع المجرم أن يبتلى بها كلا أو بعضا، و لما كان المجيب عن التساؤل جمع المجرمين صحت نسبة الجميع إلى الجميع و إن كان بعضهم مبتلى ببعضها دون بعض.

قوله تعالى: «حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ» قيد للتكذيب، و فسروا اليقين بالموت لكونه مما لا شك فيه فالمعنى و كنا فى الدنيا نكذب بيوم الجزاء حتى أتانا الموت فانقطعت به الحياة الدنيا أى كنا نكذب به ما دامت الحياة.

و قيل: المراد به اليقين الحاصل بحقية يوم الجزاء بمشاهدة آيات الآخرة و معاينة الحياة البرزخية حين الموت و بعده، و هو معنى حسن.

قوله تعالى: «فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ» تقدم فى بحث الشفاعة أن فى الآية دلالة

ص:98

على أن هناك شافعين يشفعون فيشفعون لكن لا تنفع هؤلاء شفاعتهم لأنهم محرومون من نيلها.

و قد أوردنا جملة من أخبار الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب.

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٤٩ الى ٥٦]

فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣)

كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَ ما يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦)

بيان

فى معنى الاستنتاج مما تقدم من الوعيد و الوعد أورد فى صورة التعجب من إعراضهم عن تذكرة القرآن و تنفرهم عن الحق الصريح كأنه قيل: فإذا كان كذلك فعليهم أن يجيبوا دعوة الحق و يتذكروا بالتذكرة فمن العجب أنهم معرضون عن ذلك كلا بل لا يؤمنون بالرسالة و يريد كل امرئ منهم أن ينزل عليه كتاب من الله. كلا بل لا يخافون الآخرة فلا يرتدعون عن وعيد.

ثم يعرض عليهم التذكرة عرضا فهم على خيرة من القبول و الرد فإن شاءوا قبلوا و إن شاءوا ردوا، لكن عليهم أن يعلموا أنهم غير مستقلين فى مشيتهم و ليسوا بمعجزين لله سبحانه فليس لهم أن يذكروا إلا أن يشاء الله، و حكم القدر جار فيهم البتة .

قوله تعالى: «فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ » تفريع على ما تقدم من التذكرة و الموعظة، و الاستفهام للتعجيب، و «لَهُمْ» متعلق بمحذوف و التقدير فما كان لهم: و «مُعْرِضِينَ» حال من ضمير «لَهُمْ» و «عَنِ التَّذْكِرَةِ» متعلق بمعرضين.

و المعنى: فإذا كان كذلك فأى شى ء كان- عرض- للمشركين الذين يكذبون بتذكرة القرآن حال كونهم معرضين عنها أى كان من الواجب عليهم أن يصدقوا و يؤمنوا لكنهم أعرضوا عنها و هو من العجب.

قوله تعالى: «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » تشبيه لهم من حيث حالهم فى الإعراض عن التذكرة، و الحمر جمع حمار، و المراد الحمر الوحشية و الاستنفار بمعنى النفرة و القسورة الأسد و الصائد، و قد فسر بكل من المعنيين.

و المعنى: معرضين عن التذكرة كأنهم حمر وحشية نفرت من أسد أو من الصائد.

قوله تعالى: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً» المراد بالصحف المنشرة الكتاب السماوى المشتمل على الدعوة الحقة.

و فى الكلام إضراب عما ذكر من إعراضهم، و المعنى ليس إعراضهم عن التذكرة لمجرد النفرة بل يريد كل امرئ منهم أن ينزل عليه كتاب من عند الله مشتمل على ما تشتمل عليه دعوة القرآن.

و هذه النسبة إليهم كناية عن استكبارهم على الله سبحانه أنهم إنما يقبلون دعوته و لا يردونها لو دعا كل واحد منهم بإنزال كتاب سماوى إليه مستقلا و أما الدعوة من طريق الرسالة فليسوا يستجيبونها و إن كانت حقة مؤيدة بالآيات البينة.

فالآية فى معنى ما حكاه الله سبحانه من قولهم : «لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ»: الأنعام ١٢۴، و فى معنى قول الأمم لرسلهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» على ما قررنا من حجتهم على نفى رسالة الرسل.

و قيل: إن الآية فى معنى قولهم للنبى ص الذى حكاه الله فى قوله : «وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ »: إسراء ٩٣.

و يدفعه أن مدلول الآية أن ينزل على كل واحد منهم صحف منشرة غير ما ينزل على غيره لا نزول كتاب واحد من السماء على النبى ص يقرؤه الجميع كما هو مدلول آية الإسراء.

و قيل: المراد نزول كتب من السماء عليهم بأسمائهم أن آمنوا بمحمد ص.

و قيل: المراد أن ينزل عليهم كتب من السماء بالبراءة من العذاب و إسباغ النعمة حتى

يؤمنوا و إلا بقوا على كفرهم و قيل غير ذلک.

و هى جميعا معان بعيدة من السياق و التعويل على ما تقدم.

قوله تعالى: «كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ » ردع لهم بما يريدونه من نزول كتاب سماوى على كل واحد منهم فإن دعوة الرسالة مؤيدة بآيات بينة و حجج قاطعة لا تد ع ريبا لمرتاب فالحجة تامة قائمة على الرسول و غيره على حد سواء من غير حاجة إلى أن يؤتى كل واحد من الناس المدعوين صحفا منشرة.

على أن الرسالة تحتاج من طهارة الذات و صلاحية النفس إلى ما يفقده نفوس سائر الناس كما هو مدلول جوابه تعالى فى سورة الأنعام عن قولهم: «لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ» بقوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ».

و قوله: «بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ» إضراب عن قوله: «يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ» إلخ، و المراد أن اقتراحهم نزول كتاب على كل امرئ منهم قول ظاهرى منهم يريدون به صرف الدعوة عن أنفسهم، و السبب الحقيقى لكفرهم و تكذيبهم بالدعوة أنهم لا يخافون الآخرة، و لو خافوها لآمنوا و لم يقترحوا آية بعد قيام الحجة بظهور الآيات البينات.

قوله تعالى: «كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ» ردع ثان لاقتراحهم نزول كتاب سماوى لكل امرئ منهم، و المعنى لا ننزل كتابا كذلک أن القرآن تذكرة و موعظة نعظهم به لا نريد به أزيد من ذلک، و أثر ذلک ما أعد للمطيع و العاصى عندنا من الجزاء.

قوله تعالى: «فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ» أى فمن شاء اتعظ به فإنما هى دعوة فى ظرف الاختيار من غير إكراه.

قوله تعالى: «وَ ما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » دفع لما يمكن أن يتوهموه من قوله تعالى : «فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ» أن الأمر إليهم و أنهم مستقلون فى إرادتهم و ما يترتب عليها من أفعالهم فإن لم يشاءوا الذكر و لم يذكروا غلبوه تعالى فيما أراد و أعجزوه فيما شاء من ذكرهم.

و المحصل من الدفع أن حكم القدر جاء فى أفعالهم كغيرها من الحوادث، و تذكرهم إن تذكروا و إن كان فعلا اختياريا صادرا عنهم باختيارهم من غير إكراه فالمشية الإلهية متعلقة به بما هو اختيارى بمعنى أن الله تعالى يريد بإرادة تكوينية أن يفعل الإنسان

ص:101

الفعل الفلانى بإرادته و اختياره فالفعل اختيارى ممكن بالنسبة إلى الإنسان و هو بعينه متعلق الإرادة الإلهية ضرورى التحقق بالنسبة إليها و لولاها لم يتحقق.

و قوله: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ» أى أهل لأن يتقى منه لأن له الولاية المطلقة على كل شى ء، و بيده سعادة الإنسان و شقاوته، و أهل لأن يغفر لمن اتقاه لأنه غفور رحيم.

و الجملة أعنى قوله: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ» صالحة لتعليل ما تقدم من الدعوة فى قوله: «إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ» و هو ظاهر، و لتعليل قوله : «وَ ما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» فإن كونه تعالى أهل التقوى و أهل المغفرة لا يتم إلا بكونه ذا إرادة نافذة فيهم سارية فى أعمالهم فليسوا بمخلين و ما يهوونه و هم معجزون لله بتمردهم و استكبارهم.

بحث روائى

فى تفسير القمى، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع)* فى قوله تعالى: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ- أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً» و ذلک أنهم قالوا: يا محمد- قد بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يذنب الذنب- فيصبح و ذنبه مكتوب عند رأسه و كفارته.

فنزل جبرئيل على رسول الله ص و قال : يسألک قومک سنة بنى إسرائيل فى الذنوب- فإن شاءوا فعلنا ذلک بهم- و أخذناهم بما كنا نأخذ بنى إسرائيل- فزعموا أن رسول الله ص كره ذلک لقومه.

أقول: و القصة لا تلائم لحن الآية و الرواية لا تخلو من إيماء إلى ضعف القصة.

و فى الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن السدى عن أبى صالح قال "*: قالوا: إن كان محمد صادقا- فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة- فيها براءته و أمنته من النار- فنزلت: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً».

أقول: سياق الآيات و ما فيها من الردع لا يلائم القصة.

و فيه، أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد "* «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً» قال: إلى فلان بن فلان من رب العالمين- يصبح عند رأس كل رجل صحيفة موضوعة يقرؤها.

ص:102

أقول: ما فى الرواية يقبل الانطباق على الرواية السابقة و على ما قدمناه من معنى الآية.

و فيه، أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة "* فى قوله تعالى: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ- أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً» قال: قد قال قائلون من الناس لمحمد ص- إن سرک أن نتابعک فأتنا بكتاب خاصة يأمرنا باتباعک.

أقول: الرواية قابلة التطبيق لما فى تفسير الآية من القول بأن الآية فى معنى قوله تعالى:

«وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّکَ» الآية و قد تقدم ما فيه.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ»- قال: هو أهل أن يتقى و أهل أن يغفر.

و فى التوحيد، بإسناده إلى أبى بصير عن أبى عبد الله (ع)* فى قول الله عز و جل:

«هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ» قال: قال الله عز و جل : أنا أهل أن أتقى- و لا يشرك بى عبدى شيئا- و أنا أهل إن لم يشرك بى عبدى شيئا أن أدخله الجنة.

و قال: إن الله تبارك و تعالى أقسم بعزته و جلاله- أن لا يعذب أهل توحيده بالنار.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن دينار قال*: سمعت أبا هريرة و ابن عمر و ابن عباس يقولون: سئل رسول الله ص عن قول الله: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ» قال: يقول الله: أنا أهل أن أتقى- فلا يجعل معى شريک- فإذا اتقيت و لم يجعل معى شريک- فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلک.

أقول: و فى معناه غير واحد من الروايات عنه (ص).

(٧٥) سورة القيامة مكية و هى أربعون آية (٤٠)

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ١ الى ١٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (١) وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (٣) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (٤)

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (٥) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (٦) فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (٩)

يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لا وَزَرَ (١١) إِلى رَبِّکَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤)

وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (١٥)

ص:103

بيان

يطوف بيان السورة حول القيامة الكبرى فتنبئ بوقوع يوم القيامة أولا ثم تصفه ببعض أشراطه تارة، و بإجمال ما يجرى على الإنسان أخرى، و ينبئ أن المساق إليه يبدأ من يوم الموت، و تختتم بالاحتجاج على القدرة على الإعادة بالقدرة على الابتداء.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ » إقسام بيوم القيامة سواء قيل بكون «لا أُقْسِمُ» كلمة قسم أو بكون لا زائدة أو نافية على اختلاف الأقوال.

قوله تعالى: «وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» إقسام ثان على ما يقتضيه السياق و مشاكلة اللفظ فلا يعبأ بما قيل : إنه نفى الأقسام و ليس بقسم، و المراد أقسم بيوم القيامة و لا أقسم بالنفس اللوامة.

و المراد بالنفس اللوامة نفس المؤمن التى تلومه فى الدنيا على المعصية و التثاقل فى الطاعة و تنفعه يوم القيامة.

و قيل: المراد به النفس الإنسانية أعم من المؤمنة الصالحة و الكافرة الفاجرة فإنها تلوم الإنسان يوم القيامة أما الكافرة فإنها تلومه على كفره و فجوره، و أما المؤمنة فإنها تلومه على قلة الطاعة و عدم الاستكثار من الخير.

و قيل. المراد نفس الكافر الذى تلومه يوم القيامة على ما قدمت من كفر و معصية قال تعالى : «وَ أَسَرُّوا النَّدا مَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ»: يونس ۵۴.

و لكل من الأقوال وجه.

ص:104

و جواب القسم محذوف يدل عليه الآيات التالية، و التقدير ليبعثن، و إنما حذف للدلالة على تفخيم اليوم و عظمة أمره قال تعالى: «ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً »: الأعراف ۱۸۷ و قال: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى»: طه ۱۵ و قال: «عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ»: النبأ: ۱.

قوله تعالى: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ » الحسبان الظن، و جمع العظام كناية عن الإحياء بعد الموت، و الاستفهام للتوبيخ، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ» أى بلى نجمعها و قادِرِينَ» حال من فاعل مدخول بلى المقدر، و البنان أطراف الأصابع و قيل: الأصابع و تسوية البنان تصويرها على ما هى عليها من الصور، و المعنى بلى نجمعها و الحال أنا قادرون على أن نصور بنانه على صورها التى هى عليها بحسب خلقنا الأول.

و تخصيص البنان بالذكر- لعله- للإشارة إلى عجيب خلقها بما لها من الصور و خصوصيات التركيب و العدد تترتب عليها فوائد جمة لا تكاد تحصى من أنواع القبض و البسط و الأخذ و الرد و سائر الحركات اللطيفة و الأعمال الدقيقة و الصنائع الظريفة التى يمتاز بها الإنسان من سائر الحيوان مضافا إلى ما عليها من الهيئات و الخطوط التى لا يزال ينكشف للإنسان منها سر بعد سر.

و قيل: المراد بتسوية البنان جعل أصابع اليدين و الرجلين مستوية شيئا واحدا من غير تفريق كخف البعير و حافر الحمار، و المعنى قادرين على أن نجعلها شيئا واحدا فلا يقدر الإنسان حينئذ على ما يقدر عليه مع تعدد الأصابع من فنون الأعمال، و الوجه المتقدم أرجح.

قوله تعالى: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ» قال الراغب: الفجر شق الشيء شقا واسعا. قال: و الفجور شق ستر الديانة يقال: فجر فجورا فهو فاجر و جمعه فجار و فجرة . انتهى، و أمام ظرف مكان أستعير لمستقبل الزمان، و المراد من فجوره أمامه فجوره مدى عمره و ما دام حيا، و ضمير «أَمامَهُ» للإنسان.

و قوله: «لِيَفْجُرَ أَمامَهُ» تعليل ساد مسد معلله و هو التكذيب بالبعث و الإحياء بعد الموت، و «بَلْ» إضراب عن حسبانه عدم البعث و الإحياء بعد الموت.

ص:105

و المعنى: أنه لا يحسب أن لن نجمع عظامه بل يريد أن يكذب بالبعث ليفجر مدى عمره إذ لا موجب للإيمان و التقوى لو لم يكن هناك بعث للحساب و الجزاء.

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية، و لهم وجوه أخر ذكروها في معنى الآية بعيدة لا تلائم السياق أغمضنا عن ذكرها.

و ذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير و النكتة فيه زيادة التوبيخ و المبالغة في التقريع، و قد كرر ذلك في الآية و ما يتلوها من الآيات أربع مرات.

قوله تعالى: «يَسْئَلُ أَيّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ» الظاهر أنه بيان لقوله: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ» فيفيد التعليل و أن السائل في مقام التكذيب و السؤال سؤال تكذيب إذ من الواجب على من دعي إلى الإيمان و التقوى، و أنذر بهذا النبإ العظيم مع دلالة الآيات البينة و قيام الحجج القاطعة أن يتخذ حذره و يتجهز بالإيمان و التقوى و يتهيأ للقاء اليوم قريبا كان أو بعيدا فكل ما هو آت قريب لا أن يسأل متى تقوم الساعة؟ و أيان يوم القيامة؟ فليس إلا سؤال مكذب مستهزئ.

قوله تعالى: «فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ وَ خَسَفَ الْقَمَرُ وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ» ذكر جملة من أشراط الساعة، و بريق البصر تحيره في إبصاره و دهشته، و خسوف القمر زوال نوره.

قوله تعالى: «يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ» أي أين موضع الفرار، و قوله: «أَيْنَ الْمَفَرُّ» مع ظهور السلطنة الإلهية له و علمه بأن لا مفر و لا فرار يومئذ من باب ظهور ملكاته يومئذ فقد كان في الدنيا يسأل عن المفر إذا وقع في شدة أو هددته مهلكة و ذلك كإنكارهم الشرك يومئذ و حلفهم كذبا قال تعالى : «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلّا أَنْ قالُوا وَ اللّهِ رَبِّنا ما كُنّا مُشْرِكِينَ »: الأنعام: ٢٣، و قال: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ» المجادلة: ١٨.

قوله تعالی: «كَلَّا لا وَزَرَ» ردع عن طلبهم المفر، و الوزر الملجأ من جبل أو حصن أو غيرهما، و هو من كلامه تعالی لا من تمام کلام الإنسان.

قوله تعالی: «إِلی رَبِّکَ یَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» الخطاب للنبی ص، و تقدیم «إِلی رَبِّکَ» و هو متعلق بقوله: «الْمُسْتَقَرُّ» یفید الحصر فلا مستقر إلی غیره فلا وزر و لا ملجأ یلتجأ إلیه فیمنع عنه.

ص:106

و ذلک أن الإنسان سائر إلیه تعالی کما قال: «یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ»: الانشقاق: ۶ و قال: «إِنَّ إِلی رَبِّکَ الرُّجْعی»: العلق: ۸ و قال: «وَ أَنَّ إِلی رَبِّکَ الْمُنْتَهی»: النجم: ۴۲، فهو ملاقی ربه راجع و منته إلیه لا حاجب یحجبه عنه و لا مانع یمنعه منه و أما الحجاب الذی یشیر إلیه قوله : «کَلَّا بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ کَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ یَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ»: المطففین: ۱۵ فسیاق الآیتین یعطی أن المراد به حجاب الحرمان من الکرامة لا حجاب الجهل أو الغیبة.

و یمکن أن یکون المراد بکون مستقره إلیه رجوع أمر ما یستقر فیه من سعادة أو شقاوة و جنة أو نار إلی مشیته تعالی فمن شاء جعله فی الجنة و هم المتقون و من شاء جعله فی النار و هم المجرمون قال تعالی : «یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ وَ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ»: المائدة: ۴۰.

و یمکن أن یراد به أن استقرارهم یومئذ إلی حکمه تعالی فهو النافذ فیهم لا غیر قال تعالی : «کُلُّ شَیْءٍ هالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ»: القصص: ۸۸.

قوله تعالی: «یُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ یَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ» المراد بما قدم و أخر ما عمله من حسنة أو سیئة فی أول عمره و آخره أو ما قدمه علی موته من حسنة أو سیئة و ما أخر من سنة حسنة سنها أو سنة سیئة فیثاب بالحسنات و یعاقب علی السیئات.

و قیل: المراد بما قدم ما عمله من حسنة أو سیئة فیثاب علی الأول و یعاقب علی الثانی، و بما أخر ما ترکه من حسنة أو سیئة فیعاقب علی الأول و یثاب علی الثانی، و قیل، المراد ما قدم من المعاصی و ما أخر من الطاعات، و قیل، ما قدم من طاعة الله و أخر من حقه فضیعه، و قیل: ما قدم من ماله لنفسه و ما ترک لورثته و هی وجوه ضعیفة بعیدة عن الفهم.

قوله تعالی: «بَلِ الْإِنْسانُ عَلی نَفْسِهِ بَصِیرَةٌ وَ لَوْ أَلْقی مَعاذِیرَهُ» إضراب عن قوله، «یُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ» إلخ، و البصیرة رؤیة القلب و الإدراک الباطنی و إطلاقها علی الإنسان من باب زید عدل أو التقدیر الإنسان ذو بصیرة علی نفسه.

و قیل: المراد بالبصیرة الحجة کما فی قوله تعالی، «ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ»: إسراء، ۱۰۲ و الإنسان نفسه حجة علی نفسه یومئذ حیث یسأل عن سمعه و بصره و فؤاده و یشهد علیه سمعه و بصره و جلده و یتکلم یداه و رجلاه، قال تعالی:

ص:107

«إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا »: إسراء ۳۶، و قال «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ »: حم السجدة، ۲۰. و قال، «وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ»: يس: ۶۵.

و قوله: «وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ» المعاذير جمع معذرة و هى ذكر موانع تقطع عن الفعل المطلوب، و المعنى هو ذو بصيرة على نفسه و لو جادل عن نفسه و اعتذر بالمعاذير لصرف العذاب عنها.

و قيل: المعاذير جمع معذار و هو الستر، و المعنى و إن أرخى الستور ليخفى ما عمل فإن نفسه شاهدة عليه و مآل الوجهين واحد.

بحث روائى

فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى: «وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» قال: نفس آدم التى عصت فلامها الله عز و جل.

أقول: و فى انطباقها على الآية خفاء.

و فيه،": فى قوله: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ» قال: يقدم الذنب و يؤخر التوبة و يقول: سوف أتوب.

و فيه،": فى قوله: «فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ» قال: يبرق البصر فلا يقدر أن يطرف.

و فيه،": فى قوله تعالى: «بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ- وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ» قال: يعلم ما صنع و إن اعتذر.

و فى الكافى، بإسناده عن عمر بن يزيد قال*: إنى لأتعشى مع أبى عبد الله (ع) و تلا هذه الآية «بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ، ثم قال: يا أبا حفص ما يصنع الإنسان- أن يعتذر إلى الناس بخلاف ما يعلم الله منه؟ إن رسول الله ص كان يقول: من أسر سريرة ألبسه الله رداها- إن خيرا فخير و إن شرا فشر.

و فى المجمع، و روى العياشى بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبى عبد الله (ع) قال*: ما يصنع أحدكم أن يظهر حسنا و يستر سيئا؟ أ ليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنه

ص:108

ليس كذلك؟ و الله سبحانه يقول: «بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» إن السريرة إذا صلحت قويت العلانية:.

أقول: و رواه فى أصول الكافى، بإسناده عن فضل أبى العباس عنه (ع).

و فيه، عن العياشى عن زرارة قال، * سألت أبا عبد الله (ع) ما حد المرض الذى يفطر صاحبه؟ قال، «بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» هو أعلم بما يطيق:.

أقول: و رواه فی الفقیه، أیضا.

[سورة القيامة (٧۵): الآيات ١۶ الى ۴٠]

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١۶) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (١٧) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (١٩) كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (٢٠)

وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (٢٢) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (٢٣) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (٢۴) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (٢۵)

كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (٢۶) وَ قِيلَ مَنْ راقٍ (٢٧) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (٢٨) وَ الْتَفَّتِ السّاقُ بِالسّاقِ (٢٩) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (٣٠)

فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلّى (٣١) وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطّى (٣٣) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (٣۴) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (٣۵)

أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (٣۶) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (٣٧) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (٣٩) أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (۴٠)

ص:109

بيان

تتمة صفة يوم القيامة باعتبار حال الناس فيه و انقسامهم إلى طائفة ناضرة الوجوه مبتهجين و أخرى باسرة الوجوه عابسين آيسين من النجاة، و الإشارة إلى أن هذا المساق تبتدئ من حين نزول الموت ثم الإشارة إلى أن الإنسان لا يترك سدى فالذی خلقه أولا قادر على أن يحييه ثانيا،و به تختتم السورة.

قوله تعالى: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ - إلى قوله- ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ » الذی يعطيه سياق الآيات الأربع بما يحفها من الآيات المتقدمة و المتأخرة الواصفة ليوم القيامة أنها معترضة متضمن أدبا إلهيا كلف النبی ص أن يتأدب به حينما يتلقى ما يوحى إليه من القرآن الكريم فلا يبادر إلى قراءة ما لم يقرأ بعد و لا يحرك به لسانه و ينصت حتى يتم الوحی.

فالآيات الأربع فی معنى قوله تعالى: «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ»: طه: ١١۴.

فالكلام فی هذه الآيات يجری مجرى قول المتكلم منا أثناء حديثه لمخاطبه إذا بادر إلى تتميم بعض كلام المتكلم باللفظة و اللفظتين قبل أن يلفظ بها المتكلم و ذلك يشغله عن التجرد للإنصات فيقطع المتكلم حديثه و يعترض و يقول لا تعجل بكلامی و أنصت لتفقه ما أقول لك ثم يمضی فی حديثه.

فقوله: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ » الخطاب فيه للنبى ص، و الضميران للقرآن الذى يوحى إليه أو للوحى، و المعنى لا تحرک بالوحى لسانک لتأخذه عاجلا فتسبقنا إلى قراءة ما لم نقرأ بعد فهو کما مر فى معنى قوله : «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْکَ وَحْيُهُ»: طه: ۱۱۴.

و قوله: «إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ» القرآن هاهنا مصدر کالفرقان و الرجحان، و الضميران للوحى، و المعنى لا تعجل به إذ علينا أن نجمع ما نوحيه إليک بضم بعض أجزائه إلى بعض و قراءته عليک فلا يفوتنا شى ء منه حتى يحتاج إلى أن تسبقنا إلى قراءة ما لم نوحه بعد.

و قيل: المعنى إن علينا أن نجمعه فى صدرک بحيث لا يذهب عليک شى ء من معانيه و أن نثبت قراءته فى لسانک بحيث تقرأه متى شئت و لا يخلو من بعد.

و قوله: «فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» أى فإذا أتممنا قراءته عليک وحيا فاتبع قراءتنا له و اقرأ بعد تمامها.

و قيل: المراد باتباع قرآنه اتباعه ذهنا بالإنصات و التوجه التام إليه و هو معنى لا بأس به.

و قيل: المراد فاتبع فى الأوامر و النواهى قرآنه، و قيل: المراد اتباع قراءته بالتکرار حتى يرسخ فى الذهن و هما معنيان بعيدان.

و قوله: «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ» أى علينا إيضاحه عليک بعد ما کان علينا جمعه و قرآنه فثم للتأخير الرتبى لأن البيان مترتب على الجمع و القراءة رتبة.

و قيل، المعنى ثم إن علينا بيانه للناس بلسانک نحفظه فى ذهنک عن التغير و الزوال حتى تقرأه على الناس.

و قال بعضهم فى معنى هذه الآيات إن النبى ص کان يحرک لسانه عند الوحى بما ألقى إليه من القرآن مخافة أن ينساه فنهى عن ذلک بالآيات و أمر بالإنصات حتى يتم الوحى فضمير «لا تُحَرِّكْ بِهِ» للقرآن أو الوحى باعتبار ما قرأ عليه منه لا باعتبار ما لم يقرأ بعد.

و فيه أنه لا يلائم سياق الآيات، تلک الملاءمة نظرا إلى ما فيها من النهى عن العجل و الأمر باتباع قرآنه تعالى بعد ما قرأ، و کذا قوله، «إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ» فذلک کله أظهر فيما تقدم منها فى هذا المعنى.

و عن بعضهم فى معنى هذه الآيات، الذى اختاره أنه لم يرد القرآن، و إنما أراد قراءة العباد لکتبهم يوم القيامة يدل على ذلک ما قبله و ما بعده، و ليس فيه شيء يدل على أنه القرآن و لا شيء من أحکام الدنيا.

و فى ذلک تقريع و توبيخ له حين لا تنفعه العجلة يقول : لا تحرک لسانک بما تقرأه من صحيفتک التى فيها أعمالک يعنى اقرأ کتابک و لا تعجل فإن هذا الذى هو على نفسه بصيرة إذا رأى سيئاته ضجر و استعجل فيقال له توبيخا : لا تعجل و تثبت لتعلم الحجة عليک

ص:111

فإنا نجمعها لک فإذا جمعناه فاتبع ما جمع عليک بالانقياد لحکمه و الاستسلام للتبعة فيه فإنه لا يمکنک إنکاره ثم إن علينا بيانه لو أنکرت. انتهى.

و يدفعه أن المعترضة لا تحتاج فى تمام معناها إلى دلالة مما قبلها و ما بعدها عليه على أن مشاکلة قوله : «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْکَ وَحْيُهُ» فى سياقه لهذه الآيات تؤيد مشاکلتها له فى المعنى.

و عن بعضهم أن الآيات الأربع متصلة بما تقدم من حديث يوم القيامة، و خطاب «لا تُحَرِّکْ» للنبى ص، و ضمير «بِهِ» ليوم القيامة، و المعنى لا تتفوه بالسؤال عن وقت القيامة أصلا و لو کنت غير مکذب و لا مستهزئ «لِتَعْجَلَ بِهِ» أى بالعلم به «إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ » أى من الواجب فى الحکمة أن نجمع من نجمعه فيه و نوحى شرح وصفه إليک فى القرآن «فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» أى إذا قرأنا ما يتعلق به فاتبع ذلک بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ» أى إظهار ذلک بالنفخ فى الصور انتهى ملخصا و هو کما ترى.

و قد تقدم فى تفسير قوله : «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ » إن هذا النهى عن العجل بالقرآن يؤيد ما ورد فى الروايات أن للقرآن نزولا على النبى ص دفعة غير نزوله تدريجا.

قوله تعالى: «کَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ » خطاب للناس و ليس من تعميم الخطاب السابق فى شى ء لأن خطاب «لا تُحَرِّکْ» اعتراضى غير مرتبط بشىء من طرفيه.

و قوله: «کَلَّا» ردع عن قوله السابق: «يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ» و قوله:

«بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ»- أى الحياة العاجلة و هى الحياة الدنيا- «وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ» أى تترکون الحياة الآخرة، و ما فى الکلام من الإضراب إضراب عن حسبان عدم الإحياء بعد الموت نظير الإضراب فى قوله: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ».

قوله تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ» وصف ليوم القيامة بانقسام الوجوه فيه إلى قسمين : ناضرة و باسرة، و نضرة الوجه و اللون و الشجر و نحوها و نضارتها حسنها و بهجتها.

و المعنى: نظرا إلى ما يقابله من قوله : «وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ » إلخ وجوه يوم إذ تقوم القيامة حسنة متهللة ظاهرة المسرة و البشاشة قال تعالى: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ

ص:112

النَّعِیمِ»: المطففین: ۲۴، و قال: «وَ لَقّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً»: الدهر: ۱۱.

و قوله: «إِلی رَبِّها ناظِرَةٌ» خبر بعد خبر لوجوه، و «إِلی رَبِّها» متعلق بناظرة قدم علیها لإفادة الحصر أو الأهمیة.

و المراد بالنظر إلیه تعالی لیس هو النظر الحسی المتعلق بالعین الجسمانیة المادیة التی قامت البراهین القاطعة علی استحالته فی حقه تعالی بل المراد النظر القلبی و رؤیة القلب بحقیقة الإیمان علی ما یسوق إلیه البرهان و یدل علیه الأخبار المأثورة عن أهل العصمة (ع) و قد أوردنا شطرا منها فی ذیل تفسیر قوله تعالی: «قالَ رَبِّ أَرِنِی أَنْظُرْ إِلَیْکَ»: الأعراف:

۱۴۳، و قوله تعالی: «ما کَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأی»: النجم: ۱۱.

فهؤلاء قلوبهم متوجهة إلی ربهم لا یشغلهم عنه سبحانه شاغل من الأسباب لتقطع الأسباب یومئذ، و لا یقفون موقفا من مواقف الیوم و لا یقطعون مرحلة من مراحله إلا و الرحمة الإلهیة شاملة لهم «وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ یَوْمَئِذٍ آمِنُونَ »: النمل: ۸۹ و لا یشهدون مشهدا من مشاهد الجنة و لا یتنعمون بشی ء من نعیمها إلا و هم یشاه دون ربهم به لأنهم لا ینظرون إلی شی ء و لا یرون شیئا إلا من حیث إنه آیة لله سبحانه و النظر إلی الآیة من حیث إنها آیة و رؤیتها نظر إلی ذی الآیة و رؤیة له.

و من هنا یظهر الجواب عما أورد علی القول بأن تقدیم «إِلی رَبِّها» علی «ناظِرَةٌ» یفید الحصر و الاختصاص، إن من الضروری أنهم ینظرون إلی غیره تعالی کنعم الجنة.

و الجواب أ لما لم یحجبوا عن ربهم کان نظرهم إلی کل ما ینظرون إلیه إنما هو بما أنه آیة، و الآیة بما أنها آیة لا تحجب ذا الآیة و لا تحول بینه و بین الناظر إلیه فالنظر إلی الآیة نظر إلی ذی الآیة فهؤلاء لا ینظرون فی الحقیقة إلا إلی ربهم.

و أما ما أجیب به عنه أن تقدیم «إِلی رَبِّها» لرعایة الفواصل و لو سلم أنه للاختصاص فالنظر إلی غیره فی جنب النظر إلیه لا یعد نظرا، و لو سلم فالنظر إلیه تعالی فی بعض الأحوال لا فی جمیعها.

فلا یخلو من تکلف التقیید من غیر مقید علی أنه أسند النظر إلی الوجوه لا إلی العیون أو الأبصار و وجوه أهل الجنة إلی ربهم دائما من غیر أن یواجهوا بها غیره.

قوله تعالی: «وَ وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ یُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» فسر البسور بشدة

ص:113

العبوس و الظن بالعلم و «فاقِرَةٌ» صفة محذوفة الموصوف أی فعله فاقرة، و الفاقرة من فقره إذا أصاب فقار ظهره، و قیل : من فقرت البعیر إذا وسمت أنفه بالنار.

و المعنی: و وجوه یومئذ شدیدة العبوس تعلم أنه یفعل بها فعلة تقصم ظهورها أو تسم أنوفها بالنار، و احتمل أن یکون تظن خطابا للنبی ص بما أنه سامع و الظن بمعناه المعروف.

قوله تعالی: «کَلّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِیَ » ردع عن حبهم العاجلة و إیثارها علی الآخرة کأنه قیل : ارتدعوا عن ذلک فلیس یدوم علیکم و سینزل علیکم الموت فتساقون إلی ربکم و فاعل «بَلَغَتِ» محذوف یدل علیه السیاق کما فی قوله تعالی : «فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ» الواقعة: ۸۳ و التقدیر إذا بلغت النفس التراقی.

و التراقی العظام المکتنفة للنحر عن یمین و شمال جمع ترقوة، و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: «وَ قِیلَ مَنْ راقٍ » اسم فاعل من الرقی أی قال من حضره من أهله و أصدقائه من یرقیه و یشفیه؟ کلمة یأس، و قیل: المعنی قال بعض الملائکة لبعض: من یرقی بروحه من الملائکة أ ملائکة الرحمة أم ملائکة العذاب.؟

قوله تعالی: «وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ » أی و علم الإنسان المحتضر من مشاهدة هذه الأحوال أنه مفارقته للعاجلة التی کان یحبها و یؤثرها علی الآخرة.

قوله تعالی: «وَ الْتَفَّتِ السّاقُ بِالسّاقِ » ظاهره أن المراد به التفاف ساق المحتضر بساقه ببطلان الحیاة الساریة فی أطراف البدن عند بلوغ الروح التراقی.

و قیل: المراد به التفاف شدة أمر الآخرة بأمر الدنیا، و قیل : التفاف حال الموت بحال الحیاة، و قیل : التفاف ساق الدنیا و هی شدة کرب الموت بساق الآخرة و هی شدة هول المطلع.

و لا دلیل من جهة اللفظ علی شیء من هذه المعانی نعم من الممکن أن یقال: إن المراد بالتفاف الساق بالساق غشیان الشدائد و تعاقبها علیه واحدة بعد أخری من حینه ذلک إلی یوم القیامة فینطبق علی کل من المعانی.

قوله تعالی: «إِلی رَبِّکَ یَوْمَئِذٍ الْمَساقُ» المساق مصدر میمی بمعنی السوق، و المراد بکون السوق یومئذ إلیه تعالی أنه الرجوع إلیه، و عبر بالمساق للإشارة إلی أن لا خیرة للإنسان فی هذا المسیر و لا مناص له عنه فهو مسوق مسیر من یوم موته و هو قوله، «إِلی رَبِّکَ یَوْمَئِذٍ الْمَساقُ» حتی یرد علی ربه یوم القیامة و هو قوله: «إِلی رَبِّکَ یَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ»

ص:114

و لو کان تقدیم «إِلی رَبِّکَ» لإفادة الحصر أفاد انحصار الغایة فی الرجوع إلیه تعالی.

و قیل: الکلام علی تقدیر مضاف و تقدیم «إِلی رَبِّکَ» لإفادة الحصر و التقدیر إلی حکم ربک یومئذ المساق أی یساق لیحکم الله و یقضی فیه بحکمه، أو التقدیر إلی موعد ربک و هو الجنة و النار، و قیل : المراد برجوع المساق إلیه تعالی أنه تعالی هو السائق لا غیر، و الوجه ما تقدم.

قوله تعالى: «فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلّى وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطّى» الضمائر راجعة إلى الإنسان المذكور فى قوله: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ» إلخ، و المراد بالتصديق المنفى تصديق الدعوة الحقة التى يتضمنها القرآن الكريم، و بالتصلية المنفية التوجه العبادى إليه تعالى بالصلاة التى هى عمود الدين.

و التمطى- على ما فى المجمع،- تمدد البدن من الكسل و أصله أن يلوى مطاه أى ظهره، و المراد بتمطيه فى ذهابه التبختر و الاختيال استعارة.

و المعنى: فلم يصدق هذا الإنسان الدعوة فيما فيها من الاعتقاد و لم يصل لربه أى لم يتبعها فيما فيها من الفروع و ركنها الصلاة و لكن كذب بها و تولى عنها ثم ذهب إلى أهله يتبختر و يختال مستكبرا.

قوله تعالى: «أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى» لا ريب أنه كلمة تهديد كررت لتأكيد التهديد، و لا يبعد- و الله أعلم- أن يكون قوله: «أَوْلى لَكَ» خبرا لمبتدإ محذوف هو ضمير عائد إلى ما ذكر من حال هذا الإنسان و هو أنه لم يصدق و لم يصل و لكن كذب و تولى ثم ذهب إلى أهله متبخترا مختالا، و إثبات ما هو فيه من الحال له كناية عن إثبات ما هو لازمه من التبعة و العقاب.

فيكون الكلام و هى كلمة ملقاة من الله تعالى إلى هذا الإنسان كلمة طبع طبع الله بها على قلبه حرم بها الإيمان و التقوى و كتب عليه أنه من أصحاب النار، و الآيتان تشبهان بوجه قوله تعالى : «فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ»: سورة محمد ٢٠.

و المعنى: ما أنت عليه من الحال أولى و أرجح لك فأولى ثم أولى لك فأولى لتذوق وبال أمرك و يأخذك ما أعد لك من العذاب.

و قيل: أولى لك اسم فعل مبنى و معناه وليك شر بعد شر.

و قيل: أولى فعل ماض دعائى من الولى بمعنى القرب و فاعل الفعل ضمير مستتر عائد إلى الهلاك و اللام مزيدة و المعنى أولاك الهلاك.

ص:115

و قيل: الفاعل ضمير مستتر راجع إليه تعالى و اللام مزيدة، و المعنى أولاك الله ما تكرهه، أو غير مزيد ة و المعنى أدناك الله مما تكرهه.

و قيل: معناه الذم أولى لك من تركه إلا أنه حذف و كثر فى الكلام حتى صار بمنزلة الويل لك و صار من المحذوف الذى لا يجوز إظهاره.

و قیل: المعنی أهلکک الله هلاکا أقرب لک من کل شر و هلاک.

و قیل: أولی أفعل تفضیل بمعنی الأحری، و خبر لمبتدإ محذوف یقدر کما یلیق بمقامه فالتقدیر هنا النار أولی لک أی أنت أحق بها و أهل لها فأولی.

و هی وجوه ضعیفة لا تخلو من تکلف و الوجه الأخیر قریب مما قدمنا و لیس به.

قوله تعالی: «أَ یَحْسَبُ اَلْإِنْسانُ أَنْ یُتْرَکَ سُدیً » مختتم فیه رجوع إلی ما فی مفتتح السورة من قوله: «أَ یَحْسَبُ اَلْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ».

و الاستفهام للتوبیخ، و السدی المهمل، و المعنی أ یظن الإنسان أن یترک مهملا لا یعتنی به فلا یبعث بإحیائه بعد الموت و لازمه أن لا یکلف و لا یجزی.

قوله تعالی: «أَ لَمْ یَکُ نُطْفَةً مِنْ مَنِیٍّ یُمْنی» اسم کان ضمیر راجع إلی الإنسان، و إمناء المنی صبه فی الرحم.

قوله تعالی: «ثُمَّ کانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّی» أی ثم کان الإنسان- أو المنی- قطعة من دم منعقد فقدره فصوره بالتعدیل و التکمیل.

قوله تعالی: «فَجَعَلَ مِنْهُ اَلزَّوْجَیْنِ اَلذَّکَرَ وَ اَلْأُنْثی» أی فجعل من الإنسان الصنفین:

الذکر و الأنثی.

قوله تعالی: «أَ لَیْسَ ذلِکَ بِقادِرٍ عَلی أَنْ یُحْیِیَ اَلْمَوْتی» احتجاج علی البعث الذی ینکرونه استبعادا له بعموم القدرة و ثبوتها علی الخلق الابتدائی و الإعادة لا تزید علی الابتداء مئونة بل ه ی أهون، و قد تقدم الکلام فی تقریب هذه الحجة فی تفسیر الآیات المتعرضة لها مرارا.

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج الطیالسی و أحمد و عبد بن حمید و البخاری و مسلم و الترمذی و النسائی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن الأنباری فی المصاحف و الطبرانی و ابن مردویه و أبو نعیم و البیهقی معا فی الدلائل عن ابن عباس قال ❊: کان رسول الله ص یعالج

ص:116

من التنزیل شدة، و کان یحرک به لسانه و شفتیه مخافة أن ینفلت منه- یرید أن یحفظه فأنزل الله «لا تُحَرِّکْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ- إِنَّ عَلَیْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ» قال: إن علینا أن نجمعه فی صدرک ثم نقرأه «فَإِذا قَرَأْناهُ» یقول: إذا أنزلناه علیک «فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»

فاستمع له و أنصت «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ» بينه بلسانک، و فی لفظ علينا أن نقرأه- فکان رسول الله ص بعد ذلک إذا أتاه جبريل أطرق- و فی لفظ استمع- فإذا ذهب قرأ کما وعده الله.

و فيه، أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال "*: کان النبی ص إذا أنزل عليه القرآن- تعجل بقراءته ليحفظه- فنزلت هذه الآية «لا تُحَرِّکْ بِهِ لِسانَکَ».

و کان رسول الله ص لا يعلم ختم سورة- حتی ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم.

أقول: و روی ما فی معنی صدر الحديث فی المجمع، عن ابن جبير و فی معناه غير واحد من الروايات، و قد تقدم أن فی انطباق هذا المعنی علی الآيات خفاء.

و فی تفسير القمی،": قوله تعالی: «کَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ» قال: الدنيا الحاضرة- «وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ» قال: تدعون «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ» أی مشرقة «إِلی رَبِّها ناظِرَةٌ» قال: ينظرون إلی وجه الله أی رحمة الله و نعمته.

و فی العيون، فی باب ما جاء عن الرضا (ع) من أخبار التوحيد بإسناده إلی إبراهيم بن أبی محمود قال : قال علی بن موسی الرضا (ع): فی قوله تعالی: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلی رَبِّها ناظِرَةٌ» يعنی مشرقة تنتظر ثواب ربها:.

أقول: و رواه فی التوحيد، و الاحتجاج، و المجمع، عن علی (ع)

، و قد اعترض علی أخذ ناظرة بمعنی منتظرة بأن الانتظار لا يتعدی بإلی بل هو متعد بنفسه، و رد عليه فی مجمع البيان بالاستشهاد بقول جميل بن معمر:

و إذا نظرت إليک من ملک و البحر دونک جدتنی نعما

و قول الآخر:

إنی إليک لما وعدت لناظر نظر الفقير إلی الغنی الموسر

و عد فی الکشاف إطلاق النظر فی الآية بمعنی الانتظار استعمالا کنائيا و هو معنی حسن.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و الآجرى فى الشريعة و الدارقطنى فى الرؤية و الحاكم و ابن مردويه و اللالكائى فى السنة و البيهقى عن ابن عمر قال ❊: قال رسول الله ص: إن أدنى أهل الجنة منزلا لمن ينظر إلى جنانه- و أزواجه و نعيمه و خدمه و سرره مسيرة ألف سنة- و أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة و عشية.

ثم قرأ رسول الله ص: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ» قال: البياض و الصفاء «إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ» قال: ينظر كل يوم فى وجهه.

أقول: الرواية تقبل الانطباق على المعنى الذى أوردناه فى تفسير الآية، و مع الغض عنه تقبل الحمل على رحمته و فضله و كرمه تعالى و سائر صفاته الفعلية فإن وجه الشى ء ما يستقبل به الشى ء غيره و ما يستقبل به الله سبحانه خلقه هو صفاته الكريمة فالنظر إلى رحمة الله و فضله و كرمه و صفاته الكريمة نظر إلى وجه الله الكريم.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال❊: قال رسول الله ص: فى قول الله.

«وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ» قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية و لا حد محدود و لا صفة معلومة.

أقول: و الرواية تؤيد ما قدمنا فى تفسير الآية أن المراد به النظر القلبى و رؤية القلب دون العين الحسية، و هى تفسر ما ورد فى عدة روايات من طرق أهل السنة مما ظاهره التشبيه و أن الرؤية بالعين الحسية التى لا تفارق المحدودية.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ» قال: يعنى النفس إذا بلغت الترقوة «وَ قِيلَ مَنْ راقٍ» قال: يقال له: من يرقيك «وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ» علم أنه الفراق

و فى الكافى، بإسناده إلى جابر عن أبى جعفر (ع) قال❊: سألته عن قول الله عز و جل- «وَ قِيلَ مَنْ راقٍ وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ» قال: فإن ذلك ابن آدم إذا حل به الموت- قال: هل من طبيب «وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ» أيقن بمفارقة الأحبة «وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ» قال:

التفت الدنيا بالآخرة «إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ» قال: المسير إلى رب العالمين.

و فى تفسير القمى،": «وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ» قال: التفت الدنيا بالآخرة «إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ» قال: يساقون إلى الله.

ص:118

و فى العيون، بإسناده عن عبد العظيم الحسنى قال، ❊ سألت محمد بن على الرضا (ع) عن قول الله عز و جل، «أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى» قال: يقول الله عز و جل بعدا لك من خير الدنيا- و بعدا لك من خير الآخرة.

أقول: يمكن إرجاعه إلى ما قدمناه من معنى الآيتين، و كذا إلى بعض ما قيل فيه.

و فی المجمع، و جاءت الروایة : أن رسول الله ص أخذ بید أبی ج هل ثم قال له: أولى لک فأولى ثم أولى لک فأولى . فقال أبو جهل: بأی شیء تهددنی- لا تستطیع أنت و ربک أن تفعلا بی شیئا، و إنی لأعز أهل هذا الوادی، فأنزل الله سبحانه کما قال له رسول الله ص.

أقول: و روی ما فی معناه فی الدر المنثور، عن عدة عن قتادة قال*: ذکر لنا و ساق الحدیث.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «أَ یَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ یُتْرَکَ سُدیً» قال: لا یحاسب و لا یعذب و لا یسأل عن شیء.

و فی العلل، بإسناده إلی مسعدة بن زیاد قال*: قال رجل لجعفر بن محمد (ع)، یا أبا عبد الله- إنا خلقنا للعجب قال: و ما ذلک لله أنت؟ قال: خلقنا للفناء فقال یا ابن أخ خلقنا للبقاء، و کیف یفنی جنة لا تبید و نار لا تخمد؟ و لکن قل : إنما نتحول من دار إلی دار.

و فی المجمع، و جاء فی الحدیث عن البراء عن عازب قال *: لما نزلت هذه الآیة «أَ لَیْسَ ذلِکَ بِقادِرٍ عَلی أَنْ یُحْیِیَ الْمَوْتی» قال رسول الله ص: سبحانک اللهم و بلی: و روی ذلک عن أبی جعفر و أبی عبد الله (ع).

أقول: و روی فی الدر المنثور، عن أبی هریرة و غیره: أنه (ص) إذا قرأ الآیة قال*:

سبحانک اللهم و بلی

، و کذا

فی العیون، عن الرضا (ع): أنه کان إذا قرأ السورة- قال عند الفراغ سبحانک اللهم بلی.

(۷۶) سورة الدهر مدنیة و هی إحدی و ثلاثون آیة (۳۱)

[سورة الإنسان (۷۶): الآیات ۱ الی ۲۲]

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

هَلْ أَتی عَلَی الْإِنْسانِ حِینٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ یَکُنْ شَیْئاً مَذْکُوراً (۱) إِنّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِیهِ فَجَعَلْناهُ سَمِیعاً بَصِیراً (۲) إِنّا هَدَیْناهُ السَّبِیلَ إِمّا شاکِراً وَ إِمّا کَفُوراً (۳) إِنّا أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالاً وَ سَعِیراً (۴)

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (۵) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (۶) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (۷) وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً (۸) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً (۹)

إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (۱۰) فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (۱۱) وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً (۱۲) مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً (۱۳) وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (۱۴)

وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (۱۵) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (۱۶) وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (۱۷) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (۱۸) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (۱۹)

وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (۲۰) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (۲۱) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (۲۲)

بيان

تذكر السورة خلق الإنسان بعد ما لم يكن شيئا مذكورا ثم هدايته السبيل إما شاكرا و إما كفورا و أن الله اعتد للكافرين أنواع العذاب و للأبرار ألوان النعم- و قد فصل القول فى وصف نعيمهم فى ثمان عشرة آية و هو الدليل على أنه المقصود بالبيان-.

ثم تذكر مخاطبا للنبى ص أن القرآن تنزيل منه تعالى عليه و تذكرة فليصبر لحكم ربه و لا يتبع الناس فى أهوائهم و ليذكر اسم ربه بكرة و عشيا و ليسجد له من الليل و ليسبحه ليلا طويلا.

و السورة مدنية بتمامها أو صدرها- و هى اثنتان و عشرون آية من أولها- مدنى، و ذيلها- و هى تسع آيات من آخرها- مكى و قد أطبقت روايات أهل البيت (ع) على كونها مدنية، و استفاضت بذلك روايات أهل السنة.

و قيل بكونها مكية بتمامها، و سيوافيك تفصيل القول فى ذلك فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى. «هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » الاستفهام للتقرير فيفيد ثبوت معنى الجملة و تحققه أى قد أتى على الإنسان «إلخ» و لعل هذا مراد من قال من قدماء المفسرين : إن «هَلْ» فى الآية بمعنى قد، لا على أن ذلك أحد معانى «هل» كما ذكره بعضهم.

و المراد بالإنسان الجنس . و أما قول بعضهم : إن المراد به آدم (ع) فلا يلائمه قوله فى الآية التالية : «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ».

و الحين قطعة من الزمان محدودة قصيرة كانت أو طويلة، و الدهر الزمان الممتد من دون تحديد ببداية أو نهاية.

و قوله: «شَيْئاً مَذْكُوراً» أی شيئا يذكر باسمه فی المذكورات أی كان يذكر مثلا الأرض و السماء و البر و البحر و غير ذلک و لا يذكر الإنسان لأنه لم يوجد بعد حتی وجد

ص:121

فقيل: الإنسان فكونه مذكورا كناية عن كونه موجودا بالفعل فالنفی فی قوله : «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » متوجه إلی كونه شيئا مذكورا لا إلی أصل كونه شيئا فقد كان شيئا و لم يكن شيئا مذكورا و يؤيده قوله : «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ » إلخ فقد كان موجودا بمادته و لم يتكون بعد إنسانا بالفعل و الآية و ما يتلوها من الآيات واقعة فی سياق الاحتجاج يبين به ا أن الإنسان حادث يحتاج فی وجوده إلی صانع يصنعه و خالق يخلقه، و قد خلقه ربه و جهزه التدبير الربوبی بأدوات الشعور من السمع و البصر يهتدی بها إلی السبيل الحق الذی من الواجب أن يسلكه مدی حياته فإن كفر فمصيره إلی عذاب أليم و إن شكر فإلی نعيم مقيم.

و المعنی هل أتی- قد أتی- علی الإنسان قطعة محدودة من هذا الزمان الممتد- غير المحدود و الحال أنه لم يكن موجودا بالفعل مذكورا فی عداد المذكورات.

قوله تعالی: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً» النطفة فی الأصل بمعنی الماء القليل غلب استعماله فی ماء الذكور من الحيوان الذی يتكون منه مثله، و أمشاج جمع مشيج أو المشج بفتحتين أو بفتح فكسر بمعنی المختلط الممتزج، و وصفت بها النطفة باعتبار أجزائها المختلفة أو اختلاط ماء الذكور و الإناث.

و الابتلاء نقل الشیء من حال إلی ح ال و من طور إلی طور كابتلاء الذهب فی البوتقة، و ابتلاؤه تعالی الإنسان فی خلقه من النطفة هو ما ذكره فی مواضع من كلامه أنه يخلق النطفة فيجعلها علقة و العلقة مضغة إلی آخر الأطوار التی تتعاقبها حتی ينشئه خلقا آخر.

و قيل: المراد بابتلائه امتحانه بالتكليف، و يدفعه تفريع قوله: «فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً» علی الابتلاء و لو كان المراد به التكليف كان من الواجب تفريعه علی جعله سميعا بصيرا لا بالعكس، و الجواب عنه بأن فی الكلام تقديما و تأخيرا و التقدير إنا خلقناه من نطفة أمشاج فجعلناه سميعا بصيرا لنبتليه، لا يصغی إليه.

و قوله: «فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً» سياق الآيات و خاصة قوله: «إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ» إلخ يفيد أن ذكر جعله سميعا بصيرا للتوسل به فی التدبير الربوبی إلی غايته و هی أن يری آيات الله الدالة علی المبدإ و المعاد و يسمع كلمة الحق التی تأتيه من جانب ربه بإرسال الرسل و إنزال الكتب فيدعوه البصر و السمع إلی سلوک سبيل الحق و السير فی مسير الحياة بالإيمان و العمل الصالح فإن لزم السبيل الذی هدی إليه أداه إلی نعيم الأبد و إلا فإلی عذاب مخلد.

ص:122

و ذکر الإنسان فی الآیهٔ من وضع الظاهر موضع الضمیر و النکتهٔ فیه تسجیل أنه تعالی هو خالقه و مدبر أمره.

و المعنی: إنا خلقنا الإنسان من نطفهٔ هی أجزاء مختلطهٔ ممتزجهٔ و الحال أنا ننقله من حال إلی حال و من طور إلی طور فجعلناه سمیعا بصیرا لیسمع ما یأتیه من الدعوهٔ الإلهیهٔ، و یبصر الآیات الإلهیهٔ الدالهٔ علی وحدانیته تعالی و النبوهٔ و المعاد.

قوله تعالی: «إِنّٰا هَدَیْنٰاهُ السَّبِیلَ إِمّٰا شٰاکِراً وَ إِمّٰا کَفُوراً » الهدایهٔ بمعنی إراءهٔ الطریق دون الإیصال إلی المطلوب و المراد بالسبیل السبیل بحقیقهٔ معنی الکلمهٔ و هو المؤدی إلی الغایهٔ المطلوبهٔ و هو سبیل الحق.

و الشکر استعمال النعمهٔ بإظهار کونها من منعمها و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی:

«وَ سَیَجْزِی اللّٰهُ الشّٰاکِرِینَ»: آل عمران: ۱۴۴ إن حقیقهٔ کون العبد شاکرا لله کونه مخلصا لربه، و الکفران استعمالها مع ستر کونها من المنعم.

و قوله: «إِمّٰا شٰاکِراً وَ إِمّٰا کَفُوراً » حالان من ضمیر «هَدَیْنٰاهُ» لا من «السَّبِیلَ» کما قاله بعضهم، و «إِمّٰا» یفید التقسیم و التنویع أی إنا هدیناه السبیل حال کونه منقسما إلی الشاکر و الکفور أی أنه مهدی سواء کان کذا أو کذلک.

و التعبیر بقوله : «إِمّٰا شٰاکِراً وَ إِمّٰا کَفُوراً » هو الدلیل أولا : علی أن المراد بالسبیل السنهٔ و الطریقهٔ التی یجب علی الإنسان أن یسلکها فی حیاته الدنیا لتوصله إلی سعادته فی الدنیا و الآخرهٔ و تسوقه إلی کرامهٔ القرب و الزلفی من ربه و محصله الدین الحق و هو عند الله الإسلام.

و به یظهر أن تفسیر بعضهم السبیل بسبیل الخروج من الرحم غیر سدید.

و ثانیا: أن السبیل المهدی إلیه سبیل اختیاری و أن الشکر و الکفر اللذین یترتبان علی الهدایهٔ المذکورهٔ واقعان فی مستقر الاختیار للإنسان أن یتلبس بأیهما شاء من غیر إکراه و إجبار کما قال تعالی : «ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ»: عبس: ۲۰، و ما فی آخر السورهٔ من قوله تعالی: «فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلیٰ رَبِّهِ سَبِیلًا وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اللّٰهُ» إنما یفید تعلق مشیته تعالی بمشیهٔ العبد لا بفعل العبد الذی تعلقت به مشیهٔ العبد حتی یفید نفی تأثیر مشیهٔ العبد المتعلقهٔ بفعله، و قد تقدمت الإشارهٔ إلی ه ذا المعنی فی هذا الکتاب مرارا.

ص:123

و الهدایهٔ التی هی نوع إیذان و إعلام منه تعالی للإنسان هدایهٔ فطریهٔ هی تنبیه بسبب نوع خلقته و ما جهز به وجوده بإلهام من الله سبحانه علی حق الاعتقاد و صالح العمل قال تعالی : «وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا »: الشمس: ۸ و أوسع مدلولا منه قوله تعالی : «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَیْهٰا لاٰ تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِکَ ال دِّینُ الْقَیِّمُ»: الروم: ۳۰.

و هدایة قولیة من طریق الدعوة یبعث الأنبیاء و إرسال الرسل و إنزال الکتب و تشریع الشرائع الإلهیة، و لم یزل التدبیر الربوبی تدعم الحیاة الإنسانیة بالدعوة الدینیة القائم بها أنبیاؤه و رسله، و یؤید بذلک دعوة الفطرة کما قال : «إِنّٰا أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ کَمٰا أَوْحَیْنٰا إِلیٰ نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ- إلی أن قال- رُسُلاً مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ لِئَلاّٰ یَکُونَ لِلنّٰاسِ عَلَی اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ»: النساء: ۱۶۵.

و من الفرق بین الهدایتین أن الهدایة الفطریة عامة بالغة لا یستثنی منها إ نسان لأنها لازم الخلقة الإنسانیة و هی فی الأفراد بالسویة غیر أنها ربما تضعف أو یلغو أثرها لعوامل و أسباب تشغل الإنسان و تصرفه عن التوجه إلی ما یدعو إلیه عقله و یهدیه إلیه فطرته أو ملکات و أحوال ردیئة سیئة تمنعه عن إجابة نداء الفطرة کالعناد و اللجاج و ما یش‌به ذلک قال تعالی: «أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلیٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلیٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ یَهْدِیهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ»: الجاثیة: ۲۳، و الهدایة المنفیة فی الآیة بمعنی الإیصال إلی المطلوب دون إراءة الطریق بدلیل قوله: «وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ».

و أما الهدایة القولیة و هی التی تتضمنها الدعوة الدینیة فإن من شأنها أن تبلغ المجتمع فتکون فی معرض من عقول الجماعة فیرجع إلیها من آثر الحق علی الباطل و أما بلوغها لکل واحد وا حد منهم فإن العلل و الأسباب التی یتوسل بها إلی بیان أمثال هذه المقاصد ربما لا تساعد علی ذلک علی ما فی الظروف و الأزمنة و البیئات من الاختلاف و کیف یمکن لإنسان أن یدعو کل إنسان إلی ما یرید بنفسه أو بوسائط من نوعه؟ فمن المتعذر ذلک جدا.

و إلی المعنی الأول أشا ر تعالی بقوله: «وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّٰ خَلاٰ فِیهٰا نَذِیرٌ »: فاطر: ۲۴، و إلی الثانی بقوله : «لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ»: یس: ۶.

فمن بلغته الدعوة و انکشف له الحق فقد تمت علیه الحجة و من لم تبلغه الدعوة بلوغا ینکشف به له ال حق فقد أدرکه الفضل الإلهی بعده مستضعفا أمره إلی الله إن یشأ یغفر

ص:124

له و إن یشأ یعذبه قال تعالی : «إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجٰالِ وَ النِّسٰاءِ وَ الْوِلْدٰانِ لاٰ یَسْتَطِیعُونَ حِیلَةً وَ لاٰ یَهْتَدُونَ سَبِیلاً »: النساء: ۹۸.

ثم من الدلیل علی أن الدعوة الإلهیة و هی الهدایة إلی السبیل حق یجب علی الإنسان أن یتبعها فطرة الإنسان و خلقته المجهزة بما یهدی إلیها من الاعتقاد و العمل، و وقوع الدعوة خارجا من طریق النبوة و الرسالة فإن سعادة کل موجود و کماله فی الآثار و الأعمال التی تناسب ذاته و تلائمها بما جهزت به من القوی و الأدوات فسعادة الإنسان و کماله فی اتباع الدین الإلهی الذی هو سنة الحیاة الفطریة و قد حکم به العقل و جاءت به الأنبیاء و الرسل علیهم السلام.

قوله تعالى: «إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَلاٰسِلَ وَ أَغْلاٰلاً وَ سَعِيراً » الاعتاد التهيئة، و سلاسل جمع سلسلة و هى القيد الذى يقاد به المجرم، و أغلال جمع غل بالضم قيل هى القيد الذى يجمع اليدين على العنق، و قال الراغب : فالغل مختص بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه. انتهى. و السعير النار المشتعلة، و المعنى ظاهر.

و الآية تشير إلى تبعة الإنسان الكفور المذكور فى قوله : «إِمّٰا شٰاكِراً وَ إِمّٰا كَفُوراً » و قدم بيان تبعته على بيان جزاء الإنسان الشاكر لاختصار الكلام فيه.

قوله تعالى: «إِنَّ اَلْأَبْرٰارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كٰانَ مِزٰاجُهٰا كٰافُوراً » الكأس إناء الشراب إذا كان فيه شراب، و المزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به، و الكافور معروف يضرب به المثل فى البرودة و طيب الرائحة، و قيل: هو اسم عين فى الجنة.

و الأبرار جمع بر بفتح الباء صفة مشبهة من البر و هو الإحسان و يتحصل معناه فى أن يحسن الإنسان فى عمله من غير أن يريد به نفعا يرجع إليه من جزاء أو شكور فهو يريد الخير لأنه خير لا لأن فيه نفعا يرجع إلى نفسه و إن كرهت نفسه ذلك فيصبر على مر مخالفة نفسه فيما يريده و يعمل العمل لأنه خير فى نفسه كالوفاء بالنذر أو لأن فيه خيرا لغيره كإطعام الطعام للمستحقين من عباد الله.

و إذ لا خير فى عمل و لا صلاح إلا بالإيمان بالله و رسوله و اليوم الآخر كما قال تعالى:

«أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اَللّٰهُ أَعْمٰالَهُمْ»: الأحزاب: ١٩ إلى غير ذلك من الآيات.

فالأبرار مؤمنون بالله و رسوله و اليوم الآخر، و إذ كان إيمانهم إيمان رشد و بصيرة فهم يرون أنفسهم عبيدا مملوكين لربهم، له خلقهم و أمرهم، لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا

ص:125

عليهم أن لا يريدوا إلا ما أراده ربهم و لا يفعلوا إلا ما يرتضيه فقدموا إرادته على إرادة أنفسهم و عملوا له فصبروا على مخالفة أنفسهم فيما تهواه و تحبه و كلفة الطاعة، و عملوا ما عملوه لوجه الله، فأخلصوا العبودية فى مرحلة العمل لله سبحانه.

و هذه الصفات هى التى عرف سبحانه الأبرار بها كما يستفاد من قوله : «يَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اَللّٰهِ» و قوله: «إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اَللّٰهِ» و قوله: «وَ جَزٰاهُمْ بِمٰا صَبَرُوا » و هى المستفادة من قو له فى صفتهم : «لَيْسَ اَلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ اَلْمَشْرِقِ وَ اَلْمَغْرِبِ وَ لٰكِنَّ اَلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ» الخ: البقرة: ١٧٧ و قد مر بعض الكلام فى معنى البر فى تفسير الآية و سيأتى بعضه فى قوله : «كَلاّٰ إِنَّ كِتٰابَ اَلْأَبْرٰارِ لَفِي عِلِّيِّينَ»: المطففين: ١٨.

و الآية أعنى قوله : «إِنَّ اَلْأَبْرٰارَ يَشْرَبُونَ» إلخ بما يتبادر من معناها من حيث مقابلتها لقوله : «إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ» إلخ المبين لحال الكافرين فى الآخرة، تبين حال الأبرار فى الآخرة فى الجنة، و أنهم يشربون من شراب ممزوج بالكافور باردا طيب الرائحة.

قوله تعالى. «عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللّٰهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً » «عَيْناً» منصوب بنزع الخافض و التقدير من عين أو بالاختصاص و التقدير أخص عينا، و الشرب- على ما قيل- يتعدى بنفسه و بالباء فشرب بها و شربها واحد، و التعبير عنهم بعباد الله للإشارة إلى تحليهم بحلية العبودية و قيامهم بلوازمها على ما يفيده سياق المدح.

و تفجير العين شق الأرض لإجرائها، و ينبغى أن يحمل تفجيرهم العين على إرادتهم جريانها لأن نعم الجنة لا تحتاج فى تحققها و التنعم بها إلى أزيد من مشية أهلها قال تعالى:

«لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها»: ق: ٣٥.

و الآيتان- كما تقدمت الإشارة إليه- تصفان تنعم الأبرار بشراب الجنة فى الآخرة، و بذلك فسرت الآيتان.

و لا يبعد أن تكون الآيتان مسوقتين على مسلك تجسم الأعمال تصفان حقيقة عملهم الصالح من الإيفاء بالنذر و إطعام الطعام لوجه الله، و أن أعمالهم المذكورة بحسب باطنها شرب من كأس مزاجها كافور من عين لا يزالون يفجرونها بأعمالهم الصالحة و ستظهر لهم بحقيقتها فى جنة الخلد و إن كانت فى الدنيا فى صورة الأعمال فتكون الآيتان فى مجرى أمثال قوله تعالى : «إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ»: يس: ٨.

ص:126

و يؤيد ذلك ظاهر قوله «يَشْرَبُونَ» و «يَشْرَبُ بِها » و لم يقل : سيشربون و سيشرب بها، و وقوع قوله : يشربون و يوفون و يخافون و يطعمون متعاقبة فى سياق واحد، و ذكر التفجير فى قوله : «يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً» الظاهر فى استخراج العين و إجرائها بالتوسل بالأسباب.

و لهم فى مفردات الآيتين و إعرابها أقاويل كثيرة مختلفة مذكورة فى المطولات فليراجعها من أراد الوقوف عليها.

قوله تعالى: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً» المستطير اسم فاعل من استطار إذا فشا و انتشر فى الأقطار غاية الانتشار و هو أبلغ من طار كما قيل: يقال:

استطار الحريق و استطار الفجر إذا اتسعا غايته، و المراد باستطارة شر اليوم و هو يوم القيامة بلوغ شدائده و أهواله و ما فيه من العذاب غايته.

و المراد بالإيفاء بالنذر ما هو ظاهره المعروف من معناه، و قول القائل : إن المراد به ما عقدوا عليه قلوبهم من العمل بالواجبات أو ما عقدوا عليه القلوب من اتباع الشارع فى جميع ما شرعه خلاف ظاهر اللفظ من غير دليل يدل عليه.

قوله تعالى: «وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً » ضمير «عَلى حُبِّهِ» للطعام على ما هو الظاهر، و المراد بحبه توقان النفس إليه لشدة الحاجة، و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى : «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ»: آل عمران: ٩٢.

و قيل: الضمير لله سبحانه أى يطعمون الطعام حبا لله لا طمعا فى الثواب، و يدفعه أن قوله تعالى حكاية منهم : «إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ» يغنى عنه.

و يليه فى الضعف ما قيل: إن الضمير للإطعام المفهوم من قوله: «وَ يُطْعِمُونَ» وجه الضعف أنه إن أريد بحب الإطعام حقيقة معناه فليس فى حب الإطعام فى نفسه فضل حتى يمدحوا به، و إن أريد به كون الإطعام بطيب النفس و عدم التكلف فهو خلاف الظاهر، و رجوع الضمير إلى الطعام هو الظاهر.

و المراد بالمسكين و اليتيم معلوم، و المراد بالأسير ما هو الظاهر منه و هو المأخوذ من أهل دار الحرب.

و قول بعضهم: إن المراد به أسارى بدر أو الأسير من أهل القبلة فى دار الحرب

ص:127

بأيدى الكفار أو المحبوس أو المملوک من العبيد أو الزوجة كل ذلک تكلف من غير دليل يدل عليه.

و الذى يجب أن يتنبه له أن سياق هذه الآيات سياق الاقتصاص تذكر قوما من المؤمنين تسميهم الأبرار و تكشف عن بعض أعمالهم و هو الإيفاء بالنذر و إطعام مسكين و يتيم و أسير و تمدحهم و تعدهم الوعد الجميل.

فما تشير إليه من القصة سبب النزول، و ليس سياقها سياق فرض موضوع و ذكر آثارها الجميلة، ثم الوعد الجميل عليها، ثم إن عد الأسير فيمن أطعمه هؤلاء الأبرار نعم الشاهد على كون الآيات مدنية فإن الأسر إنما كان بعد هجرة النبى ص و ظهور الإسلام على الكفر و الشرک لا قبلها.

قوله تعالى: «إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً» وجه الشىء هو ما يستقبل به غيره، و وجهه تعالى صفاته الفعلية الكريمة التى يفيض بها الخير على خلقه من الخلق و التدبير و الرزق و بالجملة الرحمة العامة التى بها قيام كل ش ىء، و معنى كون العمل لوجه الله على هذا كون الغاية فى العمل هى الاستفاضة من رحمة الله و طلب مرضاته بالاقتصار على ذلک و الإعراض عما عند غيره من الجزاء المطلوب، و لذا ذيلوا قولهم:

«إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ» بقولهم «لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً».

و وراء ذلک صفاته الذاتية الكريمة التى هى المبدأ لصفاته الفعلية و لما يترتب عليها من الخير فى العالم، و مرجع كون العمل لوجه الله على هذا هو الإتيان بالعمل حبا لله لأنه الجميل على الإطلاق، و إن شئت فقل: عبادته تعالى لأنه أهل للعبادة.

و ابتغاء وجه الله بجعله غاية داعية فى الأعمال مذكور فى مواضع من كلامه تعالى كقوله: «وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»: الكهف:

۲۸، و قوله: «وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ»: البقرة: ۲۷۲، و فى هذا المعنى قوله:

«وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »: البينة: ۵، و قوله: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»: المؤمن: ۶۵، و قوله: «أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ»: الزمر: ۳.

و قوله: «لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً » الجزاء مقابلة العمل بما يعادله إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا، و يعم الفعل و القول لكن المراد به فى الآية بقرينة مقابلته الشكور مقابلة إطعامهم عملا لا لسانا.

و الشكر و الشكور ذكر النعمة و إظهارها قلبا أو لسانا أو عملا، و المراد به فى الآية و قد قوبل بالجزاء الثناء الجميل لسانا.

و الآية أعنى قوله: «إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ» إلخ خطاب منهم لمن أطعموه من المسكين و اليتيم و الأسير إما بلسان المقال فهى حكاية قولهم أو بتقدير القول و كيف كان فقد أرادوا به تطييب قلوبهم أن يأمنوا المن و الأذى، و إما بلسان الحال و هو ثناء من الله عليهم لما يعلم من الإخلاص فى قلوبهم.

قوله تعالى: «إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً » عد اليوم و هو يوم القيامة عبوسا من الاستعارة، و المراد بعبوسه ظهوره على المجرمين بكمال شدته، و القمطرير الصعب الشديد على ما قيل.

و الآية فى مقام التعليل لقولهم المحكى : «إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ » إلخ ينبهون بقولهم هذا أن قصرهم العمل فى ابتغاء وجه الله تعالى إخلاصا للعبودية لمخافتهم ذاك اليوم الشديد، و لم يكتفوا بنسبة المخافة إلى اليوم حتى نسبوه نحوا من النسبة إلى ربهم فقالوا: «نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً» إلخ لأنهم لما لم يريدوا إلا وجه ربهم فهم لا يخافون غيره كما لا يرجون غيره و إنما يخافون و يرجون ربهم فلا يخافون يوم القيامة إلا لأنه من ربهم يحاسب فيه عباده على أعمالهم فيجزيهم بها.

و أما قوله قبلا: «وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً » حيث نسب خوفهم إلى اليوم فإن الواصف فيه هو الله سبحانه و قد نسب اليوم بشدائده إلى نفسه قبلا حيث قال:

«إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ» إلخ.

و بالجملة ما ذكروه من الخوف مخافة فى مقام العمل لما يحاسب العبد على عمله فالعبودية لازمة للإنسان لا تفارقه و إن بلغ ما بلغ قال تعالى: «إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ»: الغاشية: ۲۶.

قوله تعالى: «فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً » الوقاية الحفظ و المنع من الأذى و لقى بكذا يلقيه أى استقبله به و النضرة البهجة و حسن اللون و السرور مقابل المساءة و الحزن.

و المعنى: فحفظهم الله و منع عنهم شر ذلك اليوم و استقبلهم بالنضرة و السرور، فهم ناضرة الوجوه مسرورون يومئذ كما قال : «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ»: القيامة: ۲۲.

ص:129

قوله تعالى: «وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً » المراد بالصبر صبرهم عند المصيبة و على الطاعة و عن المعصية فإنهم ابتغوا فى الدنيا وجه ربهم و قدموا إرادته على إرادتهم فصبروا على ما قضى به فيهم و أراده من المحن و مصائب الدنيا فى حقهم، و صبروا على امتثال ما أمرهم به و صبروا على ترك ما نهاهم عنه و إن كان مخالفا لأهواء أنفسهم فبدل الله ما لقوه من المشقة و الكلفة نعمة و راحة.

قوله تعالى: «مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً » الأرائک جمع أريكة و هو ما يتكأ عليه، و الزمهرير البرد الشديد، و المعنى حال كونهم متكئين فى الجنة على الأرائک لا يرون فيها شمسا حتى يتأذوا بحرها و لا زمهريرا حتى يتأذوا ببرده.

قوله تعالى: «وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا » الظلال جمع ظل، و دنو الظلال عليهم قربها منهم بحيث تنبسط عليهم فكان الدنو مضمن معنى الانبساط و قطوف جمع قطف بالكسر فالسكون و هو الثمرة المقطوفة المجتناة، و تذليل القطوف لهم جعلها مسخرة لهم يقطفونها كيف شاءوا من غير مانع أو كلفة.

قوله تعالى: «وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا » الآنية جمع إناء كأكسية جمع كساء و هو الوعاء، و أكواب جمع كوب و هو إناء الشراب الذى لا عروة له و لا خرطوم و المراد طواف الولدان المخلدين عليهم بالآنية و أكواب الشراب كما سيأتى فى قوله: «وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ» الآية.

قوله تعالى: «قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً » بدل من قوارير فى الآية السابقة، و كون القوارير من فضة مبنى على التشبيه البليغ أى إنها فى صفاء الفضة و إن لم تكن منها حقيقة، كذا قيل . و احتمل أن يكون بحذف مضاف و التقدير من صفاء الفضة.

و ضمير الفاعل فى «قَدَّرُوها» للأبرار و المراد بتقديرهم الآنية و الأكواب كونها على ما شاءوا من القدر ترويهم بحيث لا تزيد و لا تنقص كما قال تعالى: «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها»: ق: ٣٥ و قد قال تعالى قبل: «يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً».

و يحتمل رجوع الضمير إلى الطائفين المفهوم من قوله : «يُطافُ عَلَيْهِمْ» و المراد بتقديرهم الآنية و الأكواب إتيانهم بها على قدر ما أرادوا محتوية على ما اشتهوا قدر ما اشتهوا.

ص:130

قوله تعالى: «وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا » قيل: إنهم كانوا يستطيبون الزنجبيل فى الشراب فوعد الأبرار بذلک و زنجبيل الجنة أطيب و ألذ.

قوله تعالى: «عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا» أى من عين أو التقدير أعنى أو أخص عينا.

قال الراغب: و قوله: «سَلْسَبِيلًا» أی سهلا لذيذا سلسا حديد الجريهٔ.

قوله تعالی: «وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً » أی ولدان دائمون علی ما هم عليه من الطراوهٔ و البهاء و صباحهٔ المنظر، و قيل: أی مقرطون بخلدهٔ و هی ضرب من القرط.

و المراد بحسبانهم لؤلؤا منثورا أنهم فی صفاء ألوانهم و إشراق وجوههم و انعكاس أشعهٔ بعضهم علی بعض و انبثاثهم فی مجالسهم كاللؤلؤ المنثور.

قوله تعالی: «وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً » «ثَمَ» ظرف مكان ممحض فی الظرفيهٔ، و لذا قيل : إن معنی «رَأَيْتَ» الأول: رميت ببصرک، و المعنی و إذا رميت ببصرک ثم يعنی الجنهٔ رأيت نعيما لا يوصف و ملكا كبيرا لا يقدر قدره.

و قيل: «ثَمَ» صلهٔ محذوفهٔ الموصول و التقدير و إذا رأيت ما ثم من النعيم و الملک، و هو كقوله : «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ»: الأنعام: ۹۴ و الكوفيون من النحاهٔ يجوزون حذف الموصول و إبقاء الصلهٔ و إن منعه البصريون منهم.

قوله تعالی: «عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ » إلخ الظاهر أن «عالِيَهُمْ» حال من الأبرار الراجعهٔ إليه الضمائر و «ثِيابُ» فاعله، و السندس- كما قيل- ما رق نسجه من الحرير، و الخضر صفهٔ ثياب و الإستبرق ما غلظ نسجه من ثياب الحرير، و هو معرب كالسندس.

و قوله: «وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ» التحليهٔ التزيين، و أساور جمع سوار و هو معروف، و قال الراغب: هو معرب دستواره.

و قوله: «وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً » أی بالغا فی التطهير لا تدع قذارهٔ إلا أزالها و من القذارهٔ قذارهٔ الغفلهٔ عن الله سبحانه و الاحتجاب عن التوجه إليه فهم غير محجوبين عن ربهم و لذا كان لهم أن يحمدوا ربهم كما قال : «وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» يونس: ۱۰ و قد تقدم فی تفسير سورهٔ الحمد إن الحمد وصف لا يصلح له إلا المخلصون من عباد الله تعالی لقوله: «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ»: الصافات: ۱۶۰.

و قد أسقط تعالی فی قوله : «وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ» الوسائط كلها و نسب سقيهم إلی نفسه، و هذا أفضل ما ذكره الله تعالی من النعيم الموهوب لهم فی الجنهٔ، و لعله من المزيد المذكور فی قوله: «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ»: ق: ۳۵.

قوله تعالی: «إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً» حكايهٔ ما يخاطبون به من عنده تعالی عند توفيته أجرهم أو بحذف القول و التقدير و يقال لهم: إن هذا كان لكم جزاء «إلخ».

و قوله: «وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً» إنشاء شكر لمساعيهم المرضيهٔ و أعمالهم المقبولهٔ، و يا لها من كلمهٔ طيبهٔ تطيب بها نفوسهم.

و اعلم أنه تعالى لم يذكر فيما ذكر من نعيم الجنة فى هذه الآيات نساء الجنة من الحور العين و هى من أهم ما يذكره عند وصف نعم الجنة فى سائر كلامه و يمكن أن يستظهر منه أنه كانت بين هؤلاء الأبرار الذين نزلت فيهم الآيات من هى من النساء.

و قال فى روح المعانى،: و من اللطائف على القول بنزول السورة فيهم يعنى فى أهل البيت إنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين و إنما صرح عز و جل بولدان مخلدين رعاية لحرمة البتول و قرة عين الرسول، انتهى.

بحث روائى

فى إتقان السيوطى، عن البيهقى فى دلائل النبوة بإسناده عن عكرمة و الحسن بن أبى الحسن قالا ": أنزل الله من القرآن بمكة اقرأ باسم ربک و ن و المزمل- إلى أن قالا- و ما نزل بالمدينة ويل للمطففين، و البقرة، و آل عمران، و الأنفال، و الأحزاب، و المائدة، و الممتحنة، و النساء، و إذا زلزلت، و الحديد، و محمد، و الرعد، و الرحمن، و هل أتى على الإنسان. الحديث.

و فيه، عن ابن الضريس فى فضائل القرآن بإسناده عن عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن ابن عباس قال"*: كان إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة- ثم يزيد الله فيها ما شاء.

و كان أول ما أنزل من القرآن اقرأ باسم ربک، ثم ن، ثم يا أيها المزمل- إلى أن قال-

ص:132

ثم أنزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال- ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء- ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم القتال ثم الرعد- ثم الرحمن ثم الإنسان. الحديث.

و فيه، عن البيهقى فى الدلائل بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال "*: إن أول ما أنزل الله على نبيه من القرآن- اقرأ باسم ربک، و ذكر مثل حديث عكرمة و الحسين- و فيه ذكر ثلاث من السور المكية التى سقطت من روايتهما- و هى الفاتحة و الأعراف و كهيعص.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال"*:

نزلت سورة الإنسان بالمدينة.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس"* فى قوله تعالى: «وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ» الآية- قال: نزلت هذه الآية فى على بن أبى طالب- و فاطمة بنت رسول الله ص.

أقول: الآية تشارک سائر آيات صدر السورة مما تقدم عليها أو تأخر عنها ف ى سياق واحد متصل فنزولها فيهما (ع) لا ينفک نزولها جميعا بالمدينة.

و فی الکشاف،: و عن ابن عباس: أن الحسن و الحسین مرضا- فعادهما رسول الله ص فی ناس معه فقالوا: یا أبا الحسن لو نذرت علی ولدک (ولدیک ظ) فنذر علی و فاطمة و فضة جاریة لهما- إن برءا مما بهما أن یصو موا ثلاثة أیام- فشفیا و ما معهم شیء.

فاستقرض علی من شمعون الخیبری الیهودی- ثلاث أصوع من شعیر فطحنت فاطمة صاعا- و اختبزت خمسة أقراص علی عددهم- فوضعوها بین أیدیهم لیفطروا فوقف علیهم سائل و قال: السلام علیکم أهل بیت محمد- مسکین من مساکین المسلمین- أطعمونی أطعمکم الله من موائد الجنة- فآثروه و باتوا لم یذوقوا إلا الماء و أصبحوا صیاما.

فلما أمسوا و وضعوا الطعام بین أیدیهم- وقف علیهم یتیم فآثروه، و وقف علیهم أسیر فی الثالثة ففعلوا مثل ذلک.

فلما أصبحوا أخذ علی بید الحسن و الحسین- و أقبلوا إلی رسول الله ص- فلما أبصرهم و هم یرتعشون کالفراخ من شدة الجوع- قال: ما أشد ما یسوءنی ما أری بکم- فانطلق معهم فرأی فاطمة فی محرابها- قد التصق ظهرها «۱» ببطنها و غارت عیناها- فساءه ذلک فنزل جبریل و قال: خذها یا محمد- هنأک الله فی أهل بیتک فأقرأه السورة:

---

(۱) بطنها بظهرها ظ.

أقول: الروایة مرویة بغیر واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس و نقلها البحرانی فی غایة المرام، عن أبی المؤید الموفق بن أحمد فی کتاب فضائل أمیر المؤمنین بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، و عنه بإسناد آخر عن الضحاک عن ابن عباس و عن الحموینی فی کتاب فرائد السمطین بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، و عن الثعلبی بإسناده عن أبی صالح عن ابن عباس، و رواه فی المجمع، عن الواحدی فی تفسیره.

و فی المجمع، بإسناده عن الحاکم بإسناده عن سعید بن المسیب عن علی بن أبی طالب أنه قال* سألت النبی عن ثواب القرآن: فأخبرنی بثواب سورة سورة- علی نحو ما نزلت من السماء.

فأول ما نزل علیه بمکة فاتحة الکتاب- ثم اقرأ باسم ربک، ثم ن- إلی أن قال- و أول ما نزل بالمدینة سورة البقرة ثم الأنفال- ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء- ثم إذا زلزلت ثم الحدید ثم سورة محمد ثم الرعد- ثم سورة الرحمن ثم هل أتی.

الحدیث.

و فيه، عن أبى حمزة الثمالى فى تفسيره قال ؛: حدثنى الحسن بن الحسن أبو عبد الله بن الحسن ": أنها مدنية نزلت فى على و فاطمة السورة كلها.

و فى تفسير القمى، عن أبيه عن عبد الله بن ميمون عن أبى عبد الله (ع) قال؛: كان عند فاطمة (ع) شعير فجعلوه عصيدة «۱» فلما أنضجوها و وضعوها بين أيديهم جاء مسكين فقال: مسكين رحمكم الله فقام على (ع) فأعطاه ثلثا- فلم يلبث أن جاء يتيم فقال: اليتيم رحمكم الله- فقام على (ع) فأعطاه الثلث ثم جاء أسير فقال: الأسير رحمكم الله فأعطاه على (ع) الثلث- و ما ذاقوها فأنزل الله سبحانه الآيات فيهم- و هى جارية فى كل مؤمن فعل ذلك لله عز و جل.

أقول: القصة كما ترى ملخصة فى الرواية و روى ذلک البحرانى فى غاية المرام، عن المفيد فى الاختصاص، مسندا و عن ابن بابويه فى الأمالى، بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، و بإسناده عن سلمة بن خالد عن جعفر بن محمد عن أبيه (ع)، و عن محمد بن العباس بن ماهيار فى تفسيره بإسناده عن أبى كثير الزبيرى عن عبد الله بن عباس، و فى المناقب، أنه مروى عن الأصبغ بن نباتة.

---

(۱) العصيدة: شعير يلت بالسمن و يطبخ.

ص:134

و فى الاحتجاج، عن على (ع): فى حديث يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب:

نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزل فيه و فى ولده «إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً » إلى آخر السورة غيرى؟ قالوا: لا.

و فى كتاب الخصال، فى احتجاج على على أبى بكر قال: أنشدک بالله أنا صاحب الآية- «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً» أم أنت؟ قال: بل أنت.

و فى الدر المنثور، أخرج الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمر قال ؛: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ص- فقال له رسول الله ص: سل و استفهم- فقال:

يا رسول الله فضلتم علينا- بالألوان و الصور و النبوة- أ فرأيت إن آمنت بما آمنت به- و عملت بمثل ما عملت به إنى لكائن معک فى الجنة؟ قال: نعم و الذى نفسى بيده- إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام. ثم قال: من قال لا إله إلا الله كان له عهد عند الله- و من قال: سبحان الله و بحمده كتبت له مائة ألف حسنة- و أربعة و عشرون ألف حسنة- و نزلت عليه السورة هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ- إلى قوله: مُلْكاً كَبِيراً.

فقال الحبشی: و إن عینی لتری ما تری عیناک فی الجنة؟ قال: نعم فاشتکی حتی فاضت نفسه. قال عمر: فلقد رأیت رسول الله ص یدلیه فی حفرته بیده.

و فیه، أخرج أحمد فی الزهد عن محمد بن مطرف قال ‌*: حدثنی الثقة: أن رجلا أسود کان یسأل النبی ص عن التسبیح و التهلیل- فقال له عمر بن الخطاب: مه أکثرت علی رسول الله- فقال: مه یا عمر و أنزلت علی رسول الله ص «هَلْ أَتی عَلَی الْإِنْسانِ حِینٌ مِنَ الدَّهْرِ» حتی إذا أتی علی ذکر الجنة- زفر الأسود زفرة خرجت نفسه- فقال النبی ص: مات شوقا إلی الجنة.

و فیه، أخرج ابن وهب عن ابن زید * أن رسول الله ص قرأ هذه السورة- هَلْ أَتی عَلَی الْإِنْسانِ حِینٌ مِنَ الدَّهْرِ- و قد أنزلت علیه و عنده رجل أسود- فلما بلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه- فقال رسول الله ص: أخرج نفس صاحبکم الشوق إلی الجنة.

أقول: و هذه الروایات الثلاث علی تقدیر صحتها لا تدل علی أزید من کون نزول السورة مقارنا لقصة الرجل و أم ا کونها سببا للنزول فلا، و هذا المعنی فی الروایة الأخیرة أظهر و بالجملة لا تنافی الروایات الثلاث نزول السورة فی أهل البیت (ع).

ص:135

علی أن روایة ابن عمر للقصة الظاهرة فی حضوره القصة و قد هاجر إلی المدینة و هو ابن إحدی عشرة سنة من شواهد وقوع القصة بالمدینة.

و فی الدر المنثور، أیضا أخرج النحاس عن ابن عباس قال"*: نزلت سورة الإنسان بمکة.

أقول: هو تلخیص حدیث طویل أورده النحاس فی کتاب الناسخ و المنسوخ، و قد نقله فی الإتقان و هو معارض لما تقدم نقله مستفیضا عن ابن عباس من نزول السورة بالمدینة و أنها نزلت فی أهل البیت (ع).

علی أن سیاق آیاتها و خاصة قوله «یُوفُونَ بِالنَّذْرِ و یُطْعِمُونَ الطَّعامَ» إلخ سیاق قصة واقعة و ذکر الأسیر فیمن أطعموهم نعم الشاهد علی نزول الآیات بالمدینة إذ لم یکن للمسلمین أسیر بمکة کما تقدمت الإشارة إلی ذلک.

قال بعضهم ما ملخصه: أن الروایات مختلفة فی مکیة هذه السورة و مدنیتها و الأرجح أنها مکیة بل الظاهر من سیاقها أنها من عتائق السور القرآنیة النازلة بمکة فی أوائل البعثة یؤید ذلک ما ورد فیها من صور النعم الحسیة المفصلة الطویلة و صور العذاب الغلیظ کما یؤیده ما ورد فیها من أمر النبی ص بالصبر لحکم ربه و أن لا یطیع منهم آثما أو کفورا و یثبت علی ما نزل علیه من الحق و لا یداهن المشرکین من الأوامر التی کانت تنزل بمکة عند اشتداد الأذی علی الدعوة و أصحابها بمکة کما فی سورة القلم و المزمل و المدثر فلا عبرة باحتمال مدنیة السورة.

و هو فاسد أما م ا ذکره من اشتمال السورة علی صور النعم الحسیة المفصلة الطویلة و صور العذاب الغلیظ فلیس ذلک مما یختص بالسور المکیة حتی یقضی بها علی کون السورة مکیة فهذه سورة الرحمن و سورة الحج مدنیتان علی ما تقدمت فی

الروایات المشتملة علی ترتیب نزول السور القرآنیة و قد اشتم لتا من صور النعم الحسیة المفصلة الطویلة و صور العذاب الغلیظ علی ما یربو و یزید علی هذه السورة بکثیر.

و أما ما ذکره من اشتمال السورة علی أمر النبی ص بالصبر و أن لا یطیع منهم آثما أو کفورا و لا یداهنهم و یثبت علی ما نزل علیه من الحق ففیه أن هذه الأوامر واقعة فی الفصل الثانی من آیات السورة و هو قوله: «إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنٰا عَلَیْکَ اَلْقُرْآنَ تَنْزِیلاً» إلی آخر السورة و من المحتمل جدا أن یکون هذا الفصل من الآیات- و هو ذو سیاق تام مستقل

- نازلا بمکة، و یؤیده ما فی کثیر من الروایات المتقدمة أن الذی نزل فی أهل البیت بالمدینة هو الفصل الأول من الآیات، و علی هذا أول السورة مدنی و آخرها مکی.

و لو سلم نزولها دفعة واحدة فأمره (ص) بالصبر لا اختصاص له بالسور المکیة فقد ورد فی قوله : «وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ اَلَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ وَ اَلْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَ لاٰ تَعْدُ عَیْنٰاکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَةَ اَلْحَیٰاةِ اَلدُّنْیٰا وَ لاٰ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنٰا وَ اِتَّبَعَ هَوٰاهُ وَ کٰانَ أَمْرُهُ فُرُطاً »: الکهف: ٢٨ و الآیة- علی ما روی- مدنیة و الآیة- کما تری- متحدة المعنی مع قوله: «فَاصْبِرْ لِحُکْمِ رَبِّکَ» إلخ و هی فی سیاق شبیه جدا بسیاق هذه الآیات فراجع و تأمل.

ثم الذی کان یلقاه النبی ص من أذی المنافقین و الذین فی قلوبهم مرض و الجفاة من ضعفاء الإیمان لم یکن بأهون من أذی المشرکین بمکة یشهد بذلک أخبار سیرته.

و لا دلیل أیضا علی انحصار الإثم و الکفور فی مشرکی مکة فهناک غیرهم من الکفار و قد أثبت القرآن الإثم لجمع من المسلمین فی موارد کقوله : «لِکُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اکْتَسَبَ مِنَ اَلْإِثْمِ »: النور: ١١، و قوله: «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِیناً»: النساء: ١١٢.

و فی المجمع، و روی العیاشی بإسناده عن عبد الله بن بکیر عن زرارة قال ***: سألت أبا جعفر (ع) عن قوله: «لَمْ یَکُنْ شَیْئاً مَذْکُوراً» قال: کان شیئا و لم یکن مذکورا.

أقول: و روی فیه، أیضا عن عبد الأعلی مولی آل سام عن أبی عبد الله (ع): مثله.

و فیه، أیضا عن العیاشی بإسناده عن سعید الحذاء عن أبی جعفر (ع) قال***: کان مذکورا فی العلم و لم یکن مذکورا فی الخلق.

أقول: یعنی أنه کان له ثبوت فی علم الله ثم خلق بالفعل فصار مذکورا فیمن خلق.

و فی الکافی، بإسناده عن مالک الجهنی عن أبی عبد الله (ع)*** فی الآیة قال: کان مقدرا غیر مذکور.

أقول: هو فی معنی الحدیث السابق.

و فی تفسیر القمی،": فی الآیة قال: لم یکن فی العلم و لا فی الذکر،

و فی حدیث آخر: کان فی العلم و لم یکن فی الذکر.

ص:137

أقول: معنی الحدیث الأول أنه لم یکن فی علم الناس و لا فیمن یذکرونه فیما بینهم، و معنی الثانی أنه کان فی علم الله و لم یکن مذکورا عند الناس.

و فی تفسیر القمی، أیضا فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع)* فی قوله تعالی «أَمْشاجٍ نَبْتَلِیهِ» قال: ماء الرجل و المرأة اختلطا جمیعا.

و فی الکافی، بإسناده عن حمران بن أعین قال*: سألت أبا عبد الله (ع) عن قوله عز و جل، «إِنّٰا هَدَیْنٰاهُ السَّبِیلَ إِمّٰا شٰاکِراً وَ إِمّٰا کَفُوراً» قال: إما آخذ فهو شاکر و إما تارک فهو کافر.

أقول: و رواه القمی فی تفسیره، بإسناده عن ابن أبی عمیر عن أبی جعفر (ع)* مثله.

و فی التوحید، بإسناده إلی حمزة بن الطیار عن أبی عبد الله (ع) ما یقرب منه و لفظه: عرفناه إما آخذا و إما تارکا.

و فی الدر المنثور، أخرج أحمد و ابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال *: قال رسول الله ص: کل مولود یولد علی الفطرة حتی یعبر عنه لسانه- فإذا عبر عنه لسانه إما شاکرا و إما کفورا- و الله تعالی أعلم.

و فی أمالی الصدوق، بإسناده عن الصادق عن أبیه (ع) فی حدیث: «عَیْناً یَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اللّٰهِ یُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِیراً » قال: هی عین فی دار النبی ص- یفجر إلی دور الأنبیاء و المؤمنین «یُوفُونَ بِالنَّذْرِ» یعنی علیا و فاطمة- و الحسن و الحسین (ع) و جاریتهم «وَ یَخٰافُونَ یَوْماً کٰانَ شَرُّهُ مُسْتَطِیراً» یقول عابسا کلوحا «وَ یُطْعِمُونَ الطَّعٰامَ عَلیٰ حُبِّهِ» یقول: علی شهوتهم للطعام و إیثارهم له «مِسْکِیناً» من مساکین المسلمین- «وَ یَتِیماً» من یتامی المسلمین «وَ أَسِیراً» من أساری المشرکین.

و یقولون إذا أطعموهم : «إِنَّمٰا نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ- لاٰ نُرِیدُ مِنْکُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُکُوراً » قال: و الله ما قالوا هذا لهم- و لکنهم أضمروه فی أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم- یقولون: لا نرید جزاء تکافئوننا به- و لا شکورا تثنون علینا به، و لکنا إنما أطعمناکم لوجه الله و طلب ثوابه.

و فی الدر المنثور، أخرج سعید بن منصور و ابن أبی شیبة و ابن المنذر و ابن مردویه عن الحسن قال "*: کان الأساری مشرکین یوم نزلت هذه الآیة «وَ یُطْعِمُونَ الطَّعٰامَ عَلیٰ حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِیراً.

ص:138

أقول: مدلول الرواية نزول الآية بالمدينة، و نظيرها ما رواه فيه عن عبد بن حميد عن قتادة، و ما رواه عن ابن المنذر عن ابن جريح، و ما رواه عن عبد الرزاق و ابن المنذر عن ابن عباس.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالک عن النبی ص* فی قوله: «يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً» قال: يقبض ما بين الأبصار.

و فی روضة الکافی، بإسناده عن محمد بن إسحاق المدنی عن أبی جعفر (ع)* فی صفة الجنة قال: و الثمار دانية منهم- و هو قوله عز و جل: «وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها- وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا » من قربها منهم يتناول المؤمن- من النوع الذی يشتهيه من الثمار بفيه و هو متکئ- و إن الأنواع من الفاکهة ليقلن لولی الله: يا ولی الله کلمنی قبل أن تأکل هذه قبلی.

و فی تفسير القمی،": فی قوله: «وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ «قال: مسورون.

و فی المعانی، بإسناده عن عباس بن يزيد قال*: قلت لأبی عبد الله (ع) و کنت عنده ذات يوم: أخبرنی عن قول الله عز و جل: «وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً» ما هذا الملک الذی کبر الله عز و جل حتی سماه کبيرا؟ قال: إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة- أرسل رسولا إلی ولی من أوليائه فيجد الحجبة علی بابه- فتقول له: قف حتی نستأذن لک، فما يصل إليه رسول ربه إلا بإذن فهو قوله عز و جل: «وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً».

و فی المجمع،: «وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً» لا يزول و لا يفنی: عن الصادق (ع).

و فيه،: «عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ» و روی عن الصادق (ع) فی معناه: تعلوهم الثياب فيلبسونها.

کلام فی هوية الإنسان علی ما يفيده القرآن

لا ريب أن فی هذا الهيکل المحسوس الذی نسميه إنسانا مبدأ للحياة ينتسب إليه الشعور و الإرادة، و قد عبر تعالی عنه فی الکلام فی خلق الإنسان- آدم- بالروح و فی سائر المواضع من کلامه بالنفس قال تعالی: «فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

ص:139

ساجِدِينَ»: الحجر: ٢٩ ص: ٧٢، و قال: «ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ»: الم السجدة: ٩.

و الذی يسبق من الآيتين إلی النظر البادئ أن الروح و البدن حقيقتان اثنتان متفارقتان نظير العجين المرکب من الماء و الدقيق و الإنسان مجموع الحقيقتين فإذا قارنت الروح الجسد کان إنسانا حيا و إذا فارقت فهو الموت.

لکن يفسرها قوله تعالی: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ »: الم السجدة: ١١ حيث يفيد أن الروح التی يتوفاها و يأخذها قابض الأرواح هی التی يعبر عنها بلفظة «کم» و هو الإنسان بتمام حقيقته لا جزء من مجموع فالمراد بنفخ الروح فی

الجسد جعل الجسد بعينه إنسانا لا ضم واحد إلى واحد آخر يغايره فى ذاته و آثار ذاته فالإنسان حقيقة واحدة حين تعلق روحه ببدنه و بعد مفارقة روحه البدن.

و يفيد هذا المعنى قوله تعالى : «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ»: المؤمنون: ١۴ فالذى أنشأه الله خلقا آخر هو النطفة التى تكونت علقة ثم مضغة ثم عظاما بعينها.

و فى معناها قوله تعالى : «هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » فتقييد الشىء المنفى بالمذكور يعطى أنه كان شيئا لكن لم يكن مذكورا فقد كان أرضا أو نطفة مثلا لكن لم يكن مذكورا أنه الإنسان الفلانى ثم صار هو هو.

فمفاد كلامه تعالى أن الإنسان واحد حقيقى هو المبدأ الوحيد لجميع آثار البدن الطبيعية و الآثار الروحية كما أنه مجرد فى نفسه عن المادة كما يفيده أمثال قوله تعالى : «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ» و قوله: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها »: الزمر: ۴٢ و قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» و قد تقدم بيانه.

[سورة الإنسان (٧۶): الآيات ٢٣ الى ٣١]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢۴) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٢۵) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢۶) إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧)

نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (٣١)

ص:140

بيان

لما وصف جزاء الأبرار و ما قدر لهم من النعيم المقيم و الملك العظيم بما صبروا فى جنب الله وجه الخطاب إلى النبى ص و أمره بالصبر لحكم ربه و أن لا يطيع هؤلاء الآثمين و الكفار المحبين للعاجلة المتعلقين بها المعرضين عن الآخرة من المشركين و سائر الكفار و المنافقين و أهل الأهواء، و أن يذكر اسم ربه و يسجد له و يسبحه مستمرا عليه ثم عمم الحكم لأمته بقوله: «إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا».

فهذا وجه اتصال الآيات بما قبلها و سياقها مع ذلك لا يخلو من شبه بالسياقات المكية و على تقدير مكيتها فصدر السورة مدنى و ذيلها مكى.

قوله تعالى: «إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ اَلْقُرْآنَ تَنْزِيلًا » تصدير الكلام بأن و تكرار ضمير المتكلم مع الغير و الإ تيان بالمفعول المطلق كل ذلک للتأكيد، و لتسجيل أن الذى نزل من القرآن نجوما متفرقة هو من الله سبحانه لم يداخله نفث شيطانى و لا هو نفسانى.

قوله تعالى: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً » تفريع على ما هو لازم مضمون الآية السابقة فإن لازم كون الله سبحانه هو الذى نزل القرآن عليه أن يكون ما فى القرآن من الحكم حكم ربه يجب أن يطاع فالمعنى إذا كان تنزيله منا فما فيه من الحكم حكم ربک فيجب عليک أن تصبر له فاصبر لحكم ربک.

ص:141

و قوله «وَ لاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً» ورود الترديد فى سياق النهى يفيد عموم الحكم فالنهى عن طاعتهما سواء اجتمعا أو افترقا، و الظاهر أن المراد بالإثم المتلبس بالمعصية و بالكفور المبالغ فى الكفر فتشمل الآية الكفار و الفساق جميعا.

و سبق النهى عن طاعة الإثم و الكفور بالأمر بالصبر لحكم ربه يفيد كون النهى مفسرا للأمر فمفاد النهى أن لا تطع منهم آثما إذا دعاک إلى إثمه و لا كفورا إذا دعاک إلى كفره لأن إثم الآثم منهم و كفر الكافر مخالفان لحكم ربک و أما تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلية فإنما يفيد علية الإثم و الكفر للنهى عن الطاعة مطلقا لا عليته ما للنهى إذا دعا الآثم إلى خصوص إثمه و الكافر إلى خصوص كفره.

قوله تعالى: «وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا» أى داوم على ذكر ربک و هو الصلاة فى كل بكرة و أصيل و هما الغدو و العشى.

قوله تعالى: «وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلًا » من للتبعيض و المراد بالسجود له الصلاة، و يقبل ما فى الآيتين من ذكر اسمه بكرة و أصيلا و السجود له بعض الليل الانطباق على صلاة الصبح و العصر و المغرب و العشاء و هذا يؤيد نزول الآيات بمكة قبل فرض الفرائض الخمس بقوله فى آية الإسراء : «أَقِمِ الصَّلاٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ »: إسراء: ٧٨.

فالآيتان كقوله تعالى: «وَ أَقِمِ الصَّلاٰةَ طَرَفَيِ النَّهٰارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ »: هود: ١١۴، و قوله «وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهٰا وَ مِنْ آنٰاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرٰافَ النَّهٰارِ»: طه: ١٣٠.

نعم قيل: على أن الأصيل يطلق على ما بعد الزوال فيشمل قوله «وَ أَصِيلًا» وقتى صلاتى الظهر و العصر جميعا، و لا يخلو من وجه.

و قوله: «وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا » أى فى ليل طويل و وصف الليل بالطويل توضيحى لا احترازى، و المراد بالتسبيح صلاة الليل، و احتمل أن يكون طويلا صفة لمفعول مطلق محذوف، و التقدير سبحه فى الليل تسبيحا طويلا.

قوله تعالى: «إِنَّ هٰؤُلاٰءِ يُحِبُّونَ الْعٰاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَرٰاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا» تعليل لما تقدم من الأمر و النهى و الإشارة بهؤلاء إلى جمع الإثم و الكفور المدلول عليه بوقوع النكرة فى

ص:142

سیاق النهی، و المراد بالعاجلة الحیاة الدنیا، و عد الیوم ثقیلا من الاستعارة، و المراد بثقله شدته کأنه محمول ثقیل یشق حمله، و الیوم یوم القیامة.

و کون الیوم وراءهم تقرره أمامهم لأن وراء تفید معنی الإحاطة، أو جعلهم إیاه خلفهم و وراء ظهورهم بناء علی إفادة «یَذَرُونَ» معنی الإعراض.

و المعنی: فاصبر لحکم ربک و أقم الصلاة و لا تطع الآثمین و الکفا ر منهم لأن هؤلاء الآثمین و الکفار یحبون الحیاة الدنیا فلا یعملون إلا لها و یترکون أمامهم یوما شدیدا أو یعرضون فیجعلون خلفهم یوما شدیدا سیلقونه.

قوله تعالی: «نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِیلًا» الشد خلاف الفک، و الأسر فی الأصل الشد و الربط و یطلق علی ما یشد و یربط به فمعنی شددنا أسرهم أحکمنا ربط مفاصلهم بالرباطات و الأعصاب و العضلات أو الأسر بمعنی المأسور و المعنی أحکمنا ربط أعضائهم المختلفة المشدودة بعضها ببعض حتی صار الواحد منهم بذلک إنسانا واحدا.

و قوله: «وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِیلًا » أی إذا شئنا بدلناهم أمثالهم فذهبنا بهم و جئنا بأمثالهم مکانهم و هو أماته قرن و إحیاء آخرین، و قیل المراد به تبدیل نشأتهم الدنیا من نشأة القیامة و هو بعید من السیاق.

و الآیة فی معنی دفع الدخل کان متوه ما یتوهم أنهم بحبهم للدنیا و إعراضهم عن الآخرة یعجزونه تعالی و یفسدون علیه إرادته منهم أن یؤمنوا و یطیعوا فأجیب بأنهم مخلوقون لله خلقهم و شد أسرهم و إذا شاء أذهبهم و جاء بآخرین فکیف یعجزونه و خلقهم و أمرهم و حیاتهم و موتهم بیده.؟

قوله تعالی: «إِنَّ هذِهِ تَذْکِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلی رَبِّهِ سَبِیلًا» تقدم تفسیره فی سورة المزمل و الإشارة بهذه إلی ما ذکر فی السورة.

قوله تعالی: «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً» الاستثناء من النفی یفید أن مشیة العبد متوقفة فی وجودها علی مشیته تعالی فلمشیته تعالی تأثیر فی فعل العبد من طریق تعلقها بمشیة العبد، و لیست متعلقة بفعل العبد مستقلا و بلا واسطة حتی تستلزم بطلان تأثیر إرادة العبد و کون الفعل جبریا و لا أن العبد مستقل فی إرادة یفعل ما یشاؤه شاء الله أو لم یشأ، فالفعل اختیاری لاستناده إلی اختیار العبد، و أما

ص:143

اختیار العبد فلیس مستندا إلی اختیار آخر، و قد تکرر توضیح هذا البحث فی مواضع مما تقدم.

و الآیهٔ مسوقهٔ لدفع توهم أنهم مستقلون فی مشیتهم منقطعون من مشیهٔ ربهم، و لعل تسجیل هذا التنبیه علیهم هو الوجه فی الالتفات إلی الخطاب فی قوله «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ » کما أن الوجه فی الالتفات من التکلم بالغیر إلی الغیبهٔ فی قوله : «یَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ » هو الإشارهٔ إلی علهٔ الحکم فإن مسمی هذا الاسم الجلیل یبتدئ منه کل شی ء و ینتهی إلیه کل شی ء فلا تکون مشیهٔ إلا بمشیته و لا تؤثر مشیهٔ إلا بإذنه.

و قوله: «إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً» توطئهٔ لبیان مضمون الآیهٔ التالیهٔ.

قوله تعالی: «یُدْخِلُ مَنْ یَشاءُ فِی رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِینَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً » مفعول «یَشاءُ» محذوف یدل علیه الکلام، و التقدیر یدخل فی رحمته من یشاء دخوله فی رحمته، و لا یشاء إلا دخول من آمن و اتقی، و أما غیرهم و هم أهل الإثم و الکفر فبین حالهم بقوله: «وَ الظَّالِمِینَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً».

و الآیهٔ تبین سنته تعالی الجاریهٔ فی عباده من حیث السعادهٔ و الشقاء، و قد علل ذلک بما فی ذیل الآیهٔ السابقهٔ من قوله «إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً» فأفاد به أن سنته تعالی لیست سنهٔ جزافیهٔ مبنیهٔ علی الجهالهٔ بل هو یعامل کلا من الطائفتین بما هو أهل له و سینبئهم حقیقهٔ ما کانوا یعملون.

بحث روائی

و فی الدر المنثور، أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن أبی حاتم عن قتادهٔ"* فی قوله:

«وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ کَفُوراً» قال: حدثنا أنها نزلت فی عدو الله أبی جهل.

أقول: و هو أشبه بالتطبیق.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی «وَ سَبِّحْهُ لَیْلًا طَوِیلًا»:

روی عن الرضا (ع): أنه سأله أحمد بن محمد عن هذه الآیهٔ و قال: ما ذلک التسبیح؟ قال: صلاهٔ اللیل.

و فی الخرائج و الجرائح، عن القائم (ع): فی حدیث یقول لکامل بن إبراهیم المدنی:

و جئت تسأل عن مقالهٔ المفوضهٔ- کذبوا بل قلوبنا أوعیهٔ لمشیهٔ الله عز و جل- فإذا شاء شئنا، و الله یقول «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ».

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه من طريق ابن شهاب عن سالم عن أبى هريرة * أن رسول الله ص كان يقول إذا خطب: كل ما هو آت قريب، لا بعد لما يأتى، و لا يعجل الله لعجلة أحد، ما شاء الله لا ما شاء الناس، يريد الناس أمرا و يريد الله أمرا، ما شاء الله كان و لو كره الناس، لا مباعد لما قرب الله، و لا مقرب لما باعد الله، لا يكون شىء إلا بإذن الله.

أقول: و فى بعض الروايات من طرق أهل البيت (ع) تطبيق الحكم فى قوله:

«فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّکَ» و الرحمة فى قوله: «يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِی رَحْمَتِهِ» على الولاية و هو من الجرى أو البطن و ليس من التفسير فى شىء.

(۷۷) سورة المرسلات مكية و هى خمسون آية (۵۰)

[سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۱ الى ۱۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (۱) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (۲) وَ النّاشِراتِ نَشْراً (۳) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (۴)

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (۵) عُذْراً أَوْ نُذْراً (۶) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (۷) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (۸) وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (۹)

وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (۱۰) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (۱۱) لِأَیِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (۱۲) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (۱۳) وَ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (۱۴)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۵)

بيان

تذكر السورة يوم الفصل و هو يوم القيامة و تؤكد الإخبار بوقوعه و تشفعه بالوعيد الشديد للمكذبين به و الإنذار و التبشير لغيرهم و يربو فيها جانب الوعيد على غيره فقد كرر فيها قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» عشر مرات.

ص:145

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً» الآية و ما يتلوها إلى تمام ست آيات إقسام منه تعالى بأمور يعبر عنها بالمرسلات فالعاصفات و الناشرات فالفارقات فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا، و الأوليان أعنى المرسلات عرفا و العاصفات عصفا لا تخلوان لو خليتا و نفسهما مع الغض عن السياق من ظهور ما فى الرياح المتعاقبة الشديدة الهبوب لكن الأخيرة أعنى الملقيات ذكرا عذرا أو نذرا

كالصريحة فى الملائكة النازلين على الرسل الحاملين لوحى الرسالة الملقين له إليهم إتماما للحجة أو إنذارا و بقية الصفات لا تأبى الحمل على ما يناسب هذا المعنى.

و حمل جميع الصفات الخمس على إرادة ال رياح كما هو ظاهر المرسلات و العاصفات- على ما عرفت- يحتاج إلى تكلف شديد فى توجيه الصفات الثلاث الباقية و خاصة فى الصفة الأخيرة.

و كذا حمل المرسلات و العاصفات على إرادة الرياح و حمل الثلاث الباقية أو الأخيرتين أو الأخيرة فحسب على ملائكة الوحى إذ لا تناسب ظاه را بين الرياح و بين ملائكة الوحى حتى يقارن بينها فى الأقسام و ينظم الجميع فى سلك واحد، و ما وجهوه من مختلف التوجيهات معان بعيدة عن الذهن لا ينتقل إليها فى مفتتح الكلام من غير تنبيه سابق.

فالوجه هو الغض عن هذه الأقاويل و هى كثيرة جدا لا تكاد تنضبط، و حمل المذكورات على إرادة ملائكة الوحى كنظيرتها فى مفتتح سورة الصافات «وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِراتِ زَجْراً فَالتَّالِياتِ ذِكْراً» و فى معناها قوله تعالى: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ»: الجن: ٢٨.

فقوله: «وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً» إقسام منه تعالى بها و العرف بالضم فالسكون الشعر النابت على عنق الفرس و يشبه به الأمور إذا تتابعت يقال: جاءوا كعرف الفرس، و يستعار فيقال: جاء القطا عرفا أى متتابعة و جاءوا إليه عرفا واحدا أى متتابعين، و العرف أيضا المعروف من الأمر و النهى و «عُرْفاً» حال بالمعنى الأول مفعول له بالمعنى الثانى، و الإرسال خلاف الإمساك، و تأنيث المرسلات باعتبار الجماعات أو باعتبلو الروح التى

تنزل بها الملائكة قال تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» النحل: ٢ و قال «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»: المؤمن: ١٥.

و المعنى أقسم بالجماعات المرسلات من ملائكة الوحى.

و قيل: المراد بالمرسلات عرفا الرياح المتتابعة المرسلة و قد تقدمت الإشارة إلى ضعفه، و مثله فى الضعف القول بأن المراد بها الأنبياء (ع) فلا يلائمه ما يتلوها.

قوله تعالى: «فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً» عطف على المرسلات و المراد بالعصف سرعة السير استعارة من عصف الرياح أى سرعة هبوبها إشارة إلى سرعة سيرها إلى ما أرسلت إليه، و المعنى أقسم بالملائكة الذين يرسلون متتابعين فيسرعون فى سيرهم كالرياح العاصفة.

قوله تعالى: «وَ النّاشِراتِ نَشْراً» إقسام آخر، و نشر الصحيفة و الكتاب و الثوب و نحوها : بسطه، و المراد بالنشر نشر صحف الوحى كما يشير إليه قوله تعالى «كَلّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ»: عبس: ١۶ و المعنى و أقسم بالملائكة الناشرين للصحف المكتوبة عليها الوحى للنبىّ ليتلقاه.

و قيل: المراد بها الرياح ينشرها الله تعالى بين يدى رحمته و قيل : الرياح الناشرة للسحاب، و قيل : الملائكة الناشرين لصحائف الأعمال، و قيل: الملائكة نشروا أجنحتهم حين النزول و قيل: غير ذلک.

قوله تعالى «فَالْفارِقاتِ فَرْقاً » المراد به الفرق بين الحق و الباطل و بين الحلال و الحرام، و الفرق المذكور صفة متفرعة على النشر المذكور.

قوله تعالى: «فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً » المراد بالذكر القرآن يقرءونه على النبى ص أو مطلق الوحى النازل على الأنبى اء المقرو عليهم.

و الصفات الثلاث أعنى النشر و الفرق و إلقاء الذكر مترتبة فإن الفرق بين الحق و الباطل و الحلال و الحرام يتحقق بنشر الصحف و إلقاء الذكر فبالنشر يشرع الفرق فى التحقق و بالتلاوة يتم تحققه فالنشر يترتب عليه مرتبة من وجود الفرق و يترتب عليها تمام وجوده بالإلقاء.

ص:147

و قوله: «عُذْراً أَوْ نُذْراً» هما من المفعول له و «أَوْ» للتنويع قيل: هما مصدران بمعنى الإعذار و الإنذار، و الإعذار الإتيان بما يصير به معذورا و المعنى أنهم يلقون الذكر لتكون عذرا لعباده المؤمنين بالذكر و تخويفا لغيرهم.

و قيل: ليكون عذرا يعتذر به الله إلى عباده فى العقاب أنه لم يكن إلا على وجه الحكمة، و يئول إلى إتمام الحجة، فمحصل المعنى عليه أنهم يلقون الذكر ليكون إتماما للحجة على المكذبين و تخويفا لغيرهم، و هو معنى حسن.

قوله تعالى: «إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ» جواب القسم، و ما موصولة و الخطاب لعامة البشر، و المراد بما توعدون يوم القيامة بما فيه من العقاب و الثواب و الواقع أبلغ من الكائن لما فيه من شائبة الاستقرار، و المعنى أن الذى وعدكم الله به من البعث و العقاب و الثواب سيتحقق لا محالة.

كلام فى إقسامه تعالى فى القرآن

من لطيف صنعة البيان فى هذه الآيات الست أنها مع ما تتضمن الإقسام لتأكيد الخبر الذى فى الجواب تتضمن الحجة على مضمون الجواب و هو وقوع الجزاء الموعود فإن التدبير الربوبى الذى يشير إليه القسم أعنى إرسال المرسلات العاصفات و نشرها الصحف و فرقها و إلقاءها الذكر للنبى تدبير لا يتم إلا مع وجود التكليف الإلهى و التكليف لا يتم إلا مع تحتم وجود يوم معد للجزاء يجازى فيه العاصى و المطيع من المكلفين.

فالذى أقسم تعالى به من التدبير لتأكيد وقوع الجزاء الموعود هو بعينه حجة على وقوعه كأنه قيل : أقسم بهذه الحجة أن مدلولها واقع.

و إذا تأملت الموارد التى أورد فيها القسم فى كلامه تعالى و أمعنت فيها وجدت المقسم به فيها حجة دالة على حقية الجواب كقوله تعالى فى الرزق : «فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ »: الذاريات: ٢٣ فإن ربوبية السماء و الأرض هى المبدأ لرزق المرزوقين، و قوله:

«لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَکْرَتِهِمْ یَعْمَهُونَ »: الحجر: ٧٢ فإن حياة النبى ص الطاهرة المصونة بعصمة من الله دالة على سكرهم و عمههم، و قوله : «وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها - إلى أن قال- وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها قَدْ أَ فْلَحَ مَنْ زَکَّاها وَ قَدْ خابَ مَنْ

ص:148

دَسَّاها»: الشمس: ١٠ فإن هذا النظام المتقن المنتهى إلى النفس الملهمة المميزة لفجورها و تقواها هو الدليل على فلاح من زكاها و خيبة من دساها.

و على هذا النسق سائر ما ورد من القسم فى كلامه تعالى و إن كان بعضها لا يخلو من خفاء يحوج إلى إمعان من النظر كقوله : «وَ التِّینِ وَ الزَّیْتُونِ وَ طُورِ سِینِینَ»: التين: ٢ و عليك بالتدبر فيها.

[بيان]

قوله تعالى: «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ - إلى قوله- أُقِّتَتْ» بيان لليوم الموعود الذى أخبر بوقوعه فى قوله : «إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ» و جواب إذا محذوف يدل عليه قوله:

«لِأَیِّ یَوْمٍ أُجِّلَتْ- إلى قوله- لِلْمُکَذِّبِینَ».

و قد عرف سبحانه اليوم الموعود بذكر حوادث واقعة تلازم انقراض العالم الإنسانى و انقطاع النظام الدنيوى كانطماس النجوم و انشقاق الأرض و اندكاك الجبال و تحول النظام إلى نظام آخر يغايره، و قد تكرر ذلك فى كثير من السور القرآنية و خاصة السور القصار كسورة النبإ و النازعات و التكوير و الانفطار و الانشقاق و الفجر و الزلزال و القارعة، و غيرها، و قد عدت الأمور المذكورة فيها فى الأخبار من أشراط الساعة.

و من المعلوم بالضرورة من بيانات الكتاب و السنة أن نظام الحياة فى جميع شئونها فى الآخرة غير نظامها فى الدنيا فالدار الآخرة دار أبدية فيها محض السعادة لساكنيها لهم فيها ما يشاءون أو محض الشقاء و ليس لهم فيها إلا ما يكرهون و الدار الدنيا دار فناء و زوال لا يحكم فيها إلا الأسباب و العوامل الخارجية الظاهرية مخلوط فيها الموت بالحياة، و الفقدان بالوجدان،

و الشقاء بالسعادة، و التعب بالراحة، و المساءة بالسرور، و الآخرة دار جزاء و لا عمل و الدنيا دار عمل و لا جزاء، و بالجملة النشأة غير النشأة.

فتعريفه تعالى نشأة البع ث و الجزاء بأشراطها التی فيها انطواء بساط الدنيا بخراب بنيان أرضها و انتساف جبالها و انشقاق سمائها و انطماس نجومها إلى غير ذلک من قبيل تحديد نشأة بسقوط النظام الحاكم فی نشأة أخرى قال تعالى : «وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ»: الواقعة: ۶۲.

ص:149

فقوله: «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ» أی محى أثرها من النور و غيره، و الطمس إزالة الأثر بالمحو قال تعالى: «وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ»: التكوير: ۲.

و قوله: «وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ» أی انشقت، و الفرج و الفرجة الشق بين الشيئين قال تعالى: «إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ»: الانشقاق: ۱.

و قوله: «وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ » أی قلعت و أزيلت من قولهم : نسفت الريح الشیء أی اقتلعته و أزالته قال تعالى : «وَ يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّی نَسْفاً»: طه: ۱۰۵.

و قوله: «وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ» أی عين لها الوقت الذی تحضر فيه للشهادة على الأمم أو بلغت الوقت الذی تنتظره لأداء شهادتها على الأمم من التأقيت بمعنى التوقيت، قال تعالى : «فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ »: الأعراف: ۶، و قال: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ»: المائدة: ۱۰۹.

قوله تعالى: «لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ- إلى قوله:- لِلْمُكَذِّبِينَ» الأجل المدة المضروبة للشیء، و التأجيل جعل الأجل للشیء، و يستعمل فی لازمه و هو التأخير كقولهم : دين مؤجل أی له مدة بخلاف الحال و هذا المعنى هو الأنسب للآية، و الضمير فی «أُجِّلَتْ» للأمور المذكورة قبلا من طمس النجوم و فرج السماء و نسف الجبال و تأقيت الرسل، و المعنى لأی يوم أخرت يوم أخرت هذه الأمور.

و احتمل أن يكون «أُجِّلَتْ» بمعنى ضرب الأجل للشی ء و أن يكون الضمير المقدر فيه راجعا إلى الرسل، أو إلى ما يشعر به الكلام من الأمور المتعلقة بالرسل مما أخبروا به من أحوال الآخرة و أهوالها و تعذيب الكافرين و تنعيم الم ؤمنين فيها، و لا يخلو كل ذلک من خفاء.

و قد سيقت الآية و التی بعدها أعنی قوله : «لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ » فی صورة الاستفهام و جوابه للتعظيم و التهويل و التعجيب و أصل المعنى أخرت هذه الأمور ليوم الفصل.

و هذا النوع من الجمل الاستفهامية فی معنى تقدير القول، و المعنى أن من عظمة هذا اليوم و هوله و كونه عجبا أنه يسأل فيقال : لأی يوم أخرت هذه الأمور العظيمة الهائلة العجيبة فيجاب : ليوم الفصل.

و قوله: «لِيَوْمِ الْفَصْلِ» هو يوم الجزاء الذی فيه فصل القضاء قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ»: الحج: ١٧.

ص:150

و قوله: «وَ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ» تعظيم لليوم و تفخيم لأمره.

و قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » الويل الهلاک، و المراد بالمكذبين المكذبون بيوم الفصل الذی فيه ما يوعدون فإن الآيات مسوقة لبيان وقوعه و قد أقسم على أنه واقع.

و فی الآية دعاء على المكذبين، و قد استغنى به عن ذكر جواب إذا فی قوله : «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ» إلخ و التقدير فإذا كان كذا و كذا وقع ما توعدون من العذاب على التكذيب أو التقدير فإذا كان كذا و كذا كان يوم الفصل و هلک المكذبون به.

بحث روائی

فی الخصال، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: أسرع الشيب إليک يا رسول الله قال (ص): شيبتنی هود و الواقعة و المرسلات و عم يتساءلون.

و فی الدر المنثور، أخرج البخاری و مسلم و النسائی و ابن مردويه عن ابن مسعود قال *: بينما نحن مع النبی ص فی غار بمنى- إذ نزلت عليه سورة و المرسلات عرفا- فإنه يتلوها و إنی لألقاها من فيه- و إن فاه لرطب بها إذ وثبت عليه حية- فقال النبی ص: اقتلوها فابتدرناها فذهبت- فقال النبی ص وقيت شركم كما وقيتم شرها.

أقول: و رواها أيضا بطريقين آخرين.

و فی تفسير القمی،": فی قوله تعالى: «وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً» قال: آيات تتبع بعضها بعضا.

و فی المجمع،: فی الآية و قيل : إنها الملائكة أرسلت بالمعروف- من أمر الله و نهيه :. فی رواية الهروی عن ابن مسعود ، و عن أبی حمزة الثمالی عن أصحاب علی عنه (ع).

و فی تفسير القمی،": فی قوله تعالى: «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ» قال: يذهب نورها و تسقط.

و فيه، فی رواية أبی الجارود عن أبی جعفر (ع)* فی قوله : «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ » فطمسها ذهاب ضوئها «وَ إِذَا السَّما ءُ فُرِجَتْ» قال: تفرج و تنشق «وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ» قال: بعثت فی أوقات مختلفة.

و فی المجمع، قال الصادق (ع): «أُقِّتَتْ» أی بعثت فی أوقات مختلفة.

و فی تفسير القمی،": فی قوله تعالى: «لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ» قال: أخرت.

ص:151

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١٦ الى ٥٠]

أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١۶) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (٢٠)

فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢۴) أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (٢۵)

أَحْياءً وَ أَمْواتاً (٢۶) وَ جَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠)

لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣۴) هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (٣۵)

وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣۶) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴٠)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ (۴١) وَ فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۴٢) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴٣) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۴۴) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۵)

كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (۴۶) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴٧) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (۴٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۵٠)

ص:152

بيان

حجج دالة على توحد الربوبية تقضی بوجود يوم الفصل الذی فيه جزاء المكذبين به، و إشارة إلى ما فيه من الجزاء المعد لهم الذی كانوا يكذبون به، و إلى ما فيه من النعمة و الكرامة للمتقين، و تختتم بتوبيخهم و ذمهم على استكبارهم عن عبادته تعالى و الإيمان بكلامه.

قوله تعالى: «أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ» الاستفهام للإنكار، و المراد بالأولين أمثال قوم نوح و عاد و ثمود من الأمم القديمة عهدا، و بالآخرين الملحقون بهم من الأمم الغابرة، و الإتباع جعل الشیء أثر الشیء.

و قوله: «ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ» برفع نتبع على الاستيناف و ليس بمعطوف على «نُهْلِكِ» و إلا لجزم.

و المعنى قد أهلكنا المكذبين من الأمم الأولين ثم إنا نهلك الأمم الآخرين على أثرهم.

و قوله: «كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ» فی موضع التعليل لما تقدمه و لذا أورد بالفصل من غير عطف كان قائلا قال : لما ذا أهلكوا؟ فقيل: كذلك نفعل بالمجرمين. و الآيات- كما ترى- إنذار و إرجاع للبيان إلى الأصل المضروب فی السورة أعنی قوله : «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» و هی بعينها حجة على توحد الربوبية فإن إهلاك المجرمين من الإنسان تصرف فی العالم الإنسانی و تدبير، و إذ ليس المهلك إلا الله- و قد اعترف به المشركون- فهو الرب لا رب سواه و لا إله غيره.

على أنها تدل على وجود يوم الفصل لأن إهلاك قوم لإجرامهم لا يتم إلا بعد توجه تكليف إليهم يعصونه و لا معنى للتكليف إلا مع مجازاة المطيع بالثواب و العاصی بالعقاب فهناك يوم يفصل فيه القضاء فيثاب فيه المطيع و يعاقب فيه العاصی و ليس هو الثواب و العقاب الدنيويين لأنهما لا يستوعبان فی هذه الدار فهناك يوم يجازی فيه كل بما عمل، و هو يوم الفصل ذلك يوم مجموع له الناس.

ص:153

قوله تعالى: «أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ- إلى قوله- فَنِعْمَ الْقادِرُونَ» الاستفهام للإنكار و الماء المهين الحقير قليل الغناء و المراد به النطفة، و المراد بالقرار المكين الرحم و بقوله: «قَدَرٍ مَعْلُومٍ» مدة الحمل.

و قوله: «فَقَدَرْنا» من القدر بمعنى التقدير، و الفاء لتفريع القدر على الخلق أی خلقناكم فقدرنا ما سيجری عليكم من الحوادث و ما يستقبلكم من الأوصاف و الأحوال من طول العمر و قصره و هيئة و جمال و صحة و مرض و رزق إلى غير ذلك.

و احتمل أن يكون «فَقَدَرْنا» من القدرة مقابل العجز و المراد فقدرنا على جميع ذلك، و ما تقدم أوجه.

و المعنى: قد خلقناكم من ماء حقير هو النطفة فجعلنا ذلك الماء فی قرار مكين هی الرحم إلى مدة معلومة هی مدة الحمل فقدرنا جميع ما يتعلق بوجودكم من الحوادث و الصفات و الأحوال فنعم المقدرون نحن.

و يجری فی كون مضمون هذه الآيات حجة على توحد الربوبية نظير البيان السابق فی الآيات المتقدمة، و كذا فی كونه حجة على تحقق يوم الفصل فإن الربوبية تستوجب خضوع المربوبين لساحتها و هو الدين المتضمن للتكليف، و لا يتم التكليف إلا بجعل جزاء على الطاعة و العصيان، و اليوم الذی يجازی فيه بالأعمال ﻫو يوم الفصل.

قوله تعالى: «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَ أَمْواتاً - إلى قوله- فُراتاً» الكفت و الكفات بمعنى الضم و الجمع أی أ لم نجعل الأرض كفاتا يجمع العباد أحياء و أمواتا، و قيل : الكفات جمع كفت بمعنى الوعاء، و المعنى أ لم نجعل الأرض أوعی ﺔ تجمع الأحياء و الأموات.

و قوله: «وَ جَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ » الرواسی الثابتات من الجبال، و الشامخات العالیات، و کان فی ذکر الرواسی توطئة لقوله: «وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً» لأن الأنهار و العیون الطبیعیة تنفجر من الجبال فتجری علی السهول، و الفرات الماء العذب.

و یجری فی حجیة الآیات نظیر البیان السابق فی الآیات المتقدمة.

قوله تعالی: «انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » حکایة لما یقال لهم یوم الفصل و القائل هو الله سبحانه بقرینة قوله فی آخر الآیات: «فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ» و المراد بما کانوا

ص:154

به یکذبون: جهنم، و الانطلاق الانتقال من مکان إلی مکان من غیر مکث، و المعنی یقال لهم : انتقلوا من المحشر من غیر مکث إلی النار التی کنتم تکذبون به.

قوله تعالی: «انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ » ذکروا أن المراد بهذا الظل ظل دخان نار جهنم قال تعالی : «وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ»: الواقعة: ۴۳.

و ذکروا أن فی ذکر انشعابه إلی ثلاث شعب إشارة إلی عظم الدخان فإن الدخان العظیم یتفرق تفرق الذوائب.

قوله تعالی: «لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» الظل الظلیل هو المانع من الحر و الأذی بستره علی المستظل فکون الظل غیر ظلیل کونه لا یمنع ذلک، و اللهب ما یعلو علی النار من أحمر و أصفر و أخضر.

قوله تعالی: «إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ » ضمیر أنها للنار المعلومة من السیاق، و الشرر ما یتطایر من النار، و القصر معروف، و الجمالة جمع جمل و هو البعیر.

و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: «هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » الإشارة إلی یوم الفصل، و المراد بالإذن الإذن فی النطق أو فی الاعتذار.

و قوله: «فَيَعْتَذِرُونَ» معطوف علی «يُؤْذَنُ» منتظم معه فی سلک النفی، و المعنی هذا الیوم یوم لا ینطقون فیه أی أهل المحشر من الناس و لا یؤذن لهم فی النطق أو فی الاعتذار فلا یعتذرون، و لا ینافی نفی النطق هاهنا إثباته فی آیات أخر لأن الیوم ذو مواقف کثیرة مختلفة یسألون فی بعضها فینطقون و یختم علی أفواههم فی آخر فلا ینطقون.

و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: «يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ»: هود: ۱۰۵ فلیراجع.

قوله تعالى: «هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ » سمى يوم الفصل لما أن الله تعالى يفصل و يميز فيه بين أهل الحق و أهل الباطل بالقضاء بينهم قال تعالى : «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »: السجدة: ۲۵، و قال: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»: يونس: ۹۳.

و الخطاب فى قوله: «جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ» لمكذبى هذه الأمة بما أنهم من الآخرين و لذا قوبلوا بالأولين قال تعالى : «ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ»: هود: ۱۰۳ و قال «وَ حَشَرْناهُمْ

ص:155

فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً»: الكهف: ۴۷.

و قوله: «فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ » أى إن كانت لكم حيلة تحتالون بى فى دفع عذابى عن أنفسكم فاحتالوا، و هذا خطاب تعجيزى منبئ عن انسلاب القوة و القدرة عنهم يومئذ بالكلية بظهور أن لا قوة إلا لله عز اسمه قال تع الى: «وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ»: البقرة: ۱۶۶.

و الآية أعنى قوله : «فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ » أوسع مدلولا من قوله : «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ »: الرحمن: ۳۳ لاختصاصه بنفى القدرة على الفرار بخلاف الآية التى نحن فيها و فى قوله: «فَكِيدُونِ» التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده و النكتة فيه أن متعلق هذا الأمر التعجيزى إنما هو الكيد لمن له القوة و القدرة فحسب و هو الله وحده و لو قيل: فكيدونا فأت الإشعار بالتوحد.

قوله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ وَ فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ - إلى قوله- الْمُحْسِنِينَ» الظلال و العيون ظلال الجنة و عيونها التى يتنعمون بالاستظلال بها و شربها، و الفواكه جمع فاكهة و هى الثمرة.

و قوله: «كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» مفاده الإذن و الإباحة، و كان الأكل و الشرب كناية عن مطلق التنعم بنعم الجنة و التصرف فيها و إن لم يكن بالأكل و الشرب، و هو شائع كما يطلق أكل المال على مطلق التصرف فيه.

و قوله: «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» تسجيل لسعادتهم.

قوله تعالى: «كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ » الخطاب من قبيل قولهم: افعل ما شئت فإنه لا ينفعك، و هذا النوع من الأمر إياس للمخاطب أن ينتفع بما يأتى به من الفعل للحصول على ما يريده، و منه قوله : «فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا» طه: ۷۲، و قوله: «اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»: حم السجدة: ۴۰.

فقوله: «كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا » أى تمتعا قليلا أو زمانا قليلا إياس لهم من أن ينتفعوا بمثل الأكل و التمتع فى دفع العذاب عن أنفسهم فليأكلوا و ليتمتعوا قليلا فليس يدفع عنهم شيئا.

ص:156

و إنما ذكر الأكل و التمتع لأن منكرى المعاد لا يرون من السعادة إلا سعادة الحياة الدنيا و لا يرون لها من السعادة إلا الفوز بالأكل و التمتع كالحيوان العجم قال تعالى:

«وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ»: سورة محمد: ١٢.

و قوله: «إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ» تعليل لما يستفاد من الجملة السابقة المشتملة على الأمر أى لا ينفعكم الأكل و التمتع قليلا لأنكم مجرمون بتكذيبكم بيوم الفصل و جزاء المكذبين به النار لا محالة.

قوله تعالى: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ» المراد بالركوع الصلاة كما قيل و لعل ذلك باعتبار اشتمالها على الركوع.

و قيل: المراد بالركوع المأمور به الخشوع و الخضوع و التواضع له تعالى باستجابة دعوته و قبول كلامه و اتباع دينه، و عبادته.

و قيل: المراد بالركوع ما يؤمرون بالسجود يوم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى «وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ»: القلم: ٤٢ و الوجهان لا يخلوان من بعد.

و وجه اتصال الآية بما قبلها أن الكلام كان مسوقا لتهديد المك ذبين بيوم الفصل و بيان تبعة تكذيبهم به و تم ذلک فى هذه الآية بأنهم لا يعبدون الله إذا دعوا إلى عبادته كما ينكرون ذلک اليوم فلا معنى للعبادة مع نفى الجزاء، و ليكون كالتوطئة لقوله الآتى:

«فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ».

و نسب إلى الزمخشرى أن الآية متصلة بقوله فى الآية السابقة: «لِلْمُكَذِّبِينَ» كأنه قيل: ويل يومئذ للذين كذبوا و الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.

و فى الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة فى قوله : «وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ » إلخ وجهه الإعراض عن مخاطبتهم بعد تركهم و أنفسهم يفعلون ما يشاءون بقوله: «كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا».

قوله تعالى: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » أى إذا لم يؤمنوا بالقرآن و هو آية معجزة إلهية، و قد بين لهم أن الله لا إله إلا هو وحده لا شريک له و أن أمامهم يوم الفصل بأوضح البيان و ساطع البرهان فبأى كلام بعد القرآن يؤمنون.

و هذا إيئاس من إيمانهم بالله و رسوله و اليوم الآخر و كالتنبيه على أن رفع اليد عن دعوتهم إلى الإيمان بإلقاء قوله : «كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا» إليهم فى محله فليسوا بمؤمنين و لا فائدة فى دعوتهم غير أن فيها إتماما للحجة.

بحث روائی

فی تفسير القمی،: و قوله: «أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ» قال: منتن «فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ» قال: فی الرحم- و أما قوله: «إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ» يقول: منتهى الأجل.

أقول:

و فی أصول الكافی، فی رواية عن أبی الحسن الماضی (ع): تطبيق قوله: «أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ» على مكذبی الرسل فی طاعة الأوصياء، و قوله: «ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ» على من أجرم إلى آل محمد (ع).

على اضطراب فی متن الخبر، و هو من الجری دون التفسير.

و فيه: و قوله «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَ أَمْواتاً» قال الكفات المساكن

و قال: نظر أمير المؤمنين (ع) فی رجوعه من صفين إلى المقابر- فقال: هذه كفات الأموات أی مساكنهم- ثم نظر إلى بيوت الكوفة فقال: هذه كفات الأحياء. ثم تلا قوله: «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَ أَمْواتاً».

أقول:

و روى فی المعانی، بإسناده عن حماد عن أبی عبد الله (ع)* أنه نظر إلى المقابر. و ذكر مثل الحديث السابق.

و فيه،: و قوله «وَ جَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ» قال: جبال مرتفعة.

و فيه،: و قوله «انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ» قال فيه ثلاث شعب من النار- و قوله: «إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ» قال: شر النار مثل القصور و الجبال.

و فيه،: و قوله «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ» قال: فی ظلال من نور أنور من الشمس.

و فی المجمع،": فی قوله: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ» قال مقاتل: نزلت فی ثقيف حين أمرهم رسول الله ص بالصلاة- فقالوا: لا ننحنی. و الرواية لا نحنی فإن ذلك سبة علينا. فقال (ص): لا خير فی دين ليس فيه ركوع و سجود.

أقول: و فی انطباق القصة- و قد وقعت بعد الهجرة- على الآية خفاء.

و فی تفسير القمی،": فی الآية السابقة قال: و إذا قيل لهم «تولوا الإمام لم يتولوه».

أقول: و هو من الجری دون التفسير.

ص:158

(۷۸) سورة النبإ مكية و هى أربعون آية (۴۰)

[سورة النبإ (۷۸): الآيات ۱ الى ۱۶]

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَساءَلُونَ (۱) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (۲) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (۳) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (۴)

ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (۵) أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (۶) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (۷) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (۸) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (۹)

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (۱۰) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (۱۱) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (۱۲) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً (۱۳) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً (۱۴)

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (۱۵) وَ جَنّاتٍ أَلْفافاً (۱۶)

[بيان]

تتضمن السورة الإخبار بمجى ء يوم الفصل و صفته و الاحتجاج على أنه حق لا ريب فيه، فقد افتتحت بذكر تساؤلهم عن نبئه ثم ذكر فى سياق الجواب و لحن التهديد أنهم سيعلمون ثم احتج على ثبوته بالإشارة إلى النظام المشهود فى الكون بما فيه من التدبير الحكيم الدال بأوضح الدلالة على أن وراء هذه النشأة المتغيرة الدائرة نشأة ثابتة باقية، و أن عقيب هذه الدار التى فيها عمل و لا جزاء دارا فيها جزاء و لا عمل فهناك يوم يفصح عنه هذا النظام.

ثم تصف اليوم بما يقع فيه من إحضار الناس و حضورهم و انقلاب الطاغين إلى عذاب أليم و المتقين إلى نعيم مقيم و يختم الكلام بكلمة فى الإنذار، و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «عَمَّ يَتَساءَلُونَ» «عَمَ» أصله عما و ما استفهامية تحذف الألف منها

ص:159

اطرادا إذا دخل عليها حرف الجر نحو لم و مم و على م و إلى م، و التساؤل سؤال القوم بعضهم بعضا عن أمر أ و سؤال بعضهم بعد بعض عن أمر و إن كان المسئول غيرهم، فهم كان يسأل بعضهم بعضا عن أمر أو كان بعضهم بعد بعض يسأل النبى ص عن أمر و حيث كان سياق السورة سياق جواب يغلب فيه الإنذار و الوعيد تأيد به أن المتسائلين هم كفار مكة من المشركين النافين للنبوة و المعاد دون المؤمنين و دون الكفار و المؤمنين جميعا.

فالتساؤل من المشركين و الإخبار عنه فی صورة الاستفهام للإشعار بهوانه و حقارته لظهور الجواب عنه ظهورا ما کان ینبغی معه أن یتساءلوا عنه.

قوله تعالی: «عَنِ النَّبَإِ الْعَظِیمِ الَّذِی هُمْ فِیهِ مُخْتَلِفُونَ » جواب عن الاستفهام السابق أی یتساءلون عن النبإ العظیم، و لا یخفی ما فی توصیف النبإ المتسائل عنه بالعظیم من تعظیمه و تفخیم أمره.

و المراد بالنبإ العظیم نبأ البعث و القیامهٔ الذی یهتم به القرآن العظیم فی سورهٔ المکیهٔ و لا سیما فی العتائق النازلهٔ فی أوائل البعثهٔ کل الاه تمام.

و یؤید ذلک سیاق آیات السورهٔ بما فیه من الاقتصار علی ذکر صفهٔ یوم الفصل و ما تقدم علیها من الحجهٔ علی أنه حق واقع.

و قیل: المراد به نبأ القرآن العظیم، و یدفعه کون السیاق بحسب مصبه أجنبیا عنه و إن کان الکلام لا یخلو من إشارهٔ إلیه استلزاما.

و قیل: النبأ العظیم ما کانوا یختلفون فیه من إثبات الصانع و صفاته و الملائکهٔ و الرسل و البعث و الجنهٔ و النار و غیرها، و کان القائل به اعتبر فیه ما فی السورهٔ من الإشارهٔ إلی حقیهٔ جمیع ذلک مما تتضمنه الدعوهٔ الحقهٔ الإسلامیهٔ.

و یدفعه أن الإشارهٔ إلی ذلک کله من لوازم صفهٔ البعث المتضمنهٔ لجزاء الاعتقاد الحق و العمل الصالح و الکفر و الاجرام، و قد دخل فیما فی السورهٔ من صفهٔ یوم الفصل تبعا و بالقصد الثانی.

علی أن المراد بهؤلاء المتسائلین- کما تقدم- المشرکون و هم یثبتون الصانع و الملائکهٔ و ینفون ما وراء ذلک مما ذکر.

و قوله: «الَّذِی هُمْ فِیهِ مُخْتَلِفُونَ » إنما اختلفوا فی نحو إنکاره و هم متفقون فی نفیه

ص:160

فمنهم من کان یری استحالته فینکره کما هو ظاهر قولهم علی ما حکاه الله : «هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلی رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ»: سبأ: ۷، و منهم من کان یستبعده فینکره و هو قولهم : «أَ یَعِدُکُمْ أَنَّکُمْ إِذا مِتُّمْ وَ کُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّکُمْ مُخْرَجُونَ هَیْهاتَ هَیْهاتَ لِما تُوعَدُونَ»: المؤمنون: ۳۶، و منهم من کان یشک فیه فینکره قال تعالی:

«بَلِ ادّارَکَ عِلْمُهُمْ فِی الْآخِرَهِٔ بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْها »: النمل ۶۶، و منهم من کان یوقن به لکنه لا یؤمن عنادا فینکره کما کان لا یؤمن بالتوحید و النبوهٔ و سائر فروع الدین بعد تمام الحجهٔ عنادا قال تعالی: «بَلْ لَجُّوا فِی عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ»: الملک: ۲۱.

و المحصل من سیاق الآیات الثلاث و ما یتلوها أنهم لما سمعوا ما ینذرهم به القرآن من أمر البعث و الجزاء یوم الفصل ثقل علیهم ذلک فغدوا یسأل بعضهم بعضا عن شأن هذا النبإ العجیب الذی لم یکن مما قرع أسماعهم حتی الیوم، و ربما راجعوا

النبى ص و المؤمنين و سألوهم عن صفة اليوم و أنه متى هذا الوعد إن كنتم صادقين و ربما كانوا يراجعون فى بعض ما قرع سمعهم من حقائق القرآن و احتوته دعوته الجديدة أهل الكتاب و خاصة اليهود و يستمدونهم فى فهمه.

و قد أشار تعالى فى هذه السورة إلى قصة تساؤلهم فى صورة السؤال و الجواب فقال : «عَمَّ يَتَساءَلُونَ» و هو سؤال عما يتساءلون عنه. ثم قال: «عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِی هُمْ فِیهِ مُخْتَلِفُونَ » و هو جواب السؤال عما يتساءلون عنه . ثم قال: «کَلَّا سَیَعْلَمُونَ» إلخ، و هو جواب عن تساؤلهم.

و للمفسرين فى مفردات الآيات الثلاث و تقرير معانى ها وجوه كثيرة تركناها لعدم ملاءمتها السياق و الذى أوردناه هو الذى يعطيه السياق.

قوله تعالى: «کَلَّا سَیَعْلَمُونَ ثُمَّ کَلَّا سَیَعْلَمُونَ » ردع عن تساؤلهم عنه بانين ذلك على الاختلاف فى النفى أى ليرتدعوا عن التساؤل لأنه سينكشف لهم الأمر بوقوع هذا النبإ ف يعلمونه، و فى هذا التعبير تهديد كما فى قوله : «وَ سَیَعْلَمُ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَیَّ مُنْقَلَبٍ یَنْقَلِبُونَ» الشعراء: ٢٢٧.

و قوله: «ثُمَّ کَلَّا سَیَعْلَمُونَ» تأكيد للردع و التهديد السابقين و لحن التهديد هو القرينة على أن المتسائلين هم المشركون النافون للبعث و الجزاء دون المؤمنين و دون المشركين و المؤمنين جميعا.

ص:161

قوله تعالى: «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً » الآية إلى تمام إحدى عشرة آية مسوق سوق الاحتجاج على ثبوت البعث و الجزاء و تحقق هذا النبإ العظيم و لازم ثبوته صحة ما فى قوله:

«سَیَعْلَمُونَ» من الإخبار بأنهم سيشاهدونه فيعلمون.

تقرير الحجة: أن العالم المشهود بأرضه و سمائه و ليله و نهاره و البشر المتناسلين و النظام الجارى فيها و التدبير المتقن الدقيق لأمورها من المحال أن يكون لعبا باطلا لا غاية لها ثابتة باقية فمن الضرورى أن يستع قب هذا النظام المتحول المتغير الدائر إلى عالم ذى نظام ثابت باق، و أن يظهر فيه أثر الصلاح الذى تدعو إليه الفطرة الإنسانية و الفساد الذى ترتدع عنه، و لم يظهر فى هذا العالم المشهود أعنى سعادة المتقين و شقاء المفسدين، و من المحال أن يودع الله الفطرة دعوة غريزى ة أو ردعا غريزيا بالنسبة إلى ما لا أثر له فى الخارج و لا حظ له من الوقوع فهناك يوم يلقاه الإنسان و يجزى فيه على عمله إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا.

فالآيات فى معنى قوله تعالى «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما باطِلًا ذلِکَ ظَنُّ الَّذِ ینَ کَفَرُوا فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنَ النّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجّارِ »: ص: ٢٨.

و بهذا البيان يثبت أن هناك يوما يلقاه الإنسان و يجزى فيه بما عمل إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا فليس للمشركين أن يختلفوا فيه فيشک فيه بعضهم و يستبعده طائفة، و يحيله قوم، و لا يؤمن به مع العلم به عنادا آخرون، فاليوم ضرورى الوقوع و الجزاء لا ريب فيه.

و يظهر من بعضهم أن الآيات مسوقة لإثبات القدرة و أن العود يماثل البدء و القادر على الإبداء قادر على الإعادة، و هذه الحجة و إن كانت تامة و قد وقعت فى كلامه تعالى لكنها حجة على الإمكان دون الوقوع و السياق فيما نحن فيه سياق الوقوع دون الإمكان فالأنسب فى تقريرها ما تقدم.

و كيف كان فقوله: «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً» الاستفهام للإنكار، و المهاد الوطاء و القرار الذى يتصرف فيه، و يطلق على البساط الذى يجلس عليه و المعنى قد جعلنا الأرض قرارا لكم تستقرون عليها و تتصرفون فيها.

ص:162

قوله تعالى: «وَ الْجِبالَ أَوْتاداً» الأوتاد جمع وتد و هو المسمار إلا أنه أغلظ منه كما فى المجمع، و لعل عد الجبال أوتادا مبنى على أن عمدة جبال الأرض من عمل البركانات بشق الأرض فتخرج منه مواد أرضية مذابة تنتصب على فم الشقة متراكمة كهيئة الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فورة البركان الذى تحته فيرتفع به ما فى الأرض من الاضطراب و الميدان.

و عن بعضهم: أن المراد بجعل الجبال أوتادا انتظام معاش أهل الأرض بما أودع فيها من المنافع و لولاها لمادت الأرض بهم أى لما تهيأت لانتفاعهم. و فيه أنه صرف اللفظ عن ظاهره من غير ضرورة موجبة.

قوله تعالى: «وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً» أى زوجا زوجا من ذكر و أنثى لتجرى بينكم سنة التناسل فيدوم بقاء النوع إلى ما شاء الله.

و قيل: المراد به الإشكال أى كل منكم شكل للآخر. و قيل: المراد به الأصناف أى أصنافا مختلفة كالأبيض و الأسود و الأحمر و الأصفر إلى غير ذلک، و قيل: المراد به خلق كل منهم من منيين منى الرجل و منى المرأة و هذه وجوه ضعيفة.

قيل: الالتفات فى الآية من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة فى الإلزام و التبكيت.

قوله تعالى: «وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً» السبات الراحة و الدعة فإن فى المنام سكوتا و راحة للقوى الحيوانية البدنية مما اعتراها فى اليقظة من التعب و الكلال بواسطة تصرفات النفس فيها.

و قيل: السبات بمعنى القطع و فى النوم قطع التصرفات النفسانية فى البدن، و هو قريب من سابقه.

و قيل: المراد بالسبات الموت، و قد عد سبحانه النوم من الموت حيث قال : «وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفّاكُمْ بِاللَّيْلِ »: الأنعام: ۶۰ و هو بعيد، و أما الآية فإنه تعالى عد النوم توفيا و لم يعده موتا بل القرآن يصرح بخلافه قال تعالى: «اللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنامِها»: الزمر: ۴۲.

قوله تعالى: «وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً » أى ساترا يستر الأشياء بما فيه من الظلمة الساترة للمبصرات كما يستر اللباس البدن و هذا سبب إلهى يدعو إلى ترک التقلب و الحرکة و الميل إلى السکن و الدعة و الرجوع إلى الأهل و المنزل.

ص:163

و عن بعضهم أن المراد بكون الليل لباسا كونه كاللباس للنهار يسهل إخراجه منه و هو كما ترى.

قوله تعالى: «وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً » العيش هو الحياة- على ما ذكره الراغب- غير أن العيش يختص بحياة الحيوان فلا يقال : عيشه تعالى و عيش الملائكة و يقال حياته تعالى و حياة الملائكة، و المعاش مصدر ميمى و اسم زمان و اسم مكان، و هو فى الآية بأحد المعنيين الأخيرين، و المعنى و جعلنا النهار زمانا لحياتكم أ و موضعا لحياتكم تبتغون فيه من فضل ربكم، و قيل : المراد به المعنى المصدرى بحذف مضاف، و التقدير و جعلنا النهار طلب معاش أى مبتغى معاش.

قوله تعالى: «وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً» أى سبع سماوات شديدة فى بنائها.

قوله تعالى: «وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً » الوهاج شديد النور و الحرارة و المراد بالسراج الوهاج: الشمس.

قوله تعالى: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً» المعصرات السحب الماطرة و قيل:

الرياح التى تعصر السحب لتمطر و الثجاج الكثير الصب للماء، و الأولى على هذا المعنى أن تكون «مِنَ» بمعنى الباء.

قوله تعالى: «لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً» أى حبا و نباتا يقتات بهما الإنسان و سائر الحيوان.

قوله تعالى: «وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً» معطوف على قوله: «حَبًّا» و جنات ألفاف أى ملتفة أشجارها بعضها ببعض.

قيل: إن الألفاف جمع لا واحد له من لفظه.

بحث روائى

فى بعض الأخبار: أن النبأ العظيم على (ع) و هو من البطن.

عن الخصال، عن عكرمة عن ابن عباس قال ؛: قال أبو بكر : يا رسول الله أسرع إليک الشيب . قال: شيبتنى هود و الواقعة و المرسلات و عم يتساءلون.

ص:164

فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً» قال: يمهد فيها الإنسان- «وَ الْجِبالَ أَوْتاداً» أى أوتاد الأرض.

و فی نهج البلاغة، قال (ع): و وتد بالصخور میدان أرضه.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً» قال: يلبس على النهار.

أقول: و لعل المراد بهأنه يخفی ما يظهره النهار و يستر ما يكشفه.

و فيه،": فی قوله تعالی : «وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً » قال: الشمس المضيئة «وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ » قال: من السحاب «ماءً ثَجَّاجاً» قال: صبا على صب.

و عن تفسير العياشی، عن أبی عبد الله (ع): «عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ» بالياء يمطرون.

ثم قال: أ ما سمعت قوله: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً».

أقول: المراد أن «يَعْصِرُونَ» بضم الياء بصيغة المجهول و المراد به أنهم يمطرون و استشهاده (ع) بقوله: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ» دليل على أنه (ع) أخذ المعصرات بمعنى الممطرات من أعصرت السحابة إذا أمطرت.

و روی العياشی مثل الحديث عن علی بن معمر عن أبيه عن أبی عبد الله (ع) و روی القمی فی تفسيره،: مثله عن أمير المؤمنين.

[سورة النبإ (٧٨): الآيات ١٧ الى ٤٠]

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِی الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (١٨) وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (١٩) وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (٢١)

لِلطَّاغِينَ مَآباً (٢٢) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً (٢٤) إِلاَّ حَمِيماً وَ غَسَّاقاً (٢٥) جَزاءً وِفاقاً (٢٦)

إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (٢٧) وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (٢٨) وَ كُلَّ شَیْ‌ءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (٣١)

حَدائِقَ وَ أَعْناباً (٣٢) وَ كَواعِبَ أَتْراباً (٣٣) وَ كَأْساً دِهاقاً (٣٤) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً (٣٥) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (٣٦)

رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً (٣٨) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِی كُنْتُ تُراباً (٤٠)

بيان

تصف الآيات يوم الفصل الذى أخبر به إجمالا بقوله : «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» ثم تصف ما يجرى فيه على الطاغين و المتقين، و تختتم بكلمة فى الإنذار و هى كالنتيجة.

قوله تعالى: «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً » قال فى المجمع،: الميقات منتهى المقدار المضروب لحدوث أمر من الأمور و هو من الوقت كما أن الميعاد من الوعد و المقدار من القدر، انتهى.

شروع فى وصف ما تضمنه النبأ العظيم الذى أخبر بوقوعه و هددهم به فى قوله:

«كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» ثم أقام الحجة عليه بقوله : «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً » إلخ، و قد سماه يوم الفصل و نبه به على أنه يوم يفصل فيه القضاء بين الناس فينال كل طائفة ما يستحقه بعمله فهو ميقات و حد مضروب لفصل القضاء بينهم و التعبير بلفظ «كانَ» للدلالة على ثبوته و تعينه فى العلم الإلهى على ما ينطق به الحجة السابقة الذكر، و لذا أكد الجملة بإن.

ص:166

و المعنى: أن يوم فصل القضاء الذى نبأه نبأ عظيم كان فى علم الله يوم خلق السماوات و الأرض و حكم فيها النظام الجارى حدا مضروبا ينتهى إليه هذا العالم فإنه تعالى كان يعلم أن هذه النشأة التى أنشأها لا تتم إلا بالانتهاء إلى يوم يفصل فيه القضاء بينهم.

قوله تعالى: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً » قد تقدم الكلام فى معنى نفخ الصور كرارا، و الأفواج جمع فوج و هى الجماعة المارة المسرعة على ما ذكره الراغب.

و فى قوله: «فَتَأْتُونَ أَفْواجاً» جرى على الخطاب السابق الملتفت إليه قضاء لحق الوعيد الذى يتضمنه قوله : «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» و كان الآية ناظرة إلى قوله تعالى: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ»: إسراء: ٧١.

قوله تعالى: «وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً» فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة.

و قيل: التقدير فكانت ذات أبواب، و قيل: صار فيها طرق و لم يكن كذلك من قبل، و لا يخلو الوجهان من تحكم فليتدبر.

قوله تعالى: «وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً » السراب هو الموهوم من الماء اللامع فى المفاوز و يطلق على كل ما يتوهم ذا حقيقة و لا حقيقة له على طريق الاستعارة.

و لعل المراد بالسراب فى الآية هو المعنى الثانى.

بيان ذلک: أن تسيير الجبال و دکها ينتهی بالطبع إلی تفرق أجزائها و زوال شکلها کما وقع فی مواضع من کلامه تعالی عند وصف زلزلة الساعة و آثارها إذ قال: «وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً»: الطور: ۱۰ و قال: «وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُکَّتا دَکَّةً واحِدَةً»: الحاقة: ۱۴، و قال: «وَ کانَتِ الْجِبالُ کَثِيباً مَهِيلًا»: المزمل ۱۴، و قال: «وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ»: القارعة: ۵، و قال: «وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا»: الواقعة: ۵، و قال: «وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ»: المرسلات: ۱۰.

فتسيير الجبال و دکها ينتهی بها إلی بسها و نسفها و صيرورتها کثيبا مهيلا و کالعهن المنفوش کما ذکره الله تعالی و أما صيرورتها سرابا بمعنی ما يتوهم ماء لامعا فلا نسبة بين التسيير و بين السراب بهذا المعنی.

نعم ينتهی تسييرها إلی انعدامها و بطلان کينونتها و حقيقتها بمعنی کونها جبلا فالجبال الراسيات التی کانت تری حقائق ذوات کينونة قوية لا تحرکه العواصف تتبدل بالتسيير

ص:167

سرابا باطلا لا حقيقة له، و نظيره من کلامه تعالی قوله فی أقوام أهلکهم و قطع دابرهم، «فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ»: سبأ: ۱۹ و قوله: «فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ » المؤمنون: ۴۴، و قوله فی الأصنام «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمْ »: النجم: ۲۳.

فالآية بوجه کقوله تعالی «وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ » النمل: ۸۸- بناء علی کونه ناظرا إلی صفة زلزلة الساعة-.

قوله تعالی: «إِنَّ جَهَنَّمَ کانَتْ مِرْصاداً» قال فی المفردات،: الرصد الاستعداد للترقب- إلی أن قال- و المرصد موضع الرصد قال تعالی: «وَ اقْعُدُوا لَهُمْ کُلَّ مَرْصَدٍ» و المرصاد نحوه لکن يقال للمکان الذی اختص بالرصد قال تعالی: «إِنَّ جَهَنَّمَ کانَتْ مِرْصاداً» تنبيها علی أن عليها مجاز الناس، و علی هذا قوله تعالی: «وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلَّا وارِدُها» انتهی.

قوله تعالی: «لِلطَّاغِينَ مَآباً» الطاغون الملتبسون بالطغيان و هو الخروج عن الحد، و المآب اسم مکان من الأوب بمعنی الرجوع، و العناية فی عدها مآبا للطاغين أنهم هيئوها مأوی لأنفسهم و هم فی الدنيا ثم إذا انقطعوا عن الدنيا آبوا و رجعوا إليها.

قوله تعالی: «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً» الأحقاب الأزمنة الکثيرة و الدهور الطويلة من غير تحديد.

و هو جمع اخ تلفوا فی واحده فقيل : واحده حقب بالضم فالسکون أو بضمتين، و قد وقع فی قوله تعالی : «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً»: الکهف: ۶۰، و قيل: حقب بالفتح فالسکون و واحد الحقب حقبة بالکسر فالسکون قال الراغب: و الحق أن الحقبة مدة من الزمان مبهمة. انتهی.

و حد بعضهم الحقب بثمانين سنة أو ببضع و ثمانين سنة و زاد آخرون أن السنة منها ثلاثمائة و ستون يوما كل يوم يعدل ألف سنة، و عن بعضهم أن الحقب أربعون سنة و عن آخرين أنه سبعون ألف سنة إلى غير ذلك و لا دليل من الكتاب يدل على شيء من هذه التحديدات و لم يثبت من اللغة شيء منها.

و ظاهر الآية أن المراد بالطاغين المعاندون من الكفار و يؤيده قوله ذيلا: «إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذّاباً».

ص:168

و قد فسروا «أَحْقاباً» فى الآية بالحقب بعد الحقب فالمعنى حال كون الطاغين لابثين فى جهنم حقبا بعد حقب بلا تحديد و لا نهاية فلا تنافى الآية ما نص عليه القرآن من خلود الكفار فى النار.

و قيل: إن قوله: «لا يَذُوقُونَ فِيها » إلخ صفة «أَحْقاباً» و المعنى لابثين فيها أحقابا هى على هذه الصفة و هى أنهم لا يذوقون فيها بردا و لا شرابا إلا حميما و غساقا، ثم يكونون على غير هذه الصفة إلى غير النهاية.

و هو حسن لو ساعد السياق.

قوله تعالى: «لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً » ظاهر المقابلة بين البرد و الشراب أن المراد بالبرد مطلق ما يتبرد به غير الشراب كالظل الذى يستراح إليه بالاستظلال فالمراد بالذوق مطلق النيل و المس.

قوله تعالى: «إِلاّ حَمِيماً وَ غَسّاقاً» الحميم الماء الحار شديد الحر، و الغساق صديد أهل النار.

قوله تعالى: «جَزاءً وِفاقاً- إلى قوله- كِتاباً» المصدر بمعنى اسم الفاعل و المعنى يجزون جزاء موافقا لما عملوا أو بتقدير مضاف أى جزاء ذا وفاق أو إطلاق الوفاق على الجزاء للمبالغة كزيد عدل.

و قوله: «إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذّاباً» أى تكذيبا عجيبا يصرون عليه، تعليل يوضح موافقة جزائهم لعملهم، و ذلك أنهم لم يرجوا الحساب يوم الفصل فأيسوا من الحياة الآخرة و كذبوا بالآيات الدالة عليها فأنكروا التوحيد و النبوة و تعدوا فى أعمالهم طور العبودية فنسوا الله تعالى فنسيهم و حرم عليهم سعادة الدار الآخرة فلم يبق لهم إلا الشقاء و لا يجدون فيها إلا ما يكرهون، و لا يواجهون إلا ما يتعذبون به و هو قوله: «فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاّ عَذاباً».

و فى الآية أعنى قوله : «جَزاءً وِفاقاً» دلالة على المطابقة التامة بين الجزاء و العمل فالإنسان لا يريد بعمله إلا الجزاء الذى بإزائه و التلبس بالجزاء تلبس بالعمل بالحقيقة قال تعالى : «يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»: التحريم: ٧.

و قوله: «وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً» أى كل شيء و منه الأعمال ضبطناه و بيناه فى

ص:169

كتاب جليل القدر فالآية فى معنى قوله تعالى: «وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ»: يس: ١٣.

أو المراد و كل شى ء حفظناه حال كونه مكتوبا أى فى اللوح المحفوظ أو فى صحائف الأعمال، و جوز أن يكون الإحصاء بمعنى الكتابة أو الكتاب بمعنى الإحصاء فإن الإحصاء و الكتابة يتشاركان فى معنى الضبط و المعنى كل شى ء أحصيناه إحصاء أو كل شىء كتبناه كتابا.

و الآية على أى حال متمم للتعليل السابق، و المعنى الجزاء موافق لأعمالهم لأنهم كانوا على حال كذا و كذا و قد حفظناها عليهم فجزيناهم بها جزاء وفاقا.

قوله تعالى: «فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً» تفريع على ما تقدم من تفصيل عذابهم مسوق لإيئاسهم من أن يرجو نجاة من الشقوة و راحة ينالونها.

و الالتفات إلى خطابهم بقوله: «فَذُوقُوا» تقدير لحضورهم ليخاطبوا بالتوبيخ و التقريع بلا واسطة.

و المراد بقوله: «فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً» أن ما تذوقونه بعد عذاب ذقتموه عذاب آخر فهو عذاب بعد عذاب و عذاب على عذاب فلا تزالون يضاف عذاب جديد إلى عذابكم القديم فاقنطوا من أن تنالوا شيئا مما تطلبون و تحبون.

و الآية لا تخلو من ظهور فى كون المراد بقوله: «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً» الخلود دون الانقطاع.

قوله تعالى: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً - إلى قوله- كِذَّاباً» الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة- على ما قاله الراغب- ففيه معنى النجاة و التخلص من الشر و الحصول على الخير، و المفاز مصدر ميمى أو اسم مكان من الفوز و الآية تحتمل الوجهين جميعا.

و قوله: «حَدائِقَ وَ أَعْناباً» الحدائق جمع حديقة و هى البستان المحوط، و الأعناب جمع عنب و هو ثمر شجرة الكرم و ربما يطلق على نفس الشجرة.

و قوله: «وَ كَواعِبَ» جمع كاعب و هى الفتاة التى تكعب ثدياها و استدار مع ارتفاع يسير، و الترائب جمع ترب و هى المماثلة لغيرها من اللذات.

و قوله: «وَ كَأْساً دِهاقاً» أى ممتلئة شرابا مصدر بمعنى اسم الفاعل.

ص:170

و قوله: «لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً » أى لا يسمعون فى الجنة لغوا من القول لا يترتب عليه أثر مطلوب و لا تكذيبا من بعضهم لبعضهم فيما قال فقولهم حق له أثره المطلوب و صدق مطابق للواقع.

قوله تعالی: «جَزاءً مِنْ رَبِّکَ عَطاءً حِساباً» أی فعل بالمتقین ما فعل حال کونه جزاء من ربک عطیة محسوبة فقوله : «جَزاءً» حال و کذا «عَطاءً» و «حِساباً» بمعنی اسم المفعول صفة لعطاء، و یحتمل أن یکون عطاء تمییزا أو مفعولا مطلقا.

قیل: إضافة الجزاء إلی الرب مضافا إلی ضمیره (ص) تشریف له، و لم یضف جزاء الطاغین إلیه تعالی تنزها منه تعالی فلیس یغشاهم شر إلا من عند أنفسهم قال تعالی:

«ذلِکَ بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَیْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ»: الأنفال: ۵۱.

و وقوع لفظ الحساب فی ذیل جزاء الطاغین و المتقین معا لتثبیت ما یلوح إلیه یوم الفصل الواقع فی أول الکلام.

قوله تعالی: «رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُمَا الرَّحْمنِ » بیان لقوله: «رَبِّکَ» أرید به أن ربوبیته تعالی عامة لکل شیء و أن الرب الذی یتخذه النبی ص ربا و یدعو إلیه رب کل شیء لا کما کان یقول المشرکون: إن لکل طائفة من الموجودات ربا و الله سبحانه رب الأرباب أو کما کان یقول بعضهم: أنه رب السماء.

و فی توصیف الرب بالرحمن- صیغة مبالغة من الرحمة- إشارة إلی سعة رحمته و أنها سمة ربوبیة لا یحرم منها شیء إلا أن یمتنع منها شیء بنفسه لقصوره و سوء اختیاره فمن شقوة هؤلاء الطاغین أنهم حرموها علی أنفسهم بالخروج عن طور العبودیة.

قوله تعالی: «لا یَمْلِکُونَ مِنْهُ خِطاباً یَوْمَ یَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِکَةُ صَفًّا لا یَتَکَلَّمُونَ إِلّاٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً » وقوع صدر الآیة فی سیاق قوله: «رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُمَا الرَّحْمنِ »- و شأن الربوبیة هو التدبیر و شأن الرحمانیة بسط الرحمة- دلیل علی أن المراد بخطابه تعالی تکلیمه فی بعض ما فعل من الفعل بنحو السؤال عن السبب الداعی إلی الفعل کان یقال: لم فعلت هذا؟ و لم لم تفعل کذا؟ کما یسأل الفاعل منا عن فعله فتکون الجملة «لا یَمْلِکُونَ مِنْهُ خِطاباً » فی معنی قوله تعالی: «لا یُسْئَلُ عَمّٰا یَفْعَلُ وَ هُمْ یُسْئَلُونَ»: الأنبیاء: ۲۳ و قد تقدم الکلام فی معنی الآیة.

ص:171

لکن وقوع قوله: «یَوْمَ یَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِکَةُ صَفًّا» بعد قوله: «لا یَمْلِکُونَ مِنْهُ خِطاباً » الظاهر فی اختصاص عدم الملک بیوم الفصل مضافا إلی وقوعه فی سیاق تفصیل جزاء الطاغین و المتقین منه تعالی یوم الفصل یعطی أن یکون المراد به أنهم لا یملکون أن یخاطبوه فیما یقضی و یفعل بهم باعتراض علیه أو شفاعة فیه لکن الملائکة- و هم ممن لا یملکون منه خطابا- منزهون عن وصمة الاعتراض علیه تعالی و قد قال فیهم: «عِبادٌ مُکْرَمُونَ لا یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ»: الأنبیاء: ۲۷ و کذلک الروح الذی هو «۱» کلمته و قوله، و قوله «۲» حق، و هو تعالی «۳» الحق المبین و الحق لا یعارض الحق و لا یناقضه.

و من هنا یظهر أن المراد بالخطاب الذی لا یملکونه هو الشفاعة و ما یجری مجراها من وسائل التخلص من الشر کالعدل و البیع و الخلة و الدعاء و السؤال قال تعالی: «مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا بَیْعٌ فِیهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ»: البقرة: ۲۵۴، و قال: «وَ لا یُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ»: البقرة: ۱۲۳، و قال: «یَوْمَ یَأْتِ لا تَکَلَّمُ نَفْسٌ إِلّاٰ بِإِذْنِهِ»: هود: ۱۰۵.

و بالجملة قوله: «لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً» ضمير الفاعل فى «لا يَمْلِكُونَ» لجميع المجموعين ليوم الفصل من الملائكة و الروح و الإنس و الجن كما هو المناسب للسياق الحاكى عن ظهور العظمة و الكبرياء دون خصوص الملائكة و الروح لعدم سبق الذكر و دون خصوص الطاغين كما قيل لكثرة الفصل، و المراد بالخطاب الشفاعة و ما يجرى مجراها كما تقدم.

و قوله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا» ظرف لقوله: «لا يَمْلِكُونَ» و قيل:

لقوله: «لا يَتَكَلَّمُونَ» و هو بعيد مع صلاحية ظرفيته لما سبقه.

و المراد بالروح المخلوق الأمرى الذى يشير إليه قوله تعالى: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى»: إسراء: ٨٥.

و قيل: المراد به أشراف الملائكة، و قيل حفظة الملائكة و قيل: ملك موكل على الأرواح. و لا دليل على شىء من هذه الأقوال.

---

(١) النحل: ٤٠.

(٢) الأنعام: ٧٣.

(٣) النور: ٢٥.

و قيل: المراد به جبريل، و قيل : أرواح الناس و قيامها مع الملائكة صفا إنما هو بين النفختين قبل أن تلج الأجساد، و قيل : القرآن و المراد من قيامه ظهور آثاره يومئذ من سعادة المؤمنين به و شقاوة الكافرين.

و يدفعها أن هذه الثلاثة و إن أطلق على كل منها الروح فى كلامه تعالى لكنه مع التقييد كقوله : «وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى »: الحجر: ٢٩، و قوله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ»: الشعراء: ١٩٣، و قوله: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ»: النحل: ١٠٢، و قوله:

«فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا »: مريم: ١٧، و قوله: «وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا » الشورى: ٥٢ و الروح فى الآية التى نحن فيها مطلق، على أن فى القولين الأخيرين تحكما ظاهرا.

و «صَفًّا» حال من الروح و الملائكة و هو مصدر أريد به اسم الفاعل أى حال كونهم صافين، و ربما استفيد من مقابلة الروح للملائكة أن الروح وحده صف و الملائكة جميعا صف.

و قوله: «لا يَتَكَلَّمُونَ» بيان لقوله: «لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً» و ضمير الفاعل لأهل الجمع من الروح و الملائكة و الإنس و الجن على ما يفيده السياق.

و قيل: الضمير للروح و الملائكة، و قيل : للناس و وقوع «لا يَمْلِكُونَ» بما مر من معناه و «لا يَتَكَلَّمُونَ» فی سياق واحد لا يلائم شيئا من القولين.

و قوله: «إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ » بدل من ضمير الفاعل فی «لا يَتَكَلَّمُونَ» أريد به بيان من له أن يتكلم منهم يومئذ بإذن الله فالجملة فی معنی قوله: «يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ»: هود: ١٠٥ علی ظاهر إطلاقه.

و قوله: «وَ قالَ صَواباً» أی قال قولا صوابا لا يشوبه خطأ و هو الحق الذی لا يداخله باطل، و الجملة فی الحقيقة قيد للإذن كأنه قيل: إلا من أذن له الرحمن و لا يأذن إلا لمن قال صوابا فالآية فی معنی قوله تعالی: «وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ»: الزخرف: ٨۶.

و قيل: «إِلَّا مَنْ أَذِنَ» إلخ استثناء ممن يتكلم فيه و المراد بالصواب التوحيد و قول لا إله إلا الله و المعنی لا يتكلمون فی حق أحد إلا فی حق شخص أذن له الرحمن و قال

ص:173

ذلک الشخص فی الدنيا صوابا أی أقر بالوحدانية و شهد أن لا إله إلا الله فالآية فی معنی قوله تعالی : «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی»: الأنبياء: ٢٨.

و يدفعه أن العناية الكلامية فی المقام متعلقة بنفی أصل الخطاب و التكلم يومئذ من كل متكلم لا بنفی التكلم فی كل أحد مع تسليم جواز أصل التكلم فالمستثنون هم المتكلمون المأذون لهم فی أصل التكلم من دون تعرض لمن يتكلم فيه.

كلام فيما هو الروح فی القرآن

تكررت كلمة الروح- و المتبادر منه ما هو مبدأ الحياة- فی كلامه تعالی و لم يقصرها فی الإنسان أو فی الإنسان و الحيوان فحسب بل أثبتها فی غيرهما كما فی قوله:

«فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا »: مريم: ١٧، و قوله : «وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا »: الشوری: ۵٢ إلی غير ذلک فللر وح مصداق فی الإنسان و مصداق فی غيره.

و الذی يصلح أن يكون معرفا لها فی كلامه تعالی ما فی قوله : «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی»: إسراء: ٨۵ حيث أطلقها إطلاقا و ذكر معرفا لها أنها من أمره و قد عرف أمره بقوله: «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحانَ الَّذِی بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَیْ ءٍ»: يس: ٨٣ فبين أنه كلمة الإيجاد التی هی الوجود من حيث انتسابه إليه تعالی و قيامه به لا من حيث انتسابه إلی العلل و الأسباب الظاهرية.

و بهذه العناية عد المسيح (ع) كلمة له و روحا منه إذ قال: «وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ»: النساء: ١٧١ لما وهبه لمريم (ع) من غير الطرق العادية و يقرب منه فى العناية قوله تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»: آل عمران: ٥٩.

و هو تعالى و إن ذكرها فى أغلب كلامه بالإضافة و التقيد كقوله: «وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي»: الحجر ٢٩، و قوله: «وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ»: السجدة: ٩، و قوله:

«فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا»: مريم: ١٧، و قوله: «وَ رُوحٌ مِنْهُ»: النساء: ١٧١ و قوله:

«وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»: البقرة ٨٧ إلى غير ذلك إلا أنه أوردها فى بعض كلامه مطلقة من غير تقييد كقوله: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»

: القدر: ٤ و ظاهر الآية أنها موجود مستقل و خلق سماوى غير الملائكة، و نظير الآية بوجه قوله تعالى: «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»: المعارج: ٤.

و أما الروح المتعلقة بالإنسان فقد عبر عنها بمثل قوله: «وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» «وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» و أتى بكلمة «مِنْ» الدالة على المبدئية و سماه نفخا و عبر عن الروح التى خصها بالمؤمنين بمثل قوله: «وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ»: المجادلة: ٢٢ فأتى بالباء الدالة على السببية و سماه تأييدا و تقوية، و عبر عن الروح التى خصها بالأنبياء بمثل قوله:

«وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»: البقرة: ٨٧ فأضاف الروح إلى القدس و هو النزاهة و الطهارة و سماه أيضا تأييدا.

و بانضمام هذه الآيات إلى مثل آية سورة القدر يظهر أن نسبة الروح المضافة التى فى هذه الآيات إلى الروح المطلقة المذكورة فى سورة القدر نسبة الإفاضة إلى المفيض و الظل إلى ذى الظل بإذن الله.

و كذلك الروح المتعلقة بالملائكة من إفاضات الروح بإذن الله، و إنما لم يعبر فى روح الملك بالنفخ و التأييد كالإنسان بل سماه روحا كما فى قوله تعالى: «فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا»، و قوله: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ»: النحل: ١٠٢، و قوله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ»: الشعراء: ١٩٣ لأن الملائكة أرواح محضة على اختلاف مراتبهم فى القرب و البعد من ربهم، و ما يتراءى من الأجسام لهم تمثلات كما يشير إليه قوله تعالى: «فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا»: مريم: ١٧ و قد تقدم الكلام فى معنى التمثل فى ذيل الآية بخلاف الإنسان المخلوق مؤلفا من جسم ميت و روح حية فيناسبه التعبير بالنفخ كما فى قوله «فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي»: الحجر: ٢٩.

و كما أوجب اختلاف الروح فى خلق الملك و الإنسان اختلاف التعبير بالنفخ و عدمه كذلك اختلاف الروح من حيث أثرها و هو الحياة شرفا و خسة أوجب اختلاف التعبير بالنفخ و التأييد و عد الروح ذات مراتب مختلفة باختلاف أثر الحياة.

فمن الروح الروح المنفوخة فى الإنسان قال: «وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي».

و من الروح الروح المؤيد بها المؤمن قال : «أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ »: المجادلة: ٢٢ و هى أشرف وجودا و أعلى مرتبة و أقوى أثرا من الروح

ص:175

الإنسانية العامة كما يفيده قوله تعالى و هو فى معنى هذه الآية : «أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها»: الأنعام: ١٢٢ فقد عد المؤمن حيا ذا نور يمشى به و هو أثر الروح و الكافر ميتا و هو ذو روح منفوخة فللمؤمن روح ليست للكافر ذات أثر ليس فيه.

و من ذلك يظهر أن من مراتب الروح ما هو فى النبات لما فيه من أثر الحياة يدل على ذلك الآيات المتضمنة لإحياء الأرض بعد موتها.

و من الروح الروح المؤيد بها الأنبياء قال: «وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»: البقرة ٨٧ و سياق الآيات يدل على كون هذه الروح أشرف و أعلى مرتبة من غيرها مما فى الإنسان.

و أما قوله: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ»: المؤمن:

١٥، و قوله: «وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا»: الشورى ٥٢ فيقبل الانطباق على روح الإيمان و على روح القدس و الله أعلم.

و قد تقدم بعض ما ينفع من الكلام فى المقام فى ذيل هذه الآيات الكريمة.

[بيان]

قوله تعالى: «ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ» إشارة إلى يوم الفصل المذكور فى السورة الموصوف بما مر من الأوصاف و هو فى الحقيقة خاتمة الكلام المنعطفة إلى فاتحة السورة و ما بعده أعنى قوله : «فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً» إلخ فضل تفريع على البيان السابق.

و الإشارة إليه بالإشارة البعيدة للدلالة على فخامة أمره و المراد بكونه حقا ثبوته حتما مقضيا لا يتخلف عن الوقوع.

قوله تعالى: «فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً» أى مرجعا إلى ربه ينال به ثواب المتقين و ينجو به من عذاب الطاغين، و الجملة كما أشرنا إليه تفريع على ما تقدم من الإخبار بيوم الفصل و الاحتجاج عليه و وصفه، و المعنى إذا كان كذلك فمن شاء الرجوع إلى ربه فليرجع.

قوله تعالى: «إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً» إلخ المراد به عذاب الآخرة، و كونه قريبا لكونه حقا لا ريب فى إتيانه و كل ما هو آت قريب.

على أن الأعمال التى سيجزى بها الإنسان هى معه أقرب ما يكون منه.

و قوله: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ» أى ينتظر المرء جزاء أعماله التى قدمتها يداه بالاكتساب، و قيل: المعنى ينظر المرء إلى ما قدمت يداه من الأعمال لحضورها عنده قال

ص:176

تعالى: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ»: آل عمران: ٣٠.

و قوله: «وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً» أى يتمنى من شدة اليوم أن لو كان ترابا فاقدا للشعور و الإرادة فلم يعمل و لم يجز.

بحث روائى

فى تفسير القمى،": و قوله: «وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً» قال: تفتح أبواب الجنان، و قوله : «وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً » قال: تصير الجبال مثل السراب الذى يلمع فى المفازة.

و فيه،": و قوله: «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً » قال: الأحقاب السنين و الحقب سنة- و السنة عددها ثلاثمائة و ستون يوما- و اليوم كألف سنة مما تعدون.

و فى المجمع، روى نافع عن ابن عمر قال ***: قال رسول الله (ص): لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا- و الحقب بضع و ستون سنة و السنة ثلاثمائة و ستون يوما- كل يوم كألف سنة مما تعدون- فلا يتكلن أحد على أن يخرج من النار.

أقول: و أورد الرواية فى الدر المنثور، و فيها ثمانون مكان ستون و لفظ آخرها، قال ابن عمر: فلا يتكلن أحد إلخ،

و أورد أيضا رواية أخرى عنه (ص): أن الحقب أربعون سنة.

و فيه، و روى العياشى بإسناده عن حمران قال***: سألت أبا جعفر (ع) عن هذه الآية فقال: هذه فى الذين يخرجون من النار:، و روى عن الأحول مثله.

و فى تفسير القمى،": و قوله: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً» قال: يفوزون، قوله «وَ كَواعِبَ أَتْراباً» قال: جوار و أتراب لأهل الجنة،

و فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع) قال* فی قوله: «إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ مَفازاً» قال: هی الکرامات «وَ کَواعِبَ أَتْراباً» أی الفتیات النواهد.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ فی العظمة و ابن مردویه عن ابن عباس أن النبی ص قال*: الروح جند من جنود الله- لیسوا بملائکة لهم رءوس و أید و أرجل- ثم قرأ: «یَوْمَ یَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِکَةُ صَفًّا» قال: هؤلاء جند و هؤلاء جند.

أقول: و قد تقدمت الروایة فی ذیل الآیات المشتملة علی الروح عن أئمة أهل البیت (ع) أن الروح خلق أعظم من جبرائیل و میکائیل، و تقدمت الروایة أیضا

عن علی (ع): أن الروح غیر الملائکة- و استدل (ع) علیه بقوله تعالی: «یُنَزِّلُ الْمَلائِکَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» الآیة.

ص:177

نعم فی روایة القمی عن حمران أنه ملک أعظم من جبرائیل و میکائیل و کان مع رسول الله ص و هو مع الأئمة (ع)، و لعل المراد بالملک مطلق الموجود السماوی أو هو من وهم بعض الرواة فی النقل بالمعنی و لا دلیل علی انحصار الموجودات الأمریة السماویة فی الملائکة بل الدلیل علی خلافه کما یستفاد من قوله تعالی لإبلیس حین أبی عن السجود لآدم و قد سجد له الملائکة کلهم أجمعون: «یا إِبْلِیسُ ما مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِیَدَیَّ أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ الْعالِینَ»: ص: ۷۵ و قد تقدمت الإشارة إلی ذلک فی تفسیر الآیة.

و فی أصول الکافی، بإسناده عن محمد بن الفضیل عن أبی الحسن الماضی (ع) قال* قلت:

«یَوْمَ یَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِکَةُ صَفًّا لا یَتَکَلَّمُونَ» الآیة- قال نحن و الله المأذون لهم یوم القیامة- و القائلون صوابا. قلت: ما تقولون إذا تکلمتم؟ قال: نمجد ربنا و نصلی علی نبینا- و نشفع لشیعتنا و لا یردنا ربنا الحدیث:.

أقول: و رواه فی المجمع، عن العیاشی مرفوعا عن معاویة بن عمار عن أبی عبد الله (ع).

و الروایة من قبیل ذکر بعض المصادیق فهناک شفعاء أخر من الملائکة و الأنبیاء و المؤمنین مأذون لهم فی التکلم، و هناک شهداء من الأمم مأذون لهم فی التکلم علی ما ینص علیه القرآن و الحدیث.

(۷۹) سورة النازعات مکیة و هی ست و أربعون آیة (۴۶)

[سورة النازعات (۷۹): الآیات ۱ الی ۴۱]

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً (۱) وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً (۲) وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً (۳) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (۴)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (۵) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (۶) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (۷) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (۸) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (۹)

يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (۱۰) أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (۱۱) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (۱۲) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (۱۳) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (۱۴)

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (۱۵) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (۱۶) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۱۷) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى (۱۸) وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (۱۹)

فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (۲۰) فَكَذَّبَ وَ عَصى (۲۱) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (۲۲) فَحَشَرَ فَنادى (۲۳) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (۲۴)

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى (۲۵) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (۲۶) أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (۲۷) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (۲۸) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها (۲۹)

وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (۳۰) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (۳۱) وَ الْجِبالَ أَرْساها (۳۲) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۳) فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (۳۴)

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (۳۵) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (۳۶) فَأَمَّا مَنْ طَغى (۳۷) وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (۳۸) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (۳۹)

وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (۴۰) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (۴۱)

ص:178

بيان

فی السورة أخبار مؤكد بوقوع البعث و القيامة، و احتجاج عليه من طريق التدبير

ص:179

الربوبی المنتج أن الناس سينقسمون يومئذ طائفتين أصحاب الجنة و أصحاب الجحيم و تختتم السورة بالإشارة إلى سؤالهم النبی ص عن وقت قيام الساعة و الجواب عنه.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «وَ النّازِعاتِ غَرْقاً وَ النّاشِطاتِ نَشْطاً وَ السّابِحاتِ سَبْحاً فَالسّابِقاتِ سَبْقاً فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً » اختلف المفسرون فى تفسير هذه الآيات الخمس اختلافا عجيبا مع اتفاقهم على أنها إقسام، و قول أكثرهم بأن جواب القسم محذوف، و التقدير أقسم بكذا و كذا لتبعثن.

فقوله: «وَ النّازِعاتِ غَرْقاً» قيل: المراد بها ملائكة الموت تنزع الأرواح من الأجساد، و «غَرْقاً» مصدر مؤكد بحذف الزوائد أى إغراقا و تشديدا فى النزع.

و قيل: المراد بها الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم بشدة، و قيل:

هو الموت ينزع الأرواح من الأبدان نزعا بالغا.

و قيل: المراد بها النجوم تنزع من أفق لتغيب فى أفق أى تطلع من مطالعها لتغرب فى مغاربها، و قيل : المراد بها القسى تنزع بالسهم أى تمد بجذب وترها إغراقا فى المد فالإقسام بقسى المجاهدين فى سبيل الله أو بالمجاهدين أنفسهم، و قيل : المراد بها الوحش تنزع إلى الكلإ.

و قوله: «وَ النّاشِطاتِ نَشْطاً» النشط الجذب و الخروج و الإخراج برفق و سهولة و حل العقدة، قيل : المراد بها الملائكة الذين يخرجون الأرواح من الأجساد، و قيل المراد بها خصوص الملائكة يخرجون أرواح المؤمنين من أجسادهم برفق و سهولة، كما أن المراد بالنازعات غرقا الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم.

و قيل: هم الملائكة الذين ينشطون أرواح الكفار من أجسادهم، و قيل : المراد بها أرواح المؤمنين أنفسهم، و قيل : هى النجوم تنشط و تذهب من أفق إلى أفق، و قيل:

هى السهام تنشط من قسيها فى الغزوات، و قيل: هو الموت ينشط و يخرج الأرواح من الأجساد، و قيل: هى الوحش تنشط من قطر إلى قطر.

و قوله: «وَ السّابِحاتِ سَبْحاً» قيل: المراد بها الملائكة تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن إلى الجنة و بروح الكافر إلى النار، و السبح الإسراع فى الحركة كما يقال للفرس سابح

ص:180

إذا أسرع فى جريه، و قيل: المراد بها الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها من الأبدان سلا رفيقا ثم يدعونها حتى يستريح كالسابح بالشىء فى الماء يرمى، و قيل : هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، و قيل : هى النجوم تسبح فى فلكها كما قال تعالى: «وَ كُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ».

و قيل: هى خيل الغزاة تسبح فى عدوها و تسرع، و قيل : هى المنايا تسبح فى نفوس الحيوان، و قيل : هى السفن تسبح فى المياه، و قيل: السحاب، و قيل: دواب البحر.

و قوله: «فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً» قيل المراد بها مطلق الملائكة لأنها سبقت ابن آدم بالخير و الإيمان و العمل الصالح، و قيل ملائكة الموت تسبق بروح المؤمن إلى الجنة و بروح الكافر إلى النار، و قيل الملائكة القابضون لروح المؤمن تسبق بها إلى الجنة، و قيل، ملائكة الوحى تسبق الشياطين بالوحى إلى الأنبياء، و قيل أرواح المؤمنين تسبق إلى الملائكة التى يقبضونها شوقا إلى لقاء الله سبحانه، و قيل هى النجوم تسبق بعضها بعضا فى السير، و قيل هى خيل الغزاة تسبق بعضها بعضا فى الحرب، و قيل هى المنايا تسبق الآمال.

و قوله: «فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» قيل: المراد بها مطلق الملائكة المدبرين للأمور، كذا فسر الأكثرون حتى ادعى بعضهم اتفاق المفسرين عليه، و قيل المراد بها الملائكة الأربعة المدبرون لأمور الدنيا : جبرائيل و ميكائيل و عزرائيل و إسرافيل، ف جبرائيل يدبر أمر الرياح و الجنود و الوحى، و ميكائيل يدبر أمر القطر و النبات، و عزرائيل موكل بقبض الأرواح، و إسرافيل يتنزل بالأمر عليهم و هو صاحب الصور، و قيل: إنها الأفلاک يقع فيها أمر الله فيجرى بها القضاء فى الدنيا.

و هناک قول بأن الإقسام فى الآيات بمضاف محذوف و التقدير و رب النازعات نزعا إلخ.

و أنت خبير بأن سياق الآيات الخمس سياق واحد متصل متشابه الأجزاء لا يلائم كثيرا من هذه الأقوال القاضية باختلاف المعانى المقسم بها ككون المراد بالنازعات الملائكة القابضين لأرواح الكفار، و بالناشطات الوحش، و بالسابحات السفن، و بالسابقات المنايا تسبق الآمال و بالمدبرات الأفلاک.

مضافا إلى أن كثيرا منها لا دليل عليها من جهة السياق إلا مجرد صلاحية اللفظ

ص:181

بحسب اللغة للاستعمال فيه أعم من الحقيقة و المجاز.

على أن كثيرا منها لا تناسب سياق آيات السورة التى تذكر يوم البعث و تحتج على وقوعه على ما تقدم فى سورة المرسلات من حديث المناسبة بين ما فى كلامه تعالى من الإقسام و جوابه.

و الذى يمكن أن يقال- و الله أعلم- أن ما فى هذه الآيات من الأوصاف المقسم بها يقبل الانطباق على صفات الملائكة فى امتثالها للأوامر الصادرة عليهم من ساحة العزة المتعلقة بتدبير أمور هذا العالم المشهود ثم قيامهم بالتدبير بإذن الله.

و الآيات شديدة الشبه سياقا بآيات مفتتح سورة الصافات : «وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِراتِ زَجْراً فَالتَّالِياتِ ذِكْراً » و آيات مفتتح سورة المرسلات: «وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاًفَالْعاصِفاتِ عَصْفاً وَ النَّاشِراتِ نَشْراً فَالْفارِقاتِ فَرْقاً فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً » و هى تصف الملائكة

فى امتثالهم لأمر الله غير أنها تصف ملائكة الوحى، و الآيات فى مفتتح هذه السورة تصف مطلق الملائكة فى تدبيرهم أمر العالم بإذن الله.

ثم إن أظهر الصفات المذكورة فى هذه الآيات الخمس فى الانطباق على الملائكة قوله : «فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» و قد أطلق التدبير و لم يقيد بشى ء دون شى ء فالمراد به التدبير العالمى بإطلاقه، و قوله «أَمْراً» تمييز أو مفعول به للمدبرات و مطلق التدبير شأن مطلق الملائكة فالمراد بالمدبرات مطلق الملائكة.

و إذ كان قوله : «فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» مفتتحا بفاء التفريع الدالة على تفرع صفة التدبير على صفة السبق، و كذا قوله : «فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً» مقرونا بفاء التفريع الدالة على تفرع السبق على السبح دل ذلک على مجانسة المعانى المرادة بالآ يات الثلاث: «وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» فمدلولها أنهم يدبرون الأمر بعد ما سبقوا إليه و يسبقون إليه بعد ما سبحوا أى أسرعوا إليه عند النزول فالمراد بالسابحات و السابقات هم المدبرات من الملائكة باعتبار نزولهم إلى ما أمروا بتدبيره.

فالآيات الثلاث فى معنى قوله تعالى: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ »: الرعد: ١١ على ما تقدم من توضيح معناه فالملائكة ينزلون على الأشياء و قد تجمعت عليها الأسباب و تنازعت فيها وجودا و عدما و بقاء و زوالا و فى مختلف أحوالها

ص:182

فما قضاه الله فيها من الأمر و أبرم قضاءه أسرع إليه الملک المأمور به- بما عين له من المقام- و سبق غيره و تمم السبب الذى يقتضيه فكان ما أراده الله فافهم ذلک.

و إذا كان المراد بالآيات الثلاث الإشارة إلى إسراع الملائكة فى النزول على ما أمروا به من أمر و سبقهم إليه و تدبيره تعين حمل قوله: «وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً » على انتزاعهم و خروجهم من موقف الخطاب إلى ما أمروا به فنزعهم غرقا شروعهم فى النزول نحو المطلوب بشدة و جد، و نشطهم خروجهم م ن موقفهم نحوه كما أن سبحهم إسراعهم إليه بعد الخروج و يتعقب ذلک سبقهم إليه و تدبير الأمر بإذن الله.

فالآيات الخمس أقسام بما يتلبس به الملائكة من الصفات عند ما يؤمرون بتدبير أمر من أمور هذا العالم المشهود من حين يأخذون فى النزول إليه إلى تمام التدبير.

و فيها إشارة إلى نظام التدبير الملكوتى عند حدوث الحوادث كما أن الآيات التالية أعنى قوله : «هَلْ أَتاکَ» إلخ إشارة إلى التدبير الربوبى الظاهر فى هذا العالم.

و فى التدبير الملكوتى حجة على البعث و الجزاء كما أن فى التدبير الدنيوى المشهود حجة عليه على ما سيوافيک إن شاء الله بيانه.

هذا ما يعطيه التدبر فی سياق الآيات الكريمة و يؤيده بعض التأييد ما سيأتی من الأخبار فی البحث الروائی الآتی إن شاء الله.

كلام فی أن الملائكة وسائط فی التدبير

الملائكة وسائط بينه تعالى و بين الأشياء بدءا و عودا على ما يعطيه القرآن الكريم بمعنى أنهم أسباب للحوادث فوق الأسباب المادية فی العالم المشهود قبل حلول الموت و الانتقال إلى نشأة الآخرة و بعده.

أما فی العود أعنی حال ظهور آيات الموت و قبض الروح و إجراء السؤال و ثواب القبر و عذابه و إماتة الكل بنفخ الصور و إحيائهم بذلک و الحشر و إعطاء الكتاب و وضع الموازين و الحساب و السوق إلى الجنة و النار فوساطتهم فيها غنى عن البيان، و الآيات الدالة على ذلک كثيرة لا حاجة إلى إيرادها، و الأخبار المأثورة فيها عن النبی ص

و أئمة أهل البيت (ع) فوق حد الإحصاء.

و كذا وساطتهم فی مرحلة التشريع من النزول بالوحی و دفع الشياطين عن المداخلة فيه و تسديد النبی و تأييد المؤمنين و تطهيرهم بالاستغفار.

و أما وساطتهم فی تدبير الأمور فی هذه النشأة فيدل عليها ما فی مفتتح هذه السورة من إطلاق قوله : «وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» بما تقدم من البيان.

و كذا قوله تعالى : «جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِی أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ »: فاطر: ١ الظاهر بإطلاقه- على ما تقدم من تفسيره- فی أنهم خلقوا و شأنهم أن يتوسطوا بين ه تعالى و بين خلقه و يرسلوا لإنفاذ أمره الذی يستفاد من قوله تعالى فی صفتهم: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ »: الأنبياء: ٢٧، و قوله: «يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ»: النحل: ٥٠ و فی جعل الجناح لهم إشارة ذلک.

فلا شغل للملائكة إلا التوسط بينه تعالى و بين خلقه بإنفاذ أمره فيهم و ليس ذلک على سبيل الاتفاق بأن يجری الله سبحانه أمرا بأيديهم ثم يجری مثله لا بتوسيطهم فلا اختلاف و لا تخلف فی سنته تعالى : «إِنَّ رَبِّی عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»: هود: ٥٦، و قال «فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا»: فاطر: ٤٣.

و من الوساطة كون بعضهم فوق بعض مقاما و أمر العالی منهم السافل بشی ء من التدبير فإنه فی الحقيقة توسط من المتبوع بينه تعالى و بين تابعه فی إيصال أمر الله تعالى كتوسط ملک الموت فی أمر بعض أعوانه بقبض روح من الأرواح، قال تعالى حاكيا عن الملائكة: «وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ »: الصافات: ١٦٤، و قال: «مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ»: التكوير: ٢١، و قال: «حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ»: سبأ: ٢٣.

و لا ينافى هذا الذى ذكر من توسطهم بينه تعالى و بين الحوادث أعنى كونهم أسبابا تستند إليها الحوادث استناد الحوادث إلى أسبابها القريبة المادية فإن السببية طولية لا عرضية أى إن السبب القريب سبب للحادث و السبب البعيد سبب للسبب.

ص:184

كما لا ينافى توسطهم و استناد الحوادث إليهم استناد الحوادث إليه تعالى و كونه هو السبب الوحيد لها جميعا على ما يقتضيه توحيد الربوبية فإن السببية طولية كما سمعت لا عرضية و لا يزيد استناد الحوادث إلى الملائكة استنادها إلى أسبابها الطبيعية القريبة و قد صدق القرآن الكريم استناد الحوادث إلى الحوادث الطبيعية كما صدق استنادها إلى الملائكة.

و ليس لشىء من الأسباب استقلال قباله تعالى حتى ينقطع عنه فيمنع ذلك استناد ما استند إليه إلى الله سبحانه على ما يقول به الوثنية من تفويضه تعالى تدبير الأمر إلى الملائكة المقربين فالتوحيد القرآنى ينفى الاستقلال عن كل شىء من كل جهة : لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا.

فمثل الأشياء فى استنادها إلى أسبابها المترتبة القريبة و البعيدة و انتهائها إلى الله سبحانه بوجه بعيد كمثل الكتابة يكتبها الإنسان بيده و بالقلم فللكتابة استناد إلى القلم ثم إلى اليد التى توسلت إلى الكتابة بالقلم، و إلى الإنسان الذى توسل إليها باليد و بالقلم، و السبب بحقيقة معناه هو الإنسان المستقل بالسببية من غير أن ينافى سببيته استناد الكتابة بوجه إلى اليد و إلى القلم.

و لا منافاة أيضا بين ما تقدم أن شأن الملائكة هو التوسط فى التدبير و بين ما يظهر من كلامه تعالى أن بعضهم أو جميعهم مداومون على عبادته تعالى و تسبيحه و السجود له كقوله : «وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ »: الأنبياء: ٢٠، و قوله : «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ »: الأعراف: ٢٠۶.

و ذلک لجواز أن تكون عبادتهم و سجودهم و تسبيحهم عين عملهم فى التدبير و امتثالهم الأمر الصادر عن ساحة العزة بالتوسط كما ربما يومئ إليه قوله تعالى: «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ»: النحل: ۴۹.

[بيان]

قوله تعالى: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» فسرت الراجفة بالصيحة العظيمة التى فيها تردد و اضطراب و الرادفة بالمتأخرة التابعة، و عليه تنطبق الآيتان على نفختى الصور التى يدل عليهما قوله تعالى : «وَ نُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّماواتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ»: الزمر: ۶٨.

ص:185

و قيل: الراجفة بمعنى المحركة تحريكا شديدا- فإن الرجف يستعمل لازما بمع نى التحرک الشديد، و متعديا بمعنى التحريک الشديد- و المراد بها أيضا النفخة الأولى المحركة للأرض و الجبال، و بالرادفة النفخة الثانية المتأخرة عن الأولى.

و قيل: المراد بالراجفة الأرض و بالرادفة السماوات و الكواكب التى ترجف و تضطرب و تنشق، و تتلاشى و الوجهان لا يخلوان من بعد و لا سيما الأخير.

و الأنسب بالسياق على أى حال كون قوله: «يَوْمَ تَرْجُفُ» إلخ ظرفا لجواب القسم المحذوف للدلالة على فخامته و بلوغه الغاية فى الشدة و هو لتبعثن، و قيل: إن «يَوْمَ» منصوب على معنى قلوب يومئذ واجفة يوم ترجف الراجفة، و لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ أَبْصارُها خاشِعَةٌ » تنكير «قُلُوبٌ» للتنويع و هو مبتدأ خبره «واجِفَةٌ» و الوجيف الاضطراب، و «يَوْمَئِذٍ» ظرف متعلق بواجفة و الجملة استئناف مبين لصفة اليوم.

و قوله: «أَبْصارُها خاشِعَةٌ» ضمير «أَبْصارُها» للقلوب و نسبة الأبصار و إضافتها إلى القلوب لمكان أن المراد بالقلوب فى أمثال هذه المواضع التى تضاف إليها الصفات الإدراكية كالعلم و الخوف و الرجاء و ما يشبهها هى النفوس، و قد تقدمت الإشارة إليها.

و نسبة الخشوع إلى الأبصار و هو من أحوال القلب إنما هى لظهور أثره الدال عليه فى الأبصار أقوى من سائر الأعضاء.

قوله تعالى: «يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ» إخبار و حكاية لقولهم فى الدنيا استبعادا منهم لوقوع البعث و الجزاء و إشارة إلى أن هؤلاء الذين لقلوبهم وجيف و لأبصارهم خشوع يوم القيامة هم الذين ينكرون البعث و هم فى الدنيا و يقولون كذا و كذا.

و الحافرة على ما قيل- أول الشىء و مبتداه، و الاستفهام للإنكار استبعادا، و المعنى يقول: هؤلاء أ إنا لمردودون بعد الموت إلى حالتنا الأولى و هى الحياة.

و قيل: الحافرة بمعنى المحفورة و هى أرض القبر، و المعنى أ نرد من قبورنا بعد موتنا أحياء، و هو كما ترى.

و قيل: الآية تخبر عن اعترافهم بالبعث يوم القيامة، و الكلام كلامهم بعد الإحياء و الاستفهام للاستغراب كأنهم لما بعثوا و شاهدوا ما شاهدوا يستغربون ما شاهدوا

ص:186

فيستفهمون عن الرد إلى الحياة بعد الموت.

و هو معنى حسن لو لم يخالف ظاهر السياق.

قوله تعالى: «أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً » تكرار للاستفهام لتأكيد الاستبعاد فلو كانت الحياة بعد الموت مستبعدة فهى مع فرض نخر العظام و تفتت الأجزاء أشد استبعادا، و النخر بفتحتين البلى و التفتت يقال: نخر العظم ينخر نخرا فهو ناخر و نخر.

قوله تعالى: «قالُوا تِلْکَ إِذاً کَرَّةٌ خاسِرَةٌ» الإشارة بتلک إلى معنى الرجعة المفهوم من قوله «أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِی الْحافِرَةِ» و الکرة الرجعة و العطفة، و عد الکرة خاسرة إما مجاز و الخاسر بالحقیقة صاحبها، أو الخاسرة بمعنى ذات خسران، و المعنى قالوا:

تلک الرجعة- و هی الرجعة إلى الحیاة بعد الموت- رجعة متلبسة بالخسران.

و هذا قول منهم أوردوه استهزاء- على أن یکون قولهم: «أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ» إلخ مما قالوه فی الدنیا- و لذا غیر السیاق و قال «قالُوا تِلْکَ إِذاً» إلخ بعد قوله «یَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ» إلخ و أما على تقدیر أن یکون مما سیقولونه عند البعث فهو قول منهم على سبیل التشؤم و التحسر.

قوله تعالى: «فَإِنَّما هِیَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» ضمیر «هِیَ» للکرة و قیل: للرادفة و المراد بها النفخة الثانیة، و الزجر طرد بصوت و صیاح عبر عن النفخة الثانیة بالزجرة لما فیها من نقلهم من نشأة الموت إلى نشاة الحیاة و من بطن الأرض إلى ظهرها، و «فَإِذا» فجائیة، و الساهرة الأرض المستویة أو الأرض الخالیة من النبات.

و الآیتان فی محل الجواب عما یدل علیه قولهم «أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ» «إلخ» من استبعاد البعث و استصعابه و المعنى لا یصعب علینا أحیاؤهم بعد الموت و کرتهم فإنما کرتهم- أو الرادفة التی هی النفخة الثانیة- زجرة واحدة فإذا هم أحیاء على وجه الأرض بعد ما کانوا أمواتا فی بطنها.

فالآیتان فی معنى قوله تعالى: «وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا کَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ»: النحل: ٧٧.

قوله تعالى: «هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ مُوسى» الآیة إلى تمام اثنتی عشرة آیة إشارة إلى إجمال قصة موسى و رسالته إلى فرعون و رده دعوته إلى أن أخذه الله نکال الآخرة و الأولى.

و فیها عظة و إنذار للمشرکین المنکرین للبعث و قد توسلوا به إلى رد الدعوة الدینیة إذ لا معنى لتشریع الدین لو لا المعاد، و فیها مع ذلک تسلیة للنبی ص من تکذیب

ص:187

قومه، و تهدید لهم کما یؤیده توجیه الخطاب فی قوله: «هَلْ أَتاکَ».

و فی القصة مع ذلک کله حجة على وقوع البعث و الجزاء فإن هلاک فرعون و جنوده تلک الهلکة الهائلة دلیل على حقیة رسالة موسى من جانب الله إلى الناس و لا تتم رسالته من جانبه تعالى إلا بربوبیة منه تعالى للناس على خلاف ما یزعمه المشرکون أن لا ربوبیة له تعالى بالنسبة إلى الناس و أن هناک أربابا دونه و أنه سبحانه رب الأرباب لا غیر.

ففی قوله «هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ مُوسى» استفهام بداعی ترغیب السامع فی استماع الحدیث لیتسلى به هو و یکون للمنکرین إنذارا بما فیه من ذکر العذاب و إتماما للحجة کما تقدم.

و لا ينافى هذا النوع من الاستفهام تقدم علم السامع بالحديث لأن الغرض توجيه نظر السامع إلى الحديث دون السؤال و الاستعلام حقيقة فمن الممكن أن تكون الآيات أول ما يقصه الله من قصة موسى أو تكون مسبوقة بذكر قصته كما فى سورة المزمل إجمالا- و هى أقدم نزولا من سورة النازعات- و فى سورة الأعراف و طه و غيرهما تفصيلا.

قوله تعالى: «إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» ظرف للحديث و هو أول ما أوحى الله إليه فقلده الرسالة، و طوى اسم للوادى المقدس.

قوله تعالى: «اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى» تفسير للنداء، و قيل: الكلام على تقدير القول أى قائلا اذهب «إلخ» أو بتقدير أن المفسرة أى أن اذهب «إلخ» و فى الوجهين أن التقدير مستغنى عنه، و قوله: «إِنَّهُ طَغى» تعليل للأمر.

قوله تعالى: «فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكّى» متعلق «إِلى» محذوف و التقدير هل لک ميل إلى أن تتزكى أو ما فى معناه، و المراد بالتزكى التطهر من قذارة الطغيان.

قوله تعالى: «وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى» عطف على قوله: «تَزَكّى» و المراد بهدايته إياه إلى ربه- كما قيل- تعريفه له و إرشاده إلى معرفته تعالى و تترتب عليه الخشية منه الرادعة عن الطغيان و تعدى طور العبودية قال تعالى: «إِنَّما يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ»: فاطر: ٢٨.

و المراد بالتزكى إن كان هو التطهر عن الطغيان بالتوبة و الرجوع إلى الله تعالى كانت الخشية مترتبة عليه و المراد بها الخشية الملازمة للإيمان الداعية إلى الطاعة و الرادعة عن المعصية، و إن كان هو التطهر بالطاعة و تجنب المعصية كان قوله: «وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى» مفسرا لما قبله و العطف عطف تفسير.

ص:188

قوله تعالى: «فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى» الفاء فصيحة و فى الكلام حذف و تقدير و الأصل فأتاه و دعاه فأراه «إلخ».

و المراد بالآية الكبرى على ما يظهر من تفصيل القصة آية العصا، و قيل: المراد بها مجموع معجزاته التى أراها فرعون و ملأه و هو بعيد.

قوله تعالى: «فَكَذَّبَ وَ عَصى» أى كذب موسى فجحد رسالته و سماه ساحرا و عصاه فيما أمره به أو عصى الله.

قوله تعالى: «ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى» الإدبار التولى و السعى هو الجد و الاجتهاد أى ثم تولى فرعون يجد و يجتهد فى إبطال أمر موسى و معارضته.

قوله تعالى: «فَحَشَرَ فَنادى» الحشر جمع الناس بإزعاج و المراد به جمعه الناس من أهل مملكته كما يدل عليه تفريع قوله: «فَنادى فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى» عليه فإن كان يدعى الربوبية لأهل مملكته جميعا لا لطائفة خاصة منهم.

و قیل: المراد بالحشر جمع السحرة لقوله تعالی : «فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِی الْمَدائِنِ حاشِرِینَ »: الشعراء: ۵۳، و قوله: «فَتَوَلّٰی فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ کَیْدَهُ ثُمَّ أَتیٰ»: طه: ۶۰ و فیه أنه لا دلیل علی کون المراد بالحشر فی هذه الآیة هو عین المراد بالحشر و الجمع فی تینک الآیتین.

قوله تعالی: «فَقالَ أَنَا رَبُّکُمُ الْأَعْلیٰ » دعوی الربوبیة و ظاهره أنه یدعی أنه أعلی فی الربوبیة من سائر الأرباب التی کان یقول بها قومه الوثنیون فیفضل نفسه علی سائر آلهتهم.

و لعل مراده بهذا التفضیل مع کونه وثنیا یعبد الآلهة کما یدل علیه قوله تعالی حکایة عن ملئه یخاطبونه : «أَ تَذَرُ مُوسیٰ وَ قَوْمَهُ لِیُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ یَذَرَکَ وَ آلِهَتَکَ »: الأعراف: ۱۲۷ إنه أقرب الآلهة منهم تجری بیده أرزاقهم و تصلح بأمره شئون حیاتهم و یحفظ بمشیته شرفهم و سؤددهم، و سائر الآلهة لیسوا علی هذه الصفة.

و قیل: مراده بما قال تفضیل نفسه علی کل من یلی أمورهم و محصله دعوی الملک و أنه فوق سائر أولیاء أمور المملکة من حکام و عمال فیکون فی معنی قوله فیما حکاه الله عنه إذ قال : «وَ نادیٰ فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قالَ یا قَوْمِ أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ » الآیة:

الزخرف: ۵۱.

ص:189

و هو خلاف ظاهر الکلام و فیما قال قوله لملئه: «یا أَیُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرِی»: القصص: ۳۸، و قوله لموسی: «لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهَاً غَیْرِی لَأَجْعَلَنَّکَ مِنَ الْمَسْجُونِینَ »: الشعراء: ۲۹.

قوله تعالی: «فَأَخَذَهُ اللّٰهُ نَکالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولیٰ » الأخذ کنایة عن التعذیب، و النکال التعذیب الذی یردع من رآه أو سمعه عن تعاطی مثله، و عذاب الآخرة نکال حیث إن من شأنه أن یردع من سمعه عن تعاطی ما یؤدی إلیه من المعصیة کما أن عذاب الاستئصال فی الدنیا نکال.

و المعنی: فأخذ الله فرعون أی عذبه و نکله نکال الآخرة و الأولی و أما عذاب الدنیا فإغراق ه و إغراق جنوده، و أما عذاب الآخرة فعذابه بعد الموت، فالمراد بالأولی و الآخرة الدنیا و الآخرة.

و قیل: المراد بالآخرة کلمته الآخرة، «أَنَا رَبُّکُمُ الْأَعْلیٰ» و بالأولی کلمته الأولی قالها قبل ذلک «ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرِی » فأخذه الله بهاتین الکلمتین و نکله نکالهما، و لا یخلو هذا المعنی من خفاء.

و قیل: المراد بالأولی تکذیبه و معصیته المذکوران فی أول القصة و بالأخری کلمة أنا ربکم الأعلی- المذکورة فی آخرها، و هو کسابقه.

و قيل: الأولى أول معاصيه و الأخرى آخرها و المعنى أخذه الله نكال مجموع معاصيه و لا يخلو أيضا من خفاء.

قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذٰلِکَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ » الإشارة إلى حديث موسى، و الظاهر أن مفعول «يَخْشىٰ» منسى معرض عنه، و المعنى أن فى هذا الحديث- حديث موسى- لعبرة لمن كان له خشية و كان من غريزته أن يخشى الشقاء و العذاب و الإنسان من غريزته ذلک ففيه عبرة لمن كان إنسانا مستقيم الفطرة.

و قيل: المفعول محذوف و التقدير لمن يخشى الله و الوجه السابق أبلغ.

قوله تعالى: «أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها»- إلى قوله- وَ لِأَنْعامِكُمْ» خطاب توبيخى للمشركين المنكرين للبعث المستهزءين به على سبيل العتاب و يتضمن الجواب عن استبعادهم البعث بقولهم: «أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً» بأن

ص:190

الله خلق ما هو أشد منكم خلقا فهو على خلقكم و إنشائكم النشأة الأخرى لقدير.

و يتضمن أيضا الإشارة إلى الحجة على وقوع البعث حيث يذكر التدبير العام العالمى و ارتباطه بالعالم الإنسانى و لازمه ربوبيته تعالى، و لازم الربوبية صحة النبوة و جعل التكاليف، و لازم ذلک الجزاء الذى موطنه البعث و الحشر، و لذا فرع عليه حديث البعث بقوله: «فإذا جاءت الطامة الكبرى» إلخ.

فقوله: «أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ» استفهام توبيخى بداعى رفع استبعادهم البعث بعد الموت، و الإشارة إلى تفصيل خلق السماء بقوله: «بَناها» إلخ دليل أن المراد به تقرير كون السماء أشد خلقا.

و قوله: «بَناها» استئناف و بيان تفصيلى لخلق السماء.

و قوله: «رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّٰاها » أى رفع سقفها و ما ارتفع منها، و تسويتها ترتيب أجزائها و تركيبها بوضع كل جزء فى موضعه الذى تقتضيه الحكمة كما فى قوله: «فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي»: الحجر: ٢٩.

و قوله: «وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها» أى أظلم ليلها و أبرز نهارها، و الأصل فى معنى الضحى انبساط الشمس و امتداد النهار أريد به مطلق النهار بقرينة المقابلة و نسبة الليل و الضحى إلى السماء لأن السبب الأصلى لها سماوى و هو ظهور الأجرام المظلمة بشروق الأنوار السماوية كنور الشمس و غيره و خ فاؤها بالاستتار و لا يختص الليل و النهار بالأرض التى نحن عليها بل يعمان سائر الأجرام المظلمة المستنيرة.

و قوله: «وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِکَ دَحاها » أى بسطها و مدها بعد ما بنى السماء و رفع سمكها و سواها و أغطش ليلها و أخرج ضحاها.

و قيل: المعنى و الأرض مع ذلک دحاها کما فی قوله : «عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِکَ زَنِیمٍ » و قد تقدم کلام فیما یظهر من کلامه تعالى فی خلق السماء و الأرض فی تفسیر سورة الم السجدة و ذکر بعضهم أن الدحو بمعنى الدحرجة.

و قوله: «أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها » قیل: المرعى یطلق على الرعی بالکسر فالسکون و هو الکلأ کما یجی ء مصدرا میمیا، و اسم زمان و مکان، و المراد بإخراج مائها منها تفجیر العیون و إجراء الأنهار علیها، و إخراج المرعى إنبات النبات علیها

ص:191

مما یتغذى به الحیوان و الإنسان فالظاهر أن المراد بالمرعى مطلق النبات الذی یتغذى به الحیوان و الإنسان کما یشعر به قوله : «مَتاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعامِکُمْ» لا ما یختص بالحیوان کما هو الغالب فی استعماله.

و قوله: «وَ الْجِبالَ أَرْساها» أی أثبتها على الأرض لئلا تمید بکم و ادخر فیها المیاه و المعادن کما ینبئ عنه سائر کلامه تعالى.

و قوله: «مَتاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعامِکُمْ » أی خلق ما ذکر من السماء و الأرض و دبر ما دبر من أمرهما لیکون متاعا لکم و لأنعامکم التی سخرها لکم تتمتعون به فی حیاتکم فهذا الخلق و التدبیر الذی فیه تمتیعکم یوجب علیکم معرفة ربکم و خوف مقامه و شکر نعمته فهناک یوم تجزون فیه بما عملتم فی ذلک إن خیرا فخیرا و إن شرا فشرا کما أن هذا الخلق و التدبیر أشد من خلقکم فلیس لکم أن تستبعدوا خلقکم ثانیا و تستصعبوه علیه تعالى.

قوله تعالى: «فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْکُبْرى» فی المجمع،: و الطامة العالیة الغالبة یقال: هذا أطم من هذا أی أعلى منه، و طم الطائر الشجرة أی علاها و تسمى الداهیة التی لا یستطاع دفعها طامة . انتهى، فالمراد بالطامة الکبرى القیامة لأنها داهیة تعلو و تغلب کل داهیة هائلة، و هذا معنى اتصافها بالکبرى و قد أطلقت إطلاقا.

و تصدیر الجملة بفاء التفریع للإشارة إلى أن مضمونها أعنی مجیء القیامة من لوازم خلق السماء و الأرض و جعل التدبیر الجاری فیهما المترتبة على ذلک کما تقدمت الإشارة إلیه.

قوله تعالى: «یَوْمَ یَتَذَکَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى» ظرف لمجیء الطامة الکبرى، و السعی هو العمل بجد.

قوله تعالى: «وَ بُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِمَنْ یَرى» التبریز الإظهار و مفعول «یَرى» منسی معرض عنه و المراد بمن یرى من له بصر یرى به، و المعنى و أظهرت الجحیم بکشف الغطاء عنها لکل ذی بصر فیشاهدونها مشاهدة عیان.

فالآیة فی معنى قوله تعالى : «لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَکَشَفْنا عَنْکَ غِطاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ»: ق: ۲۲ غیر أن آیة ق أوسع معنى.

ص:192

و الآیة ظاهرة فی أن الجحیم مخلوقة قبل یوم القیامة و إنما تظهر یومئذ ظهورا بکشف الغطاء عنها.

قوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ طَغى‌ وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ‌ الْمَأْوى وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى‌ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى » تفصيل حال الناس يومئذ فی انقسامهم قسمين أقيم مقام الإجمال الذی هو جواب إذا المحذوف استغناء بالتفصيل عن الإجمال، و التقدير فإذا جاءت الطامة الكبری انقسم الناس قسمين فأما من طغی إلخ .

و قد قسم تعالی الناس فی الآيات الثلاث إلی أهل الجحيم و أهل الجنة- و قدم صفة أهل الجحيم لأن وجه الكلام إلی المشركين- و عزف أهل الجحيم بما وصفهم به فی قوله : «مَنْ طَغى‌ وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا » و قابل تعريفهم بتعر يف أهل الجنة بقوله:

«مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى» و سبيل ما وصف به الطائفتين علی أی حال سبيل بيان الضابط.

و إذ كانت الطائفتان متقابلتين بحسب حالهما كان ما بين لكل منهما من الوصف مقابلا لوصف الآخر فوصف أهل الجنة بالخوف من مقام ربهم- و الخوف تأثر الضعيف المقهور من القوی القاهر و خشوعه و خضوعه له- يقتضی كون طغيان أهل الجحيم- و الطغيان التعدی عن الحد- هو عدم تأثرهم من مقام ربهم بالاستكبار و خروجهم عن زی العبودية فلا يخشعون و لا يخضعون و لا يجرون علی ما أراده منهم و لا يختارون ما اختاره لهم من السعادة الخالدة بل ما تهواه أنفسهم من زينة الحياة الدنيا.

فمن لوازم طغيانهم اختيارهم الحياة الدنيا و هو الذی وصفهم به بعد وصفهم بالطغيان إذ قال: «وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا».

و إذ كان من لوازم الطغيان رفض الآخرة و إيثار الحياة الدنيا و هو اتباع النفس فيما تريده و طاعتها فيما تهواه و مخالفته تعالی فيما يريده كان لما يقابل الطغيان من الوصف و هو الخوف ما يقابل الإيثار و اتباع هوی النفس و هو قريحة الردع عن الإخلاد إلی الأرض و نهی النفس عن اتباع الهوی و هو قوله فی وصف أهل الجنة بعد وصفهم بالخوف: «وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى».

و إنما أخذ فی وصفه النهی عن الهوی دون ترک اتباعه عملا لأن الإنسان ضعيف ربما

ص:193

ساقته الجهالة إلی المعصية من غير استكبار و الله واسع المغفرة قال تعالی «وَ لِلّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ»: النجم: ۳۲، و قال: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً»: النساء: ۳۱.

و يتحصل معنی الآيات الثلاث فی إعطاء الضابط فی صفة أهل الجحيم و أهل الجنة فی أن أهل الجحيم أهل الكفر و الفسوق و أهل الجنة أهل الإيمان و التقوی، و هناک غير الطائفتی ن طوائف أخر من المستضعفين و الذين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا و غيرهم أمرهم إلی الله سبحانه عسی أن يشملهم المغفرة بشفاعة و غيرها.

فقوله: «فَأَمَّا مَنْ طَغى‌ - إلی قوله- هِيَ الْمَأْوى» أی هی مأواه علی أن تكون اللام عوضا عن الضمير أو الضمير محذوف و التقدير هی المأوی له.

و قوله: «وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ » إلخ المقام اسم مكان يراد به المكان الذی يقوم فيه جسم من الأجسام و هو الأصل فی معناه ككونه اسم زمان و مصدرا ميميا لكن ربما يعتبر ما عليه الشی ء من الصفات و الأحوال محلا و مستقرا للشیء بنوع من العناية فيطلق عليه المقام كالمنزلة كما فی قوله تعالی فی الشهادة : «فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما »: المائدة: ١٠٧ و قول نوح (ع) لقومه علی ما حكاه الله: «إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِی وَ تَذْكِيرِی بِآياتِ اللَّهِ »: يونس: ٧١، و قول الملائكة علی ما حكاه الله : «وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ»: الصافات: ١٦٤.

فمقامه تعالی المنسوب إليه بما أنه رب هو صفة ربوبيته بما تستلزمه أو تتوقف عليه من صفاته الكريمة كالعلم و القدرة المطلقة و القهر و الغلبة و الرحمة و الغضب و ما يناسبها قال إيذانا به: «وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِی وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِی فَقَدْ هَوی وَ إِنِّی لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدی »: طه: ٨٢، و قال: «نَبِّئْ عِبادِی أَنِّی أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذابِی هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ»: الحجر: ٥٠.

فمقامه تعالی الذی يخوف منه عباده مرحلة ربوبيته التی هی المبدأ لرحمته و مغفرته لمن آمن و اتقی و لأليم عذابه و شديد عقابه لمن كذب و عصی.

و قيل: المراد بمقام ربه مقامه من ربه يوم القيامة حين يسأله عن أعماله و هو كما تری.

و قيل: معنی خاف مقام ربه خاف ربه بطريق الإقحام كما قيل فی قوله «أَكْرِمِی مَثْواهُ».

ص:194

بحث روائی

فی الفقيه، و روی علی بن مهزيار قال: قلت لأبی جعفر (ع): قوله عز و جل «وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشی وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّی» و قوله عز و جل: «وَ النَّجْمِ إِذا هَوی» و ما أشبه هذا؟ فقال إن لله عز و جل أن يقسم من خلقه بما شاء- و ليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

أقول: و تقدم فی هذا المعنی رواية الكافی، عن محمد بن مسلم عن الباقر (ع) فی تفسير أول سورة النجم.

و فی الدر المنثور، أخرج سعيد بن المنصور و ابن المنذر عن علی * فی قوله: «وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً » قال: هی الملائكة تنزع أرواح الكفار «وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً » هی الملائكة تنشط أرواح الكفار- ما بين الأظفار و الجلد حتی تخرجها «وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً» هی الملائكة- تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء و الأرض «فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً» هی الملائكة- يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلی الله «فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» قال هی الملائكة- تدبر أمر العباد من السنة إلی السنة.

أقول: ينبغی أن تحمل الرواية- لو صحت- علی ذكر بعض المصاديق، و قوله : «تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار و الجلد حتی تخرجها» ضرب من التمثيل لشدة العذاب.

و فيه، أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب ❊ أن ابن الكواء سأله عن «فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» قال: الملائكة يدبرون ذكر الرحمن و أمره.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُتَتْبَعُهَا الرّادِفَةُ» قال:

تنشق الأرض بأهلها و الرادفة الصيحة.

و فيه،": فى قوله: «أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ» قال: قالت قريش: أ نرجع بعد الموت؟

و فيه،": فى قوله: «تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ» قال: قالوا هذه على حد الاستهزاء.

و فيه، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع)❊ قوله: «أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ » يقول: فى الخلق الجديد، و أما قوله : «فَإِذا هُمْ بِالسّاهِرَةِ» و الساهرة الأرض- كانوا فى القبور فلما سمعوا الزجرة خرجوا من قبورهم- فاستووا على الأرض.

ص:195

و فى أصول الكافى، بإسناده إلى داود الرقى عن أبى عبد الله (ع)❊ فى قول الله عز و جل:

«وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ، قال: من علم أن الله يراه و يسمع ما يقول- و يعلم ما يعمله من خير أو شر- فيحجزه ذلک عن القبيح من الأعمال- فذلک الذى خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى.

أقول: يؤيد الحديث ما تقدم من معنى الخوف من مقامه تعالى.

و فيه، بإسناده عن يحيى بن عقيل قال ❊: قال أمير المؤمنين (ع): إنما أخاف عليكم الاثنين : اتباع الهوى و طول الأمل- أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق- و أما طول الأمل فينسى الآخرة.

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ٤٢ الى ٤٦]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْساها (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (٤٣) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (٤٤) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (٤٦)

بيان

تعرض لسؤالهم عن وقت قيام الساعة و رد له بأن علمه ليس لأحد إلا الله فقد خصه بنفسه.

قوله تعالى: «يَسْئَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَيّانَ مُرْساها » الظاهر أن التعبير بيسألونک لإفادة الاستمرار فقد كان المشركون بعد ما سمعوا حديث القيامة يراجعون النبی ص و يسألونه أن يعين لهم وقتها مصرين على ذلک و قد تكرر فی القرآن الكريم الإشارة إلى ذلک.

و المرسی مصدر ميمی بمعنى الإثبات و الإقرار و قوله : «أَيّانَ مُرْساها» بيان للسؤال و المعنى يسألک هؤلاء المنكرون للساعة المستهزءون به عن الساعة متى إثباتها و إقرارها؟

أی متى تقوم القيامة؟

قوله تعالى: «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها » استفهام إنكاری و «فِيمَ أَنْتَ» مبتدأ و خبر، و «مِنْ» لابتداء الغاية، و الذكرى كثرة الذكر و هو أبلغ من الذكر على ما ذكره الراغب.

ص:196

و المعنى فی أی شی ء أنت من كثرة ذكر الساعة أی ما ذا يحصل لک من العلم بوقتها من ناحية كثرة ذكرها و بسبب ذلک أی لست تعلمها بكثرة ذكرها.

أو الذكرى بمعنى حضور حقيقة معنى الشی ء فی القلب، و المعنى- على الاستفهام الإنكاری- لست فی شیء من العلم بحقيقتها و ما هی عليه حتى تحيط بوقتها و هو أنسب من المعنى السابق.

و قيل: المعنى ليس ذكراها مما يرتبط ببعثتک إنما بعثت لتنذر من يخشاها.

و قيل: «فِيمَ» إنكار لسؤالهم، و قوله: «أَنْتَ مِنْ ذِكْراها» استئناف و تعليل لإنكار سؤالهم، و المعنى فيم هذا السؤال إنما أنت من ذكرى الساعة لاتصال بعثتک بها و أنت خاتم الأنبياء، و هذا المقدار من العلم يكفيهم،

و هو قوله (ص) فيما روی: «بعثت أنا و الساعة كهاتين إن كادت لتسبقنی».

و قيل: الآية من تمام سؤال المشركين خاطبوا به النبی ص و المعنى ما الذی عندک من العلم بها و بوقتها؟ أو ما الذی حصل لک و أنت تكثر ذكرها.

و أنت خبير بأن السياق لا يلائم شيئا من هذه المعانی تلک الملاءمة، على أنها أو أكثرها لا تخلو من تكلف.

قوله تعالى: «إِلى رَبِّکَ مُنْتَهاها» فی مقام التعليل لقوله: «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها» و المعنى لست تعلم وقتها لأن انتهاءها إلى ربک فلا يعلم حقيقتها و صفاتها و منها تعين الوقت إلا ربک فليس لهم أن يسألوا عن وقتها و ليس فی وسعک أن تجيب عنها.

و ليس من البعيد- و الله أعلم- أن تكون الآية فى مقام التعليل بمعنى آخر و هو أن الساعة تقوم بفناء الأشياء و سقوط الأسباب و ظهور أن لا ملک إلا لله الواحد القهار فلا ينتسب اليوم إلا إليه تعالى من غير أن يتوسط بالحقيقة بينه تعالى و بين اليوم أى سبب مفروض و منه الزمان فليس يقبل اليوم توقيتا بحسب الحقيقة.

و لذا لم يرد فى كلامه تعالى من التحديد إلا تحديد اليوم بانقراض نشأة الدنيا كقوله:

«وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ»: الزمر: ۶۸ و ما فى معناه من الآيات الدالة على خراب الدنيا بتبدل الأرض و السماء و انتثار الكواكب و غير ذلک.

و إلا تحديده بنوع من التمثيل و التشبيه كقوله تعالى : «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها »، و قوله: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ»:

ص:197

الأحقاف: ۳۵، و قوله: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ» ثم ذكر حق القول فى ذلک فقال: «وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ»: الروم: ۵۶.

و يلوح إلى ما مر ما فى مواضع من كلامه أن الساعة لا تأتى إلا بغتة، قال تعالى:

«ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَکَ كَأَنَّکَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»: الأعراف: ۱۸۷ إلى غير ذلک من الآيات.

و هذا وجه عميق يحتاج فى تمامه إلى تدبر واف ليرتفع به ما يتراءى من مخالفته لظواهر عدة من آيات القيامة و عليک بالتدبر فى قوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْکَ غِطاءَکَ فَبَصَرُکَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »: ق: ۲۲ و ما فى معناه من الآيات و الله المستعان.

قوله تعالى: «إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها» أى إنما كلفناک بإنذار من يخشى الساعة دون الإخبار بوقت قيام الساعة حتى تجيبهم عن وقتها إذا سألوک عنه فالقصر فى الآية قصر إفراد بقصر شأنه (ص) فى الإنذار و تنفى عنه العلم بالوقت و تعيينه لمن يسأل عنه.

و المراد بالخشية على ما يناسب المقام الخوف منها إذا ذكر بها أى شأنية الخشية لا فعليتها قبل الإنذار.

قوله تعالى: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها » بيان لقرب الساعة بحسب التمثيل و التشبيه بأن قرب الساعة من حياتهم الدنيا بحيث مثلهم حين يرونها مثلهم لو لبثوا بعد ح ياتهم فى الأرض عشية أو ضحى تلک العشية أى وقتا نسبته إلى نهار واحد نسبة العشية إلى ما قبلها منه أو نسبة الضحى إلى ما قبله منه.

و قد ظهر بما تقدم أن المراد باللبث لبث ما بين الحياة الدنيا و البعث أى لبثهم فى القبور لأن الحساب يقع على مجموع الحياة الدنيا.

و قيل: المراد به اللبث بين حين سؤالهم عن وقتها و بين البعث و فيه أنهم إنما يشاهدون لبثهم على هذه الصفة عند البعث و البعث الذى هو الإحياء بعد الموت إنما نسبته إلى الموت الذى قبله دون مجموع الموت و بعض الحياة التى بين زمان السؤال عن الوقت و زمان الموت.

على أنه لا يلائم ظواهر سائر الآيات المتعرضة للبثهم قبل البعث كقوله تعالى «قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ»: المؤمنون: ۱۱۲.

و قيل: المراد باللبث اللبث فى الدنيا و هو سخيف.

ص:198

بحث روائى

فى تفسير القمى،": «وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى - فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى» قال: هو العبد إذا وقف على معصية الله- و قدر عليها ثم تركها مخافة الله و نهى الله- و نهى النفس عنها فمكافاته الجنة، قوله «يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها» قال:

متى تقوم؟ فقال الله: «إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها» أى علمها عند الله، قوله «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» قال: بعض يوم.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس قال"*:

إن مشركى مكة سألوا النبى ص فقالوا: متى تقوم الساعة استهزاء منهم- فنزلت «يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها» الآيات.

و فيه، أخرج البزار و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن عائشة قالت"*: ما زال رسول الله يسأل عن الساعة- حتى أنزل عليه «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها» فلم يسأل عنها.

أقول: و رواه أيضا عن عدة من أصحاب الكتب عن عروة مرسلا، و رواه أيضا عن عدة منهم عن شهاب بن طارق عن النبى ص: مثله

، و السياق لا يلائم كونه جوابا عن سؤال النبى ص.

و فی بعض الروایات: کانت الأعراب إذا قدموا علی النبی ص- سألوه عن الساعة- فینظر إلی أحدث إنسان فیهم فیقول: إن یعش هذا قرنا قامت علیکم ساعتکم:

رواها فی الدر المنثور، عن ابن مردویه عن عائشة.

و هی من التوقیت الذی یجل عنه ساحة النبی ص و قد أوحی إلیه فی کثیر من السور القرآنیة سیما المکیة أن ع لم الساعة یختص به تعالی لا یعلمه إلا هو و أمر أن یجیب من سأله عن وقتها بنفی العلم به عن نفسه.

ص:199

(۸۰) سورة عبس مکیة و هی اثنان و أربعون آیة (۴۲)

[سورة عبس (۸۰): الآیات ۱ الی ۱۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

عَبَسَ وَ تَوَلَّی (۱) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمی (۲) وَ ما یُدْرِیکَ لَعَلَّهُ یَزَّکَّی (۳) أَوْ یَذَّکَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّکْری (۴)

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنی (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّی (۶) وَ ما عَلَیْکَ أَلاَّ یَزَّکَّی (۷) وَ أَمَّا مَنْ جاءَکَ یَسْعی (۸) وَ هُوَ یَخْشی (۹)

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّی (۱۰) کَلاَّ إِنَّها تَذْکِرَةٌ (۱۱) فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ (۱۲) فِی صُحُفٍ مُکَرَّمَةٍ (۱۳) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (۱۴)

بِأَیْدِی سَفَرَةٍ (۱۵) کِرامٍ بَرَرَةٍ (۱۶)

بیان

وردت الروایات من طرق أهل السنة أن الآیات نزلت فی قصة ابن أم مکتوم ا لأعمی دخل علی النبی ص و عنده قوم من صنادید قریش یناجیهم فی أمر الإسلام فعبس النبی عنه فعاتبه الله تعالی بهذه الآیات و فی بعض الأخبار من طرق الشیعة إشارة إلی ذلک.

و فی بعض روایات الشیعة أن العابس المتولی رجل من بنی أمیة کان عند النبی ص فدخل علیه ابن أم مکتو م فعبس الرجل و قبض وجهه فنزلت الآیات: و سیوافیک تفصیل البحث عن ذلک فی البحث الروائی التالی إن شاء الله تعالی.

و کیف کان الأمر فغرض السورة عتاب من یقدم الأغنیاء و المترفین علی الضعفاء و المساکین من المؤمنین فیرفع أهل الدنیا و یضع أهل الآخرة ثم ینجر الکلام إ لی الإشارة إلی هوان أمر الإنسان فی خلقه و تناهیه فی الحاجة إلی تدبیر أمره و کفره مع ذلک بنعم ربه و تدبیره العظیم لأمره و تتخلص إلی ذکر بعثه و جزائه إنذارا و السورة مکیة بلا کلام.

قوله تعالى: «عَبَسَ وَ تَوَلَّى» أى بسر و قبض وجهه و أعرض.

قوله تعالى: «أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى» تعليل لما ذكر من العبوس بتقدير لام التعليل.

ص:200

قوله تعالى: «وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى » حال من فاعل «عَبَسَ وَ تَوَلَّى» و المراد بالتزكى التطهر بعمل صالح بعد التذكر الذى هو الاتعاظ و الانتباه للاعتقاد الحق، و نفع الذكرى هو دعوتها إلى التزكى بالإيمان و العمل الصالح.

و محصل المعنى: بسر و أعرض عن الأعمى لما جاءه و الحال أنه ليس يدرى لعل الأعمى الذى جاءه يتطهر بصالح العمل بعد الإيمان بسبب مجيئه و تعلمه و قد تذكر قبل أو يتذكر بسبب مجيئه و اتعاظه بما يتعلم فتنفعه الذكرى فيتطهر.

و فى الآيات الأربع عتاب شديد و يزيد شدة بإتيان الآيتين الأولیین فى سياق الغيبة لما فيه من الإعراض عن المشافهة و الدلالة على تشديد الإنكار و إتيان الآيتين الأخيرتين فى سياق الخطاب لما فيه من تشديد التوبيخ و إلز ام الحجة بسبب المواجهة بعد الإعراض و التقريع من غير واسطة.

و فى التعبير عن الجائى بالأعمى مزيد توبيخ لما أن المحتاج الساعى فى حاجته إذا كان أعمى فاقدا للبصر و كانت حاجته فى دينه دعته إلى السعى فيها خشية الله كان من الحرى أن يرحم و يخص بمزيد الإقبال و التعطف لا أن ينقبض و يعرض عنه.

و قيل- بناء على كون المراد بالمعاتب هو النبى ص- : أن فى التعبير عنه أولا بضمير الغيبة إجلالا له لإيهام أن من صدر عنه العبوس و التولى غيره (ص) لأنه لا يصدر مثله عن مثله، و ثانيا بضمير الخطاب إجلالا له أيضا لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش و الإقبال بعد الإعراض.

و فيه أنه لا يلائمه الخطاب فى قوله بعد : «أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى » إلخ و العتاب و التوبيخ فيه أشد مما فى قوله : «عَبَسَ وَ تَوَلَّى» إلخ و لا إيناس فيه قطعا.

قوله تعالى: «أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى » الغنى و الاستغناء و التغنى و التغانى بمعنى على ما ذكره الراغب فالمراد بمن استغنى من تلبس بالغنى و لازمه التقدم و الرئاسة و العظمة فى أعين الناس و الاستكبار عن اتباع الحق قال تعالى: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى»: العلق: ٧ و التصدى التعرض للشىء بالإقبال عليه و الاهتمام بأمره.

و فى الآية إلى تمام ست آيات إشارة إلى تفصيل القول فى ملاك ما ذكر من العبوس و التولى فعوتب عليه و محصله أنك تعتنى و تقبل على من استغنى و استكبر عن اتباع الحق

ص:201

و ما عليك ألا يزكى و تتلهى و تعرض عمن يجتهد فى التزكى و هو يخشى.

و قوله: «وَ ما عَلَيْکَ أَلَّا يَزَّکَّى » قيل: «ما» نافية و المعنى و ليس عليک بأس أن لا يتزکى حتى يبعثک الحرص على إسلامه إلى الإعراض و التلهى عمن أسلم و الإقبال عليه.

و قيل: «ما» للاستفهام الإنکارى و المعنى و أى شىء يلزمک أن لم يتطهر من الکفر و الفجور فإنما أنت رسول ليس عليک إلا البلاغ.

و قيل: المعنى و لا تبالى بعدم تطهره من دنس الکفر و الفجور و هذا المعنى أنسب لسياق العتاب ثم الذى قبله ثم الذى قبله.

قوله تعالى: «وَ أَمَّا مَنْ جاءَکَ يَسْعى وَ هُوَ يَخْشى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى » السعى الإسراع فى المشى فمعنى قوله : «وَ أَمَّا مَنْ جاءَکَ يَسْعى» بحسب ما يفيده المقام: و أما من جاءک مسرعا ليتذکر و يتزکى بما يتعلم من معارف الدين.

و قوله: «وَ هُوَ يَخْشى » أى يخشى الله و الخشية آ ية التذکر بالقرآن قال تعالى : «ما أَنْزَلْنا عَلَيْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى إِلَّا تَذْکِرَةً لِمَنْ يَخْشى»: طه: ٣ و قال: «سَيَذَّکَّرُ مَنْ يَخْشى»: الأعلى: ١٠.

و قوله: «فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى» أى تتلهى و تتشاغل بغيره و تقديم ضمير أنت فى قوله:

«فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى» و قوله: «فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى» و کذا الضميرين «لَهُ» و «عَنْهُ» فى الآيتين لتسجيل العتاب و تثبيته.

قوله تعالى: «کَلَّا إِنَّها تَذْکِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ» «کَلَّا» ردع عما عوتب عليه من العبوس و التولى و التصدى لمن استغنى و التلهى عمن يخشى.

و الضمير فى «إِنَّها تَذْکِرَةٌ» للآيات القرآنية أو للقرآن و تأنيث الضمير لتأنيث الخبر و المعنى أن الآيات القرآنية أو القرآن تذکرة أى موعظة يتعظ بها من اتعظ أو مذکر يذکر حق الاعتقاد و العمل.

و قوله: «فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ» جملة معترضة و الضمير للقرآن أو ما يذکر به القرآن من المعارف، و المعنى فمن شاء ذکر القرآن أو ذکر ما يذکر به القرآن و هو الانتقال إلى ما تهدى إليه الفطرة مما تحفظه فى لوحها من حق الاعتقاد و العمل.

و فى التعبير بهذا التعبير : «فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ» تلويح إلى أن لا إکراه فى ا لدعوة إلى التذکر فلا نفع فيها يعود إلى الداعى و إنما المنتفع بها المتذکر فليختر ما يختاره.

ص:202

قوله تعالى : «فِي صُحُفٍ مُکَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ » قال فى المجمع، : الصحف جمع صحيفة، و العرب تسمى کل مکتوب فيه صحيفة کما تسميه کتابا رقا کان أو غيره انتهى.

و «فِي صُحُفٍ» خبر بعد خبر لأن و ظاهره أنه مكتوب فی صحف متعددة بأيدی ملائكة الوحی، و هذا يضعف القول بأن المراد بالصحف اللوح المحفوظ و لم يرد فی كلامه تعالی إطلاق الصحف و لا الكتب و لا الألواح بصيغة الجمع علی اللوح المحفوظ، و نظيره فی الضعف القول بأن المراد بالصحف كتب الأنبياء الماضين لعدم ملاءمته لظهور قوله:

«بِأَيْدِی سَفَرَةٍ» إلخ فی أنه صفة لصحف.

و قوله: «مُكَرَّمَةٍ» أی معظمة، و قوله: «مَرْفُوعَةٍ» أی قدرا عند الله، و قوله:

«مُطَهَّرَةٍ» أی من قذارة الباطل و لغو القول و الشک و التناقض قال تعالی : «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ »: حم السجدة: ۴۲، و قال: «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ»: الطارق: ۱۴ و قال: «ذلِکَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ»: البقرة: ۲، و قال: «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً»: النساء: ۸۲.

قوله تعالی: «بِأَيْدِی سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ» صفة بعد صفة لصحف، و السفرة هم السفراء جمع سفير بمعنی الرسول و «كِرامٍ» صفة لهم باعتبار ذواتهم و «بَرَرَةٍ» صفة لهم باعتبار عملهم و هو الإحسان فی الفعل.

و معنی الآيات أن القرآن تذكرة مكتوبة فی صحف متعددة معظمة مرفوعة قدرا مطهرا من كل دنس و قذارة بأيدی سفراء من الملائكة كرام علی ربهم بطهارة ذواتهم بررة عنده تعالی بحسن أعمالهم.

و يظهر من الآيات أن للوحی ملائكة يتصدون لحمل الصحف و إيحاء ما فيها من القرآن فهم أعوان جبريل و تحت أمره و نسبة إلقاء الوحی إليهم لا تنافی نسبته إلی جبريل فی مثل قوله : «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلی قَلْبِکَ»: الشعراء: ۱۹۴ و قد قال تعالی فی صفته:

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِی قُوَّةٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ»: التكوير: ۲۱ فهو مطاع من الملائكة من يصدر عن أمره و يأتی بما يريده و الإيحاء الذی هو فعل أعوانه فعله كما أن فعله و فعلهم جميعا فعل الله و ذلک نظير كون التوفی الذی هو فعل أعوان ملک الموت فعله، و فعله و فعلهم جميعا فعل الله تعالی، و قد تقدمت الإشارة إلی هذا البحث مرارا.

و قيل: المراد بالسفرة الكتاب من الملائكة، و الذی تقدم من المعنی أجلی و قيل : المراد بهم القراء يكتبونها و يقرءونها و هو كما تری.

ص:203

بحث روائی

فی المجمع، قيل": نزلت الآيات فی عبد الله بن أم مكتوم- و هو عبد الله بن شريح بن مالک بن ربيعة الفهری- من بنی عامر بن لؤی.

و ذلک أنه أتی رسول الله ص- و هو یناجی عتبة بن ربیعة و أبا جهل بن هشام- و العباس بن عبد المطلب و أبیا- و أمیة بن خلف یدعوهم إلی الله و یرجو إسلامهم- فقال:

یا رسول الله أقرئنی- و علمنی مما علمک الله- فجعل ینادیه و یکرر النداء- و لا یدری أنه مشتغل مقبل علی غیره- حتی ظهرت الکراهة فی وجه رسول الله ص لقطعه کلامه- و قال فی نفسه : یقول هؤلاء الصنادید- إنما أتباعه العمیان و العبید فأعرض عنه- و أقبل علی القوم الذین کان یکلمهم فنزلت الآیات.

و کان رسول الله بعد ذلک یکرمه، و إذا رآه قال : مرحبا بمن عاتبنی فیه ربی، و یقول له : هل لک من حاجة؟ و استخلفه علی المدینة مرتین فی غزوتین.

أقول: روی السیوطی فی الدر المنثور القصة عن عائشة و أنس و ابن عباس علی اختلاف یسی ر و ما أورده الطبرسی محصل الروایات.

و لیست الآیات ظاهرة الدلالة علی أن المراد بها هو النبی ص بل خبر محض لم یصرح بالمخبر عنه بل فیها ما یدل علی أن المعنی بها غیره لأن العبوس لیس من صفات النبی ص مع الأعداء المباینین فضلا عن المؤمنین المسترشدین . ثم الوصف بأنه یتصدی للأغنیاء و یتلهی عن الفقراء لا یشبه أخلاقه الکریمة کما عن المرتضی رحمه الله.

و قد عظم الله خلقه (ص) إذ قال- و هو قبل نزول هذه السورة-: «وَ إِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِیمٍ» و الآیة واقعة فی سورة «ن» التی اتفقت الروایات المبینة لترتیب نزول السور علی أ نها نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربک، فکیف یعقل أن یعظم الله خلقه فی أول بعثته و یطلق القول فی ذلک ثم یعود فیعاتبه علی بعض ما ظهر من أعماله الخلقیة و یذمه بمثل التصدی للأغنیاء و إن کفروا و التلهی عن الفقراء و إن آمنوا و استرشدوا.

و قال تعالی أیضا : «وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ وَ اخْفِضْ جَناحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ »: الشعراء: ۲۱۵ فأمره بخفض الجناح للمؤمنین و السورة من السور المکیة و الآیة فی سیاق قوله: «وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ» النازل فی أوائل الدعوة.

ص:204

و کذا قوله: «لا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلی ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَکَ لِلْمُؤْمِنِینَ »: الحجر: ۸۸ و فی سیاق الآیة قوله: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ»: الحجر: ۹۴ النازل فی أول الدعوة العلنیة فکیف یتصور منه (ص) العبوس و الإعراض عن المؤمنین و قد أمر باحترام إیمانهم و خفض الجناح و أن لا یمد عینیه إلی دنیا أهل الدنیا.

علی أن قبح ترجیح غنی الغنی- و لیس ملاکا لشیء من الفضل- علی کمال الفقیر و صلاحه بالعبوس و الإعراض عن الفقیر و الإقبال علی الغنی لغناه قبح عقلی مناف لکریم الخلق الإنسانی لا یحتاج فی لزوم التجنب عنه إلی نهی لفظی.

و بهذا و ما تقدمه يظهر الجواب عما قيل: إن الله سبحانه لم ينهه (ص) عن هذا الفعل إلا فی هذا الوقت فلا يكون معصية منه إلا بعده و أما قبل النهی فلا.

و ذلک أن دعوی أنه تعالی لم ينهه إلا فی هذا الوقت تحكم ممنوع، و لو سلم فالعقل حاكم بقبحه و معه ينافی صدوره كريم الخلق و قد عظم الله خلقه (ص) قبل ذلک إذ قال:

«وَ إِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِيمٍ» و أطلق القول، و الخلق ملكة لا تتخلف عن الفعل المناسب لها.

و عن الصادق (ع)- علی ما فی المجمع،:- أنها نزلت فی رجل من بنی أمية- كان عند النبی ص فجاء ابن أم مكتوم- فلما رآه تقذر منه و جمع نفسه و عبس- و أعرض بوجهه عنه- فحكی الله سبحانه ذلک و أنكره عليه.

و فی المجمع، و روی عن الصادق (ع) أنه قال: كان رسول الله ص إذا رأی عبد الله بن أم م كتوم قال: مرحبا مرحبا و الله لا يعاتبنی الله فيک أبدا، و كان يصنع به من اللطف- حتی كان يكف عن النبی ص مما يفعل به.

أقول: الكلام فيه كالكلام فيما تقدمه، و معنی قوله: حتی أنه كان يكف «إلخ» أنه كان يكف عن الحضور عند النبی ص لكثرة صنيعه (ص) به انفعالا منه و خجلا.

ص:205

[سورة عبس (٨٠): الآيات ١٧ الی ٤٢]

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلی طَعامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦)

فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (٢٧) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (٢٨) وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً (٢٩) وَ حَدائِقَ غُلْباً (٣٠) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (٣١)

مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (٣٢) فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (٣٥) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (٣٦)

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (٤١)

أُولئِکَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

بيان

دعاء على الإنسان و تعجيب من مبالغته فی الکفر بربوبیة ربه و إشارة إلى أمره حدوثا و بقاء فإنه لا یملک لنفسه شیئا من خلق و تدبیر بل الله سبحانه هو الذی خلقه من نطفة مهینة فقدره ثم السبیل یسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره فهو سبحانه ربه الخالق له المدبر لأمره مطلقا و هو فی مدى وجوده لا یقضی ما أمره به ربه و لا یهتدی بهداه.

و لو نظر الإنسان إلى طعامه فقط و هو مظهر واحد من مظاهر تدبیره و غرفة من بحار رحمته رأى من وسیع التدبیر و لطیف الصنع ما یبهر عقله و یدهش لبه و وراء ذلک نعم لا تعد- و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها-.

فستره تدبیر ربه و ترکه شکر نعمته عجیب و إن ا لإنسان لظلوم کفار و سیرون تبعة شکرهم و کفرهم من السرور و الاستبشار أو الکآبة و سواد الوجه.

و الآیات- کما ترى- لا تأبى الاتصال بما قبلها سیاقا واحدا و إن قال بعضهم إنها نزلت لسبب آخر کما سیجیء.

ص:206

قوله تعالى: «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَکْفَرَهُ» دعاء على الإنسان لما أن فی طبعه التوغل فی اتباع الهوى و نسیان ربوبیة ربه و الاستکبار عن اتباع أوامره.

و قوله «ما أَکْفَرَهُ» تعجیب من مبالغة فی الکفر و ستر الحق الصریح و هو یرى أنه مدبر بتدبیر الله لا یملک شیئا من تدبیر أمره غیره تعالى.

فالمراد بالکفر مطلق ستر الحق و ینطبق على إنکار الربوبیة و ترک العبادة و یؤیده ما فی ذیل الآیة من الإشارة إلى جهات من التدبیر الربوبی المتناسبة مع الکفر بمعنى ستر الحق و ترک العبادة، و قد فسر بعضهم الکفر بترک الشکر و کفران النعمة و هو و إن کان معنى صحیحا فی نفسه لکن الأنسب بالنظر إلى السیاق هو المعنى المتقدم.

قال فی الکشاف: «قُتِلَ الْإِنْسانُ» دعاء علیه و هی من أشنع دعواتهم لأن القتل قصارى شدائد الدنیا و فظائعها و «ما أَکْفَرَهُ» تعجب من إفراطه فی کفران نعمة الله و لا ترى أسلوبا أغلظ منه، و لا أخشن مسا، و لا أدل على سخط، و لا أبعد شوطا فی المذمة مع تقارب طرفیه، و لا أجمع للأئمة على قصر متنه، انتهى.

و قیل جملة «ما أَکْفَرَهُ» استفهامیة و المعنى ما هو الذی جعله کافرا، و الوجه المتقدم أبلغ.

قوله تعالى: «مِنْ أَیِّ شَیْءٍ خَلَقَهُ» معناه على ما یعطیه المقام من أی شی ء خلق الله الإنسان حتى یحق له أن یطغى و یستکبر عن الإیمان و الطاعة، و حذف فاعل قوله:

«خَلَقَهُ» و ما بعده من الأفعال للإشعار بظهوره فمن المعلوم بالفطرة- و قد اعترف به المشرکون- أن لا خالق إلا الله تعالى.

و الاستفهام بداعى تأكيد ما فى قوله : «ما أَكْفَرَهُ» من العجب- و العجب إنما هو فى الحوادث التى لا يظهر لها سبب- فأفيد أولا: أن من العجب إفراط الإنسان فى كفره ثم سئل ثانيا : هل فى خلقته إذ خلقه الله ما يوجب له الإفراط فى الكفر فأجيب بنفيه و أن لا حجة له يحتج بها و لا عذر يعتذر به فإنه مخلوق من ماء مهين لا يملك شى ئا من خلقته و لا من تدبير أمره فى حياته و مماته و نشره، و بالجملة الاستفهام توطئة للجواب الذى فى قوله: «مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ» إلخ.

قوله تعالى: «مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ» تنكير «نُطْفَةٍ» للتحقير أى من نطفة مهينة حقيرة خلقة فلا يحق له و أصله ه ذا الأصل أن يطغى بكفره و يستكبر عن الطاعة.

و قوله «فَقَدَّرَهُ» أى أعطاه القدر فى ذاته و صفاته و أفعاله فليس له أن يتعدى الطور

الذى قدر له و يتجاوز الحد الذى عين له فقد أحاط به التدبير الربوبى من كل جانب ليس له أن يستقل بنيل ما لم يقدر له.

قوله تعالى: «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ» ظاهر السياق المقصود به نفى العذر من الإنسان فى كفره و استكباره أن المراد بالسبيل- و قد أطلق- السبيل إلى طاعة الله و امتثال أوامره و إن شئت فقل: السبيل إلى الخير و السعادة.

فتكون الآية فى معنى دفع الدخل فإنه إذا قيل : «مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ » أمكن أن يتوهم السامع أن الخلق و التقدير إذا كانا محيطين بالإنسان من كل جهة كانت أفعال الإنسان لذاته و صفاته مقدرة مكتوبة و متعلقة لمشية الربوبية التى لا تتخلف فتكون أفعال الإنسان ضرورية الثبوت واجبة التحقق و الإنسان مجبرا عليها فاقدا للاختيار فلا صنع للإنسان فى كفره إذا كفر و لا فى فسقه إذا فسق و لم يقض ما أمره الله به و إنما ذلک بتقديره تعالى و إرادته فلا ذم و لا لائمة على الإنسان و لا دعوة دينية تتعلق به لأن ذلک كله فرع للاختيار و لا اختيار.

فدفع الشبهة بقوله : «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ» و محصله أن الخلق و التقدير لا ينافيان كون الإنسان مختارا فيما أمر به من الإيمان و الطاعة له طريق إلى السعادة التى خلق لها فكل ميسر لما خلق له و ذلک أن التقدير واقع على الأفعال الإنسانية من طريق اختياره، و الإرادة الربوبية متعلقة بأن يفعل الإنسان بإرادته و اختياره كذا و كذا فالفعل صادر عن الإنسان باختياره و هو بما أنه اختيارى متعلق للتقدير.

فالإنسان مختار فى فعله مسئول عنه و إن كان متعلقا للقدر، و قد تقدم البحث عن هذا المعنى كرارا فى ذيل الآيات المناسبة له فى هذا الكتاب.

و قيل: المراد بتيسير السبيل تسهيل خروج الإنسان من بطن أمه و المعنى ثم سهل للإنسان سبيل الخروج و هو جنين مخلوق من نطفة.

و قيل: المراد الهداية إلى الدين و تبين طريق الخير و الشر كما قال: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» البلد: ١٠ و الوجه المتقدم أوجه.

قوله تعالى: «ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ» الإماتة إيقاع الموت على الإنسان، و المراد بالإقبار دفنه فى القبر و إخفاؤه فى بطن الأرض و هذا بالبناء على الغالب الذى جرى عليه ديدن الناس و بهذه المناسبة نسب إليه تعالى لأنه تعالى هو الذى هداهم إلى ذلک و ألهمهم إياه

ص:208

فللفعل نسبة إليه كما له نسبة إلى الناس.

و قيل: المراد بالإقبار جعله ذا قبر و معنى جعله ذا قبر أمره تعالى بدفنه تكرمة له لتتوارى جيفته فلا يتأذى بها الناس و لا يتنفروا.

و الوجه المتقدم أنسب لسياق الآيات المسرود لتذكير تدبيره تعالى التكوينى للإنسان دون التدبير التشريعى الذى عليه بناء هذا الوجه.

قوله تعالى: «ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ» فى المجمع،: الإنشار الإحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطى. انتهى، فالمراد به البعث إذا شاء الله، و فيه إشارة إلى كونه بغتة لا يعلمه غيره تعالى.

قوله تعالى: «كَلَّا لَمّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ» الذى يعطيه السياق أن «كَلّا» ردع عن معنى سؤال يستدعيه السياق و يلوح إليه قوله : «لَمّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ» كأنه لما أشير إلى أن الإنسان مخلوق مدبر له تعالى من أول وجوده إلى آخره من خلق و تقدير و تيسير للسبيل و إماتة و إقبار و إنشار و كل ذلک نعمة منه تعالى سئل فقيل : فما ذا صنع الإنسان و الحال هذه الحال و هل خضع للربوبية أو هل شكر النعمة فأجيب و قيل: كلا، ثم أوضح فقيل:

لما يقض ما أمره الله به بل كفر و عصى.

فقد ظهر مما تقدم أن ضمير «يَقْضِ» للإنسان و المراد بقضائه إتيانه بما أمر الله به، و قيل: الضمير لله تعالى و المعنى لما يقض الله لهذا الكافر أن يأتى بما أمره به من الإيمان و الطاعة بل إنما أمره بما أمر إتماما للحجة، و هو بعيد

و ظهر أيضا أن ما فى الآيات من الذم و اللائمة إنما هو للإنسان بما فى طبعه من الإفراط فى الكفر كما فى قوله : «إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ»: إبراهيم: ۳۴ فينطبق على من تلبس بالكفر و أفرط فيه بالعناد و منه يظهر عدم استقامة ما نقل عن بعضهم أن الآية على العموم فى الكافر و المسلم لم يعبده أحد حق عبادته.

و ذلک أن الضمير للإنسان المذكور فى صدر الآيات بما فى طبعه م ن داعية الإفراط فى الكفر و ينطبق على من تلبس به بالفعل.

قوله تعالى: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ» متفرع على ما تقدم تفرع التفصيل على الإجمال ففيه توجيه نظر الإنسان إلى طعامه الذى يقتات به و يستمد منه لبقائه و هو واحد مما لا يحصى مما هيأه التدب ير الربوبى لرفع حوائجه فى الحياة حتى يتأمله فيشاهد سعة

ص:209

التدبير الربوبى التى تدهش لبه و تحير عقله، و تعلق العناية الإلهية- على دقتها و إحاطتها- بصلاح حاله و استقامة أمره.

و المراد بالإنسان- كما قيل- غير الإنسان المتقدم المذكور فى قوله : «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ» فإن المراد به خصوص الإنسان المبالغ فى الكفر بخلاف الإنسان المذكور فى هذه الآية المأمور بالنظر فإنه عام شامل لكل إنسان، و لذلك أظهر و لم يضمر.

قوله تعالى: «أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا - إلى قوله- وَ لِأَنْعامِكُمْ» القراءة الدائرة «أَنَّا» بفتح الهمزة و هو بيان تفصيلى لتدبيره تعالى طعام الإنسان نعم هو مرحلة ابتدائية من التفصيل و أما القول المستوفى لبيان خصوصيات النظام الذى هيأ له هذه الأمور و النظام الوسيع الجارى فى كل من هذه الأمور و الروابط الكونية التى بين كل واحد منها و بين الإنسان فمما لا يسعه نطاق البيان عادة.

و بالجملة قوله : «أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا » الصب إراقة الماء من العلو، و المراد بصب الماء إنزال الأمطار على الأرض لإنبات النبات، و لا يبعد أن يشمل إجراء العيون و الأنهار فإن ما فى بطن الأرض من ذخائر الماء إنها يتكون من الأمطار.

و قوله: «ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا » ظاهره شق الأرض بالنبات الخارج منها و لذا عطف على صب الماء بثم و عطف عليه إنبات الحب بالفاء.

و قوله: «فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا » ضمير «فِيها» للأرض، و المراد بالحب جنس الحب الذى يقتات به الإنسا ن كالحنطة و الشعير و نحوهما و كذا فى العنب و القضب و غيرهما.

و قوله: «وَ عِنَباً وَ قَضْباً» العنب معروف، و يطلق على شجر الكرم و لعله المراد فى الآية و نظيره الزيتون.

و القضب هو الغض الرطب من البقول الذى يأكله الإنسان يقضب أى يقطع مرة بعد أخرى، و قيل: هو ما يقطع من النبات فتعلف به الدواب.

و قوله: «وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا» معروفان.

و قوله: «وَ حَدائِقَ غُلْباً» الحدائق جمع حديقة و هى على ما فسر البستان المحوط و الغلب جمع غلباء يقال: شجرة غلباء أى عظيمة غليظة فالحدائق الغلب البساتين المشتملة على أشجار عظام غلاظ.

ص:210

و قوله: «وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا » قيل: الفاكهة مطلق الثمار، و قيل : ما عدا العنب و الرمان . قيل: إن ذكر ما يدخل فى الفاكهة أولا كالزيتون و النخل للاعتناء بشأنه و الأب الكلاء و المرعى.

و قوله: «مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ» مفعول له أى أنبتنا ما أنبتنا مما تطعمونه ليكون تمتيعا لكم و للأنعام التى خصصتموها بأنفسكم.

و الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب فى الآية لتأكيد الامتنان بالتدبير أو بإنعام النعمة.

قوله تعالى: «فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ» إشارة إلى ما ينتهى إليه ما ذكر من التدبير العام الربوبى للإنسان بما أن فيه أمرا ربوبيا إلهيا بالعبودية يقضيه الإنسان أولا يقضيه و هو يوم القيامة الذى يوفى فيه الإنسان جزاء أعماله.

و الصاخة: الصيحة الشديدة التى تصم الأسماع من شدتها، و المراد بها نفخة الصور.

قوله تعالى: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ » إشارة إلى شدة اليوم فالذين عدوا من أقرباء الإنسان و أخصائه هم الذين كان يأوى إليهم و يأنس بهم و يتخذهم أعضادا و أ نصارا يلوذ بهم فى الدنيا لكنه يفر منهم يوم القيامة لما أن الشدة أحاطت به بحيث لا تدعه يشتغل بغيره و يعتنى بما سواه كائنا من كان فالبلبلة إذا عظمت و اشتدت و أطلت على الإنسان جذبته إلى نفسها و صرفته عن كل شىء.

و الدليل على هذا المعنى قوله بعد: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» أى يكفيه من أن يشتغل بغيره.

و قيل: فى سبب فرار الإنسان من أقربائه و أخصائه يومئذ وجوه أخر لا دليل عليها أغمضنا عن إيرادها.

قوله تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ » بيان لانقسام الناس يوم ئذ إلى قسمين : أهل السعادة و أهل الشقاء، و إشارة إلى أنهم يعرفون بسيماهم فى وجوههم و إسفار الوجه إشراقه و إضاءته فرحا و سرورا و استبشاره تهلله بمشاهدة ما فيه البشرى.

قوله تعالى: «وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ» هى الغبار و الكدورة و هى سيماء الهم و الغم.

قوله تعالى: «تَرْهَقُها قَتَرَةٌ» أى يعلوها و يغشاها سواد و ظلمة، و قد بين حال الطائفتين فى الآيات الأربع ببيان حال وجوههما لأن الوجه مرآة القلب فى سروره و مساءته.

قوله تعالى: «أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ» أى الجامعون بين الكفر اعتقادا و الفجور

ص:211

و هو المعصية الشنيعة عملا أو الكافرون بنعمة الله الفاجرون، و هذا تعريف للطائفة الثانية و هم أهل الشقاء و لم يأت بمثله فى الطائفة الأولى و هم أهل السعادة لأن الكلام مسوق للإنذار و الاعتناء بشأن أهل الشقاء.

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن عکرمة"* فی قوله: «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ» قال: نزلت فی عتبة بن أبی لهب حین قال: کفرت برب النجم إذا هوی- فدعا علیه النبی ص فأخذه الأسد بطریق الشام.

و فی الاحتجاج، عن أمیر المؤمنین (ع) فی حدیث طویل: «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ» أی لعن الإنسان.

و فی تفسیر القمی،": «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ» قال: یسر له طریق الخیر.

أقول: المراد به جعله مختارا فی فعله یسهل به سلوکه سبیل السعادة و وصوله إلی الکمال الذی خلق له . فالخبر منطبق علی ما قدمناه من الوجه فی تفسیر الآیة.

و فیه،": فی قوله: «وَ قَضْباً» قال: القضب القت.

و فیه،": فی قوله: «وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا» قال: الأب الحشیش للبهائم.

و فی الدر المنثور، أخرج أبو عبید فی فضائله عن إبراهیم التیمی قال "*: سئل أبو بکر الصدیق عن قوله «وَ أَبًّا» فقال: أی سماء تظلنی و أی أرض تقلنی- إذا قلت فی کتاب الله ما لا أعلم.

و فیه، أخرج سعید بن منصور و ابن جریر و ابن سعد و عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن مردویه و البیهقی فی شعب الإیمان و الخطیب و الحاکم و صححه عن أنس "* أن عمر قرأ علی المنبر «فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَ عِنَباً وَ قَضْباً - إلی قوله- وَ أَبًّا» قال: کل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفض عصا کانت فی یده فقال: هذا لعمر الله هو التکلف فما علیک أن لا تدری ما الأب؟ اتبعوا ما بین لکم هداه من الکتاب فاعملوا به- و ما لم تعرفوه فکلوه إلی ربه.

و فیه، أخرج عبد بن حمید عن عبد الرحمن بن یزید "* أن رجلا سأل عمر عن قوله «وَ أَبًّا» فلما رآهم یقولون أقبل علیهم بالدرة.

ص:212

أقول: هو مبنی علی منعهم عن البحث عن معارف الکتاب حتی تفسیر ألفاظه.

و فی إرشاد المفید، و روی : أن أبا بکر سئل عن قول الله تعالی : «وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا » فلم یعرف معنی الأب من القرآن فقال: أی سماء تظلنی أم أی أرض تقلنی- أم کیف أصنع إن قلت فی کتاب الله ما لا أعلم؟ أما الفاکهة فنعرفها و أما الأب فالله أعلم.

فبلغ أمیر المؤمنین (ع) مقاله فی ذلک- فقال: سبحان الله أ ما علم أن الأب هو الکلاء و المرعی؟ و أن قوله تعالی : «وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا» اعتداد من الله- بإنعامه علی خلقه فیما غذاهم به و خلقه لهم- و لأنعامهم مما تحیی به أنفسهم و تقوم به أجسادهم.

و فى المجمع، و روى عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبى ص قالت ❊: قال رسول الله ص : يبعث الناس حفاة عراة غرلا «۱» يلجمهم العرق و يبلغ شحمة الإذن- قالت:

قلت : يا رسول الله وا سوأتاه- ينظر بعضنا إلى بعض إذا جاء؟ قال: شغل الناس عن ذلک و تلا رسول الله ص «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ».

و فى تفسير القمى،": قوله: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» قال: شغل يشغله عن غيره.

(۸۱) سورة التكوير مكية و هى تسع و عشرون آية (۲۹)

[سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱ الى ۱۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (۴)

وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (۶) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹)

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (۱۰) وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (۱۱) وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (۱۲) وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (۱۳) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (۱۴)

---

(۱) الغرل بالغين المعجمة جمع أغرل و هو الأقلف غير المختون.

بيان

تذكر السورة يوم القيامة بذكر بعض أشراطها و ما يقع فيها و تصفه بأنه يوم ينكشف فيه للإنسان ما عمله من عمل ثم تصف القرآن بأنه مما ألقاه إلى النبى ص رسول سماوى و هو ملک الوحى و ليس بإلقاء شيطانى و لا أن النبى ص مجنون يمسه الشيطان.

و يشبه أن تكون السورة من السور العتائق النازلة فى أوائل البعثة كما يشهد به ما فيها من تنزيه ه (ص) مما رموه به من الجنون و قد اتهموه به فى أوائل الدعوة و قد اشتملت على تنزيهه منه سورة «ن» و هى من العتائق.

و السورة مكية بلا كلام.

قوله تعالى: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» التكوير اللف على طريق الإدارة كلف العمامة على الرأس، و لعل المراد بتكوير الشمس انظلام جرمها على نحو الإحاطة استعارة.

قوله تعالى: «وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » انكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض، و عليه فالمراد سقوط النجوم كما يفيده قوله: «وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ» الانفطار: ٢ و يمكن أن يكون من الانكدار بمعنى التغير و قبول الكدورة فيكون المراد به ذهاب ضوئها.

قوله تعالى: «وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ » بما يصيبها من زلزلة الساعة من التسيير فتندك و تكون هباء منبثا و تصير سرابا على ما ذكره سبحانه فى مواضع من كلامه.

قوله تعالى: «وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ» قيل: «العشار جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء و هى الناقة الحامل التى أتت عليها عشرة أشهر فتسمى عشراء حتى تضع حملها و ربما سميت عشراء بعد الوضع أيضا و هى من أنفس المال عند العرب.

و تعطيل العشار تركها مهملة لا راعى لها و لا حافظ يحفظها و كان فى الجملة إشارة على نحو الكناى ة إلى أن نفائس الأموال التى يتنافس فيها الإنسان تبقى اليوم و لا صاحب لها يتملكها و يتصرف فيها لأنهم مشغولون بأنفسهم عن كل شى ء كما قال: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ»: عبس: ٣٧.

قوله تعالى: «وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ» الوحوش جمع وحش و هو من الحيوان ما لا يتأنس بالإنسان كالسباع و غيرها.

ص:214

و ظاهر الآية من حيث وقوعها فى سياق الآيات الواصفة ليوم القيامة أن الوحوش محشورة كالإنسان، و يؤيده قوله تعالى : «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ»: الأنعام: ٣٨.

و أما تفصيل حالها بعد الحشر و ما يئول إليه أمرها فلم يرد فى كلامه تعال ى و لا فيما يعتمد عليه من الأخبار ما يكشف عن ذلك نعم ربما استفيد من قوله فى آية الأنعام:

«أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ» و قوله: «ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ» بعض ما يتضح به الحال فى الجملة لا يخفى على الناقد المتدبر، و ربما قيل: إن حشر الوحوش من أشراط الساعة لا مما يقع يوم القيامة و المراد به خروجها من غاباتها و أكنانها.

قوله تعالى: «وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ» فسر التسجير بإضرام النار و فسر بالملإ و المعنى على الأول و إذا البحار أضرمت نارا، و على الثانى و إذا البحار ملئت.

قوله تعالى: «وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ» أما نفوس السعداء فبنساء الجنة قال تعالى:

«لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ»: النساء: ۵۷، و قال: «وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ»: الدخان: ۵۴ و أما نفوس الأشقياء فبقرناء الشياطين قال تعالى: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ»: الصافات: ۲۲ و قال: «وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»: الزخرف: ۳۶.

قوله تعالى: «وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » الموءودة البنت التى تدفن حية و كانت العرب تئد البنات خوفا من لحوق العار بهم من أجلهن كما يشير إليه قوله تعالى:

«وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ»: النحل: ۵۹.

و المسئول بالحقيقة عن قتل الموءودة أبوها الوائد لها لينتصف منه و ينتقم لكن عد المسئول فى الآية هى الموءودة نفسها فسئلت عن سبب قتلها لنوع من التعريض و التوبيخ لقاتلها و توطئة لأن تسأل الله الانتصاف لها من قاتلها حتى يسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه، فالكلام نظير قوله تعالى فى عيسى (ع): «وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»: المائدة: ۱۱۶.

و قيل: إسناد المسئولية إلى الموءودة من المجاز العقلى و المراد كونها مسئو لا عنها نظير قوله تعالى : «إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا »: إسراء: ۳۴.

ص:215

قوله تعالى: «وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ» أى للحساب، و الصحف كتب الأعمال.

قوله تعالى: «وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ » فى المجمع، الكشط القلع عن شدة التزاق فينطبق على طيها كما فى قوله : «وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ»: الزمر: ۶۷، و قوله:

«وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا»: الفرقان: ۲۵ و غير ذلك من الآيات المفصحة عن هذا المعنى.

قوله تعالى: «وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ» التسعير تهييج النار حتى تتأجج.

قوله تعالى: «وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ» الإزلاف التقريب و المراد تقريبها من أهلها للدخول.

قوله تعالى: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ » جواب إذا، و المراد بالنفس الجنس و المراد بما أ حضرت عملها الذى عملته يقال : أحضرت الشيء أى وجدته حاضرا كما يقال:

أحمدته أى وجدته محمودا.

فالآية فى معنى قوله تعالى: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ»: آل عمران: ٣٠.

بحث روائى

فى تفسير القمى،": «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» قال: تصير سوداء مظلمة «وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ» قال: يذهب ضوؤها «وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ» قال: تسير كما قال «تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ». قوله: «وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ» قال- الإبل تتعطل إذا مات الخلق- فلا يكون من يحلبها، قوله : «وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ » قال: تتحول البحار التى حول الدنيا كلها نيرانا «وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ» قال: من الحور العين.

و فيه، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع)* فى قوله: «وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَ تْ» قال: أما أهل الجنة فزوجوا الخيرات الحسان، و أما أهل النار فمع كل إنسان منهم شيطان- يعنى قرنت نفوس الكافرين و المنافقين بالشياطين- فهم قرناؤهم.

أقول: الظاهر أن قوله: يعنى «إلخ» من كلام الراوى.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى حاتم و الديلمى عن أبى مريم أن النبى ص قال* فى قوله:

«إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» قال: كورت فى جهنم «وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ» قال: انكدرت فى جهنم، و كل من عبد من دون الله فهو فى جهنم- إلا ما كان من عيسى بن مريم و أمه- و لو

ص:216

رضيا أن يعبدا لدخلاها.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ» قال: صحف الأعمال- قوله:

«وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ» قال: أبطلت.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ص يقول *: «وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ» قال: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة و النار.

[سورة التكوير (٨١): الآيات ١٥ الى ٢٩]

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (١٧) وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)

وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اَللَّهُ رَبُّ اَلْعالَمِينَ (٢٩)

بيان

تنزيه للنبى ص من الجنون- و قد اتهموه به- و لما يأتى به- من القرآن- من مداخلة الشيطان، و أنه كلامه تعالى يلقيه إليه ملك الوحى الذى لا يخون فى رسالته، و أنه ذكر للعالمين هاد بإذن الله لمن اهتدى منهم.

قوله تعالى: «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ اَلْجَوارِ اَلْكُنَّسِ » الخنس جمع خانس كطلب جمع طالب، و الخنوس الانقباض و التأخر و الاستتار، و الجوارى جمع جارية، و الجرى السير السريع مستعار من جرى الماء، و الكنس جمع كانس و الكنوس دخول الوحش كالظبى

ص:217

و الطير كناسة أى بيته الذى اتخذه لنفسه و استقراره فيه.

و تعقب قوله: «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ» إلخ بقوله: «وَ اَللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ وَ اَلصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» يؤيد كون المراد بالخنس الجوار الكنس الكواكب كلها أو بعضها لكن صفات حركة بعضها أشد مناسبة و أوضح انطباقا على ما ذكر من الصفات المقسم بها : الخنوس و الجرى و الكنوس و هى السيارات الخمس المتحيرة: زحل و المشترى و المريخ و الزهرة و عطارد فإن لها فى حركاتها على ما تشاهد استقامة و رجعة و إقامة فهى تسير و تجرى حركة متشابهة زمانا و هى الاستقامة و تنقبض و تتأخر و تخنس زمانا و هى الرجعة و تقف عن الحركة استقامة و رجعة زمانا كأنها الوحش تكنس فى كناسها و هى الإقامة.

و قيل: المراد بها مطلق الكواكب و خنوسها استتارها فى النهار تحت ضوء الشمس و جريها سيرها المشهود فى الليل و كنوسها غروبها فى مغربها و تواريها.

و قيل: المراد بها بقر الوحش أو الظبى و لا يبعد أن يكون ذكر بقر الوحش أو الظبى من باب المثال و المراد مطلق الوحوش.

و كيف كان فأقرب الأقوال أولها و الثانى بعيد و الثالث أبعد.

قوله تعالى: «وَ اَللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ » عطف على الخنس، و «إِذا عَسْعَسَ» قيد لليل، و العسعسة تطلق على إقبال الليل و على إدباره قال الراغب: «وَ اَللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ» أى أقبل و أدبر و ذلك فى مبدإ الليل و منتهاه فالعسعسة و العساس رقة الظلام و ذلك فى طرفى الليل. انتهى و الأنسب لاتصال الجملة بقوله: «وَ اَلصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» أن يراد بها إدبار الليل.

و قيل: المراد بها إقبال الليل: و هو بعيد لما عرفت.

قوله تعالی: «وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» عطف علی الخنس، و «إِذا تَنَفَّسَ» قید للصبح، و عد الصبح متنفسا بسبب انبساط ضوئه علی الأفق و دفعه الظلمة التی غشیته نوع من الاستعارة بتشبیه الصبح و قد طلع بعد غشیان الظلام للآفاق بمن أحاطت به متاعب أعمال شاقة ثم وجد خلاء من الزمان فاستراح فیه و تنفس فعد إضاءته للأفق تنفسا منه کذا یستفاد من بعضهم.

و ذکر الزمخشری فیه وجها آخر فقال فی الکشاف،: فإن قلت: ما معنی تنفس الصبح؟ قلت: إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح و نسیم فجعل ذلک نفسا له علی المجاز.

انتهی و الوجه المتقدم أقرب إلی الذهن.

ص:218

قوله تعالی: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ ذِی قُوَّةٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِینٍ » جواب القسم، و ضمیر «إِنَّهُ» للقرآن أو لما تقدم من آیات السورة بما أنها قرآن بدلیل قوله:

«لَقَوْلُ رَسُولٍ» إلخ و المراد بالرسول جبریل کما قال تعالی: «مَنْ کانَ عَدُوًّا لِجِبْرِیلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلی قَلْبِکَ بِإِذْنِ اللّهِ»: البقرة: ٩٧.

و فی إضافة القول إلیه بما أنه رسول دلالة علی أن القول لله سبحانه، و نسبته إلی جبریل نسبة الرسالة إلی الرسول و قد وصفه الله بصفات ست مدحه بها.

فقوله: «رَسُولٍ» یدل علی رسالته و إلقائه وحی القرآن إلی النبی ص، و قوله:

«کَرِیمٍ» أی ذی کرامة و عزة عند الله بإعزازه، و قوله : «ذِی قُوَّةٍ» أی ذی قدرة و شدة بالغة، و قوله : «عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ» أی صاحب مکانة عند الله و المکانة القرب و المنزلة، و قوله : «مُطاعٍ ثَمَّ» أی مطاع عند الله فهناک ملائکة یأمره م فیطیعونه، و من هنا یظهر أن له أعوانا من الملائکة یأمرهم فیأتمرون بأمره، و قوله : «أَمِینٍ» أی لا یخون فیما أمر به یبلغ ما حمله من الوحی و الرسالة من غیر أی تصرف فیه.

و قیل: المراد بالرسول الجاری علیه الصفات هو النبی ص، و هو کما تری و لا تلائمه الآیات التالیة.

قوله تعالی: «وَ ما صاحِبُکُمْ بِمَجْنُونٍ» عطف علی قوله: «إِنَّهُ لَقَوْلُ» إلخ ورد لرمیهم له (ص) بالجنون.

و فی التعبیر عنه (ص) بقوله: «صاحِبُکُمْ» تکذیب لهم فی رمیهم له بالجنون و تنزیه لساحته- کما قیل- ففیه إیماء إلی أنه صاحبکم لبث بینکم معاشرا لکم طول عمره و أنتم أعرف به قد وجدتموه علی کمال من العقل و رزانة من الرأی و صدق من القول و من هذه صفته لا یرمی بالجنون.

و توصیف جبریل بما مر من صفات المدح دون النبی ص لا دلالة فیه علی أفضلیته من النبی ص لأن الکلام مسوق لبیان أن القرآن کلام الله سبحانه منزل علی النبی ص من عنده سبحانه من طریق الوحی لا من أوهام الجنون بإلقاء من شیطان و الذی

يفيد فى هذا الغرض بيان سلامة طريق الإنزال و تجليل المنزل- اسم فاعل- بذكر أوصافه الكريمة و المبالغة فى تنزيهه عن الخطإ و الخيانة، و أما المنزل عليه فلا يتعلق به غرض إلا بمقد ار الإشارة إلى دفع ما يرتاب فيه من صفته و قد أفيد بنفى الجنون الذى رموه به

ص:219

و التعبير عنه بقوله: «صاحِبُكُمْ» كما تقدم توضيحه، كذا قيل.

و فى مطاوى كلامه تعالى من نعوت النبى ص الكريمة ما لا يرتاب معه فى أفضليته (ص) على جميع الملائكة، و قد أسجد الله الملائكة كلهم أجمعين للإنسان الذى هو خليفته فى الأرض.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ» ضمير الفاعل فى «رَآهُ» للصاحب و ضمير المفعول للرسول الكريم و هو جبريل.

و الأفق المبين الناحية الظاهرة، و الظاهر أنه الذى أشار إليه بقوله: «وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى»: النجم: ٧.

و المعنى و أقسم لقد راى النبى ص جبريل حال كون جبريل كائنا فى الأفق المبين و هو الأفق الأعلى من سائر الآفاق بما يناسب عالم الملائكة.

و قيل: المعنى لقد راى (ص) جبريل على صورته الأصلية حيث تطلع الشمس و هو الأفق الأعلى من ناحية المشرق.

و فيه أن لا دليل من اللفظ يدل عليه و خاصة فى تعلق الرؤية بصورته الأصلية و رؤيته فى أى مثال تمثل به رؤيته، و كأنه مأخوذ مما ورد فى بعض الروايات أنه رآه فى أول البعثة و هو بين السماء و الأرض جالس على كرسى، و هو محمول على التمثل.

قوله تعالى: «وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ » الضمير للنبى ص، و المراد بالغيب الوحى النازل عليه، و الضنين صفة مشبهة من الضن بمعنى البخل يعنى أنه (ص) لا يبخل بشىء مما يوحى إليه فلا يكتمه و لا يحبسه و لا يغيره بتبديل بعضه أو كله شيئا آخر بل يعلم الناس كما علمه الله و يبلغهم ما أمر بتبليغه.

قوله تعالى: «وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ » نفى لاستناد القرآن إلى إلقاء شيطان بما هو أعم من طريق الجنون فإن الشيطان بمعنى الشرير و الشيطان الرجيم كما أطلق فى كلامه تعالى على إبليس و ذريته كذلك أطلق على أشرار سائر الجن قال تعالى: «قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِيمٌ»: ص: ٧٧، و قال: «وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ»: الحجر: ١٧.

فالمعنى أن القرآن ليس بتسويل من إبليس و جنوده و لا بإلقاء من أشرار الجن كما يلقونه على المجانين.

قوله تعالى: «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ» أوضح سبحانه فى الآيات السبع المتقدمة ما هو الحق فى

ص:220

أمر القرآن دافعا عنه ارتيابهم فيه بما يرمون به الجائی به من الجنون و غيره على إيجاز متون الآيات فبين أولا أنه كلام الله و اتكاء هذه الحقيقة على آيات التحدی، و ثانيا أن نزوله برسالة ملک سماوی جليل القدر عظيم المنزلة و هو أمين الوحی جبريل لا حاجز بينه و بين الله و لا بينه و بين النبی ص، و لا صارف من نفسه أو غيره يصرفه عن أخذه و لا حفظه و لا تبليغه، و ثالثا أن الذی أنزل عليه و هو يتلوه لكم و هو صاحبكم الذی لا يخفى عليكم حاله ليس بمجنون كما يبهتونه به و قد رای الملک الحامل للوحی و أخذ عنه و ليس بكاتم لما يوحی إليه و لا بمغير، و رابعا أنه ليس بتسويل من إبليس و جنوده و لا بإلقاء من بعض أشرار الجن.

و نتيجة هذا البيان أن القرآن كتاب هدى يهتدی به من أراد الاستقامة على الحق و هو قوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» إلخ.

فقوله: «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ» توطئة و تمهيد لذكر نتيجة البيان السابق، و هو استضلال لهم فيما يرونه فی أمر القرآن الكريم أنه من طوارى الجنون أو من تسويلات الشيطان الباطلة.

فالاستفهام فی الآية توبيخی و المعنى إذا كان الأمر على هذا فأين تذهبون و تتركون الحق وراءكم؟

قوله تعالى: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ » أی تذكرة لجماعات الناس كائنين من كانوا يمكنهم بها أن يتبصروا للحق، و قد تقدم بعض الكلام فی نظيرة الآية.

قوله تعالى: «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» بدل من قوله: «لِلْعالَمِينَ» مسوق لبيان أن فعلية الانتفاع بهذا الذكر مشروط بأن يشاءوا الاستقامة على الحق و هو التلبس بالثبات على العبودية و الطاعة.

قوله تعالى: «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» تقدم الكلام فی معناه فی نظائر الآية.

و الآية بحسب ما يفيده السياق فی معنى دفع الدخل فإن من الممكن أن يتوهموا من قوله : «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» أن لهم الاستقلال فی مشية الاستقامة إن شاءوا استقاموا و إن لم يشاءوا لم يستقيموا، فلله إليهم حاجة فی الاستقامة التی يريدها منهم .

فدفع ذ لک بأن مشيتهم متوقفة على مشية الله سبحانه فلا يشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله أن يشاءوها، فأفعال الإنسان الإرادية مرادة لله تعالى من طريق إرادته و هو أن

ص:221

يريد الله أن يفعل الإنسان فعلا كذا و كذا عن إرادته.

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج سعید بن منصور و الفاریابی و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن أبی حاتم و الحاکم و صححه من طرق عن علی* فی قوله: «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ» قال: هی الکواکب تکنس باللیل و تخنس بالنهار فلا تری.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله: «فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ» قال: أی و أقسم بالخنس و هو اسم النجوم . «الْجَوارِ الْکُنَّسِ» قال: النجوم تکنس بالنهار فلا تبین.

و فی المجمع،: «بِالْخُنَّسِ» و هی النجوم تخنس بالنهار و تبدو باللیل «و الْجَوارِ» صفهٔ لها لأنها تجری فی أفلاکها «الْکُنَّسِ» من صفتها أیضا- لأنها تکنس أی تتواری فی بروجها- کما تتواری الظباء فی کناسها . و هی خمسهٔ أنجم : زحل و المشتری و المریخ و الزهرهٔ و عطارد عن علی «وَ اللَّیْلِ إِذا عَسْعَسَ» أی إذا أدبر بظلامه عن علی.

و فی تفسیر القمی،": «وَ اللَّیْلِ إِذا عَسْعَسَ» قال: إذا أظلم «و الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ» قال:

إذا ارتفع.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن عساکر عن معاویهٔ بن قرهٔ قال*: قال رسول الله ص لجبریل: ما أحسن ما أثنی علیک ربک: ذی قوهٔ عند ذی العرش مکین مطاع ثم أمین- فما کانت قوتک؟ و ما کانت أمانتک؟

قال: أما قوتی فإنی بعثت إلی مدائن لوط- و هی أربع مدائن، و فی کل مد ینهٔ أربع مائهٔ ألف مقاتل سوی الذراری- فحملتهم من الأرض السفلی- حتی سمع أهل السماء أصوات الدجاج و نباح الکلاب- ثم هویت بهم فقتلتهم، و أما أمانتی فلم أومر بشیء فعدوته إلی غیره.

أقول: و الروایهٔ لا تخلو من شیء و قد ضعفوا ابن عساکر و خاصهٔ فیما تفرد به.

و فی الخصال، عن أبی عبد الله (ع) قال*: من قال فی کل یوم من شعبان سبعین مرهٔ:

أستغفر الله الذی لا إله إلا هو الرحمن الرحیم- الحی القیوم و أتوب إلیه، کتب فی الأفق المبین . قال: قلت: و ما الأفق المبین؟ قال: قاع بین یدی العرش فیه أنهار تطرد- و فیه من القدحان عدد النجوم.

و فی تفسیر القمی، فی حدیث أسنده إلی أبی عبد الله (ع): قوله: وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَیْطانٍ

ص:222

رَجِیمٍ» قال: یعنی الکهنهٔ الذین کانوا فی قریش- فنسب کلامهم إلی کلام الشیاطین الذین کانوا معهم- یتکلمون علی ألسنتهم- فقال: «وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَیْطانٍ رَجِیمٍ» مثل أولئک.

(۸۲) سورهٔ الانفطار مکیهٔ و هی تسع عشرهٔ آیهٔ (۱۹)

[سورة الانفطار (٨٢): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (١) وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (٣) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْكَرِيمِ (۶) الَّذِی خَلَقَکَ فَسَوّاکَ فَعَدَلَکَ (٧) فِی أَیِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَکَ (٨) كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩)

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (١٠) كِراماً كاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِی نَعِيمٍ (١٣) وَ إِنَّ الْفُجّارَ لَفِی جَحِيمٍ (١۴)

يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (١۵) وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (١۶) وَ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ ما أَدْراکَ ما يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

بيان

تحد السورة يوم القيامة ببعض أشراطه الملازمة له المتصلة به و تصفه بما يقع فيه و هو ذكر الإنسان ما قدم و ما أخر من أعماله الحسنة و السيئة- على أنها محفوظة عليه بواسطة حفظة الملائكة الموكلين عليه- و جزاؤه بعمله إن كان برا فبنعيم و إن كان فاجرا مكذبا بيوم الدين فبجحيم يصلاها مخلدا فيها.

ثم يستأنف وصف اليوم بأنه يوم لا يملک نفس لنفس شيئا و الأمر يومئذ لله، و هی من غرر الآيات، و السورة مكية بلا كلام.

قوله تعالى: «إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ» الفطر الشق و الانفطار الانشقاق و الآية كقوله:

«وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ»: الحاقة: ١۶.

قوله تعالى: «وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ» أی تفرقت بتركها مواضعها التی ركزت فيها شبهت الكواكب بلآلی منظومة قطع سلكها فانتثرت و تفرقت.

قوله تعالى: «وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ» قال فی المجمع،: التفجير خرق بعض مواضع الماء إلى بعض التكثير، و منه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب، و منه الفجر لانفجاره بالضياء، انتهى. و إليه يرجع تفسيرهم لتفجير البحار بفتح بعضها فی بعض حتى يزول الحائل و يختلط العذب منها و المالح و يعود بحرا واحدا، و هذا المعنى يناسب تفسير قوله : «وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ»: التكوير: ۶ بامتلاء البحار.

قوله تعالی: «وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ » قال فی المجمع، بعثرت الحوض و بحثرته إذا جعلت أسفله أعلاه، و البعثرة و البحثرة إثارة الشیء بقلب باطنه إلی ظاهره، انتهی. فالمعنی و إذا قلب تراب القبور و أثیر باطنها إلی ظاهرها لإخراج الموتی و بعثهم للجزاء.

قوله تعالی: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ » المراد بالعلم علمها التفصیلی بأعمالها التی عملتها فی الدنیا، و هذا غیر ما یحصل لها من العلم بنشر کتاب أعمالها لظاهر قوله تعالی: «بَلِ الْإِنْسانُ عَلی نَفْسِهِ بَصِیرَةٌ وَ لَوْ أَلْقی مَعاذِیرَهُ»: القیامة: ۱۵ و قوله: «یَوْمَ یَتَذَکَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعی »: النازعات: ۳۵، و قوله : «یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ »: آل عمران: ۳۰.

و المراد بالنفس جنسها فتفید الشمول، و المراد بما قدمت و ما أخرت هو ما قدمته مما عملته فی حیاتها، و بما أخرت ما سنته من سنة حسنة أو سیئة فعملت بها بعد موتها فتکتب صحیفة عملها قال تعالی: «وَ نَکْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ»: یس: ۱۲.

و قیل: المراد بما قدمت و أخرت ما عملته فی أول العمر و ما عملته فی آخره فیکون کنایة عن الاستقصاء.

و قیل فی معنی التقدیم و التأخیر وجوه أخر لا یعبأ بها مذکورة فی مطولات التفاسیر من أراد الوقوف علیها فلیراجعها .

ص:PAGE=224ص:

و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: «لِیَمِیزَ اللَّهُ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ»: الأنفال: ۳۷، کلام لا یخلو من نفع هاهنا.

قوله تعالی: «یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْکَرِیمِ- إلی قوله- رَکَّبَکَ» عتاب و توبیخ للإنسان، و المراد بهذا الإنسان المکذب لیوم الدین- علی ما یفیده السیاق المشتمل علی قوله: «بَلْ تُکَذِّبُونَ بِالدِّینِ» و فی تکذیب یوم الدین کفر و إنکار لتشریع الدین و فی إنکاره إنکار لربوبیة الرب تعالی، و إنما وجه الخطاب إلیه بما أنه إنسان لیکون حجة أو کالحجة لثبوت الخصال التی یذکرها من نعمه علیه المختصة من حیث المجموع بالإنسان.

و قد علق الغرور بصفتی ربوبیته و کرمه تعالی لیکون ذلک حجة فی توجه العتاب و التوبیخ فإن تمرد المربوب و توغله فی معصیة ربه الذی یدبر أمره و یغشیه نعمه ظاهرة و باطنة کفران لا ترتاب الفطرة السلیمة فی قبحه و لا فی استحقاق العقاب علیه و خاصة إذا کان الرب المنعم کریما لا یرید فی نعمه و عطایاه نفعا ینتفع به و لا عضوا یقابله به المنعم علیه، و یسامح فی إحسانه و یصفح عما یأتی به المربوب من الخطیئة و الإثم بجهالة فإن الکفران حینئذ أقبح و أقبح و توجه الذم و اللائمة أشد و أوضح.

فقوله تعالی: «یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْکَرِیمِ » استفهام توبیخی یوبخ الإنسان بکفران خاص لا عذر له یعتذر به عنه و هو کفران نعمة رب کریم.

و ليس للإنسان أن يجيب فيقول : أى رب غرنى كرمك فقد قضى الله سبحانه فيما قضى و بلغه بلسان أنبيائه : «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ » إبراهيم: ٧، و قال : «فَأَمَّا مَنْ طَغى وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى »: النازعات:

٣٩، إلى غير ذلك من الآيات الناصة فى أن لا مخلص للمعاندين من العذاب و أن الكرم لا يشملهم يوم القيامة قال : «وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ »: الأعراف: ١٥٦ و لو كفى الإنسان العاصى قوله : «غرنى كرمک» لصرف العذاب عن الكافر المعاند كما يصرفه عن المؤمن العاصى، و لا عذر بعد البيان.

و من هنا يظهر أن لا محل لقول بعضهم: إن توصيف الرب بالكريم من قبيل تلقين الحجة و هو من الكرم أيضا.

كيف؟ و السياق سياق الوعيد و الكلام ينتهى إلى مثل قوله: «وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي

ص:PAGE=225ص:

جَحِيمٍ يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ».

و قوله: «الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ » بيان لربوبيته المتلبسة بالكرم فإن من تدبيره خلق الإنسان بجمع أجزاء وجوده ثم تسويته بوضع كل عضو فيما يناسبه من الموضع على ما يقتضيه الحكمة ثم عدله بعدل بعض أعضائه و قواه ببعض بجعل التوازن و التعادل بينها فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو فيتم به فعله كما أن الأكل مثلا بالالتقام و هو للفم، و يضعف الفم عن قطع اللقمة و نهشها و طحنها فيتم ذلک بمختلف الأسنان، و يحتاج ذلک إلى نقل اللقمة من جانب من الفم إلى آخر و قلبها من حال إلى حال فجعل ذلک للسان ثم الفم يحتاج فى فعل الأكل إلى وضع الغذاء فيه فتوصل إلى ذلک باليد و تمم عملها بالكف و عملها بالأصابع على اختلاف منافعها و عملها بالأنامل، و تحتاج اليد فى الأخذ و الوضع إلى الانتقال المكانى نحو الغذاء و عدل ذلک بالرجل.

و على هذا القياس فى أعمال سائر الجوارح و القوى و هى ألوف و ألوف لا يحصيها العد، و الكل من تدبيره تعالى و هو المفيض لها من غير أن يريد بذلک انتفاعا لنفسه و من غير أن يمنعه من إفاضتها م ا يقابله به الإنسان من نسيان الشكر و كفران النعمة فهو تعالى ربه الكريم.

و قوله: «فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ » بيان لقوله: «فَعَدَلَكَ» و لذا لم يعطف على ما تقدمه و الصورة ما ينتقش به الأعيان و يتميز به الشىء من غيره و «ما» زائدة للتأكيد.

و المعنى: فى أى صورة شاء أن يركبک- و لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة- ركبک من ذكر و أنثى و أبيض و أسود و طويل و قصير و وسيم و دميم و قوى و ضعيف إلى غير ذلک و كذا الأعضاء المشتركة بين أفراد الإنسان المميزة لها من غيرها كاليدين و الرجلين و العينين و الرأس و البدن و استواء القامة و نحوها فكل ذلک من عدل بعض الأجزاء ببعض فى التركيب قال تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»: التين: ۴ و الجميع ينتهى إلى تدبير الرب الكريم لا صنع للإنسان فى شىء من ذلک.

قوله تعالى: «كَلّٰا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ» «كَلّٰا» ردع عن اغترار الإنسان بكرم الله و جعل ذلک ذریعة إلی الکفر و المعصیة أی لا تغتروا فلا ینفعکم الاغترار.

و قوله: «بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ» أی بالجزاء. إضراب عما یفهم من قوله: «ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْکَرِیمِ» من غرور الإنسان بربه الکریم علی اعتراف منه و لو بالقوة بالجزاء لقضاء

ص:226

الفطرة السلیمة به.

فإذ عاتب الإنسان و وبخه علی غروره بربه الکریم و اجترائه علی الکفران و المعصیة من غیر أن یخاف الجزاء أضرب عنه مخاطبا للإنسان و کل من یشارکه فی کفره و معصیته فقال: بل أنت و من حاله حالک تکذبون بیوم الدین و الجزاء فتجحدونه ملحین علیه.

قوله تعالی: «وَ إِنَّ عَلَیْکُمْ لَحافِظِینَ کِراماً کاتِبِینَ یَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» إشارة إلی أن أعمال الإنسان حاضرة محفوظة یوم القیامة من طریق آخر غیر حضورها للإنسان العامل لها من طریق الذکر و ذلک حفظه ا بکتابة کتاب الأعمال من الملائکة الموکلین بالإنسان فیحاسب علیها کما قال تعالی: «وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ کِتاباً یَلْقاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ کِتابَکَ کَفی بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً»: إسراء: ۱۴.

فقوله: «وَ إِنَّ عَلَیْکُمْ لَحافِظِینَ» أی إن علیکم من قبلنا حافظین یحفظون أعمالکم بالکتابة کما یفیده السیاق.

و قوله: «کِراماً کاتِبِینَ» أی أولی کرامة و عزة عند الله تعالی و قد تکرر فی القرآن الکریم وصف الملائکة بالکرامة و لا یبعد أن یکون المراد به بإعانة من السیاق کونهم بحسب الخلقة مصونین عن الإثم و المعصیة مفطورین علی العصمة، و یؤیده قوله: «بَلْ عِبادٌ مُکْرَمُونَ لا یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ»: الأنبیاء: ۲۶ حیث دل علی أنهم لا یریدون إلا ما أراده الله و لا یفعلون إلا ما أمرهم به، و کذا قوله: «کِرامٍ بَرَرَةٍ»: عبس ۱۶.

و المراد بالکتابة فی قوله: «کاتِبِینَ» کتابة الأعمال بقرینة قوله: «یَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» و قد تقدم فی تفسیر قوله: «إِنّٰا کُنّٰا نَسْتَنْسِخُ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»: الجاثیة: ۲۹ کلام فی معنی کتابة الأعمال فلیراجعه من شاء.

و قوله: «یَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» نفی لخطئهم فی تشخیص الخیر و الشر و تمییز الحسنة و السیئة کما أن الآیة السابقة متضمنة لتنزیههم عن الإثم و المعصیة فهم محیطون بالأفعال علی ما هی علیه من الصفة و حافظون لها علی ما هی علیه.

و لا تعیین فی هذه الآیات لعدة هؤلاء الملائکة الموکلین علی کتابة أعمال الإنسان نعم المستفاد من قوله تعالی: «إِذْ یَتَلَقَّی الْمُتَلَقِّیانِ عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِیدٌ»: ق: ۱۷ إن علی کل إنسان منهم اثنین عن یمینه و شماله، و قد ورد فی الروایات المأثورة أن الذی علی الیمین کاتب الحسنات و الذی علی الشمال کاتب السیئات.

و ورد أيضا فى تفسير قوله : «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً »: إسراء: ٧٨ أخبار مستفيضة من طرق الفريقين دالة على أن كتبة الأعمال بالنهار يصعدون بعد غروب الشمس و ينزل آخرون فيكتبون أعمال الليل حتى إذا طلع الفجر صعدوا و نزل ملائكة النهار و هكذا.

و فى الآية أعنى قوله: «يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» دلالة على أن الكتبة عالمون بالنيات إذ لا طريق إلى العلم بخصوصيات الأفعال و عناوينها و كونها خيرا أو شرا أو حسنة أو سيئة إلا العلم بالنيات فعلمهم بالأفعال لا يتم إلا عن العلم بالنيات.

قوله تعالى: «إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ وَ إِنَّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ » استئناف مبين لنتيجة حفظ الأعمال بكتابة الكتبة و ظهورها يوم القيامة.

و الأبرار هم المحسنون عملا، و الفجار هم المنخرقون بالذنوب و الظاهر أن المراد بهم المتهتكون من الكفار إذ لا خلود لمؤمن فى النار، و فى تنكير «نعيم» و «جحيم» إشعار بالتفخيم و التهويل- كما قيل-.

قوله تعالى: «يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ» الضمير للجحيم أى يلزمون يعنى الفجار الجحيم يوم الجزاء و لا يفارقونها.

قوله تعالى: «وَ ما هُمْ عَنْها بِغ ائِبِينَ» عطف تفسيرى على قوله : «يَصْلَوْنَها» إلخ يؤكد معنى ملازمتهم للجحيم و خلودهم فى النار، و المراد بغيبتهم عنها خروجهم منها فالآية فى معنى قوله: «وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النّارِ»: البقرة: ١٦٧.

قوله تعالى: «وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ» تهويل و تفخيم لأمر يوم الدين، و المعنى لا تحيط علما بحقيقة يوم الدين و هذا التعبير كناية عن فخامة أمر الشىء و علوه من أن يناله وصف الواصف، و فى إظهار اليوم- و المحل محل الضمير- تأكيد لأمر التفخيم.

قوله تعالى: «ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ» فى تكرار الجملة تأكيد للتفخيم.

قوله تعالى: «يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ » الظرف منصوب بتقدير اذكر و نحوه، و فى الآية بيان إجمالى لحقيقة يوم الدين بعد ما فى قوله: «وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ» من الحث على معرفته.

و ذلك أن رابطة التأثير و التأثر بين الأسباب الظاهرية و مسبباتها منقطعة زائلة يومئذ كما يستفاد من أمثال قوله تعالى : «وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ»: البقرة: ١٦٦، و قوله:

«وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً »: البقرة: ١٦٥ فلا تملك نفس

لنفس شيئا فلا تقدر على دفع شر عنها و لا جلب خير لها، و لا ينافى ذلك آيات الشفاعة لأنها بإذن الله فهو المالك لها لا غير.

و قوله: «وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» أى هو المالک للأمر ليس لغيره من الأمر شیء.

و المراد بالأمر كما قيل واحد الأوامر لقوله تعالى: «لِمَنِ الْمُلْکُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» المؤمن: ١۶ و شأن الملک المطاع، الأمر بالمعنى المقابل للنهى، و الأمر بمعنى الشأن لا يلائم المقام تلک الملاءمة.

بحث روائی

فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ» قال: تنشق فتخرج الناس منها.

و فى الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه عن حذيفة قال ﷺ: قال النبى ص: من استن خيرا فاستن به فله أجره- و مثل أجور من اتبعه غير منتقص من أجورهم- و من استن شرا فاستن به فله وزره- و مثل أوزار من اتبعه غير منتقص من أوزارهم، و تلا حذيفة «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ».

و فيه، أخرج عبد بن حميد عن صالح بن مسمار قال ﷺ: بلغنى أن النبى ص تلا هذه الآية «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْكَرِيمِ» ثم قال: جهله.

و فى تفسير القمى،": «فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَکَ» قال: لو شاء ركبک على غير هذه الصورة.

أقول: و رواه فى المجمع، عن الصادق (ع) مرسلا.

و فيه،": «وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ» قال: الملكان الموكلان بالإنسان.

و عن سعد السعود، و فى رواية : إنهما- يعنى الملكين الموكلين- يأتيان المؤمن عند حضور صلاة الفجر- فإذا هبطا صعد الملكان الموكلان بالليل- فإذا غربت الشمس نزل إليه الموكلان بكتابة الليل، و يصعد الملكان الكاتبان بالنهار- بديوانه إلى الله عز و جل.

فلا يزال ذلک دأبهم إلى وقت حضور أجله- فإذا حضر أجله قالا للرجل الصالح:

جزاک الله من صاحب عنا خيرا- فكم من عمل صالح أريتناه، و كم من قول حسن أسمعتناه، و كم من مجلس خير أحضرتناه- فنحن اليوم على ما تحبه و شفعاء إلى ربک، و إن كان عاصيا قالا له : جزاک الله من صاحب عنا شرا- فلقد كنت تؤذينا فكم من عمل سیء أريتناه، و كم من قول سیء أسمعتناه، و [كم] من مجلس سوء أحضرتناه- و نحن اليوم لک

ص:229

على ما تكره، و شهيدان عند ربک.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی: «وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلَّهِ»:

روی عمرو بن شمر عن جابر عن أبی جعفر (ع) أنه قال: الأمر یومئذ و الیوم کله لله. یا جابر إذا کان یوم القیامة بادت الحکام- فلم یبق حاکم إلا الله.

أقول: مراده (ع) أن کون الأمر لله لا یختص بیوم القیامة بل الأمر لله دائما، و تخصیصه بیوم القیامة باعتبار ظهوره لا باعتبار أصله فالذی یختص به ظهور هذه الحقیقة ظهور عیان فیسقط الیوم أمر غیره تعالی و حکمه، و نظیر الأمر سائر ما عد فی کلامه تعالی من مختصات یوم القیامة، فالروایة من غرر الروایات.

(۸۳) سورة المطففین مکیة أو مدنیة و هی ست و ثلاثون آیة (۳۶)

[سورة المطففین (۸۳): الآیات ۱ الی ۲۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَیْلٌ لِلْمُطَفِّفِینَ (۱) الَّذِینَ إِذَا اکْتالُوا عَلَی النَّاسِ یَسْتَوْفُونَ (۲) وَ إِذا کالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ یُخْسِرُونَ (۳) أَ لا یَظُنُّ أُولئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (۴)

لِیَوْمٍ عَظِیمٍ (۵) یَوْمَ یَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِینَ (۶) کَلاَّ إِنَّ کِتابَ الفُجَّارِ لَفِی سِجِّینٍ (۷) وَ ما أَدْراکَ ما سِجِّینٌ (۸) کِتابٌ مَرْقُومٌ (۹)

وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۱۰) الَّذِینَ یُکَذِّبُونَ بِیَوْمِ الدِّینِ (۱۱) وَ ما یُکَذِّبُ بِهِ إِلاَّ کُلُّ مُعْتَدٍ أَثِیمٍ (۱۲) إِذا تُتْلی عَلَیْهِ آیاتُنا قالَ أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ (۱۳) کَلاَّ بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ (۱۴)

کَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ یَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِیمِ (۱۶) ثُمَّ یُقالُ هذَا الَّذِی کُنْتُمْ بِهِ تُکَذِّبُونَ (۱۷) کَلاَّ إِنَّ کِتابَ الْأَبْرارِ لَفِی عِلِّیِّینَ (۱۸) وَ ما أَدْراکَ ما عِلِّیُّونَ (۱۹)

کِتابٌ مَرْقُومٌ (۲۰) یَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (۲۱)

ص:230

بیان

تفتتح السورة بوعید أهل التطفیف فی الکیل و الوزن و تنذرهم بأنهم مبعوثون للجزاء فی یوم عظیم و هو یوم القیامة ثم تتخلص لتفصیل ما یجری یومئذ علی الفجار و الأبرار.

و الأنسب بالنظر إلى السياق أن يكون أول السورة المشتمل على وعيد المطففين نازلا بالمدينة و أما ما يتلوه من الآيات إلى آخر السورة فيقبل الانطباق على السياقات المكية و المدنية.

قوله تعالى: «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ» دعاء على المطففين و التطفيف نقص المكيال و الميزان، و قد نهى الله تعالى عنه و سماه إفسادا فى الأرض كما فيما حكاه من قول شعيب: «وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» هود: ۸۴، و قد تقدم الكلام فى تفسير الآية فى معنى كونه إفسادا فى الأرض.

قوله تعالى: «الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» الاكتيال من الناس الأخذ منهم بالكيل، و تعديته بعلى لإفادة معنى الضرر، و الكيل إعطاؤهم بالمكيال يقال: كاله طعامه و وزنه و كال له طعامه و وزن له و الأول لغة أهل الحجاز و عليه التنزيل و الثانى لغة غيرهم كما فى المجمع، و الاستيفاء أخذ الحق تاما كاملا، و الإخسار الإيقاع فى الخسارة.

و المعنى: الذين إذا أخذوا من الناس بالكيل يأخذون حقهم تاما كاملا، و إذا أعطوا الناس بالكيل أو الوزن ينقصون فيوقعونهم فى الخسران.

فمضمون الآيتين جميعا ذم واحد و هو أنهم يراعون الحق لأنفسهم و لا يراعونه لغيرهم و بعبارة أخرى لا يراعون لغيرهم من الحق مثل ما يراعونه لأنفسهم و فيه إفساد الاجتماع الإنسانى المبنى على تعادل الحقوق المتقابلة و فى إفساده كل الفساد.

و لم يذكر الاتزان مع الاكتيال كما ذكر الوزن مع الكيل إذ قال: «وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ» قيل: لأن المطففين كانوا باعة و هم كانوا فى الأغلب يشترون الكثير من الحبوب و البقول و نحوهما من الأمتعة ثم يكسبون بها فيبيعونها يسيرا يسيرا تدريجا، و كان دأبهم فى الكثير من هذه الأمتعة أن يؤخذ و يعطى بالكيل لا بالوزن فذكر الاكتيال وحده فى الآية مبنى على الغالب.

ص:231

و قيل: لم يذكر الاتزان لأن الكيل و الوزن بهما البيع و الشراء فذكر أحدهما يدل على الآخر . و فيه أن ما ذكر فى الاكتيال جار فى الكيل أيضا و قد ذكر معه الوزن فالوجه لا يخلو من تحكم.

و قيل: الآيتان تحاكيان ما كان عليه دأب الذين نزلت فيهم السورة فقد كانوا يشترون بالاكتيال فقط و يبيعون بالكيل و الوزن جميعا، و هذا الوجه دعوى من غير دليل.

إلى غير ذلک مما ذكروه فى توجيه الاقتصار على ذكر الاكتيال فى الآية، و لا يخلو شىء منها من ضعف.

قوله تعالى: «أَ لا يَظُنُّ أُولئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » الاستفهام للإنكار و التعجيب، و الظن بمعناه المعروف و الإشارة إلى المطففين بأولئک الموضوعة للإشارة البعيدة للدلالة على بعدهم من رحمة الله، و اليوم العظيم يوم القيامة الذى يجازون فيه بعملهم.

و الاكتفاء بظن البعث و حسبانه- مع أن من الواجب الاعتقاد العلمى بالمعاد- لأن مجرد حسبان الخطر و الضرر فى عمل يوجب التجنب عنه و التحرز عن اقترافه و إن لم يكن هناك علم فالظن بالبعث ليوم عظيم يؤاخذ الله فيه الناس بما كسبوا من شأنه أن يردعهم عن اقتراف هذا الذنب العظيم الذى يستتبع العذاب الأليم.

و قيل: الظن فى الآية بمعنى العلم.

قوله تعالى: «يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ» المراد به قيامهم من قبورهم- كناية عن تلبسهم بالحياة بعد الممات- لحكمه تعالى و قضائه بينهم.

قوله تعالى: «كَلّا إِنَّ كِتابَ الفُجّارِ لَفِى سِجِّينٍ وَ ما أَدْراکَ ما سِجِّينٌ كِتابٌ مَرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » ردع- كما قيل- عما كانوا عليه من التطفيف و الغفلة عن البعث و الحساب.

و قوله: «إِنَّ كِتابَ الفُجّارِ لَفِى سِجِّين» إلخ الذى يعطيه التدبر فى سياق الآيات الأربع بقياس بعضها إلى بعض و قياس المجموع إلى مجموع قوله: «كَلّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِى عِلِّيِّينَ» إلى تمام أربع آيات أن المراد بسجين ما يقابل عليين و معناه علو على علو مضاعف ففيه شىء من معنى السفل و الانحباس فيه كما يشير إليه قوله: «ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ»: التين: ۵ فالأقرب أن يكون مبالغة من السجن بمعنى الحبس كسكير و شريب من السكر و الشرب فمعناه الذى يحبس من دخله على التخليد كما قيل.

ص:232

و الكتاب بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء المحتوم و المراد بكتاب الفجار ما قدره الله لهم من الجزاء و أثبته بقضائه المحتوم.

فمحصل الآية أن الذى أثبته الله من جزائهم أو عده لهم لفى سجين الذى هو سجن يحبس من دخله حبسا طويلا أو خالدا.

و قوله: «وَ ما أَدْراکَ ما سِجِّينٌ» مسوق للتهويل.

و قوله: «كِتابٌ مَرْقُومٌ» خبر لمبتدإ محذوف هو ضمير راجع إلى سجين و الجملة بيان لسجين و «كتاب» أيضا بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء و الإثبات، و «مرقوم» من الرقم، قال الراغب: الرقم الخط الغليظ، و قيل: هو تعجيم الكتاب، و قوله تعالى:

«كِتابٌ مَرْقُومٌ» حمل على الوجهين. انتهى، و المعنى الثانى أنسب للمقام فيكون إشارة إلى كون ما كتب لهم متبينا لا إبهام فيه أى إن القضاء حتم لا يتخلف.

و المحصل أن سجين مقضى عليهم مثبت لهم متبين متميز لا إبهام فيه.

و لا ضير فى لزوم كون الكتاب ظرفا للكتاب على هذا المعنى لأن ذلك من ظرفية الكل للجزء و هى مما لا ضير فيه فيكون سجين كتابا جامعا فيه ما قضى على الفجار و غيرهم من مستحقى العذاب.

و قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» نعى و دعاء على الفجار و فيه تفسيرهم بالمكذبين، و «يَوْمَئِذٍ» ظرف لقوله: «إِنَّ كِتابَ الْفُجّارِ لَفِي سِجِّينٍ» بحسب المعنى أى ليهلك الفجار- و هم المكذبون- يومئذ تحقق ما كتب الله لهم و قضى عليهم من الجزاء و حل بهم ما أعد لهم من العذاب.

هذا ما يفيده التدبر فى هذه الآيات الأربع، و هى ذات سياق واحد متصل متلائم الأجزاء.

و للقوم فى تفسير مفردات الآيات الأربع و جملها أقوال متفرقة كقولهم : إن الكتاب فى قوله : «إِنَّ كِتابَ الْفُجّارِ » بمعنى المكتوب و المراد به صحيفة أعمالهم، و قيل:

مصدر بمعنى الكتابة و فى الكلام مضاف محذوف و التقدير كتابة عمل الفجار لفى سجين.

و قولهم: إن الفجار أعم من المكذبين فيشمل الكفار و الفسقة جميعا.

و قولهم: إن المراد بسجين الأرض السابعة السفلى يوضع فيها كتاب الفجار و قيل:

واد فى جهنم، و قيل : جب فيها، و قيل: سجين اسم لكتابهم، و قيل : سجين الأول اسم الموضع الذى يوضع فيه كتابهم و الثانى اسم كتابهم، و قيل: هو اسم كتاب جامع

ص:233

هو ديوان الشر دون فيه أعمال الفجرة من الثقلين، و قيل: المراد به الخسار و الهوان فهو كقولهم: بلغ فلان الحضيض إذا صار فى غاية الخمول، و قيل: هو السجيل بدل لامه نونا كما يقال جبرين فى جبريل إلى غير ذلك مما قيل.

و قولهم: إن قوله: «كِتابٌ مَرْقُومٌ» ليس بيانا و تفسيرا لسجين بل تفسير للكتاب المذكور فى قوله: «إِنَّ كِتابَ الْفُجّارِ».

و قولهم: إن قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» متصل بقوله: «يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ » و الآيات الثلاث الواقعة بين الآيتين اعتراض.

و أنت إن تأملت هذه الأقاويل وجدت كثيرا منها تحكما محضا لا دليل عليه.

على أنها تقطع ما فى الآيات من السياق الواحد المتصل الذى يحاذى به ما فى الآيات الأربع الآتية فى صفة كتاب الأبرار من السياق الواحد المتصل فلا نطيل الكلام بالتعرض لواحد منها و المناقشة فيها.

قوله تعالی: «الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » تفسير للمكذبين و ظاهر الآيهٔ- و يؤيده الآيات التاليهٔ- أن المراد بالتكذيب هو التكذيب القولی الصريح فيختص الذم بالكفار و لا يشمل الفسقهٔ من أهل الإيمان فلا يشمل مطلق المطففين بل الكفار منهم.

اللهم إلا أن يراد بالتكذيب ما يعم التكذيب العملی كما ربما أيده قوله السابق:

«أ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ» فيشمل الفجار من المؤمنين كالكفار.

قوله تعالی: «وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ » المعتدی اسم فاعل من الاعتداء بمعنی التجاوز و المراد به المتجاوز عن حدود العبوديهٔ، و الأثيم كثير الآثام بحيث تراكم بعضها علی بعض بانهماكه فی الأهواء.

و من المعلوم أن المانع الوحيد الذی يردع عن المعصيهٔ هو الإيمان بالبعث و الجزاء، و المنهمک فی الأهواء المتعلق قلبه بالاعتداء و الآثم تأبی نفسه التسليم لما يردع عنها و التزهد عن المعاصی و ينتهی إلی تكذيب البعث و الجزاء قال تعالی : «ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّوای أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ»: الروم: ١٠.

قوله تعالی: «إِذا تُتْلی عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» المراد بالآيات آيات القرآن بقرينهٔ قوله «تُتْلی» و الأساطير ما سطروه و كتبوه و المراد بها أباطيل الأمم الماضين و المعنی إذا تتلی عليه آيات القرآن مما يحذرهم المعصيهٔ و ينذرهم بالبعث و الجزاء قال: هی أباطيل.

ص:234

قوله تعالی: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» ردع عما قاله المكذبون:

«أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» قال الراغب: الرين صدا يعلو الشیء الجليل «١» قال تعالی: «بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ» أی صار ذلک كصدء علی جلاء قلوبهم فعمی عليهم معرفهٔ الخير من الشر، انتهی . فكون ما كانوا يكسبون و هو الذنوب رينا علی قلوبهم هو حيلولهٔ الذنوب بينهم و بين أن يدركوا الحق علی ما هو عليه.

و يظهر من الآيهٔ:

أولا: أن للأعمال السيئهٔ نقوشا و صورا فی النفس تنتقش و تتصور بها.

و ثانيا: أن هذه النقوش و الصور تمنع النفس أن تدرک الحق كما هو و تحول بينها و بينه.

و ثالثا: أن للنفس بحسب طبعها الأولی صفاء و جلاء تدرک به الحق كما هو و تميز بينه و بين الباطل و تفرق بين التقوی و الفجور قال تعالی: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها»: الشمس: ٨.

قوله تعالى: «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » ردع عن كسب الذنوب الحائلة بين القلب و إدراك الحق، و المراد بكونهم محجوبين عن ربهم يوم القيامة حرمانهم من كرامة القرب و المنزلة و لعله مراد من قال : إن المراد كونهم محجوبين عن رحمة ربهم.

و أما ارتفاع الحجاب بمعنى سقوط الأسباب المتوسطة بينه تعالى و بين خلقه و المعرفة التامة به تعالى فهو حاصل لكل أحد قال تعالى: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» المؤمن: ۱۶ و قال: «وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ»: النور: ۲۵.

قوله تعالى: «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ» أى داخلون فيها ملازمون لها أو مقاسون حرها على ما فسره بعضهم و «ثُمَ» فى الآية و ما بعدها للتراخى بحسب رتبة الكلام.

قوله تعالى: «ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» هو توبيخ و تقريع و القائل خزنة النار أو أهل الجنة.

قوله تعالى: «كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِى عِلِّيِّينَ وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ كِتابٌ مَرْقُومٌ » ردع فى معنى الردع الذى فى قوله : «كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ» و عليون- كما تقدم- علو على علو مضاعف، و ينطبق على الدرجات العالية و منازل القرب من الله تعالى كما أن السجين بخلافه.

---

(۱) الجلى ظ.

و الكلام فى معنى الآيات الثلاث نظير الكلام فى الآيات الثلاث المتقدمة التى تحاذيها من قوله : «إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ كِتابٌ مَرْقُومٌ».

فالمعنى أن الذى كتب للأبرار و قضى جزاء لبرهم لفى عليين و ما أدراك ما عليون هو أمر مكتوب و مقضى قضاء حتما لازما متبين لا إبهام فيه.

و للقوم أقاويل فى هذه الآيات نظير ما لهم فى الآيات السابقة من الأقوال غير أن من أقوالهم فى عليين أنه السماء السابعة تحت العرش فيه أرواح المؤمنين، و قيل سدرة المنتهى التى إليها تنتهى الأعمال، و قيل : لوح من زبرجدة تحت العرش معلق مكتوب فيه أعمالهم، و قيل: هى مراتب عالية محفوفة بالجلالة، و الكلام فيها كالكلام فيما تقدم من أقوالهم.

قوله تعالى: «يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» الأنسب لما تقدم من معنى الآيات السابقة أن يكون «يَشْهَدُهُ» من الشهود بمعنى المعاينة و المقربون قوم من أهل الجنة هم أعلى درجة من عامة الأبرار على ما سيأتى استفادته من قوله : «عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» فالمراد معاينتهم له بإراءة الله إياه لهم و قد قال الله تعالى فى مثله من أمر الجحيم : «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ»: التكاثر: ۶ و منه يظهر أن المقربين هم أهل اليقين.

و قيل: الشهادة هی الحضور و المقربون الملائکة، و المراد حضور الملائکة علی صحيفة عملهم إذا صعدوا بها إلی الله سبحانه.

و قيل: المقربون هم الأبرار و الملائکة جميعا.

و القولان مبنيان علی أن المراد بالکتاب صحيفة الأعمال و قد تقدم ضعفه.

بحث روائی

فی تفسير القمی، و فی رواية أبی الجارود عن أبی جعفر (ع) قال*: نزلت يعنی سورة المطففين علی نبی الله ص- حين قدم المدينة و هم يومئذ أسوأ الناس کيلا- فأحسنوا الکيل.

و فی أصول الکافی، بإسناده عن أبی حمزة الثمالی قال*: سمعت أبا جعفر (ع) يقول: إن الله عز و جل خلقنا من أعلی عليين- و خلق قلوب شيعتنا مما خلقنا م نه- و خلق أبدانهم من دون ذلک- فقلوبهم تهوی إلينا لأنها خلقت مما خلقنا- ثم تلا هذه الآية «کَلَّا إِنَّ کِتابَ الْأَبْرارِ لَفِی عِلِّيِّينَ- وَ ما أَدْراکَ ما عِلِّيُّونَ کِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ».

و خلق قلوب عدونا من سجين- و خلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه- و أبدانهم من دون

ذلک، قلوبهم تهوی إليهم لأنها خلقت مما خلقوا منه- ثم تلا هذه الآية «کَلَّا إِنَّ کِتابَ الْفُجَّارِ لَفِی سِجِّينٍ- وَ ما أَدْراکَ ما سِجِّينٌ کِتابٌ مَرْقُومٌ- وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِينَ».

أقول: و روی مثله فی أصول الکافی، بطريق آخر عن الثمالی عنه (ع)، و رواه فی علل الشرائع، بإسناد فيه رفع عن زيد الشحام عن أبی عبد الله (ع): مثله

، و الأحاديث- کما تری- تؤيد ما قدمناه فی معنی الآيات.

و فی تفسير القمی،": فی قوله تعالی: «کَلَّا إِنَّ کِتابَ الْفُجَّارِ لَفِی سِجِّينٍ» قال: ما کتب الله لهم من العذاب لفی سجين.

و فيه، فی رواية أبی الجارود عن أبی جعفر (ع) قال*: السجين الأرض السابعة و عليون السماء السابعة.

أقول: الرواية لو صحت مبنية علی انتساب الجنة و النار إلی جهتی العلو و السفل بنوع من العناية و لذلک نظائر فی الروايات کعد القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار و عد وادی برهوت مکانا لجهنم.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن المبارک عن سعید بن المسیب قال "*: التقی سلمان و عبد الله بن سلام- فقال أحدهما لصاحبه: إن مت قبلی فالقنی- فأخبرنی بما صنع ربک بک- و إن أنا مت قبلک لقیتک فأخبرتک- فقال عبد الله: کیف یکون هذا؟ قال: نعم إن أرواح المؤمنین تکون فی برزخ من الأرض- تذهب حیث شاءت و نفس الکافر فی سجین و الله أعلم.

و فی أصول الکافی، بإسناده عن زرارة عن أبی جعفر (ع) قال*: ما من عبد إلا و فی قلبه نکتة بیضاء- فإذا أذنب ذنبا خرج فی تلک النکتة نکتة سوداء- فإن تاب ذهب ذلک السواد، و إن تمادی فی الذنوب زاد ذلک السواد- حتی یغطی البیاض- فإذا غطی البیاض لم یرجع صاحبه إلی خیر أبدا- و هو قول الله عز و جل: «کَلَّا بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ».:

أقول: و روی هذا المعنی فی الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن أبی هریرة عن النبی ص.

و فیه، بإسناده عن عبد الله بن محمد الحجال عن بعض أصحابنا رفعه قال: قال رسول الله ص: تذاکروا و تلاقوا و تحدثوا فإن الحدیث جلاء للقلوب- إن القلوب لترین کما یرین السیف و جلاؤه الحدیث.

و عن روضة الواعظین، قال الباقر (ع): ما شیء أفسد للقلب من الخطیئة- إن القلب

لیواقع الخطیئة فما تزال به حتی تغلب علیه- فیصیر أسفله أعلاه و أعلاه أسفله.

قال رسول الله ص: إن المؤمن إذا أذنب کانت نکتة سوداء فی قلبه- فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه‌منه و إن ازداد زادت- فذلک الران الذی ذکره الله تعالی فی کتابه- «کَلَّا بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ».

[سورة المطففین (۸۳): الآیات ۲۲ الی ۳۶]

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِی نَعِیمٍ (۲۲) عَلَی الْأَرائِکِ یَنْظُرُونَ (۲۳) تَعْرِفُ فِی وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِیمِ (۲۴) یُسْقَوْنَ مِنْ رَحِیقٍ مَخْتُومٍ (۲۵) خِتامُهُ مِسْکٌ وَ فِی ذلِکَ فَلْیَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (۲۶)

وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِیمٍ (۲۷) عَیْناً یَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (۲۸) إِنَّ الَّذِینَ أَجْرَمُوا کانُوا مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا یَضْحَکُونَ (۲۹) وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ یَتَغامَزُونَ (۳۰) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلی أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَکِهِینَ (۳۱)

وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (۳۲) وَ ما أُرْسِلُوا عَلَیْهِمْ حافِظِینَ (۳۳) فَالْیَوْمَ الَّذِینَ آمَنُوا مِنَ الْکُفَّارِ یَضْحَکُونَ (۳۴) عَلَی الْأَرائِکِ یَنْظُرُونَ (۳۵) هَلْ ثُوِّبَ الْکُفَّارُ ما کانُوا یَفْعَلُونَ (۳۶)

بیان

بیان فیه بعض التفصیل لجلالة قدر الأبرار و عظم منزلتهم عند الله تعالی و غزارة عیشهم فی الجنة، و أنهم علی کونهم یست هزئ بهم الکفار و یتغامزون بهم و یضحکون منهم سیضحکون منهم و ینظرون إلی ما ینالهم من العذاب.

قوله تعالی: «إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِی نَعِیمٍ» النعیم النعمة الکثیرة و فی تنکیره دلالة علی فخامة قدره، و المعنی أن الأبرار لفی نعمة کثیرة لا یحیط بها الوصف.

ص:238

قوله تعالی: «عَلَی الْأَرائِکِ یَنْظُرُونَ» الأرائک جمع أریکة و الأریکة السریر فی الجملة و هی البیت المزین للعروس و إطلاق قوله: «یَنْظُرُونَ» من غیر تقیید یؤید أن یکون المراد نظرهم إلی مناظر الجنة البهجة و ما فیها من النعیم المقیم، و قیل : المراد به النظر إلی ما یجزی به الکفار و لیس بذاک.

قوله تعالی: «تَعْرِفُ فِی وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِیمِ » النضرة البهجة و الرونق، و الخطاب للنبی ص باعتبار أن له أن ینظر فیعرف فالحکم عام و المعنی کل من نظر إلی وجوههم یعرف فیها بهجة النعیم الذی هم فیه.

قوله تعالی: «یُسْقَوْنَ مِنْ رَحِیقٍ مَخْتُومٍ» الرحیق الشراب الصافی الخالص من الغش، و یناسبه وصفه بأنه مختوم فإنه إنما یختم علی الشیء النفیس الخالص لیسلم من الغش و الخلط و إدخال ما یفسده فیه.

قوله تعالی: «خِتامُهُ مِسْکٌ وَ فِی ذلِکَ فَلْیَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ» قیل الختام بمعنی ما یختم به أی إن الذی یختم به مسک بدلا من الطین و نحوه الذی یختم به فی الدنیا، و قیل:

أی آخر طعمه الذی یجده شاربه رائحة المسک.

و قوله: «وَ فِی ذلِکَ فَلْیَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ» التنافس التغالب علی الشیء و یفید بحسب المقام معنی التسابق قال تعالی: «سابِقُوا إِلی مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّةٍ »: الحدید: ۲۱، و قال : «فَاسْتَبِقُوا الْخَیْراتِ»: المائدة: ۴۸، ففیه ترغیب إلی ما وصف من الرحیق المختوم.

و استشکل فی الآیة بأن فیها دخول العا طف علی العاطف إذ التقدیر فلیتنافس فی ذلک إلخ و أجیب بأن الکلام علی تقدیر حرف الشرط و الفاء واقعة فی جوابه و قدم الظرف لیکون عوضا عن الشرط و التقدیر و إن أرید تنافس فلیتنافس فی ذلک المتنافسون.

و یمکن أن یقال : إن قوله: «وَ فِی ذلِکَ» معطوف علی ظرف آخر محذوف متعلق بقوله: «فَلْیَتَنافَسِ» یدل علیه المقام فإن الکلام فی وصف نعیم الجنة فیفید قوله : «وَ فِی ذلِکَ » ترغیبا مؤکدا بتخصیص الحکم بعد التعمیم، و المعنی فلیتنافس المتنافسون فی نعیم الجنة عامة و فی الرحیق المختوم الذی یسقونه خاصة فهو کقولنا : أکرم المؤمنین و الصالحین منهم خاصة، و لا تکن عیابا و للعلماء خاصة.

قوله تعالى: «وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ» المزاج ما يمزج به، و التسنيم على ما تفسره الآية التالية عين فى الجنة سماه الله تسنيما و فى لفظه معنى الرفع و الملء يقال: سنمه أى رفعه

و منه سنام الإبل، و يقال: سنم الإناء أى ملأه.

قوله تعالى: «عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» يقال: شربه و شرب به بمعنى و «عَيْناً» منصوب على المدح أو الاختصاص و «يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» وصف لها و المجموع تفسير للتسنيم.

و مفاد الآية أن المقربين يشربون التسنيم صرفا كما أن مفاد قوله : «وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ » أنه يمزج بها ما فى كأس الأبرار من الرحيق المختوم، و يدل ذلك أولا على أن التسنيم أفضل من الرحيق المختوم الذى يزيد لذة بمزجها، و ثانيا أن المقربين أعلى درجة من الأبرار الذين يصفهم الآيات.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ » يعطى السياق أن المراد بالذين آمنوا هم الأبرار الموصوفون فى الآيات و إنما عبر عنهم بالذين آمنوا لأن سبب ضحك الكفار منهم و استهزائهم بهم إنما هو إيمانهم كما أن التعبير عن الكفار بالذين أجرموا للدلالة على أنهم بذلك من المجرمين.

قوله تعالى : «وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ » عطف على قوله : «يَضْحَكُونَ» أى كانوا إذا مروا بالذين آمنوا يغمز بعضهم بعضا و يشيرون بأعينهم استهزاء بهم.

قوله تعالى: «وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ» الفكه بالفتح فالكسر المرح البطر، و المعنى و كانوا إذا انقلبوا و صاروا إلى أهلهم عن ضحكهم و تغامزهم انقلبوا ملتذين فرحين بما فعلوا أو هو من الفكاهة بمعنى حديث ذوى الإنس و المعنى انقلبوا و هم يحدثون بما فعلوا تفكها.

قوله تعالى: «وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ» على سبيل الشهادة عليهم بالضلال أو القضاء عليهم و الثانى أقرب.

قوله تعالى: «وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ » أى و ما أرسل هؤلاء الذين أجرموا حافظين على المؤمنين يقضون فى حقهم بما شاءوا أو يشهدون عليهم بما هووا، و هذا تهكم بالمستهزئين.

قوله تعالى: «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » المراد باليوم يوم الجزاء، و التعبير عن الذين أجرموا بالكفار رجوع إلى حقيقة صفتهم. قيل: تقديم الجار و المجرور على الفعل أعنى «مِنَ الْكُفَّارِ» على «يَضْحَكُونَ «لإفادة قصر القلب، و المعنى فاليوم الذين آمنوا يضحكون من الكفار لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا.

قوله تعالى: «عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ» الثواب فى

الأصل مطلق الجزاء و إن غلب استعماله فی الخیر، و قوله «عَلَی الْأَرائِکِ» خبر بعد خبر للذین آمنوا و «یَنْظُرُونَ» خبر آخر، و قوله: «هَلْ ثُوِّبَ» إلخ متعلق بقوله:

«یَنْظُرُونَ «قائم مقام المفعول.

و المعنی: الذین آمنوا علی سرر فی الحجال ینظرون إلی جزاء الکفار بأفعالهم التی کانوا یفعلونها فی الدنیا من أنواع الأجرام و منها ضحکهم من المؤمنین و تغامزهم إذا مروا بهم و انقلابهم إلی أهلهم فکهین و قولهم: إن هؤلاء لضالون.

بحث روائی

فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «وَ فِی ذلِکَ فَلْیَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ» قال: فیما ذکرناه من الثواب الذی یطلبه المؤمن.

و فی المجمع،": فی قوله تعالی: «وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ یَتَغامَزُونَ» قیل نزلت فی علی بن أبی طالب (ع)- و ذلک أنه کان فی نفر من المسلمین جاءوا إلی النبی ص- فسخر منهم المنافقون و ضحکوا و تغامزوا- ثم رجعوا إلی أصحابهم فقالوا: رأینا الیوم الأصلع فضحکنا منه- فنزلت الآیة قبل أن یصل علی و أصحابه إلی النبی ص": عن مقاتل و الکلبی.

أقول: و قد أورده فی الکشاف،.

و فیه ذکر الحاکم أبو القاسم الحسکانی فی کتاب شواهد التنزیل لقواعد التفصیل بإسناده عن أبی صالح عن ابن عباس قال "*: «إِنَّ الَّذِینَ أَجْرَمُوا» منافقو قریش- و «الَّذِینَ آمَنُوا» علی بن أبی طالب و أصحابه.

و فی تفسیر القمی،": «إِنَّ الَّذِینَ أَجْرَمُوا- إلی قوله- فَکِهِینَ» قال: یسخرون.

(۸۴) سورة الانشقاق مکیة و هی خمس و عشرون آیة (۲۵)

[سورة الانشقاق (۸۴): الآیات ۱ الی ۲۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (۱) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۲) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ ما فِیها وَ تَخَلَّتْ (۴)

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۵) یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ (۶) فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ (۷) فَسَوْفَ یُحاسَبُ حِساباً یَسِیراً (۸) وَ یَنْقَلِبُ إِلی أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۹)

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً (۱۱) وَ یَصْلی سَعِیراً (۱۲) إِنَّهُ کانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ یَحُورَ (۱۴)

بَلی إِنَّ رَبَّهُ کانَ بِهِ بَصِیراً (۱۵) فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّیْلِ وَ ما وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْکَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹)

فَما لَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ إِذا قُرِئَ عَلَیْهِمُ الْقُرْآنُ لا یَسْجُدُونَ (۲۱) بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا یُکَذِّبُونَ (۲۲) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما یُوعُونَ (۲۳) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِیمٍ (۲۴)

إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ (۲۵)

ص:241

بیان

تشیر السورة إلی قیام الساعة، و تذکر أن للإنسان سیرا إلی ربه حتی یلاقیه فیحاسب علی ما یقتضیه کتابه و تؤکد القول فی ذلک و الغلبة فیها للإنذار علی التبشیر. و سیاق آیاتها سیاق مکی.

قوله تعالی: «إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ» شرط جزاؤه محذوف یدل علیه قوله : «یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ» و التقدیر: لاقی الإنسان ربه فحاسبه و جازاه علی ما عمل.

ص:242PAGE=ص:

و انشقاق السماء و هو تصدعه و انفراجه من أشراط الساعة کمد الأرض و سائر ما ذکر فی مواضع من کلامه تعالی من تکویر الشمس و اجتماع الشمس و القمر و انتثار الکواکب و نحوها.

قوله تعالی: «وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ» الإذن الاستماع و منه الأذن لجارحة السمع و هو مجاز عن الانقیاد و الطاعة، و «حُقَّتْ» أی جعلت حقیقة و جدیرة بأن تسمع، و المعنی و أطاعت و انقادت لربها و کانت حقیقة و جدیرة بأن تستمع و تطیع.

قوله تعالی: «وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ» الظاهر أن المراد به اتساع الأرض، و قد قال تعالی: «یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ»: إبراهیم: ۴۸.

قوله تعالی: «وَ أَلْقَتْ ما فِیها وَ تَخَلَّتْ» أی ألقت الأرض ما فی جوفها من الموتی و بالغت فی الخلو مما فیها منهم.

و قیل: المراد إلقائها الموتی و الکنوز کما قال تعالی: «وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها»: الزلزال: ۲ و قیل: المعنی ألقت ما فی بطنها و تخلت مما علی ظهرها من الجبال و البحار، و لعل أول الوجوه أقربها.

قوله تعالی: «وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ» ضمائر التأنیث للأرض کما أنها فی نظیرتها المتقدمة للسماء، و قد تقدم معنی الآیة.

قوله تعالی: «یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ» قال الراغب،:

الکدح السعی و العناء . انتهی. ففیه معنی السیر، و قیل : الکدح جهد النفس فی العمل حتی یؤثر فیها انتهی . و علی هذا فهو مضمن معنی السیر بدلیل تعدیه بإلی ففی الکدح معنی السیر علی أی حال.

و قوله: «فَمُلاقِیهِ » عطف علی «کادِحٌ» و قد بین به أن غایة هذا السیر و السعی و العناء هو الله سبحانه بما أن له الربوبیة أی إن الإنسان بما أنه عبد مربوب و مملوک مدبر ساع إلی الله سبحانه بما أنه ربه و مالکه المدبر لأمره فإن العبد لا یملک لنفسه إرادة و لا عملا فعلیه أن یرید و لا یعمل إلا ما أراده ربه و مولاه و أمره به فهو مسئول عن إرادته و عمله.

و من هنا یظهر أولا أن قوله: «إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ» یتضمن حجة علی المعاد لما عرفت أن الربوبیة لا تتم إلا مع عبودیة و لا تتم العبودیة إلا مع مسئولیة و لا تتم مسئولیة إلا برجوع و حساب علی الأعمال و لا یتم حساب إلا بجزاء.

ص:243

و ثانیا: أن المراد بملاقاته انتهاؤه إلی حیث لا حکم إلا حکمه من غیر أن یحجبه عن ربه حاجب.

و ثالثا: أن المخاطب فی الآیة هو الإنسان بما أنه إنسان فالمراد به الجنس و ذلک أن الربوبیة عامة لکل إنسان.

قوله تعالی: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ» تفصیل مترتب علی ما یلوح إلیه قوله:

«إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ» أن هناک رجوعا و سؤالا عن الأعمال و حسابا، و المراد بالکتاب صحیفة الأعمال بقرینة ذکر الحساب، و قد تقدم الکلام فی معنی إعطاء الکتاب بالیمین فی سورتی الإسراء و الحاقة.

قوله تعالی: «فَسَوْفَ یُحاسَبُ حِساباً یَسِیراً» الحساب الیسیر ما سوهل فیه و خلا عن المناقشة.

قوله تعالی: «وَ یَنْقَلِبُ إِلی أَهْلِهِ مَسْرُوراً» المراد بالأهل من أعده الله له فی الجنة من الحور و الغلمان و غیرهم و هذا هو الذی یفیده السیاق، و قیل : المراد به عشیرته المؤمنون ممن یدخل الجنة، و قیل المراد فریق المؤمنین و إن لم یکونوا من عشیرته فالمؤمنون إخوة.

و الوجهان لا یخلوان من بعد.

قوله تعالی: «وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ» الظرف منصوب بنزع الخافض و التقدیر من وراء ظهره، و لعلهم إنما یؤتون کتبهم من وراء ظهورهم لرد وجوههم علی أدبارهم کما قال تعالی: «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلی أَدْبارِها»: النساء: ۴۷.

و لا منافاة بين إيتاء كتابهم من وراء ظهورهم و بين إيتائهم بشمالهم كما وقع فى قوله تعالى : «وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ »: الحاقة: ۲۵ و سيأتى فى البحث الروائى التالى ما ورد فى الروايات من معنى إيتاء الكتاب من وراء ظهورهم.

قوله تعالى: «فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً» الثبور كالويل الهلاک و دعاؤهم الثبور قولهم: وا ثبوراه.

قوله تعالى: «وَ يَصْلى سَعِيراً» أى يدخل نارا مؤججة لا يوصف عذابها، أو يقاسى حرها.

قوله تعالى: «إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً» يسره ما يناله من متاع الدنيا و تنجذب نفسه إلى زينتها و ينسيه ذلک أمر الآ خرة و قد ذم تعالى فرح الإنسان بما يناله من خير الدنيا و سماه فرحا بغير حق قال تعالى بعد ذكر النار و عذابها: «ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ»: المؤمن: ۷۵.

قوله تعالى: «إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ» أى لن يرجع و المراد الرجوع إلى ربه للحساب

ص:244

و الجزاء، و لا سبب يوجبه عليهم إلا التوغل فى الذنوب و الآثام الصارفة عن الآخرة الداعية إلى استبعاد البعث.

قوله تعالى: «بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً » رد لظنه أى ليس الأمر كما ظنه بل يحور و يرجع، و قوله : «إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً » تعليل للرد المذكور فإن الله سبحانه كان ربه المالک له المدبر لأمره و كان يحيط به علما و يرى ما كان من أعماله و قد كلفه بما كلف و لأعماله جزاء خيرا أو شرا فلا بد أن يرجع إليه و يجزى بما يستحقه بعمله.

و بذلک يظهر أن قوله : «إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً » من إعطاء الحجة على وجوب المعاد نظير ما تقدم فى قوله : «إِنَّکَ كادِحٌ إِلى رَبِّکَ» الآية.

و يظهر أيضا من مجموع هذه الآيات التسع أن إيتاء الكتب و نشر الصحف قبل الحساب كما يدل عليه أيضا قوله تعالى: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتابَکَ کَ فى بِنَفْسِکَ الْيَوْمَ عَلَيْکَ حَسِيباً »: إسراء: ۱۴.

ثم الآيات كما ترى تخص إيتاء الكتاب من وراء الظهر بالكفار فيقع الكلام فى عصاة المؤمنين من أصحاب الكبائر ممن يدخل النار فيمكث فيها برهة ثم يخرج منها بالشفاعة على ما فى الأخبار من طرق الفريقين فهؤلاء لا يؤتون كتابهم من وراء ظهورهم لاختصاص ذلک بالكفار و لا بيمينهم لظهور الآيات فى أن أصحاب اليمين يحاسبون حسابا يسيرا و يدخلون الجنة، و لا سبيل إلى القول بأنهم لا يؤتون كتابا لمكان قوله تعالى: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» الآية المفيد للعموم.

و قد تخلص بعضهم عن الإشكال بأنهم يؤتون كتابهم باليمين بعد الخروج من النار.

و فيه أن ظاهر الآيات إن لم يكن صريحها أن دخول النار أو الجنة فرع مترتب على القضاء المترتب على الحساب المترتب على إيتاء الكتب و نشر الصحف فلا معنى لإيتاء الكتاب بعد الخروج من النار.

و احتمل بعضهم أن يؤتوا كتابهم بشمالهم و يكون الإيتاء من وراء الظهر مخصوصا بالكفار كما تفيده الآيات.

و فيه أن الآيات التى تذكر إيتاء الكتاب بالشمال- و هى التى فى سورة الواقعة و الحاقة و فى معناها ما فى سورة الإسراء أيضا- تخص إيتاء الكتاب بالشمال بالكفار و يظهر من مجموع الآيات أن الذين يؤتون كتابهم بشمالهم هم الذين يؤتونه من وراء ظهورهم.

ص:245

و قال بعضهم من الممكن أن يؤتوا كتابهم من وراء ظهورهم و يكون قوله: «فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً» من قبيل وصف الكل بصفة بعض أجزائه.

و فيه أن المقام لا يساعد على هذا التجوز فإن المقام مقام تمييز السعداء من الأشقياء و تشخيص كل بجزائه الخاص به فلا مجوز لإدغام جمع من أهل العذاب فى أهل الجنة.

على أن قوله: «فَسَوْفَ يُحاسَبُ» إلخ وعد جميل إلهى و لا معنى لشموله لغير مستحقيه و لو بظاهر من القول.

نعم يمكن أن يقال: إن اليسر و العسر معنيان إضافيان و حساب العصاة من أهل الإيمان يسير بالإضافة إلى حساب الكفار المخلدين فى النار و لو كان عسيرا بالإضافة إلى حساب المتقين.

و يمكن أيضا أن يقال إن قسمة أهل الجمع إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال غير حاصرة كما يدل عليه قوله تعالى: «وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ»: الواقعة: ١١ فمدلول الآيات خروج المقربين من الفريقين، و مثلهم المستضعفون كما ربما يستفاد من قوله تعالى: «وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ»: التوبة: ١٠٦.

فمن الجائز أن لا يكون تقسيم أهل الجمع إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال تقسيما حاصرا لجميعهم بل تخصيصا لأهل الجنة من المتقين و أهل الخلود فى النار بالذكر بتوصيفهم بإيتاء الكتاب باليمين و بالشمال لمكان الدعوة إلى الإيمان و التقوى و نظير ذلك ما فى سورة المرسلات من ذكر يوم الفصل ثم بيان حال المتقين و المكذبين فحسب و ليس ينحصر الناس فى القبيلين، و نظيره ما فى سورة النبإ و النازعات و عبس و الانفطار، و المطففين و غيرها فالغرض فيها ذكر أنموذج من أهل الإيمان و الطاعة و أهل الكفر و التكذيب و السكوت عمن سواهم ليتذكر أن السعادة فى جانب التقوى و الشقاء فى جانب التمرد و الطغوى.

قوله تعالى: «فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ» الشفق الحمرة ثم الصفرة ثم البياض التى تحدث بالمغرب أول الليل.

قوله تعالى: «وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ» أى ضم و جمع ما تفرق و انتشر فى النهار من الإنسان و الحيوان فإنها تتفرق و تنتشر بالطبع فى النهار و ترجع إلى مأواها فى الليل فتسكن.

و فسر بعضهم «وسق» بمعنى طرد أى طرد الكواكب من الخفاء إلى الظهور.

قوله تعالى: «وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ» أى اجتمع و انضم بعض نوره إلى بعض فاكتمل

ص:246

نوره و تبدر.

قوله تعالى: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ » جواب القسم و الخطاب للناس و الطبق هو الشىء أو الحال الذى يطابق آخر سواء كان أحدهما فوق الآخر أم لا و المراد به كيف كان المرحلة بعد المرحلة يقطعها الإنسان فى كدحه إلى ربه من الحياة الدنيا ثم الموت ثم الحياة البرزخية ثم الانتقال إلى الآخرة ثم الحياة الآخرة ثم الحساب و الجزاء.

و فى هذا الإقسام- كما ترى- تأكيد لما فى قوله: «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ» الآية و ما بعده من نبإ البعث و توطئة و تمهيد لما فى قوله: «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» من التعجيب و التوبيخ و ما فى قوله: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ» إلخ من الإنذار و التبشير.

و فى الآية إشارة إلى أن المراحل التى يقطعها الإنسان فى مسيره إلى ربه مترتبة متطابقة.

قوله تعالى: «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ » الاستفهام للتعجيب و التوبيخ و لذا ناسب الالتفات الذى فيه من الخطاب إلى الغيبة كأنه لما رأى أنهم لا يتذكرون بتذكيره و لا يتعظون بعظته أعرض عنهم إلى النبى ص فخاطبه بقوله : «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» إلخ.

قوله تعالى: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ » «يُكَذِّبُونَ» يفيد الاستمرار، و التعبير عنهم با لذين كفروا للدلالة على علة التكذيب، و الإيعاء كما قيل جعل الشىء فى وعاء.

و المعنى: أنهم لم يتركوا الإيمان لقصور فى البيان أو لانقطاع من البرهان لكنهم اتبعوا أسلافهم و رؤساءهم فرسخوا فى الكفر و استمروا على التكذيب و الله يعلم بما جمعوا فى صدورهم و أضمروا فى قلوبهم من الكفر و الشرك.

و قيل: المراد بقوله: «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ» أن لهم وراء التكذيب مضمرات فى قلوبهم لا يحيط بها العبارة و لا يعلمها إلا الله، و هو بعيد من السياق.

قوله تعالى: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» التعبير عن الإخبار بالعذاب بالتبشير مبنى على التهكم، و الجملة متفرعة على التكذيب.

قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» استثناء منقطع من ضمير «فَبَشِّرْهُمْ» و المراد بكون أجرهم غير ممنون خلوة من قول يثقل على المأجور.

بحث روائی

فی تفسير القمی،": فی قوله تعالى: «إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ» قال: يوم القيامة.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن أبی حاتم عن علی قال* تنشق السماء من المجرة.

ص:247

و فی تفسير القمی،": فی قوله: «وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ» قال: تمد الأرض فتنشق فيخرج الناس منها.

و فی الدر المنثور، أخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبی ص قال*: تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم- ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه.

و فی الاحتجاج، عن علی (ع) فی حديث قال * و الناس يومئذ على صفات و منازل- فمنهم من يحاسب حسابا يسيرا و ينقلب إلى أهله مسرورا، و منهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب- لأنهم لم يلبثوا من أمر الدنيا بشیء- و إنما الحساب هناك على من يلبس بها هاهنا، و منهم من يحاسب على النقير و القطمير- و يصير إلى عذاب السعير.

و فی المعانی، بإسناده عن ابن سنان عن أبی جعفر (ع) قال*: قال رسول الله ص: كل محاسب معذب فقال له قائل: يا رسول الله فأين قول الله عز و جل: «فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً» قال: ذلک العرض يعنی التصفح.

أقول: و روی فی الدر المنثور، عن البخاری و مسلم و الترمذی و غيرهم عن عائشة: مثله.

و فی تفسير القمی، و فی رواية أبی الجارود عن أبی جعفر (ع)* فی قوله: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ» فهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسود بن هلال المخزومی- و هو من بنی مخزوم، «وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ» فهو أخوه الأسود بن عبد الأسود المخزومی- فقتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر.

و فی المجمع،: فی قوله تعالى: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» و قيل:

معناه شدة بعد شدة- حياة ثم موت ثم بعث ثم جزاء: و روی ذلک مرفوعا.

و عن جوامع الجامع، فی الآية عن أبی عبيدة: لتركبن سنن من كان قبلكم من الأولين و أحوالهم : و روی ذلک عن الصادق (ع).

(۸۵) سورة البروج مكية و هى اثنتان و عشرون آية (۲۲)

[سورة البروج (۸۵): الآيات ۱ الى ۲۲]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (۱) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (۲) وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (۳) قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (۴)

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (۵) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (۶) وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (۷) وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۸) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۹)

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَ ريقِ (۱۰) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (۱۱) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (۱۲) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (۱۳) وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (۱۴)

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (۱۵) فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (۱۶) هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (۱۷) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (۱۸) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ (۱۹)

وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ (۲۰) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (۲۱) فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (۲۲)

ص:248

بيان

سورة إنذار و تبشير فيها وعيد شديد للذين يفتنون المؤمنين و المؤمنات لإيمانهم بالله كما كان المشركون من أهل مكة يفعلون ذلك بالذين آمنوا بالنبى ص فيعذبونهم ليرجعوا إلى شركهم السابق فمنهم من كان يصبر و لا يرجع بلغ الأمر ما بلغ، و منهم من رجع و ارتد و هم ضعفاء الإيمان كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ»: العنكبوت: ۱۰، و قوله: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ»: الحج: ۱۱.

ص:249

و قد قدم سبحانه على ذلك الإشارة إلى قصة أصحاب الأخدود، و فيه تحريض المؤمنين على الصب ر فى جنب الله تعالى، و أتبعها بالإشارة إلى حديث الجنود فرعون و ثمود و فيه تطييب لنفس النبى ص بوعد النصر و تهديد للمشركين.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ » البروج جمع برج و هو الأمر الظاهر و يغلب استعماله فى القصر العالى لظهوره على الناظرين و يسمى البناء المعمول على سور البلد للدفاع برجا و هو المراد فى الآية لقوله تعالى : «وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنّاها لِلنّاظِرِينَ وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ»: الحجر: ١٧، فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء.

و بذلک يظهر أن تفسير البروج بالبروج الاثنى عشر المصطلح عليها فى علم النجوم غير سديد و فى الآية إقسام بالسماء المحفوظة بالبروج، و لا يخفى مناسبته لما سيشار إليه من القصة ثم الوعيد و الوعد و سنشير إليه.

قوله تعالى: «وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ» عطف على السماء و إقسام باليوم الموعود و هو يوم القيامة الذى وعد الله القضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى: «وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ» معطوفان على السماء و الجميع قسم بعد قسم على ما أريد بيانه فى السورة و هو- كما تقدمت الإشارة إليه- الوعيد الشديد لمن يفتن المؤمنين و المؤمنات لإيمانهم و الوعد الجميل لمن آمن و عمل صالحا.

فكأنه قيل: أقسم بالسماء ذات البروج التى يدفع الله بها عنها الشياطين أن الله يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين و أوليائهم من الكافرين، و أقسم باليوم الموعود الذى يجزى فيه الناس بأعمالهم، و أقسم بشاهد يشهد و يعاين أعمال أولئک الكفار و ما يفعلونه بالمؤمنين لإيمانهم بالله و أقسم بمشهود سيشهده الكل و يعاينونه إن الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات، إلى آخر الآيتين.

و من هنا يظهر أن الشهادة فى «شاهِدٍ» و «مَشْهُودٍ» بمعنى واحد و هو المعاينة بالحضور، على أنها لو كانت بمعنى تأدية الشهادة لكان حق التعبير «و مشهود عليه» لأنها بهذا المعنى إنما تتعدى بعلى.

و على هذا يقبل «شاهِدٍ» الانطباق على النبى ص لشهادته أعمال أمته ثم يشهد عليها يوم القيامة، و يقبل «مَشْهُودٍ» الانطباق على تعذيب الكفار لهؤلاء المؤمنين و ما فعلوا

ص:250

بهم من الفتنة و إن شئت فقل : على جزائه و إن شئت فقل على ما يقع يوم القيامة من العقاب و الثواب لهؤلاء الظالمين و المظلومين، و تنكير «مَشْهُودٍ» و «وَ شاهِدٍ» على أى حال للتفخيم.

و لهم فى تفسير شاهد و مشهود أقاويل كثيرة أنهاها بعضهم إلى ثلاثين كقول بعضهم إن الشاهد يوم الجمعة و المشهود يوم عرفة، و القول بأن الشاهد يوم النحر و المشهود يوم عرفة، و القول بأن الشاهد يوم عرفة و المشهود يوم القيامة، و القول بأن الشاهد الملک يشهد على بنى آدم و المشهود يوم القيامة، و القول بأن الشاهد الذين يشهدون على الناس و المشهود الذين يشهد عليهم.

و القول بأن الشاهد هذه الأمة و المشهود سائر الأمم، و القول بأن الشاهد أعضاء بنى آدم و المشهود أنفسهم و القول بأن الشاهد الحجر الأسود و المشهود الحاج و القول بأن ا لشاهد الأيام و الليالى و المشهود بنو آدم، و القول بأن الشاهد الأنبياء و المشهود محمد ص، و القول بأن الشاهد هو الله و المشهود لا إله إلا الله.

و القول بأن الشاهد الخلق و المشهود الحق، و القول بأن الشاهد هو الله و المشهود يوم القيامة، و القول بأن الشاهد آدم و ذريته و المشهود يوم القيامة، و القول بأن الشاهد يوم التروية و المشهود يوم عرفة، و القول بأنها يوم الإثنين و يوم الجمعة، و القول بأن الشاهد:

المقربون و المشهود عليون، و القول بأن الشاهد هو الطفل الذى قال لأمه فى قصة الأخدود:

اصبرى فإنک على الحق و المشهود الواقعة، و القول بأن الشاهد الملائكة المتعاقبون لكتابة الأعمال و المشهود قرآن الفجر إلى غير ذلک من أقوالهم.

و أكثر هذه الأقوال- كما ترى- مبنى على أخذ الشهادة بمعنى أداء ما حمل من الشهادة و بعضها على تفريق بين الشاهد و المشهود فى معنى الشهادة و قد عرفت ضعفه، و أن الأنسب للسياق أخذها بمعنى المعاينة و إن استلزم الشهادة بمعنى الأداء يوم القيامة، و أن الشاهد يقبل الانطباق على النبى ص.

كيف لا؟ و قد سماه الله تعالى شاهدا إذ قال: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً»: الأحزاب: ۴۵، و سماه شهيدا إذ قال: «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ»: الحج- ۷۸، و قد عرفت معنى شهادة الأعمال من شهدائها فيما مر.

ثم إن جواب القسم محذوف يدل عليه قوله: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ» إلى تمام آيتين، و يشعر به أيضا قوله: «قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ» إلخ و هو وعيد الفاتنين و وعد المؤمنين الصالحين و أن الله يوفقهم على الصبر و يؤيدهم على حفظ إيمانهم من كيد الكائدين أن أخلصوا كما فعل بالمؤمنين فى قصة الأخدود.

ص:251

قوله تعالى: «قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ» إشارة إلى قصة الأخدود لتكون توطئة و تمهيدا لما سيجى ء من قوله: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا» إلخ و ليس جوابا للقسم البتة.

و الأخدود الشق العظيم فى الأرض، و أصحاب الأخدود هم الجبابرة الذين خدوا أخدودا و أضرموا فيها النار و أمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم نقما منهم لإيمانهم فقوله: «قُتِلَ» إلخ دعاء عليهم و المراد بالقتل اللعن و الطرد.

و قيل: المراد بأصحاب الأخدود المؤمنون و المؤمنات الذين أحرقوا فيه، و قوله:

«قُتِلَ» إخبار عن قتلهم بالإحراق و ليس من الدعاء فى شى ء. و يضعفه ظهور رجوع الضمائر فى قوله: «إِذْ هُمْ عَلَيْها» و «هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ» و «ما نَقَمُوا» إلى أصحاب الأخدود، و المراد بها و خاصة بالثانى و الثالث الجبابرة الناقمون دون المؤمنين المعذبين.

قوله تعالى: «النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ» بدل من الأخدود، و الوقود ما يشعل به النار من حطب و غيره، و فى توصيف النار بذات الوقود إشارة إلى عظمة أمر هذه النار و شدة اشتعالها و أجيجها.

قوله تعالى: «إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ» أى فى حال أولئك الجبابرة قاعدون فى أطراف النار المشرفة عليها.

قوله تعالى: «وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ» أى حضور ينظرون و يشاهدون إحراقهم و احتراقهم.

قوله تعالى: «وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ » النقم بفتحتين الكراهة الشديدة أى ما كرهوا من أولئك المؤمنين إلا إيمانهم بالله فأحرقوهم لأجل إيمانهم.

قوله تعالى: «الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» أوصاف جارية على اسم الجلالة تشير إلى الحجة على أن أولئك المؤمنين كانوا على الحق فى إيمانهم مظلومين فيما فعل بهم لا يخفى حالهم على الله و سيجزيهم خير الجزاء، و على أن أولئک الجبابرة كانوا على الباطل مجترين على الله ظالمين فيما فعلوا و سيذوقون وبال أمرهم و ذلک أنه تعالى هو الله العزيز الحميد أى الغالب غير المغلوب على الإطلاق و الجميل فى فعله على الإطلاق فله وحده كل الجلال و الجمال فمن الواجب أن يخضع له و أن لا يتعرض لجانبه، و إذ كان له ملك السماوات و الأرض فهو المليک على الإطلاق له الأمر و له الحكم فهو رب العالمين فمن الواجب أن يتخذ إلها معبودا و لا يشرک به أحد فالمؤمنون به على الحق و الكافرون فى ضلال.

ص:252

ثم إن الله- و هو الموجد لكل شى ء- على كل شى ء شهيد لا يخفى عليه شى‌ء من خلقه و لا عمل من أعمال خلقه و لا يحتجب عنه إحسان محسن و لا إساءة مسى‌ء فسيجزى كلا بما عمل.

و بالجملة إذ كان تعالى هو الله المتصف بهذه الصفات الكريمة كان على هؤلاء المؤمنين أن يؤمنوا به و لم يكن لأولئک الجبابرة أن يتعرضوا لحالهم و لا أن يمسوهم بسوء.

و قال بعض المفسرين فى توجيه إجراء الصفات فى الآية : إن القوم إن كانوا مشركين فالذى كانوا ينقمونه من المؤمنين و ينكرونه عليهم لم يكن هو الإيمان بالله تعالى بل نفى ما سواه من معبوداتهم الباطلة، و إن كانوا معطلة فالمنكر عندهم ليس إلا إثبات معبود غير معهو د لهم لكن لما كان مآل الأمرين إنكار المعبود الحق الموصوف بصفات الجلال و الإكرام عبر بما عبر بإجراء الصفات عليه تعالى.

و فيه غفلة عن أن المشركين و هم الوثنية ما كانوا ينسبون إلى الله تعالى إلا الصنع و الإيجاد.

و أما الربوبية التى تستتبع التدبير و الألوهية ا لتى تستوجب العبادة فكانوا يقصرونها فى أربابهم و آلهتهم فيعبدونها دون الله سبحانه، فليس له تعالى عندهم إلا أنه رب الأرباب و إله الآلهة لا غير.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ » الفتنة المحنة و التعذيب، و الَّذِينَ فَتَنُوا «إلخ» عام يشمل أصحاب الأخدود و مشركى قريش الذين كانوا يفتنون من آمن بالنبى ص من المؤمنين و المؤمنات بأنواع من العذاب ليرجعوا عن دينهم.

قال فى المجمع،: يسأل فيقال: كيف فصل بين عذاب جهنم و عذاب الحريق و هما واحد؟ أجيب عن ذلک بأن المراد لهم أنواع العذاب فى جهنم سوى الإحراق مثل الزقوم و الغسلين و المقامع و لهم مع ذلک الإحراق بالنار انتهى.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِکَ الْفَوْزُ الْکَبِيرُ » وعد جميل للمؤمنين يطيب به نفوسهم كما أن ما قبله وعيد شديد للكفار الفاتنين المعذبين.

قوله تعالى: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّکَ لَشَدِيدٌ » الآية إلى تمام سبع آيات تحقيق و تأكيد لما تقدم من الوعيد و الوعد، و البطش- كما ذكره الراغب- تناول الشيء بصولة.

ص:253

و فى إضافة البطش إلى الرب و إضافة الرب إلى الكاف تطييب لنفس النبى ص بالتأييد و النصر، و إشارة إلى أن لجبابرة أمته نصيبا من الوعيد المتقدم.

قوله تعالى: «إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ » المقابلة بين المبدئ و ا لمعيد يعطى أن المراد بالإبداء البدء، و الافتتاح بالشى ء، قالوا: و لم يسمع من العرب الإبداء لكن القراءة ذلک و فى بعض القراءات الشاذة يبدأ بفتح الياء و الدال.

و على أى حال فالآية تعليل لشدة بطشه تعالى و ذلک أنه تعالى مبدئ يوجد ما يريده من شى ء إيجادا ابتدائيا من غير أن يستمد على ذلک من شى ء غير نفسه، و هو تعالى يعيد كل ما كان إلى ما كان و كل حال فاتته إلى ما كانت عليه قبل الفوت فهو تعالى لا يمتنع عليه ما أراد و لا يفوته فائت زائل و إذ كان كذلک فهو القادر على أن يحمل على العبد المتعدى حده، من العذاب ما هو فوق حده و وراء طاقته و يحفظه على ما هو عليه ليذوق العذاب قال تعالى : «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها»: فاطر: ۳۶.

و هو القادر على أن يعيد ما أفسده العذاب إلى حالته الأولى ليذوق المجرم بذلک العذاب من غير انقطاع قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ»: النساء: ۵۶.

و بهذا البيان يتضح:

أولا: أن سياق قوله: «إِنَّهُ هُوَ» إلخ يفيد القصر أى إن إبداع الوجود و إعادته لله سبحانه وحده إذ الصنع و الإيجاد ينتهى إليه تعالى وحده.

و ثانيا: أن حدود الأشياء إليه تعالى و لو شاء أن لا يحد لم يحدا و بدل حدا من آخر فهو الذى حد العذاب و الفتنة فى الدنيا بالموت و الزوال و لو لم يشأ لم يحد كما فى عذاب الآخرة.

و ثالثا: أن المراد من شدة البطش- و هو الأخذ بعنف- أن لا دافع لأخذه و لا راد لحكمه كيفما حكم إلا أن يحول بين حكمه و متعلقه حكم آخر منه يقيد الأول.

قوله تعالى: «وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ» أى كثير المغفرة و المودة ناظر إلى وعد المؤمنين كما أن قوله: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّکَ» إلخ ناظر إلى وعيد الكافرين.

قوله تعالى: «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» العرش عرش الملک، و ذو العرش كناية عن الملک أى هو ملک له أن يتصرف فى مملكته كيفما تصرف و يحكم بما شاء و المجيد

ص:PAGE=254ص:

صفة من المجد و هو العظمة المعنوية و هى كمال الذات و الصفات، و قوله : «فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» أى لا يصرفه عما أراده صارف لا من داخل لضجر و كسل و ملل و تغير إرادة و غيرها و لا من خارج لمانع يحول بينه و بين ما أراد.

فله تعالى أن يوعد الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات بالنار و يعد الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالجنة لأنه ذو العرش المجيد و لن يخلف وعده لأنه فعال لما يريد.

قوله تعالى: «هَلْ أَتاکَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ» تقرير لما تقدم من شدة بطشه تعالى و كونه ملكا مجيدا فعالا لما يريد، و فيه تسلية للنبى ص و تطييب لنفسه الشريفة بالإشارة إلى حديثهم، و معنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِی تَكْذِيبٍ» لا يبعد أن يستفاد من السياق كون المراد بالذين كفروا هم قوم النبى ص.

و فى الآية إضراب عما تقدم من الموعظة و الحجة من حيث الأثر، و المعنى لا ينبغى أن يرجى منهم الإيمان بهذه الآيات البينات فإن الذين كفروا مصرون على تكذيبهم لا ينتفعون بموعظة أو حجة.

و من هنا ظهر أن المراد بكون الذين كفروا فى تكذيب أى بظرفية التكذيب لهم إصرارهم عليه.

قوله تعالى: «وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ» وراء الشیء الجهات الخارجة منه المحيطة به . إشارة إلى أنهم غير معجزين لله سبحانه فهو محيط بهم قادر عليهم من كل جهة، و فيه أيضا تطييب لنفس النبى ص.

و عن بعضهم أن فى قوله: «مِنْ وَرائِهِمْ» تلويحا إلى أنهم اتخذوا الله وراءهم ظهريا، و هو مبنى على أخذ وراء بمعنى خلف.

قوله تعالی: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِیدٌ فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » إضراب عن إصرارهم علی تکذیب القرآن، و المعنی لیس الأمر کما یدعون بل القرآن کتاب مقرو عظیم فی معناه غزیر فی معارفه فی لوح محفوظ عن الکذب و الباطل مصون من مس الشیاطین.

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن جابر بن عبد الله* أن النبی ص سئل عن

ص:PAGE=255ص:

«السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ » فقال: الکواکب، و سئل عن «الَّذِی جَعَلَ فِی السَّماءِ بُرُوجاً » فقال: الکواکب. قیل: ف «بُرُوجٍ مُشَیَّدَةٍ » فقال: قصور.

و فیه، أخرج عبد بن حمید و الترمذی و ابن أبی الدنیا فی الأصول و ابن جریر و ابن المنذر و ابن حاتم و ابن مردویه و البیهقی فی سننه عن أبی هریرة قال *: قال رسول الله ص : الیوم الموعود یوم القیامة- و الیوم المشهود یوم عرفة- و الشاهد یوم الجمعة. الحدیث.

أقول: و روی مثله بطرق أخری عن أبی مالک و سعید بن المسیب و جبیر بن مطعم عنه (ص)، و لفظ الأخیر : الشاهد یوم الجمعة و المشهود یوم عرفة:.

و روی هذا اللفظ عن عبد الرزاق و الفاریابی و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر عن علی بن أبی طالب.

و فیه، أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر عن علی قال*: الیوم الموعود یوم القیامة، و الشاهد یوم الجمعة، و المشهود یوم النحر.

و فی المجمع، روی: أن رجلا دخل مسجد رسول الله ص- فإذا رجل یحدث عن رسول الله ص.

قال: فسألته عن الشاهد و المشهود فقال : نعم الشاهد یوم الجمعة و المشهود یوم عرفة، فجزته إلی آخر یحدث عن رسول ا لله ص- فسألته عن ذلک فقال: أما الشاهد فیوم الجمعة و أما المشهود فیوم النحر.

فجزتهما إلی غلام کان وجهه الدینار- و هو یحدث عن رسول الله ص- فقلت: أخبرنی عن شاهد و مشهود فقال : نعم أما الشاهد فمحمد و أما المشهود فیوم القیامة- أ ما سمعت الله سبحانه یقول: «یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً» و قال: «ذلِکَ یَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وَ ذلِکَ یَوْمٌ مَشْهُودٌ».

فسألت عن الأول فقالوا: ابن عباس، و سألت عن الثانی فقالوا: ابن عمرو، و سألت عن الثالث فقالوا: الحسن بن علی.

أقول: و الحدیث مروی بطرق مختلفة و ألفاظ متقاربة و قد تقدم فی تفسیر الآیة أن ما ذکره (ع) أظهر بالنظر إلی سیاق الآیات، و إن کان لفظ الشاهد و المشهود لا یأبی الانطباق علی غیره أیضا بوجه.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ» قال: کان سببه أن الذی

ص:PAGE=256ص:

هیج الحبشة- علی غزوة الیمن ذو نواس- و هو آخر من ملک من حمیر- تهود و اجتمعت معه حمیر علی الیهودیة- و سمی نفسه یوسف و أقام علی ذلک حینا من الدهر.

ثم أخبر أن بنجران بقایا قوم علی دین النصرانیة- و کانوا علی دین عیسی و حکم الإنجیل، و رأس ذلک الدین عبد الله بن بریامن- فحمله أهل دینه علی أن یسیر إلیهم- و یحملهم علی الیهودیة و یدخلهم فیها- فسار حتی قدم نجران- فجمع من کان بها علی دین النصرانیة- ثم عرض علیهم دین الیهودیة و الدخول فیها- فأبوا علیه فجادلهم و عرض علیهم- و حرص الحرص کله فأبوا علیه- و امتنعوا من الیهودیة و الدخول فیها و اختاروا القتل.

فاتخذ لهم أخدودا و جمع فیه الحطب- و أشعل فیه النار فمنهم من أحرق بالنار- و منهم من قتل بالسیف و مثل بهم کل مثلة- فبلغ عدد من قتل و أحرق بالنار عشرین ألفا- و أفلت منهم رجل یدعی دوش ذو ثعلبان علی فرس له رکضة، و اتبعوه حتی أعجزهم فی الرمل، و رجع ذو نواس إلی صنیعه فی جنوده فقال الله: «قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ- إلی قوله- الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ».

و فی المجمع، و روی سعید بن جبیر قال": لما انهزم أهل إسفندهان قال عمر بن الخطاب:

ما هم یهود و لا نصاری و لا لهم کتاب و کانوا مجوسا- فقال علی بن أبی طالب: بلی قد کان لهم کتاب رفع.

و ذلک أن ملکا لهم سکر فوقع علی ابنته- أو قال: علی أخته- فلما أفاق قال لها:

کیف المخرج مما وقعت فیه؟ قالت : تجمع أهل مملکتک- و تخبرهم أنک تری نکاح البنات و تأمرهم أن یحلوه- فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن یتابعوه- فخد لهم أخدودا فی الأرض، و أوقد فیه النیران و عرضهم علیها- فمن أبی قبول ذلک قذفه فی النار، و من أجاب خلی سبیله:.

أقول: و روی هذا المعنی فی الدر المنثور، عن عبد بن حمید عنه (ع).

و عن تفسیر العیاشی، بإسناده عن جابر عن أبی جعفر (ع) قال*: أرسل علی (ع) إلی أسقف نجران یسأله عن أصحاب الأخدود- فأخبره بشیء فقال (ع): لیس کما ذکرت- و لکن سأخبرک عنهم:

إن الله بعث رجلا حبشیا نبیا و هم حبشیة- فکذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه فأسروه و أسروا أصحابه- ثم بنوا له حیرا ثم ملئوه نارا ثم جمعوا الناس- فقالوا: من کلن علی دیننا و أمرنا فلیعتزل، و من کان علی دین هؤلاء فلیرم نفسه فی النار- فجعل أصحابه یتهافتون فی

ص:257

النار- فجاءت امرأة معها صبى لها ابن شهر- فلما هجمت هابت و رقت على ابنها فنادى الصبى : لا تهابى و ارمينى و نفسك فى النار- فإن هذا و الله فى الله قليل، فرمت بنفسها فى النار و صبيها، و كان ممن تكلم فى المهد.

أقول: و روى هذا المعنى فى الدر المنثور، عن ابن مردويه عن عبد الله بن نجى عنه (ع)، و روى أيضا عن ابن أبى حاتم من طريق عبد الله بن نجى عنه (ع) قال*: كان نبى أصحاب الأخدود حبشيا.

و روى أيضا عن ابن أبى حاتم و ابن المنذر من طريق الحسن عنه (ع)* فى قوله تعالى:

«أَصْحابُ الْأُخْدُودِ» قال: هم الحبشة.

و لا يبعد أن يستفاد أن حديث أصحاب الأخدود وقائع متعددة وقعت بالحبشة و اليمن و العجم و الإشارة فى الآية إلى جميعها و هناك روايات تقص القصة مع السكوت عن محل وقوعها.

و فى تفسير القمى، ": فى قوله تعالى: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » قال: اللوح المحفوظ له طرفان طرف على يمين العرش- على جبين إسرافيل- فإذا تكلم الرب جل ذكره بالوحى- ضرب اللوح جبين إسرافيل فنظر فى اللوح- فيوحى بما فى اللوح إلى جبرئيل.

و فى الدر المنثور، أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال*: قال رسول الله ص: خلق الله لوحا من درة بيضاء دفتاه من زبرجدة خضراء- كتابه من نور يلحظ إليه فى كل يوم ثلاث مائة و ستين لحظة- يحيى و يميت و يخلق و يرزق و يعز و يذل و يفعل ما يشاء.

أقول: و الروايات فى صفة اللوح كثيرة مختلفة و هى على نوع من التمثيل.

(٨٦) سورة الطارق مكية و هى سبع عشرة آية (١٧)

[سورة الطارق (٨٦): الآيات ١ الى ١٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ (١) وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (٤)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (٩)

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ (١٠) وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (١١) وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْداً (١٦) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (١٧)

بيان

فى السورة إنذار بالمعاد و تستدل عليه بإطلاق القدرة و تؤكد القول فى ذلک، و فيها إشارة إلى حقيقة اليوم، و تختتم بوعيد الكفار.

و السورة ذات سياق مكى.

قوله تعالى: «وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ وَ ما أَدْراکَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ» الطرق فى الأصل- على ما قيل- هو الضرب بشدة يسمع له صوت و منه المطرقة و الطريق لأن السابلة تطرقها بأقدامها ثم شاع استعماله فى سلوک الطريق ثم اختص بالإتيان ليلا لأن الآتى بالليل فى الغالب يجد الأبواب مغلقة فيطرقها و يدقها ثم شاع الطارق فى كل ما يظهر ليلا، و المراد بالطارق فى الآية النجم الذى يطلع بالليل.

و الثقب فى الأصل بمعنى الخرق ثم صار بمعنى النير المضى ء لأنه يثقب الظلام بنوره و يأتى بمعنى العلو و الارتفاع و منه ثقب الطائر أى ارتفع و علا كأنه يثقب الجو بطيرانه.

فقوله: «وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ» إقسام بالسماء و بالنجم الطالع ليلا، و قوله : «وَ ما أَدْراکَ مَا الطَّارِقُ» تفخيم لشأن المقسم به و هو الطارق، و قوله: «النَّجْمُ الثَّاقِبُ» بيان للطارق و الجملة فى معنى جواب استفهام مقدر كأنه لما قيل: و ما أدراک ما الطارق؟

سئل فقيل: فما هو الطارق؟ فأجيب، و قيل: النجم الثاقب.

قوله تعالى: «إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ » جواب للقسم و لما بمعنى إلا و المعنى ما من نفس إلا عليها حافظ، و المراد من قيام الحافظ على حفظها كتابة أعمالها الحسنة و السيئة

على ما صدرت منها ليحاسب عليها يوم القيامة و يجزى بها فالحافظ هو الملک و المحفوظ العمل كما قال تعالى: «وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ»: الانفطار: ١٢.

و لا يبعد أن يكون المراد من حفظ النفس حفظ ذاتها و أعمالها، و المراد بالحافظ جنسه فتفيد أن النفوس محفوظة لا تبطل بالموت و لا تفسد حتى إذا أحيا الله الأبدان أرجع النفوس إليها فكان الإنسان هو الإنسان الدنيوى بعينه و شخصه ثم يجزيه بما يقتضيه أعماله المحفوظة عليه من خير أو شر.

و یؤید ذلک کثیر من الآیات الدالة علی حفظ الأشیاء کقوله تعالی : «قُلْ یَتَوَفَّاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ »: الم السجدة: ۱۱، و قوله: «اللَّهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِها وَ الَّتِی لَمْ تَمُتْ فِی مَنامِها فَیُمْسِکُ الَّتِی قَضی عَلَیْهَا الْمَوْتَ»: الزمر: ۴۲.

و لا ینافی هذا الوجه ظاهر آیة الانفطار السابقة من أن حفظ الملائکة هو الکتابة فإن حفظ نفس الإنسان أیضا من الکتابة علی ما یستفاد من قوله: «إِنَّا کُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»: الجاثیة: ۲۹ و قد تقدمت الإشارة إلیه.

و یندفع بهذا الوجه الاعتراض علی ما استدل به علی المعاد من إطلاق القدرة کما سیجیء، و محصله أن إطلاق القدرة إنما ینفع فیما کان ممکنا لکن إعادة الإنسان بعینه محال فإن الإنسان المخلوق ثانیا مثل الإنسان الدنیوی المخلوق أولا لا شخصه الذی خلق أولا و مثل الشیء غیر الشیء لا عینه.

وجه الاندفاع أن شخصیة الشخص من الإنسان بنفسه لا ببدنه و النفس محفوظة فإذا خلق البدن و تعلقت به النفس کان هو الإنسان الدنیوی بشخصه و إن کان البدن بالقیاس إلی البدن مع الغض عن النفس، مثلا لا عینا.

قوله تعالی: «فَلْیَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ» أی ما هو مبدأ خلقه؟ و ما هو الذی صیره الله إنسانا؟

و الجملة متفرعة علی الآیة السابقة و ما تدل علیه بفحواها بحسب السیاق و محصل المعنی و إذ کانت کل نفس محفوظة بذاتها و عملها من غیر أن تفنی أو ینسی عملها فلیذعن الإنسان أن سیرجع إلی ربه و یجزی بما عمل و لا یستبعد ذلک و لینظر لتحصیل هذا الإذعان إلی مبدإ خلقه و یتذکر أنه خلق من ماء دافق یخرج من بین الصلب و الترائب.

فالذی بدأ خلقه من ماء هذه صفته یقدر علی رجعه و إحیائه بعد الموت.

ص:260

و فی الإتیان بقوله: «خُلِقَ» مبنیا للمفعول و ترک ذکر الفاعل و هو الله سبحانه إیماء إلی ظهور أمره، و نظیره قوله : «خُلِقَ مِنْ ماءٍ» إلخ.

قوله تعالی: «خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ » الدفق تصبب الماء و سیلانه بدفع و سرعة و الماء الدافق هو المنی و الجملة جواب عن استفهام مقدر یهدی إلیه قوله: «مِمَّ خُلِقَ».

قوله تعالی: «یَخْرُجُ مِنْ بَیْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ» الصلب الظهر، و الترائب جمع تریبة و هی عظم الصدر.

و قد اختلفت کلماتهم فی الآیة و ما قبلها اختلافا عجیبا، و الظاهر أن المراد بقوله:

«بَیْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ» البعض المحصور من البدن بین جداری عظام الظهر و عظام الصدر «۱».

قوله تعالى: «إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ» الرجع الإعادة، و ضمير «إِنَّهُ» له تعالى و اكتفى بالإضمار مع أن المقام مقام الإظهار لظهوره نظير قوله: «خُلِقَ» مبنيا للمفعول.

و المعنى أن الذى خلق الإنسان من ماء صفته تلك الصفة، على إعادته و إحيائه بعد الموت- و إعادته مثل بدئه- لقادر لأن القدرة على الشيء قدرة على مثله إذ حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد.

قوله تعالى: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ» ظرف للرجع، و السريرة ما أسره الإنسان و أخفاه فى نفسه، و البلاء الاختبار و التعرف و التصفح.

فالمعنى يوم يختبر ما أخفاه الإنسان و أسره من العقائد و آثار الأعمال خيرها و شرها فيميز خيرها من شرها و يجزى الإنسان به فالآية فى معنى قوله تعالى: «إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ»: البقرة: ٢٨۴.

قوله تعالى: «فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ» أى لا قدرة له فى نفسه يمتنع بها من ع ذاب الله و لا ناصر له يدفع عنه ذلك أى لا قدرة هناک يدفع عنه الشر لا من نفسه و لا من غيره.

قوله تعالى: «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ» إقسام بعد إقسام لتأكيد أمر القيامة و الرجوع إلى الله.

و المراد بكون السماء ذات رجع ما يظهر للحس من سيرها بطلوع الكواكب بعد

---

(١) و قد أورد المراغى فى تفسيره فى ذيل الآية عن بعض الأطباء توجيها دقيقا علميا لهذه الآية من أراده فليراجعه.

غروبها و غروبها بعد طلوعها، و قيل : رجعها أمطارها، و المراد بكون الأرض ذات صدع تصدعها و انشقاقها بالنبات، و مناسبة القسمين لما أقسم عليه من الرجوع بعد الموت و الخروج من القبور ظاهرة.

قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ» الفصل إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة، و التعبير بالفصل- و المراد الفاصل- للمبالغة كزيد عدل و الهزل خلاف الجد.

و الآيتان جواب القسم، و ضمير «إِنَّهُ» للقرآن و المعنى أقسم بكذا و كذا أن القرآن لقول فاصل بين الحق و الباطل و ليس هو كلاما لا جد فيه فما يحققه حق لا ريب فيه و ما يبطله باطل لا ريب فيه فما أخبركم به من البعث و الرجوع حق لا ريب فيه.

و قيل: الضمير لما تقدم من خبر الرجوع و المعاد، و الوجه السابق أوجه.

قوله تعالى: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَ أَكِيدُ كَيْداً » أى الكفار يحتالون بكفرهم و إنكارهم المعاد احتيالا يريدون به إطفاء نور الله و إبطال دعوتک، و احتال عليهم بعين أعمالهم بالاستدراج و الإملاء و الإضلال بالطبع على قلوبهم و جعل الغشاوة على سمعهم و أبصارهم احتيالا أسوقهم به إلى عذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: «فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً » التمهيل و الإمهال بمعنى واحد غير أن باب التفعيل يفيد التدريج و الإفعال يفيد الدفعة، و الرويد القليل.

و المعنى: إذا كان منهم كيد و منى كيد عليهم بعين ما يكيدون به و الله غالب على أمره، فانتظر بهم و لا تعاجلهم انتظر بهم قليلا فسيأتيهم ما أوعدهم به فكل ما هو آت قريب.

و فى التعبير أولا بمهل الظاهر فى التدريج و ثانيا مع التقييد برويدا بأمهل الظاهر فى الدفعة لطف ظاهر.

بحث روائی

فی تفسير القمی،": فی قوله تعالى: «إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ» قال: الملائكة.

و فيه،": فی قوله تعالى: «خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ» قال: النطفة التی تخرج بقوة.

و فيه،": فی قوله تعالى: «يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ» قال: الصلب الرجل و الترائب المرأة، و هو صدرها.

ص:262

أقول: الرواية على إضمارها و إرسالها لا تخلو من شیء.

و فيه،": فی قوله تعالى: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ» قال: يكشف عنها.

و فی المجمع، روى مرفوعا عن أبی الدرداء قال: قال رسول الله ص: ضمن الله خلقه أربع خصال: الصلاة، و الزكاة، و صوم شهر رمضان، و الغسل من الجنابة، و هی السرائر التی قال الله تعالى: يوم تبلى السرائر.

أقول: و لعله من قبيل ذكر بعض المصاديق كما تؤيده الرواية التالية.

و فيه، عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ص: ما هذه السرائر- التی ابتلى الله بها العباد فی الآخرة؟ فقال : سرائركم هی أعمالكم من الصلاة و الصيام- و الزكاة و الوضوء و الغسل من الجنابة و كل مفروض- لأن الأعمال كلها سرائر خفية فإن شاء الرجل قال:

صليت و لم يصل و إن شاء قال: توضيت و لم يتوض- فذلک قوله: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ».

و فی تفسیر القمی، ": فی قوله تعالی: «فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ » قال: ما له من قوة یهوی بها علی خالقه، و لا ناصر من الله ینصره إن أراد به سوءا.

و فیه،": فی قوله تعالی: «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ» قال: ذات المطر «وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ» أی ذات النبات.

و فی المجمع، : «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ » یعنی أن القرآن یفصل بین الحق و الباطل- بالبیان عن کل واحد منهما :، و روی ذلک عن الصادق (ع).

و فی الدر المنثور، أخرج ابن أبی شیبة و الدارمی و الترمذی و محمد بن نصر و ابن الأنباری فی المصاحف عن الحارث الأعور قال*: دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا فی الأحادیث- فأتیت علیا فأخبرته فقال: أ و قد فعلوها؟

سمعت رسول الله ص یقول: إنها ستکون فتنة. قلت: فما المخرج منها یا رسول الله- قال: کتاب الله فیه نبأ من قبلکم و خبر من بعدکم، و حکم ما بینکم، هو الفصل لیس بالهزل، من ترکه من جبار قصمه الله، من ابتغی الهوی فی غیره أضله الله، و هو حبل الله المتین، و هو الذکر الحکیم، و هو الصراط المستقیم، هو الذی لا تزیغ به الأهواء، و لا یشبع منه العلماء، و لا تلتبس منه الألسن، و لا یخلق من الرد، و لا تنقضی عجائبه- هو الذی لم ینته الجن إذ سمعته حتی قالوا- إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً یَهْدِی إِلَی الرُّشْدِ. من قال به صدق، و من حکم به عدل، و من عمل به أجر، و من دعی إلیه هدی إلی صراط مستقیم.

ص:263

أقول: و روی ما یقرب منه عن معاذ بن جبل عنه (ص)، و رواه مختصرا عن ابن مردویه عن علی (ع).

(۸۷) سورة الأعلی مکیة و هی تسع عشرة آیة (۱۹)

[سورة الأعلی (۸۷): الآیات ۱ الی ۱۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی (۱) الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّی (۲) وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدی (۳) وَ الَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعی (۴)

فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوی (۵) سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسی (۶) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ یَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما یَخْفی (۷) وَ نُیَسِّرُکَ لِلْیُسْری (۸) فَذَکِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّکْری (۹)

سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشی (۱۰) وَ یَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَی (۱۱) الَّذِی یَصْلَی النَّارَ الْکُبْری (۱۲) ثُمَّ لا یَمُوتُ فِیها وَ لا یَحْیی (۱۳) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکَّی (۱۴)

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١۵) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (١۶) وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (١٧) إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى (١٨) صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى (١٩)

بيان

أمر بتوحيده تعالى على ما يليق بساحته المقدسة و تنزيه ذاته المتعالية من أن يذكر مع اسمه اسم غيره أو يسند إلى غيره ما يجب أن يسند إليه كالخلق و التدبير و الرزق و وعد له (ص) بتأييده بالعلم و الحفظ و تمكينه من الطريقة التى هى أسهل و أيسر للتبليغ و أنسب للدعوة.

و سياق الآيات فى صدر السورة سياق مكى و أما ذيلها أعنى قوله : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» إلخ فقد ورد من طرق أئمة أهل البيت (ع) و كذا من طريق أهل السنة أن المراد به زكاة الفطرة و صلاة العيد و من المعلوم أن الصوم و ما يتبعه من زكاة الفطرة و صلاة العيد إنما شرعت بالمدينة بعد الهجرة فتكون آيات الذيل نازلة بالمدينة.

فالسورة صدرها مكى و ذيلها مدنى، و لا ينافى ذلک ما جاء فى الآثار أن السورة مكية فإنه لا يأبى الحمل على صدر السورة.

قوله تعالى: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى» أمر بتنزيه اسمه تعالى و تقديسه، و إذ علق التنزيه على الاسم- و ظاهر اللفظ الدال على المسمى- و الاسم إنما يقع فى القول فتنزيهه أن لا يذكر معه ما هو تعالى منزه عنه كذک ر الآلهة و الشركاء و الشفعاء و نسبة الربوبية إليهم و كذكر بعض ما يختص به تعالى كالخلق و الإيجاد و الرزق و الإحياء و الإماتة و نحوها و نسبته إلى غيره تعالى أو كذكر بعض ما لا يليق بساحة قدسه تعالى من الأفعال كالعجز و الجهل و الظلم و الغفلة و ما يشبهها من صفا ت النقص و الشين و نسبته إليه تعالى.

و بالجملة تنزيه اسمه تعالى أن يجرد القول عن ذكر ما لا يناسب ذكره ذكر اسمه تعالى و هو تنزيهه تعالى فى مرحلة القول الموافق لتنزيهه فى مرحلة الفعل.

و هو يلازم التوحيد الكامل بنفى الشرك الجلى كما فى قوله : «وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »»: الزمر ۴۵ و قوله: «وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّکَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً»: إسراء ۴۶.

و فى إضافة الاسم إلى الرب و الرب إلى ضمير الخطاب تأييد لما قدمناه فإن المعنى سبح اسم ربک الذى اتخذته ربا و أنت تدعو إلى أنه الرب الإله فلا يقعن فى كلامک مع ذكر اسمه بالربوبية ذكر من غيره بحيث ينافى تسميه بالربوبية على ما عرف نفسه لک.

و قوله: «الْأَعْلَى» و هو الذی یعلو کل عال و یقهر کل شی ء صفهٔ «رَبِّکَ» دون الاسم و یعلل بمعناه الحکم أی سبح اسمه لأنه أعلی.

و قیل: معنی «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی» قل: سبحان ربی الأعلی کما عن ابن عباس و نسب إلیه أیضا أن المعنی صل.

و قیل: المراد بالاسم المسمی و المعنی نزهه تعالی عن کل ما لا یلیق بساحهٔ قدسه من الصفات و الأفعال.

ص:265

و قیل: إنه ذکر الاسم و المراد به تعظیم المسمی و استشهد علیه بقول لبید، إلی الحول ثم اسم السلام علیکما . فالمعنی سبح ربک الأعلی.

و قیل: المراد تنزیه أسمائه تعالی عما لا یلیق بأن لا یئول مما ورد منها اسم من غیر مقتض، و لا یبقی علی ظاهره إذا کان ما وضع له لا یصح له تعالی، و لا یطلقه علی غیره تعالی إذا کان مختصا کاسم الجلالهٔ و لا یتلفظ به فی محل لا یناسبه کبیت الخلاء، و علی هذا القیاس و ما قدمناه من المعنی أوسع و أشمل و أنسب لسیاق قوله الآتی «سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسی» «وَ نُیَسِّرُکَ لِلْیُسْری فَذَکِّرْ» فإن السیاق سیاق البعث إلی التذکرهٔ و التبلیغ فبدأ أولا بإصلاح کلامه (ص) و تجریده عن کل ما یشعر بجلی الشرک و خفیه بأمره بتنزیه اسم ربه، و وعد ثانیا بإقرائه بحیث لا ین سی شیئا مما أوحی إلیه و تسهیل طریقهٔ التبلیغ علیه ثم أمر بالتذکیر و التبلیغ فافهم.

قوله تعالی: «الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّی» خلق الشیء جمع أجزائه، و تسویته جعلها متساویهٔ بحیث یوضع کل فی موضعه الذی یلیق به و یعطی حقه کوضع کل عضو من أعضاء الإنسان فیما یناسبه من الموضع.

و الخلق و التسویهٔ و إن کانا مطلقین لکنهما إنما یشملان ما فیه ترکیب أو شائبهٔ ترکیب من المخلوقات.

و الآیهٔ إلی تمام أربع آیات تصف التدبیر الإلهی و هی برهان علی ربوبیته تعالی المطلقهٔ.

قوله تعالی: «وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدی» أی جعل الأشیاء التی خلقه ا علی مقادیر مخصوصهٔ و حدود معینهٔ فی ذواتها و صفاتها و أفعالها لا تتعداها و جهزها بما یناسب ما قدر لها فهداها إلی ما قدر فکل یسلک نحو ما قدر له بهدایهٔ ربانیهٔ تکوینیهٔ کالطفل یهتدی إلی ثدی أمه و الفرخ إلی زق أمه و أبیه، و الذکر إلی الأنثی و ذی النفع إلی نفعه و علی هذا القیاس.

قال تعالی: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ»: الحجر:

۲۱، و قال: «ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ»: عبس: ۲۰ و قال: «لِکُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّیها» البقرهٔ: ۱۴۸.

قوله تعالی: «وَ الَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعی» المرعی ما ترعاه الدواب فالله تعالی هو الذی أخرجها أی أنبتها.

ص:266

قوله تعالى: «فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى » الغثاء ما يقذفه السيل على جانب الوادى من الحشيش و النبات، و المراد هنا- كما قيل- اليابس من النبات، و الأحوى الأسود.

و إخراج المرعى لتغذى الحيوان ثم جعله غثاء أحوى من مصاديق التدبير الربوبى و دلائله كما أن الخلق و التسوية و التقدير و الهداية كذلک.

قوله تعالى: «سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى » قال فى المفر دات،: و القراءة ضم الحروف و الكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل، و ليس يقال ذلک لكل جمع لا يقال : قرأت القوم إذا جمعتهم، و يدل على ذلک أنه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءة، انتهى، و قال فى المجمع، : و الإقراء أخذ القراءة على القارئ بالاستماع لتقويم الزلل، و القارئ التالى. انتهى.

و ليس إقراؤه تعالى نبيه ص القرآن مثل إقراء بعضنا بعضا باستماع المقرى لما يقرؤه القارئ و إصلاح ما لا يحسنه أو يغلط فيه فلم يعهد من النبى ص أن يقرأ شيئا من القرآن فلا يحسنه أو يغلط فيه عن نسيان للوحى ثم يقرأ فيصلح بل المراد تمكينه من قراءة القرآن كما أنزل من غير أن يغيره بزيادة أو نقص أو تحريف بسبب النسيان.

فقوله: «سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى » وعد منه لنبيه (ص) أن يمكنه من العلم بالقرآن و حفظه على ما أنزل بحيث يرتفع عنه النسيان فيقرؤه كما أنزل و هو الملاک فى تبليغ الوحى كما أوحى إليه.

و قوله: «إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ» استثناء مفيد لبقاء القدرة الإلهية على إطلاقها و أن هذه العطية و هى الإقراء بحيث لا تنسى لا ينقطع عنه سبحانه بالإعطاء بحيث لا يقدر بعد على إنسائک بل هو باق على إطلاق قدرته له أن يشاء إنساءک متى شاء و إن كان لا يشاء ذلک فهو نظير الاستثناء الذى فى قوله : «وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّکَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ»: هود: ۱۰۸ و قد تقدم توضيحه.

و ليس المراد بالاستثناء إخراج بعض أفراد النسيان من عموم النفى و المعنى سنقرئک فلا تنسى شيئا إلا ما شاء الله أن تنساه و ذلک أن كل إنسان على هذه الحال يحفظ أشياء و ينسى أشياء فلا معنى لاختصاصه بالنبى ص بلحن الامتنان مع كونه مشتركا بينه و بين غيره فالوجه ما قدمناه.

و الآية بسياقها لا تخلو من تأييد لما قيل: إنه كان النبى ص إذا نزل عليه جبريل

ص:267

بالوحى يقرؤه مخافة أن ينساه فكان لا يفرغ جبريل من آخر الوحى حتى يتكلم هو بأوله فلما نزلت هذه الآية لم ينس بعده شيئا.

و يقرب من الاعتبار أن تكون هذه الآية أعنى قوله : «سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى» نازلة أولا ثم قوله: «لا تُحَرِّکْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ »: القيامة: ١٩ ثم قوله: «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْکَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً»: طه: ١١۴.

و قوله: «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى» الجهر كمال ظهور الشیء لحاسة البصر كقوله.

«فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً»: النساء: ١۵٣، أو لحاسة السمع كقوله: «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ»: الأنبياء: ١١٠، و المراد بالجهر الظاهر للإدراک بقرينة مقابلته لقوله: «وَ ما يَخْفى» من غير تقييده بسمع أو بصر.

و الجملة فی مقام التعليل لقوله . «سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى» و المعنى سنصلح لک بالک فی تلقی الوحی و حفظه لأنا نعلم ظاهر الأشياء و باطنها فنعلم ظاهر حالک و باطنها و ما أنت عليه من الاهتمام بأمر الوحی و الحرص على طاعته فيما أمر به.

و فی قوله: «إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ» إلخ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة و النكتة فيه الإشارة إلى حجة الاستثناء فإفاضة العلم و الحفظ للنبی ص إنما لا يسلب القدر ة على خلافه و لا يحدها منه تعالى لأنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال و منها القدرة المطلقة ثم جرى الالتفات فی قوله: «إِنَّهُ يَعْلَمُ» إلخ لمثل النكتة.

قوله تعالى: «وَ نُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرى » اليسرى- مؤنث أيسر- و هو وصف قائم مقام موصوفة المحذوف أی الطر يقة اليسرى و التيسير التسهيل أی و نجعلک بحيث تتخذ دائما أسهل الطرق للدعوة و التبليغ قولا و فعلا فتهدی قوما و تتم الحجة على آخرين و تصبر على أذاهم.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال : و نيسر لک اليسرى كما قال : «وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي»: طه: ٢۶ و إنما عدل عن ذلک إلى قوله: «وَ نُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرى» لأن الكلام فی تجهيزه تعالى نفس النبی الشريفة و جعله إياها صالحة لتأدية الرسالة و نشر الدعوة . على ما فی نيسر اليسرى من إيهام تحصيل الحاصل.

فالمراد جعله (ص) صافی الفطرة حقيقا على اختيار الطريقة اليسرى التی هی طريقة

ص:268

الفطرة فالآية فی معنى قوله حكاية عن موسى: «حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» الأعراف: ١٠۵.

قوله تعالى: «فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى» تفريع على ما تقدم من أمره (ص) بتنزيه اسم ربه و وعده إقراء الوحی بحيث لا ينسى و تيسيره لليسرى و هی الشرائط الضرورية التی يتوقف عليها نجاح الدعوة الدينية.

و المعنى إذ تم لک الأمر بامتثال ما أمرناک به و إقرائک فلا تنسى و تيسيرک لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى.

و قد اشترط فی الأمر بالتذکرة أن تکون نافعة و هو شرط علی حقیقته فإنها إذا لم تنفع کانت لغوا و هو تعالی یجل عن أن یأمر باللغو فالتذکرة لمن یخشی لأول مرة تفید میلا من نفسه إلی الحق و هو نفعها و کذا التذکرة بعد التذکرة کما قال : «سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشی» و التذکرة للأشقی الذی لا خشیة فی قلبه لأول مرة تفید تمام الحجة علیه و هو نفعها و یلازمها تجنبه و تولیه عن الحق کما قال: «وَ یَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَی» و التذکرة بعد التذکرة له لا تنفع شیئا و لذا أمر بالإعراض عن ذلک قال تعالی : «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّی عَنْ ذِکْرِنا وَ لَمْ یُرِدْ إِلَّا الْحَیاةَ الدُّنْیا»: النجم: ۲۹.

و قیل: الشرط شرط صوری غیر حقیقی و إنما هو إخبار عن أن الذکری نافعة لا محالة فی زیادة الطاعة و الانتهاء عن المعصیة کما یقال: سله إن نفع السؤال و لذا قال بعضهم «إن» «إِنْ» فی الآیة بمعنی قد، و قال آخرون: إنها بمعنی إذ.

و فیه أن کون الذکری نافعة مفیدة دائما حتی فیمن یعاند الحق- و قد تمت علیه الحجة- ممنوع کیف؟ و قد قیل فیهم : «سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا یُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ وَ عَلی سَمْعِهِمْ وَ عَلی أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ»: البقرة: ۷.

و قیل: إن فی الکلام إیجازا بالحذف، و التقدیر فذکر إن نفعت الذکری و إن لم تنفع و ذلک لأنه (ص) بأس للتذکرة و الإعذار فعلیه أن یذکر نفع أو لم ینفع فالآیة من قبیل قوله: «وَ جَعَلَ لَکُمْ سَرابِیلَ تَقِیکُمُ الْحَرَّ»: النحل: ۸۱ أی و البرد.

و فیه أن وجوب التذکرة علیه (ص) حتی فیما لا یترتب علیها أثرا أصلا ممنوع.

و قیل: إن الشرط مسوق للإشارة إلی استبعاد النفع فی تذکرة هؤلاء المذکورین

ص:269

نعیا علیهم کأنه قیل: افعل ما أمرت به لتوجر و إن لم ینتفعوا به.

و فیه أنه یرده قوله تعالی بعده بلا فصل: «سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشی».

قوله تعالی: «سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشی» أی سیتذکر و یتعظ بالقرآن من فی قلبه شیء من خشیة الله و خوف عقابه.

قوله تعالی: «وَ یَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَی» الضمیر للذکری و المراد بالأشقی بقرینة المقابلة من لیس فی قلبه شیء من خشیة الله تعالی، و تجنب الشیء التباعد عنه، و المعنی و سیتباعد عن الذکری من لا یخشی الله.

قوله تعالی: «الَّذِی یَصْلَی النَّارَ الْکُبْری» الظاهر أن المراد بالنار الکبری نار جهنم و هی نار کبری بالقیاس إلی نار الدنیا، و قیل : المراد بها أسفل درکات جهنم و هی أشدها عذابا.

قوله تعالی: «ثُمَّ لا یَمُوتُ فِیها وَ لا یَحْیی» ثم للتراخی بحسب رتبة الکلام، و المراد من نفی الموت و الحیاة عنه معا نفی النجاة نفیا مؤبدا فإن النجاة بمعنی انقطاع العذاب بأحد أمرین إما بالموت حتی ینقطع عنه ال عذاب بانقطاع وجوده و إما یتبدل صفة

الحياة من الشقاء إلى السعادة و من العذاب إلى الراحة فالمراد بالحياة فى الآية الحياة الطيبة على حد قولهم فى الحرض : لا حى فيرجى و لا ميت فينسى.

قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّٰى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّٰى» التزكى هو التطهر و المراد به التطهر من ألواث التعلقات الدنيوية الصارفة عن الآخرة بدليل قوله بعد «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا » إلخ، و الرجوع إلى الله بالتوجه إليه تطهر من الإخلاد إلى الأرض، و الإنفاق فى سبيل الله تطهر من لوث التعلق المالى حتى أن وضوء الصلاة تمثيل للتطهر عما كسبته الوجوه و الأيدى و الأقدام.

و قوله: «وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّٰى» الظاهر أن المراد بالذكر الذكر اللفظى، و بالصلاة التوجه الخاص المشروع فى الإسلام.

و الآيتان بحسب ظاهر مدلولهما على العموم لكن ورد فى المأثور عن أئمة أهل ال بيت (ع) أنهما نزلتا فى زكاة الفطر و صلاة العيد و كذا من طرق أهل السنة.

قوله تعالى: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا» إضراب بالخطاب لعامة الناس على ما يدعو إليه طبعهم البشرى من التعلق التام بالدنيا و الاشتغال بتعميرها، و الإيثار

ص:270

الاختيار، و قيل: الخطاب للكفار، و الكلام على أى حال مسوق للعتاب و الالتفات لتأكيده.

قوله تعالى: «وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ » عد الآخرة أبقى بالنسبة إلى الدنيا مع أنها باقية أبدية فى نفسها لأن المقام مقام الترجيح بين الدنيا و الآخرة و يكفى فى الترجيح مجرد كون ا لآخرة خيرا و أبقى بالنسبة إلى الدنيا و إن قطع النظر عن كونها باقية أبدية.

قوله تعالى: «إِنَّ هٰذٰا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولىٰ صُحُفِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ» الإشارة بهذا إلى ما بين فى قوله : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّٰى» إلى تمام أربع آيات، و قيل: هذا إشارة إلى مضمون قوله: «وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ».

قيل: و فى إبهام الصحف و وصفها بالتقدم أولا ثم بيانها و تفسيرها بصحف إبراهيم و موسى ثانيا ما لا يخفى من تفخيم شأنها و تعظيم أمرها.

بحث روائى

فى تفسير العياشى، عن عقبة بن عامر الجهنى قال ﷺ: لما نزلت: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » قال رسول الله ص : اجعلوها فى ركوعكم، و لما نزل «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قال: اجعلوها فى سجودكم:.

أقول: و رواه أيضا فى الدر المنثور، عن أحمد و أبى داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن عقبة عنه (ص).

و فی تفسیر القمی،": «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی» قال: قل سبحان ربی الأعلی «الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّی و الَّذِی قَدَّرَ فَهَدی » قال: قدر الأشیاء بالتقدیر الأول ثم هدی إلیها من یشاء.

و فیه،": فی قوله تعالی: «وَ الَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعی» قال: أی النبات. و فی قوله:

«غُثاءً أَحْوی» قال: یصیر هشیما بعد بلوغه و یسود.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن ابن عباس قال ❊: کان النبی ص یستذکر القرآن مخافة أن ینساه- فقیل له: کفیناک ذلک و نزلت: «سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسی».

و فی الفقیه،: و سئل الصادق (ع) عن قول الله عز و جل: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکَّی» قال قال:

من أخرج الفطرة- قیل له: و «ذَکَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّی» قال: خرج إلی الجبانة «۱» فصلی.:

---

(۱) الجبانة: الصحراء

أقول: و روی هذا المعنی أیضا عن حماد عن جریر عن أبی بصیر و زرارة عنه (ع) و رواه القمی فی تفسیره، مرسلا مضمرا.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن أبی سعید الخدری قال ❊: کان رسول الله ص یقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکَّی- وَ ذَکَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّی» ثم یقسم الفطرة قبل أن یغدو إلی المصلی یوم الفطر.

أقول: و روی أیضا نزول الآیتین فی زکاة الفطرة و صلاة العید بطریقین عن أبی سعید موقوفا، و کذا بطریقین عن ابن عمر و بطریق عن نائلة بن الأصقع و بطریقین عن أبی العالیة و بطریق عن عطاء و بطریق عن محمد بن سیرین و بطریق عن إبراهیم النخعی و کذا عن عمرو بن عوف عن النبی ص.

و فی الخصال، عن عتبة بن عمرو اللیثی عن أبی ذر فی حدیث ❊ قلت: یا رسول الله فما فی الدنیا مما أنزل الله علیک- شیء مما کان فی صحف إبراهیم و موسی؟ قال: یا أبا ذر اقرأ «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکَّی- وَ ذَکَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّی بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَیاةَ الدُّنْیا- وَ الْآخِرَةُ خَیْرٌ وَ أَبْقی- إِنَّ هذا لَفِی الصُّحُفِ الْأُولی صُحُفِ إِبْراهِیمَ وَ مُوسی

». أقول: یؤید الحدیث کون الإشارة بهذا إلی مجموع الآیات الأربع کما تقدم.

و فی البصائر، بإسناده عن أبی بصیر قال ؟: قال أبو عبد الله (ع): عندنا الصحف التی قال الله: «صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى» قلت: الصحف هی الألواح؟ قال: نعم:.

أقول: و رواه أیضا بطریق آخر عن أبی بصیر عنه (ع)

و الظاهر أن المراد بکون الصحف هی الألواح کونها هی التوراة المعبر عنها فی مواضع من القرآن بالألواح کقوله تعالی : «وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»: الأعراف: ۱۴۵ و قوله: «وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ» الأعراف: ۱۵۰ و قوله: «أَخَذَ الْأَلْواحَ»: الأعراف: ۱۵۴.

و فی المجمع، روی عن أبی ذر أنه قال : قلت: یا رسول الله کم الأنبیاء؟ قال : مائة ألف نبی و أربعة و عشرون ألفا- قلت: یا رسول الله کم المرسلون منهم؟ قال: ثلاث مائة و ثلاثة عشر و بقیتهم أنبیاء. قلت: کان آدم نبیا؟ قال: نعم کلمة الله و خلقه بیده.

یا أبا ذر أربعة من الأنبیاء عرب: هود و صالح و شعیب و نبیک.

قلت: یا رسول الله کم أنزل الله من کتاب؟ قال : مائة و أربعة کتب أنزل منه ا علی آدم عشرة صحف، و علی شیث خمسین صحیفة، و علی أخنوخ و هو إدریس ثلاثین صحیفة- و هو

ص:272

أول من خط بالقلم و علی إبراهیم عشر صحائف- و التوراة و الإنجیل و الزبور و الفرقان.

أقول: و روی ذلک فی الدر المنثور، عن عبد بن حمید و ابن مردویه و ابن عساکر عن أبی ذر ؟ غیر أنه لم یذکر صحف آدم- و ذکر لموسی عشر صحف قبل التوراة.

(۸۸) سورة الغاشیة مکیة و هی ست و عشرون آیة (۲۶)

[سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۱ الى ۲۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (۲) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (۳) تَصْلى ناراً حامِيَةً (۴)

تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (۵) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (۶) لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (۸) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (۹)

فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۱۰) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (۱۱) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (۱۲) فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (۱۳) وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (۱۴)

وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (۱۵) وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (۱۶) أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (۱۹)

وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (۲۰) فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (۲۱) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (۲۲) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (۲۳) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (۲۴)

إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (۲۵) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (۲۶)

بيان

سورة إنذار و تبشير تصف الغاشية و هی يوم القيامة الذی يحيط بالناس تصفه بحال

الناس فيه من حيث انقسامهم فريقين: السعداء و الأشقياء و استقرارهم فيما أعد لهم من الجنة و النار و تنتهی إلی أمره (ص) أن يذكر الناس بفنون من التدبير الربوبی فی العالم الدالة علی ربوبيته تعالی لهم و رجوعهم إليه لحساب أعمالهم.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالی: «هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ » استفهام بداعی التفخيم و الإعظام، و المراد بالغاشية يوم القيامة سميت بذلک لأنها تغشی الناس و تحيط بهم كما قال : «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً »: الكهف: ۴۷، أو لأنها تغشی الناس بأهوالها بغتة كما قيل، أو لأنها تغشی وجوه الكفار بالعذاب.

قوله تعالی: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ » أی مذللة بالغم و العذاب يغشاها، و الخشوع إنما هو لأرباب الوجوه و إنما نسب إلی الوجوه لأن الخشوع و المذلة يظهر فيها.

قوله تعالی: «عامِلَةٌ ناصِبَةٌ» النصب التعب و «عامِلَةٌ» خبر بعد خبر لوجوه، و كذا قوله : «ناصِبَةٌ» و «تَصْلى» و «تُسْقى» و «لَيْسَ لَهُمْ» و المراد من عملها و نصبها بقرينة مقابلتهما فی صفة أهل الجنة الآتية بقوله : «لِسَعْيِها راضِيَةٌ» عملها فی الدنيا و نصبها فی الآخرة فإن الإنسان إنما يعمل ما يعمل فی الدنيا ليسعد به و يظفر بالمطلوب لكن عملهم خبط باطل لا ينفعهم شيئا كما قال تعالی: «وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً» الفرقان: ۲۳ فلا يعود إليهم من عملهم إلا النصب و التعب بخلاف أهل الجنة فإنهم لسعيهم الذی سعوه فی الدنيا راضون لما ساقهم إلی الجنة و الراحة.

و قيل: المراد أنها عاملة فی النار ناصبة فيها فهی تعالج أنواع العذاب الذی تعذب به و تتعب لذلک.

و قيل: المراد أنها عاملة فی الدنيا بالمعاصی ناصبة فی النار يوم القيامة.

قوله تعالى: «تَصْلى ناراً حامِيَةً» أى تلزم نارا فى نهاية الحرارة.

قوله تعالى: «تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ» أى حارة بالغة فى حرارتها.

قوله تعالى: «لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِى مِنْ جُوعٍ » قيل: الضريع نوع من الشوك يقال له: الشبرق و أهل الحجاز يسمونه الضريع إذا يبس و هو أخبث طعام و أبشعه لا ترعاه دابة، و لعل تسمية ما فى النار به لمجرد المشابهة شكلا و خاصة.

ص:274

قوله تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ » من النعومة فيكون كناية عن البهجة و السرور الظاهر على البشرة كما قال : «تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ »: المطففين: ٢۴، أو من النعمة أى متنعمة . قيل: و لم يعطف على قوله : «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ» إشارة إلى كمال البينونة بين حالى الفريقين.

قوله تعالى: «لِسَعْيِها راضِيَةٌ» اللام للتقوية، و المراد بالسعى سعيها فى الدنيا بالعمل الصالح، و المعنى رضيت سعيها و هو عملها الصالح حيث جوزيت به جزاء حسنا.

قوله تعالى: «فِى جَنَّةٍ عالِيَةٍ - إلى قوله- وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ» المراد بعلوها ارتفاع درجاتها و شرفها و جلالتها و غزارة عيشها فإن فيها حياة لا موت معها، و لذة لا ألم يشوبها و سرورا لا غم و لا حزن يداخله لهم فيها فوق ما يشاءون.

و قوله: «لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً» أى لا تسمع تلك الوجوه فى الجنة كلمة ساقطة لا فائدة فيها.

و قوله: «فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ» المراد بالعين جنسها فقد عد تعالى فيها عيونا فى كلامه كالسلسبيل و الشراب الطهور و غيرهما.

و قوله: «فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ» السرر جمع سرير و فى ارتفاعها جلالة القاعد عليها، «وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ» الأكواب جمع كوب و هو الإبريق لا خرطوم له و لا عروة يتخذ فيه الشراب «وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ» النمارق جمع نمرقة و هى الوسادة و كونها مصفوفة وضعها فى المجلس بحيث يتصل بعضها ببعض على هيئة المجالس الفاخرة فى الدنيا «وَ زَرابِىُّ مَبْثُوثَةٌ » الزرابى جمع زريبة مثلثة الزاى و هى البساط الفاخر و بثها بسطها للقعود عليها.

قوله تعالى: «أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » بعد ما فرغ من وصف الغاشية و بيان حال الفريقين، المؤمنين و الكفار عقبه بإشارة إجمالية إلى التدبير الربوبى الذى ی فصح عن ربوبيته تعالى المقتضية لوجوب عبادته و لازم ذلك حساب الأعمال و جزاء المؤمن بإيمانه و الكافر بكفره و الظرف الذى فيه ذلك هو الغاشية.

و قد دعاهم أولا أن ينظروا إلى الإبل كيف خلقت؟ و كيف صور الله سبحانه أرضا عادمة للحياة فاقدة للشعور بهذه الصورة العجيبة فى أعضائها و قواها و أفاعيلها فسخرها لهم ينتفعون من ركوبها و حملها و لحمها و ضرعها و جلدها و وبرها حتى بولها و بعرتها فهل هذا كله توافق اتفاقى غير مطلوب بحياله.؟

و تخصيص الإبل بالذكر من جهة أن السورة مكية و أول من تتلى عليهم الإعراب

ص:275

و اتخاذ الآبال من أركان عيشتهم.

قوله تعالى: «وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ» و زينت بالشمس و القمر و سائر النجوم الزواهر بما فيها من المنافع لأهل الأرض و قد جعل دونها الهواء الذى يضطر إليه الحيوان فى تنفسه.

قوله تعالى: «وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ» و هى أوتاد الأرض المانعة من مورها و مخازن الماء التى تتفجر منها العيون و الأنهار و محافظ للمعادن.

قوله تعالى: «وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ» أى بسطت و سويت فصلحت لسكنى الإنسان و سهل فيها النقل و الانتقال و أغلب التصرفات الصناعية التى للإنسان.

فهذه تدبيرات كلية مستندة إليه تعالى بلا ريب فيه فهو رب السماء و الأرض ما بينهما فهو رب العالم الإنسانى يجب عليهم أن يتخذوه ربا و يوحدوه و يعبدوه و أمامهم الغاشية و هو يوم الحساب و الجزاء.

قوله تعالى: «فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ » تفريع على ما تقدم و المعنى إذا كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه و أمامهم يوم الحساب و الجزاء لمن آمن منهم أو كفر فذكرهم بذلك.

و قوله: «إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ» بيان أن وظيفته- و هو رسول- التذكرة رجاء أن يستجيبوا و يؤمنوا من غير إكراه و إلجاء.

قوله تعالى: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» المصيطر- و أصله المسيطر- المتسلط، و الجملة بيان و تفسير لقوله: «إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ».

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ» استثناء من المفعول المحذوف لقوله السابق: «فَذَكِّرْ» و التقدير فذكر الناس إلا من تولى منهم عن التذكرة و كفر إذ تذكرته لغو لا فائدة فيها، و معلوم أن التولى و الكفر إنما يكون بعد التذكرة فالمنفى بالاستثناء هو التذكرة بعد التذكرة كأنه قيل: ذكرهم و أدم التذكرة إلا لمن ذكرته فتولى عنها و كفر، فليس عليك إدامة تذكرته بل أعرض عنه فيعذبه الله العذاب الأكبر.

فقوله: «فَذَكِّرْ- إلى أن قال- إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ » فى معنى قوله: «فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى - إلى أن قال- وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى»: الأعلى: ١٢ و قد تقدم بيانه.

و قيل: الاستثناء من ضمير «عَلَيْهِمْ» فى قوله: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» و المعنى لست عليهم بمتسلط إلا على من تولى منهم عن التذكرة و أقام على الكفر فسيسلطک الله عليه و يأمرک بالجهاد فتقاتله فتقتله.

و قيل: الاستثناء منقطع و المعنى لست عليهم بمتسلط لكن من تولى و كفر منهم يعذبه الله العذاب الأكبر، و ما قدمناه من الوجه أرجح و أقرب.

قوله تعالى: «فَيُعَذِّبُهُ اللّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ » هو عذاب جهنم فالآية كما تقدم محاذية لقوله فى سورة الأعلى «الَّذِي يَصْلَى النّارَ الْكُبْرى».

قوله تعالى: «إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ» الإياب الرجوع و «إِلَيْنا» خبر إن و إنما قدم للتأكيد و لرعاية الفواصل دون الحصر إذ لا قائل برجوع الناس إلى غير الله سبحانه و الآية فى مقام التعليل للتعذيب المذكور فى الآية السابقة.

قوله تعالى: «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ» الكلام فيه كالكلام فى الآية السابقة.

بحث روائى

فى المجمع، و قال أبو عبد الله (ع): كل ناصب و إن تعبد و اجتهد يصير إلى هذه الآية- «عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تَصْلى ناراً حامِيَةً».

أقول: و رواه فى ثواب الأعمال، مسندا و لفظه : كل ناصب و إن تعبد و اجتهد يصير إلى هذه الغاية «عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تَصْلى ناراً حامِيَةً».

و فيه، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ص: الضريع شيء فى النار يشبه الشوک- أمر من الصبر و أنتن من الجيفة- و أشد حرا من النار سماه الله الضريع.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً» قال: الهزل و الكذب.

و فيه،": فى قوله تعالى: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» قال: بحافظ و لا كاتب عليهم.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن جابر قال*:

قال رسول الله ص: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله- فإذا قالوها عصموا منى دماءهم و أموالهم إلا بحقها- و حسابهم على الله ثم قرأ «فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ».

أقول: لا دلالة فی الروایة علی کون الاستثناء من ضمیر «عَلَیْهِمْ» و هو ظاهر.

و فیه، و فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قوله تعالی: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّی وَ کَفَرَ» یرید من لم یتعظ و لم یصدقک- و جحد ربوبیتی و کفر نعمتی «فَیُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَکْبَرَ» یرید الغلیظ الشدید الدائم «إِنَّ إِلَیْنا إِیابَهُمْ» یرید مصیرهم «ثُمَّ إِنَّ عَلَیْنا حِسابَهُمْ» یرید جزاءهم.

و فی النهج،: و سئل (ع): کیف یحاسب الله الخلق علی کثرتهم؟ قال: کما یرزقهم علی کثرتهم. قیل: فکیف یحاسبهم و لا یرونه؟ قال: کما یرزقهم و لا یرونه.

و فیه، قال الصادق (ع): کل أمة یحاسبها إمام زمانها، و یعرف الأئمة أولیاءهم و أعداءهم بسیماهم و هو قوله: «وَ عَلَی الْأَعْرافِ رِجالٌ یَعْرِفُونَ کُلًّا بِسِیماهُمْ

» الحدیث.

أقول: قد تقدم توضیح معنی الحدیث فی تفسیر الآیة من سورة الأعراف، و روی هذا المعنی فی البصائر، عن الصادق (ع) مسندا و فی الکافی، عن الباقر و الکاظم (ع) و فی الفقیه، عن الهادی (ع) فی الزیارة الجامعة.

(۸۹) سورة الفجر مکیة و هی ثلاثون آیة (۳۰)

[سورة الفجر (۸۹): الآیات ۱ الی ۳۰]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ الْفَجْرِ (۱) وَ لَیالٍ عَشْرٍ (۲) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (۳) وَ اللَّیْلِ إِذا یَسْرِ (۴)

هَلْ فِی ذلِکَ قَسَمٌ لِذِی حِجْرٍ (۵) أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعادٍ (۶) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (۷) الَّتِی لَمْ یُخْلَقْ مِثْلُها فِی الْبِلادِ (۸) وَ ثَمُودَ الَّذِینَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (۹)

وَ فِرْعَوْنَ ذِی الْأَوْتادِ (۱۰) الَّذِینَ طَغَوْا فِی الْبِلادِ (۱۱) فَأَکْثَرُوا فِیهَا الْفَسادَ (۱۲) فَصَبَّ عَلَیْهِمْ رَبُّکَ سَوْطَ عَذابٍ (۱۳) إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ (۱۴)

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَکْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَیَقُولُ رَبِّی أَکْرَمَنِ (۱۵) وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَیْهِ رِزْقَهُ فَیَقُولُ رَبِّی أَهانَنِ (۱۶) کَلاَّ بَلْ لا تُکْرِمُونَ الْیَتِیمَ (۱۷) وَ لا تَحَاضُّونَ عَلی طَعامِ الْمِسْکِینِ (۱۸) وَ تَأْکُلُونَ التُّراثَ أَکْلاً لَمًّا (۱۹)

وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ جاءَ رَبُّکَ وَ الْمَلَکُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى (٢٣) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (٢٤)

فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَ لا يُوثِقُ وَثا قَهُ أَحَدٌ (٢٦) يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلى رَبِّکِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبادِي (٢٩)

وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

ص:278

بيان

فی السورة ذم التعلق بالدنيا المتعقب للطغيان و الكفران و إيعاد أهله بأشد عذاب الله فی الدنيا و الآخرة فتبين أن الإنسان لقصور نظره و سوء فكره يرى أن ما آتاه الله من نعمه من كرامته على الله و أن ما يتلبس به من الفقر و العدم من هوانه فيطغى و يفسد فی الأرض إذا وجد و يكفر إذا فقد و قد اشتبه عليه الأمر فما يصيبه من القدرة و الثر وة و من الفقر و ضيق المعاش امتحان و ابتلاء إلهی ليظهر به ما ذا يقدم من دنياه لأخراه.

فليس الأمر على ما يتوهمه الإنسان و يقوله بل الأمر كما سيتذكره إذا وقع الحساب و حضر العذاب أن ما أصابه من فقر أو غنى أو قوة أو ضعف كان امتحانا إلهيا و كان يمكنه أن يقدم من يومه لغده فلم يفعل و آثر العقاب على الثواب فليس ينال الحياة السعيدة فی الآخرة إلا النفس المطمئنة إلى ربها المسلمة لأمره التی لا تتزلزل بعواصف الابتلاءات و لا يطغيه الوجدان و لا يكفره الفقدان.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «وَ الْفَجْرِ وَ لَيالٍ عَشْرٍ وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ هَلْ فِی ذلِکَ قَسَمٌ

ص:279

لِذِي حِجْرٍ» الفجر الصبح و الشفع الزوج، قال الراغب: الشفع ضم الشیء إلى مثله و يقال للمشفوع شفع . انتهى. و سرى الليل مضيه و إدباره، و الحجر العقل فقوله: «وَ الْفَجْرِ» إقسام بالصبح و كذا الحال فيما عطف عليه من ليال و الشفع و الوتر و الليل.

و لعل ظاهر قوله: «وَ الْفَجْرِ» أن المراد به مطلق الفجر و لا يبعد أيضا أن يراد به فجر يوم النحر و هو عاشر ذی الحجة.

و قيل: المراد فجر ذی الحجة، و قيل : فجر المحرم أول السنة و قيل : فجر يوم الجمعة، و قيل فجر ليلة جمع، و قيل : المراد به صلاة الفجر، و قيل: النهار كله و قيل:

فجر العيون من الصخور و غيرها و هی وجوه ردیئة.

و قوله: «وَ لَيالٍ عَشْرٍ» لعل المراد بها اللیالی العشر من أول ذی الحجة إلی عاشرها و التنکیر للتفخیم.

و قیل: المراد بها اللیالی العشر من آخر شهر رمضان، و قیل: اللیالی العشر من أوله، و قیل اللیالی العشر من أول المحرم، و قیل: المراد عبادة لیال عشر علی تقدیر أن یراد بالفجر صلاة الفجر.

و قوله «وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ» یقبل الانطباق علی یوم الترویة و یوم عرفة و هو الأنسب علی تقدیر أن یراد بالفجر و لیال عشر فجر ذی الحجة و العشر الأول من لیالیها.

و قیل: المراد صلاتا الشفع و الوتر فی آخر اللیل، و قیل : مطلق الصلاة فمنها شفع و منها وتر، و قیل : الشفع یوم النحر و الوتر یوم عرفة، و قیل: الشفع جمیع الخلق لأنه قال: «وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً»: النبأ: ۸ و الوتر هو الله تعالی، و علی هذه الأقوال روایات ستوافیک فی البحث الروائی الآتی إن شاء الله.

و قیل: المراد الزوج و الفرد من العدد، و فی الإقسام بهما تذکیر بالعدد لما فی ضبط المقادیر به من عظیم النعمة من الله سبحانه، و قیل: الشفع و الوتر جمیع المخلوقات لأن الأشیاء إما زوج و إما فرد، و قیل : الوتر آدم شفع بزوجته، و قیل : الشفع الأیام و اللیالی و الوتر الیوم الذی لا لیل بعده و هو یوم القیامة، و قیل: الشفع الصفا و المروة و الوتر البیت الحرام، و قیل: الشفع أیام عاد و الوتر لیالیها، و قیل: الشفع أبواب الجنة و هی ثمانیة و الوتر أبواب جهنم و هی سبعة إلی غیر ذلک و هی کثیرة أنهاها بعضهم إلی ستة و ثلاثین قولا و لا یخلو أکثرها من تحکم.

ص:280

و قوله: «وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ» أی یمضی فهو کقوله: «وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ»: المدثر: ۳۳ و ظاهره أن اللام للجنس فالمراد به مطلق آخر اللیل، و قیل: المراد به لیلة المزدلفة و هی لیلة النحر التی یسری فیها الحاج من عرفات إلی المزدلفة فیجتمع فیها علی طاعة الله ثم یغدوا منها إلی منی و هو کما تری و خاصة علی القول بکون المراد بلیال عشر هو اللیالی العشر الأوائل منها.

و قوله: «هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ» الإشارة بذلک إلی ما تقدم من القسم، و الاستفهام للتقریر، و المعنی أن فی ذلک الذی قدمناه قسما کافیا لمن له عقل یفقه به القول و یمیز الحق من الباطل، و إذا أقسم الله سبحانه بأمر- و لا یقسم إلا بما له شرف و منزلة- کان من القول الحق المؤکد الذی لا ریب فی صدقه.

و جواب الأقسام المذکورة محذوف یدل علیه ما سیذکر من عذاب أهل الطغیان و الکفران فی الدنیا و الآخرة و ثواب النفوس المطمئنة، و أن إنعامه تعالی علی من أنعم علیه و إمساکه عنه فیمن أمسک إنما هو ابتلاء و امتحان.

و حذف الجواب و الإشارة إلیه علی طریق التکنیة أوقع و آکد فی باب الإنذار و التبشیر.

قوله تعالى: «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ » هم عاد الأولى قوم هود تكررت قصتهم فى القرآن الكريم و أشير إلى أنهم كانوا بالأحقاف، و قد قدمنا ما يتحصل من قصصهم فى القرآن الكريم فى تفسير سورة هود.

قوله تعالى: «إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِی لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِی الْبِلادِ » العماد و جمعه عمد ما يعتمد عليه الأبنية، و ظاهر الآيتين أن إرم كانت مدينة لهم معمورة عديمة النظير ذات قصور عالية و عمد ممددة، و قد انقطعت أخبار القوم عهدهم و انمحت آثارهم، فلا سبيل إلى الحصول على تفصيل حالهم تطمئن إليها النفس إلا ما قصة القرآن الكريم من إجمال قص تهم أنهم كانوا بعد قوم نوح قاطنين بالأحقاف و كانوا ذوى بسطة فى الخلق أولى قوة و بطش شديد، و كان لهم تقدم و رقى فى المدنية و الحضارة لهم بلاد عامرة و أراض خصبة ذات جنات و نخيل و زروع و مقام كريم و قد تقدمت القصة.

و قيل: المراد بإرم قوم عاد- و هو فى الأصل اسم أبيهم سموا باسم أبيهم كما يقال:

قريش و يراد به القرشيون و يطلق إسرائيل و يراد به بنو إسرائيل- و المراد بكونهم

ص:281

ذات عماد كونهم أولى قوة و سطوة.

و المعنى: أ لم تر كيف فعل ربك بقوم عاد الذين هم قوم إرم ذوو القوة و الشدة الذين لم يخلق مثلهم فى بسطة الجسم و القوة و البطش فى البلاد أو فى أقطار الأرض و لا يخلو من بعد من ظاهر اللفظ.

و أبعد منه ما قيل: إن المراد بكونهم ذات العماد أنهم كانوا أهل عمد سيارة فى الربيع فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم.

و من الأساطير قصة جنة إرم المشهورة المروية عن وهب بن منبه و كعب الأحبار.

قوله تعالى: «وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ » الجوب القطع أى قطعوا صخر الجبال بنحتها بيوتا فهو فى معنى قوله : «وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً»: الشعراء: ١٤٩.

قوله تعالى: «وَ فِرْعَوْنَ ذِی الْأَوْتادِ» هو فرعون موسى، و سمى ذا الأوتاد- على ما فى بعض الروايات- لأنه كان إذا أراد أن يعذب رجلا بسطه على الأرض و وتد يديه و رجليه بأربعة أوتاد فى الأرض و ربما بسطه على خشب و فعل به ذلك، و يؤيده ما حكاه الله من قوله يهدد السحرة إذ آمنوا بموسى : «وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِی جُذُوعِ النَّخْلِ» طه: ٧١ فإنهم كانوا يوتدون يدى المصلوب و رجليه على خشبة الصليب.

قوله تعالى: «الَّذِينَ طَغَوْا فِی الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ» صفة للمذكورين من عاد و ثمود و فرعون، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ» صب الماء معروف و صب سوط العذاب كناية عن التعذيب المتتابع المتواتر الشديد، و تنكير عذاب للتفخيم.

و المعنى فأنزل ربک على كل من هؤلاء الطاغين المكثرين للفساد إثر طغيانهم و إكثارهم الفساد عذابا شديدا متتابعا متواليا لا يوصف.

قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ» المرصاد المكان الذى يرصد منه و يرقب و كونه تعالى على المرصاد استعارة تمثيلية شبه فيها حفظه تعالى لأعمال عباده بمن يقعد على المرصاد يرقب من يراد رقوبه فيأخذه حين يمر به و هو لا يشعر فالله سبحانه رقيب يرقب أعمال عباده حتى إذا طغوا و أكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب.

و فى الآية تعليل ما تقدم من حديث تعذيب الطغاة المكثرين للفساد من الماضين و فى قوله : «رَبَّکَ» بإضافة الرب إلى ضمير الخطاب تلويح إلى أن سنة العذاب جارية فى أمته

ص:282

(ص) على ما جرت عليه فى الأمم الماضين.

قوله تعالى: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّی أَكْرَمَنِ » متفرع على ما قبله، فيه تفصيل حال الإنسان إذا أوتى من نعم الدنيا أو حرم كأنه قيل:

إن الإنسان تحت رقوب إلهى يرصده ربه هل يصلح أو يفسد؟ و يبتليه و يمتحنه فيما آتاه من نعمة أو حرمة هذا هو الأمر فى نفسه و أما الإنسان فإنه إذا أنعم الله عليه بنعمة حسب أن ذلک إكرام إلهى له أن يفعل بها ما يشاء فيطغى و يكثر الفساد، و إذا أمسک و قدر عليه رزقه حسب أنه إهانة إلهية فيكفر و يجزع.

فقوله: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ» المراد به النوع بحسب الطبع الأولى فاللام للجنس دون الاستغراق.

و قوله : «إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ » أى امتحنه و اختبره، و العامل فى الظرف محذوف تقديره كائنا إذا «إلخ» و قيل : العامل فيه «فَيَقُولُ».

و قوله: «فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ» تفسير للابتلاء، و المراد بالإكرام و التنعيم الصوريان و إن شئت فقل : الإكرام و التنعيم حدوثا لا بقاء أى أنه تعالى أكرمه و آتاه النعمة ليشكره و يعبده لكنه جعلها نقمة على نفسه تستتبع العذاب.

و قوله: «فَيَقُولُ رَبِّی أَكْرَمَنِ» أى جعلنى على كرامة منه بالنعم التى آتانيها و إن شئت فقل : القدرة و الجدة الموهوبتان إكرام و تنعيم حدوثا و بقاء فلى أن أفعل ما أشاء.

و الجملة أعنى قوله: «فَيَقُولُ رَبِّی أَكْرَمَنِ» حكاية ما يراه الإنسان بحسب الطبع، و قول الإنسان:

«رَبِّی أَكْرَمَنِ» الظاهر فى نسبة التدبير إلى الله سبحانه- و لا يقول به الوثنية و المنكرون للصانع- مبنى على اعترافه بحسب الفطرة به تعالى و إن استنكف عنه لسانا، و أيضا لرعاية المقابلة مع قوله: «إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ».

قوله تعالی: «وَ أَمّٰا إِذٰا مَا ابْتَلاٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهٰانَنِ» أی و أما إذا ما امتحنه و اختبره فضیق علیه رزقه فیقول ربی أذلنی و استخف بی.

و یظهر من مجموع الآیتین أولا حیث کرر الابتلاء و أثبته فی صورتی التنعیم و الإمساک عنه أن إیتاء النعم و الإمساک عنه جمیعا من الابتلاء و الامتحان الإلهی کما قال: «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً»: الأنبیاء: ۳۵ لا کما یراه الإنسان.

و ثانیا أن إیتاء النعم بما أنه فضل و رحمة إکرام إن لم یبدلها الإنسان نقما علی نفسه.

ص:283

و ثالثا أن الآیتین معا تفیدان أن الإنسان یری سعادته فی الحیاة هی التنعم فی الدنیا بنعم الله تعالی و هو الکرامة عنده و الحرمان منه شقاء عنده و الحال أن الکرامة هی فی التقرب إلیه تعالی بالإیمان و العمل الصالح سواء فی ذلک الغنی و الفقر و أی وجدان و فقدان فإنما ذلک بلاء و امتحان.

و لهم فی معنی الآیتین وجوه أخر ترکنا التعرض لها لقلة الجدوی.

قوله تعالی: «كَلاّٰ بَلْ لاٰ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَ لاٰ تَحَاضُّونَ عَلىٰ طَعٰامِ الْمِسْكِينِ» ردع لقولهم:

إن الکرامة هی فی الغنی و التنعم، و فی الفقر و الفقدان هوان و مذلة، و المعنی لیس کما تقولون و إنما إیتاؤه تعالی النعمة و إمساکه عنه کل ذلک ابتلاء و امتحان یختبر به حال الإنسان من حیث عبودیته.

و فی قوله: «بَلْ لاٰ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» إلخ إضراب یؤکد الردع بذکر بعض التنعم الذی لا یجامع الکرامة البتة کعدم إکرامهم الیتیم بأکل تراثه و منعه منه و عدم التحریض علی إطعام المسکین حبا للمال فالفطرة الإنسانیة لا یرتاب فی أن لا کرامة فی غنی هذا شأنه.

و فی الإضراب مضافا إلی أصل الردع تقریع و لتشدید هذا التقریع وقع الالتفات من الغیبة إلی الخطاب.

فقوله: «بَلْ لاٰ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» عدم إکرامه حرمانه من تراث أبیه- کما کانوا یحرمون صغار الأولاد من الإرث- و ترکه صفر الکف بلغ به الجهد ما بلغ کما تؤیده الآیة التالیة «وَ تَأْكُلُونَ التُّرٰاثَ» إلخ.

و قوله: «وَ لاٰ تَحَاضُّونَ عَلىٰ طَعٰامِ الْمِسْكِينِ» أصله و لا تتحاضون، و هو تحریض بعضهم بعضا علی التصدق علی المساکین المعدمین، و منشؤه حب المال کما فی الآیة الآتیة «وَ تُحِبُّونَ الْمٰالَ» إلخ.

قوله تعالی: «وَ تَأْكُلُونَ التُّرٰاثَ أَكْلاً لَمًّا » اللم أکل الإنسان نصیب نفسه و غیره و أکله ما یجده من دون أن یمیز الطیب من الخبیث، و الآیة تفسیر لعدم إکرامهم الیتیم کما تقدم.

قوله تعالى: «وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا» الجم الكثير العظيم، و الآية تفسر عدم تحاضهم على طعام المسكين كما تقدم.

قوله تعالى: «كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا» الدك هو الدق الشديد، و المراد بالظرف حضور يوم القيامة.

ص:284

ردع ثان عما يقوله الإنسان فى حالى الغنى و الفقر، و قوله : «إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ» إلخ فى مقام التعليل للردع، و محصل المعنى ليس كما يقوله الإنسان فإنه سيتذكر إذا قامت القيامة إن الحياة الدنيا و ما فيها من الغنى و الفقر و أضرابهما لم تكن مقصودة بالذات بل كانت ابتلاء و امتحانا من الله تعالى يميز به السعيد من الشقى و يهيئ الإنسان فيها ما ى عيش به فى الآخرة و قد التبس عليه الأمر فحسبها كرامة مقصودة بالذات فاشتغل بها و لم يقدم لحياته الآخرة شيئا فيتمنى عند ذلك و يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى و لن يصرف التمنى عنه شيئا من العذاب.

قوله تعالى: «وَ جاءَ رَبُّکَ وَ الْمَلَکُ صَفًّا صَفًّا » نسبة المجىء إليه تعالى من المتشابه الذى يحكمه قوله تعالى : «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»: الشورى: ١١ و ما ورد فى آيات القيامة من خواص اليوم كتقطع الأسباب و ارتفاع الحجب عنهم و ظهور أن الله هو الحق المبين.

و إلى ذلک يرجع ما ورد فى الروايات أن المراد بمجيئه تعالى مجىء أمره قال تعالى:

«وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ »: الانفطار: ١٩، و يؤيد هذا الوجه بعض التأييد قوله تعالى «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ »: البقرة: ٢١٠ إذا انضم إلى قوله : «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّکَ »: النحل: ٣٣ و عليه فهناک مضاف محذوف و التقدير جاء أمر ربک أو نسبة المجىء إليه تعالى من المجاز العقلى.

و الكلام فى نسبة المجىء إلى الملائكة و كونهم صفا صفا كما مر.

قوله تعالى: «وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» إلى آخر الآية لا يبعد أن يكون المراد بالمجى ء بجهنم إبرازها لهم كما فى قوله تعالى : «وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى»: النازعات: ٣٦ و قوله:

«وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ»: الشعراء: ٩١، و قوله: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْکَ غِطاءَکَ فَبَصَرُکَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »: ق: ٢٢.

و قوله: «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ» أى يتذكر أجلى التذكر أن ما كان يؤتاه فى الحياة الدنيا من خير أو شر كان من ابتلاء الله و امتحانه و أنه قصر فى أمره، هذا ما يفيده السياق.

و قوله: «وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى» أى و من أين له الذكرى كناية عن عدم انتفاعه بها فإن الذكرى إنما تنفع فيما أمكنه أن يتدارک ما فرط فيه بتوبة و عمل صالح و اليوم يوم الجزاء لا يوم الرجوع و العمل.

قوله تعالى: «يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» أى لحياتى هذه و هى الحياة الآخرة أو المراد الحياة الحقيقية و هى الحياة الآخرة على ما نبه تعالى عليه بقوله: «وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا

إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ»: العنكبوت: ۶۴.

و المراد بالتقديم للحياة تقديم العمل الصالح للحياة الآخرة و ما فى الآية تمن يتمناه الإنسان عند ما يتذكر يوم القيامة و يشاهد أنه لا ينفعه.

قوله تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ وَ لا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ» ضميرا عذابه و وثاقه لله تعالى و المعنى فيومئذ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق و لا يوثق وثاق الله أحد من الخلق أى إن عذابه و وثاقه تعالى يومئذ فوق عذاب الخلق و وثاقهم، تشديد فى الوعيد.

و قرئ «لا يُعَذِّبُ» بفتح الذال و «وَ لا يُوثِقُ» بفتح الثاء بالبناء للمفعول و ضميرا عذابه و وثاقه على هذا للإنسان و المعنى لا يعذب أحد يومئذ مثل عذاب الإنسان و لا يوثق أحد يومئذ مثل وثاقه.

قوله تعالى: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» الذى يعطيه سياق المقابلة بين هذه النفس بما ذكر لها من الأوصاف و عين لها من حسن المنقلب و بين الإنسان المذكور قبل بما ذكر له من وصف التعلق بالدنيا و الطغيان و الفساد و الكفران، و ما أوعد من سوء المصير هو أن النفس المطمئنة هى التى تسكن إلى ربها و ترضى بما رضى به فترى نفسها عبدا لا يملك لنفسه شيئا من خير أو شر أو نفع أو ضر و يرى الدنيا دار مجاز و ما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أى نفع و ضر ابتلاء و امتحانا إلهيا فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان و إكثار الفساد و العلو و الاستكبار، و لا يوقعه الفقر و الفقدان فى الكفر و ترك الشكر بل هو فى مستقر من العبودية لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط.

قوله تعالى: «ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً» خطاب ظرفه جميع يوم القيامة من لدن إحيائها إلى استقرارها فى الجنة بل من حين نزول الموت إلى دخول جنة الخلد و ليس خطابا واقعا بعد الحساب كما ذكره بعضهم.

و توصيفها بالراضية لأن اطمئنانها إلى ربها يستلزم رضاها بما قدر و قضى تكوينا أو حكم به تشريعا فلا تسخطها سانحة و لا تزيغها معصية، و إذا رضى العبد من ربه رضى الرب منه إذ لا يسخطه تعالى إلا خروج العبد من زى العبودية فإذا لزم طريق العبودية استوجب ذلك رضى ربه و لذا عقب قوله «راضِيَةً» بقوله «مَرْضِيَّةً».

قوله تعالى: «فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي» تفريع على قوله «ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ» و فيه دلالة على أن صاحب النفس المطمئنة فى زمرة عباد الله حائز مقام العبودية.

و ذلک أنه لما اطمأن إلی ربه انقطع عن دعوی الاستقلال و رضی بما هو الحق من ربه فرأی ذاته و صفاته و أفعاله ملکا طلقا لربه فلم یرد فیما قدر و قضی و لا فیما أمر و نهی إلا ما أراده ربه، و هذا ظهور العبودیة التامة فی العبد ففی قوله: «فَادْخُلِی فِی عِبادِی» تقریر لمقام عبودیتها.

و فی قوله: «وَ ادْخُلِی جَنَّتِی» تعیین لمستقرها، و فی إضافة الجنة إلی ضمیر التکلم تشریف خاص، و لا یوجد فی کلامه تعالی إضافة الجنة إلی نفسه تعالی و تقدس إلا فی هذه الآیة.

بحث روائی

فی المجمع،: فی قوله تعالی: «وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ»، و قیل: الشفع الخلق لأنه قال:

«وَ خَلَقْناکُمْ أَزْواجاً» و الوتر الله تعالی:، عن عطیة العوفی و أبی صالح و ابن عباس و مجاهد   و هی روایة أبی سعید الخدری عن النبی ص

، و قیل:

الشفع و الوتر الصلاة منها شفع و منها وتر: و هی روایة عن ابن حصین عن النبی ص

، و قیل:

الشفع یوم النحر و الوتر یوم عرفة: عن ابن عباس و عکرمة و الضحاک، و هی روایة جابر عن النبی ص

و الوجه فیه أن یوم النحر یشفع بیوم نفر بعده و یتفرد یوم عرفة بالموقف، و قیل:

الشفع یوم الترویة و الوتر یوم عرفة: و روی ذلک عن أبی جعفر و أبی عبد الله (ع).

أقول: الروایات الثلاث المشار إلیها مرویة عن النبی ص من   طرق أهل السنة و یمکن الجمع بینها بأن المراد مطلق الشفع و الوتر و الروایات من قبیل الإشارة إلی بعض المصادیق.

و فی تفسیر القمی،": «وَ لَیالٍ عَشْرٍ» قال: عشر ذی الحجة «وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ» قال:

الشفع رکعتان و الوتر رکعة،

و فی حدیث: الشفع الحسن و الحسین- و الوتر أمیر المؤمنین (ع) «وَ اللَّیْلِ إِذا یَسْرِ» قال: هی لیلة جمع.

و فیه، فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع)* فی قوله: «لِذِی حِجْرٍ» یقول: لذی عقل.

و فی العلل، بإسناده إلی أبان الأحمر قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز و جل: «وَ فِرْعَوْنَ ذِی الْأَوْتادِ » لأی شیء سمی ذا الأوتاد؟ فقال: لأنه کان إذا عذب رجلا- بسطه علی الأرض علی وجهه و مد یدیه و رجلیه- فأوتدها بأربعة أوتاد فی الأرض.

و ربما بسطه علی خشب منبسط- فوتد رجلیه و یدیه بأربعة أوتاد- ثم ترکه علی حاله حتی یموت- فسماه الله عز و جل فرعون ذا الأوتاد.

ص:287

و فی المجمع،: فی قوله تعالی: «إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ» و

روی عن علی (ع) أنه قال: إن معناه إن ربک قادر أن یجزی أهل المعاصی جزاءهم.

أقول: بناء الروایة علی أخذ الجملة استعارة تمثیلیة.

و فیه، عن الصادق (ع) أنه قال: المرصاد قنطرة علی الصراط لا یجوزها عبد بمظلمة عبد.

و عن الغوالی، عن الصادق (ع) فی حدیث* فی تفسیر قوله تعالی: «وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً- فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَیْهِ» إنما ظن بمعنی استیقن إن الله تعالی لن یضیق علیه رزقه- أ لا تسمع قول الله تعالی: «وَ أَمّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَیْهِ رِزْقَهُ» أی ضیق علیه.

و فی تفسیر القمی، فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع)* فی قوله: «کَلاّ إِذا دُکَّتِ الْأَرْضُ دَکًّا دَکًّا» قال: هی الزلزلة.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن علی بن أبی طالب قال*: قال رسول الله ص: هل تدرون ما تفسیر هذه الآیة «کَلاّ إِذا دُکَّتِ الْأَرْضُ- إلی قوله- وَ جِیءَ یَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» قال: إذا کان یوم القیامة تقاد جهنم بسبعین ألف زمام- بید سبعین ألف ملک فتشرد شردة- لو لا أن الله حبسها لأحرقت السماوات و الأرض.:

أقول: و هو مروی أیضا عن أبی سعید و ابن مسعود و من طرق الشیعة فی أمالی الشیخ، بإسناده عن داود بن سلیمان عن الرضا عن آبائه عن علی (ع) عن النبی ص.

و فی العیون، فی باب ما جاء عن الرضا من أخبار التوحید بإسناده عن علی بن فضال عن أبیه قال *: سألت الرضا (ع) عن قول الله عز و جل : «وَ جاءَ رَبُّکَ وَ الْمَلَکُ صَفًّا صَفًّا » فقال: إن الله سبحانه لا یوصف بالمجیء و الذهاب- تعالی عن الانتقال إنما یعنی بذلک و جاء أمر ربک.

و فی الکافی، بإسناده عن سدیر الصیرفی قال*: قلت لأبی عبد الله (ع): جعلت فداک یا ابن رسول الله- هل یکره المؤمن علی قبض روحه؟ قال: لا و الله إنه إذا أتاه ملک الموت لیقبض روحه- جزع عند ذلک فیقول ملک الموت: یا ولی الله لا تجزع فوالذی بعث محمدا لأنی أبر بک- و أشفق علیک من والد رحیم لو حضرک، افتح عینیک فانظر.

قال: و یمثل له رسول الله ص و أمیر المؤمنین- و فاطمة و الحسن و الحسین و الأئمة من

ص:288

ذریتهم (ع)- فیقال له: هذا رسول الله و أمیر المؤمنین- و فاطمة و الحسن و الحسین- و الأئمة (ع) رفقاؤک.

قال: فیفتح عینیه فینظر- فینادی روحه مناد من قبل رب العزة- فیقول: یا أیتها النفس المطمئنة إلی محمد و أهل بیته- ارجعی إلی ربک راضیة بالولایة مرضیة بالثواب- فادخلی فی عبادی یعنی محمدا و أهل بیته- و ادخلی جنتی- فما من شیء أحب إلیه من استلال روحه و اللحوق بالمنادی.

أقول: و روی هذا المعنی القمی فی تفسیره و البرقی فی المحاسن،.

(۹۰) سورة البلد مکیة و هی عشرون آیة (۲۰)

[سورة البلد (۹۰): الآیات ۱ الی ۲۰]

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (۱) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (۲) وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی کَبَدٍ (۴)

أَ یَحْسَبُ أَنْ لَنْ یَقْدِرَ عَلَیْهِ أَحَدٌ (۵) یَقُولُ أَهْلَکْتُ مالاً لُبَداً (۶) أَ یَحْسَبُ أَنْ لَمْ یَرَهُ أَحَدٌ (۷) أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَیْنَیْنِ (۸) وَ لِساناً وَ شَفَتَیْنِ (۹)

وَ هَدَیْناهُ النَّجْدَیْنِ (۱۰) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (۱۱) وَ ما أَدْراکَ مَا الْعَقَبَةُ (۱۲) فَکُّ رَقَبَةٍ (۱۳) أَوْ إِطْعامٌ فِی یَوْمٍ ذِی مَسْغَبَةٍ (۱۴)

یَتِیماً ذا مَقْرَبَةٍ (۱۵) أَوْ مِسْکِیناً ذا مَتْرَبَةٍ (۱۶) ثُمَّ کانَ مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (۱۷) أُولئِکَ أَصْحابُ الْمَیْمَنَةِ (۱۸) وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (۱۹)

عَلَیْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (۲۰)

ص:289

بيان

تذكر السورة أن خلقة الإنسان مبنية على التعب و المشقة فلا تجد شأنا من شئون الحياة إلا مقرونا بمرارة الكد و التعب من حين يلج في جثمانه الروح إلى أن يموت فلا راحة له عارية من التعب و المشقة و لا سعادة له خالصة من الشقاء و المشأمة إلا في الدار الآخرة عند الله.

فليتحمل ثقل التكاليف الإلهية بالصبر على الطاعة و عن المعصية و ليجد في نشر الرحمة على المبتلين بنوائب الدهر كاليتم و الفقر و المرض و أضرابها حتى يكون من أصحاب الميمنة و إلا فآخرته كأولاه و هو من أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة.

و سياق آيات السورة، يشبه السياق المكي فيؤيد به كون السورة مكية و قد ادعى بعضهم عليه الإجماع، و قيل : السورة مدنية و السياق لا يساعد عليه، و قيل: مدنية إلا أربع آيات من أولها و سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ» ذكروا أن المراد بهذا البلد مكة و تؤيده مكية سياق السورة و قوله : «وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ» خاصة بناء على كون المراد بوالد هو إبراهيم (ع) على ما سيجيء.

قوله تعالى: «وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ» حال من هذا البلد، و وضع الظاهر موضع الضمير في قوله : «بِهذَا الْبَلَدِ» للدلالة على عظم شأنه و الاعتناء بأمره و هو البلد الحرام، و الحل مصدر كالحلول بمعنى الإقامة و الاستقرار في مكان و المصدر بمعنى الفاعل.

و المعنى أقسم بهذا البلد و الحال أنك حال به مقيم فيه و في ذلك تنبيه على تشرف مكة بحلوله (ص) فيها و كونها مولده و مقامه.

و قيل: الجملة معترضة بين القسم و المقسم به و المراد بالحل المستحل الذي لا حرمة له قال في الكشاف، : و اعترض بين القسم و المقسم عليه بقوله : «وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ» يعني و من المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم- عن شرحبيل- يحرمون أن يقتلوا بها صيدا و يعضدوا «۱» بها شجرة و يستحلون إخراجك و قتلك، و فيه تثبيت من رسول الله ص و بعث على

---

(۱) عضد الشجرة: قطعها و نثر ورقها للإبل. و شرحبيل راوي الحديث.

ص:290

احتمال ما كان يكابد من أهل مكة و تعجيب من حالهم في عداوته انتهى.

ثم قال: أو سلى رسول الله ص بالقسم ببلده أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد و اعترض بأن وعده فتح مكة تتميما للتسلية و التنفيس عنه فقال: «وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ» يعني و أنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل و الأسر إلى

آخر ما قال، و محصله تفسير الحل بمعنى المحل ضد المحرم، و المعنى و سنحل لک يوم فتح مكة حينا فنقاتل و تقتل فيه من شئت.

قوله تعالى: «وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ» لزوم نوع من التناسب و الارتباط بين القسم و المقسم عليه يستدعى أن يكون المراد بوالد و ما ولد من بينه و بين البلد المقسم به نسبة ظاهرة و ينطبق على إبراهيم و ولده إسماعيل (ع) و هما السببان الأصليان لبناء بلدة مكة و البانيان للبيت الحرام قال تعالى: «وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ»: البقرة: ۱۲۷ و إبراهيم (ع) هو الذى سأل الله أن يجعل مكة بلدا آمنا قال تعالى:

«وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً»: إبراهيم: ۳۵. و تنكير «والِدٍ» للتعظيم و التفخيم، و التعبير بقوله «وَ ما وَلَدَ» دون أن يقال: و من ولد، للدلالة على التعجيب من أمره مدحا كما فى قوله: «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ»: آل عمران: ۳۶.

و المعنى و أقسم بوالد عظيم الشأن هو إبراهيم و ما و لد من ولد عجيب أمره مبارک أثره و هو إسماعيل ابنه و هما البانيان لهذا البلد فمفاد الآيات الثلاث الإقسام بمكة المشرفة و بالنبى ص الذى هو حل فيها و بإبراهيم و إسماعيل اللذين بنياها.

و قيل: المراد بالوالد إبراهيم و بما ولد جميع أولاده من العرب.

و فيه أن من البعيد أن يقارن الله سبحانه بين النبى ص و إبراهيم (ع) و بين أمثال أبى لهب و أبى جهل و غيرهم من أئمة الكفر فيقسم بهم جميعا فى سياق، و قد تبرأ إبراهيم (ع) ممن لم يتبعه من بنيه على التوحيد إذ قال فيما حكاه الله : «وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»: إبراهيم: ۳۶.

فعلى من يفسر ما ولد بأولاد إبراهيم أن يخصهم بالمسلمين من ذريته كما فى دعاء إبراهيم و إسماعيل عند بنائهما الكعبة على ما حكاه الله: «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا»: البقرة: ۱۲۸.

ص:291

و قيل: المراد بوالد و ما ولد، آدم (ع) و ذريته جميعا بتقريب أن المقسم عليه بهذه الأقسام خلق الإنسان فى كبد و قد سن الله فى خلق هذا النوع و إبقاء وجوده سنة الولادة فقد أقسم فى هذه الآيات بمحصول هذه السنة و هو الوالد و ما ولد على أن الإنسان فى كد و تعب بحسب نوع خلقته من حين يحيى إلى حين يموت.

و هذا الوجه فى نفسه لا بأس به لكن يبقى عليه بيان ال مناسبة بين بلدة مكة و بين والد و كل مولود فى الجمع بينهما فى الأقسام.

و قيل: المراد بهما آدم و الصالحون من ذريته، و كان الوجه فيه تنزيهه تعالى من أن يقسم بأعدائه الطغاة و المفسدين من الكفار و الفساق.

و قيل: المراد بهما كل والد و كل مولود و قيل: من يلد و من لا يلد منهم بأخذ «ما» فى «ما وَلَدَ» نافية لا موصولة.

و قيل: المراد بوالد هو النبى ص و بما ولد أمته لأنه بمنزلة الأب لأمته و هى وجوه بعيدة.

قوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ» الكبد الكد و التعب، و الجملة جواب القسم فاشتمال الكبد على خلق الإنسان و إحاطة الكد و التعب به فى جميع شئون حياته مما لا يخفى على ذى لب فليس يقصد نعمة من نعم الدنيا إلا خالصة فى طيبها محضة فى هنائها و لا ينال شيئا منها إلا مشوبة بما ينغص العيش مقرونة بمقاساة و م كابدة مضافا إلى ما يصيبه من نوائب الدهر و يفاجئه من طوارق الحدثان.

قوله تعالى: «أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» بمنزلة النتيجة لحجة الآية السابقة تقريرها أن الإنسان لما كانت خلقته مبنية على كبد مظروفة له لا ينال قط شيئا مما يريد إلا دون ما يريد أو غير ما يريد فهو محاط فى خلقه مغلوب فى إرادته مقهور فيما قدر له من الأمر و الذى يغلبه فى إرادته و يقهره على التلبس بما قدر له و هو الله سبحانه يقدر عليه من كل جهة فله أن يتصرف فيه بما شاء و يأخذه إذا أراد.

فليس للإنسان أن يحسب أن لن يقدر عليه أحد فيدعوه ذلك إلى أن يعلو على الله و يستكبر عن عبادته أو يعطيه فى بعض ما أمر به كالإنفاق فى سبيله فيستكثره و يمتن به على الله أو يمكر به تعالى بعد ما عمله رياء و سمعة عملا لوجه الكريم فيقول : أهلكت مالا لبدا.

قوله تعالى: «يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً » اللبد الكثير، سياق الآية و ما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة مشعر بأنه كان هناك بعض من أظهر الإسلام أو مال إليه فقد أنفق

ص:292

بعض ماله و امتن به مستكثرا له بقوله : «أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً » فنزلت الآيات و رد الله عليه بأن الفوز بميمنة الحياة لا يتم إلا باقتحام عقبة الإنفاق فى سبيل الله و الدخول فى زمرة الذين آمنوا و تواصوا بالصبر و المرحمة، و يتأيد به ما سيأتى فى البحث الروائى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ» إنكار لما هو لازم قول الإنسان «أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً» على طريق التكنية و محصل المعنى أن لازم إخبار الإنسان بإهلاكه مالا لبدا أنه يحسب أنا فى غفلة و جهل بما أنفق و قد أخطأ فى ذلك فالله سبحانه بصير بما أنفق لكن هذا المقدار لا يكفى فى الفوز بميمنة الحياة بل لا بد له من أن يتحمل ما هو أزيد من ذلك من مشاق العبودية فيقتحم العقبة و يكون مع المؤمنين فى جميع ما هم فيه.

قوله تعالى: «أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ » النجد الطريق المرتفع، و المراد بالنجدين طريق الخير و طريق الشر و سميا النجدين لما فى سلوك كل منهما من الجهد و الكدح، و فسرا بثديى الأم و هو بعيد.

و قوله: «أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ» أی جهزناه فی بدنه بما یبصر به فیحصل له العلم بالمرئیات علی سعة نطاقها، و قوله : «وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ» أی أ و لم نجعل له لسانا و شفتین یستعین بها علی التکلم و الدلا لة علی ما فی ضمیره من العلم و یهتدی بذلک غیره علی العلم بالأمور الغائبة عن البصر.

و قوله: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» أی علمناه طریق الخیر و طریق الشر بإلهام منا فهو یعرف الخیر و یمیزه من الشر فالآیة فی معنی قوله تعالی: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها»: الشمس: ٨.

و فی الآیات الثلاث حجة علی قوله : «أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ» أی علی أنه تعالی یری أعمال عباده و یعلم ما فی ضمائرهم من وجوه الأعمال و یمیز الخیر من الشر و الحسنة من السیئة.

محصلها أن الله سبحانه هو الذی یعر ف المرئیات للإنسان بوسیلة عینیه و کیف یتصور أن یعرفه أمرا و هو لا یعرفه؟ و هو الذی یدل الإنسان علی ما فی الضمیر بواسطة الکلام و هل یعقل أن یکشف له عما هو فی حجاب عنه؟ و هو الذی یعلم الإنسان و یمیز له الخیر و الشر بالإلهام و هل یمکن معه أن یکون هو نفسه لا یعلم به و لا یمیزه؟ فهو تعالی یری ما عمله الإنسان و یعلم ما ینویه بعمله و یمیز کونه خیرا أو شرا و حسنة أو سیئة.

قوله تعالی: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » الاقتحام الدخول بسرعة و ضغط و شدة، و العقبة الطریق الصعب الوعر الذی فیه صعود من الجبل، و اقتحام العقبة إشارة إلی الإنفاق الذی

ص:293

یشق علی منفقه کما سیصرح به.

و قیل: الجملة دعاء علی الإنسان القائل: أهلکت مالا لبدا، و لیس بشیء.

قوله تعالی: «وَ ما أَدْراکَ مَا الْعَقَبَةُ» تفخیم لشأنها کما مر فی نظائره.

قوله تعالی: «فَکُّ رَقَبَةٍ» أی عتقها و تحریرها أو التقدیر هی أی العقبة فک رقبة فالمراد بالعقبة نفس الفک الذی هو العمل و اقتحامه الإتیان به، و الإتیان بالعمل نفس العمل.

و به یظهر فساد قول بعضهم إن فک رقبة اقتحام للعقبة لا نفس العقبة فهناک مضاف محذوف یعود إلیه الضمیر و التقدیر و ما أدراک ما اقتحام العقبة هو - أی الاقتحام- فک رقبة.

و ما ذکر فی بیان العقبة من فک الرقبة و الإطعام فی یوم ذی مسغبة من مصادیق نشر الرحمة خص بالذکر لمکان الأهمیة، و قدم فک الرقبة و ابتدئ به لکمال عنایة الدین بفک الرقاب.

قوله تعالى: «أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ» المسغبة المجاعة، و المقربة القرابة بالنسب، و المتربة من التراب و معناها الالتصاق بالتراب من شدة الفقر، و المعنى أو إطعام فی يوم المجاعة يتيما من ذی القربى أو مسكينا شديد الفقر.

قوله تعالى: «ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» المرحمة مصدر ميمی من الرحمة، و التواصی بالصبر وصية بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله و التواصی بالمرحمة وصية بعضهم بعضا بالرحمة على ذوی الفقر و الفاقة و المسكنة.

و الجملة أعنی قوله: «ثُمَّ كانَ» إلخ معطوفة على قول: «اقْتَحَمَ» و التقدير فلا اقتحم العقبة و لا كان من الذين آمنوا «إلخ» و قيل فيها غير ذلک مما لا جدوى فيه.

قوله تعالى: «أُولئِکَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ» بمعنى اليمن مقابل الشؤم، و الإشارة بأولئک إلى ما يدل عليه السياق السابق أی الذين اقتحموا العقبة و كانوا من الذين آمنوا و تواصوا بالصبر و المرحمة أصحاب اليمن لا يرون مما قدموه من الإيمان و عملهم الصالح إلا أمرا مباركا جميلا مرضيا.

و قيل: المراد بالميمنة جهة اليمين و أصحاب الميمنة هم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم، و مقابلة الميمنة بالمشأمة لا تلائمه.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ» الآيات الآفاقية و الأنفسية آيات و أدلة عليه تعالى تدل على توحده فی الربوبية و الألوهية و سائر ما يتفرع عليه و ردها كفر بها و الكفر بها كفر بالله و كذا القرآن الكريم و آياته، و كذا ما نزل و بلغ من

ص:294

طريق الرسالة.

و الظاهر أن المراد بالآيات مطلقها، و المشأمة خلاف الميمنة.

قوله تعالى: «عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ» أی مطبقة.

بحث روائی

فی المجمع،": فی قوله: «وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ» قيل: معناه و أنت محل بهذا البلد و هو ضد المحرم، و المراد أنت حلال لک قتل من رأيت من الكفار، و ذلک حين أمر بالقتال يوم فتح مكة- فأحلها الله له حتى قاتل و قتل، و قد قال (ص): لم يحل لأحد قبلی و لا يحل لأحد بعدی- و لم يحل لی إلا ساعة من نهار ":. عن ابن عباس و مجاهد و عطاء.

و فيه،: فی الآية و قيل: لا أقسم بهذا البلد- و أنت حلال منتهک الحرمة مستباح العرض لا تحترم- فلا تبقى للبلد حرمة حيث هتكت: عن أبی مسلم و هو المروی عن أبی عبد الله (ع).

قال: كانت قريش تعظم البلد و تستحل محمدا فيه فقال: «لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ » يريد أنهم استحلوك فيه و كذبوه و شتموك، و كانوا لا يأخذ الرجل منهم فيه قاتل أبيه- و يتقلدون لحاء شجر الحرم- فيأمنون بتقلدهم إياه- فاستحلوا من رسول الله ص ما لم يستحلوه من غيره- فعاب الله ذلك عليهم.

و فيه،: في قوله تعالى: «وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ» قيل: آدم و ما ولد من الأنبياء و الأوصياء و أتباعهم،: عن أبي عبد الله (ع).

أقول: و المعاني السابقة مروية من طرق أهل السنة في أحاديث موقوفة، و روى القمي في تفسيره الأخيرتين بالإرسال و الإضمار.

و في تفسير القمي،": «يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً» قال: اللبد المجتمع و

في المجمع،": في الآية قيل: هو الحارث بن نوفل بن عبد مناف- و ذلك أنه أذنب ذنبا فاستفتى رسول الله ص- فأمره أن يكفر فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات و النفقات- منذ دخلت في دين محمد"،: عن مقاتل.

و في المجمع،: أنه قيل لأمير المؤمنين (ع): إن أناسا يقولون في قوله: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ»: أنهما الثديان- فقال: لا، هما الخير و الشر.

و في أصول الكافي، بإسناده عن حمزة بن محمد عن أبي عبد الله (ع) قال‌: سألته عن قول الله تعالى: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» قال: نجد الخير و الشر.:

أقول: و روى في الدر المنثور، هذا المعنى بطرق عن علي (ع) و أنس و أبي أمامة و غيرهم عن النبي ص و رواه القمي في تفسيره، مرسلا مضمرا.

و في الكافي، بإسناده عن جعفر بن خلاد قال ‌: كان أبو الحسن الرضا (ع) إذا أكل أتي بصحفة- فتوضع قرب مائدته- فيعمد إلى أطيب الطعام مما يؤتى به- فيأخذ من كل شي‌ء شيئا فيضع في تلك الصحفة- ثم يأمر بها للمساكين- ثم يتلو هذه الآية «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ».

ثم يقول: علم الله عز و جل- أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة- فجعل لهم السبيل إلى الجنة.

و في المجمع، و روى مرفوعا عن البراء بن عازب قال ‌: جاء أعرابي إلى النبي ص فقال: يا رسول الله- علمني عملا يدخلني الجنة- قال: إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة و فك الرقبة، فقال أ و ليسا واحدا؟ قال: لا، عتق الرقبة أن يتفرد بعتقها- و فك الرقبة أن يعين في ثمنها، و الفي‌ء على ذي الرحم الظالم.

فإن لم يكن ذلک فأطعم الجائع و اسق الظمآن- و أمر بالمعروف و أنه عن المنكر- فإن لم تطق ذلک فكف لسانک إلا من خير.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ» قال: لا يقيه من التراب شىء.

(۹۱) سورة الشمس مكية و هى خمس عشرة آية (۱۵)

[سورة الشمس (۹۱): الآيات ۱ الى ۱۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها (۱) وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها (۲) وَ النَّهارِ إِذا جَلاَّها (۳) وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (۴)

وَ السَّماءِ وَ ما بَناها (۵) وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها (۶) وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (۷) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (۸) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (۹)

وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (۱۰) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (۱۱) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (۱۲) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها (۱۳) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (۱۴)

وَ لا يَخافُ عُقْباها (۱۵)

ص:296

بيان

تذكر السورة أن فلاح الإنسان- و هو يعرف التقوى و الفجور بتعريف إلهى و إلهام باطنى- أن يزكى نفسه و ينميها إنماء صالحا بتحليتها بالتقوى و تطهيرها من الفجور، و الخيبة و الحرمان من السعادة لمن يدسيها، و يستشهد لذلک بما جرى على ثمود من عذاب الاستئصال لما كذبوا رسولهم صالحا و عقروا الناقة، و فى ذلک تعريض لأهل مكة، و السورة مكية بشهادة من سياقها.

قوله تعالى: «وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها » فى المفردات،: الضحى انبساط الشمس و امتداد النهار و سمى الوقت به انتهى . و الضمير للشمس، و فى الآية إقسام بالشمس و انبساط ضوئها على الأرض.

قوله تعالى: «وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها» عطف على الشمس و الضمير لها و إقسام بالقمر حال كونه تاليا للشمس، و المراد بتلوه لها إن كان كسبه النور منها فالحال حال دائمة و إن كان طلوعه بعد غروبها فالإقسام به من حال كونه هلالا إلى حال تبدره.

قوله تعالى: «وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها» التجلية الإظهار و الإبراز، و ضمير التأنيث للأرض، و المعنى و أقسم بالنهار إذا أظهر الأرض للأبصار.

و قيل: ضمير الفاعل فى «جَلّاها» للنهار و ضمير المفعول للشمس، و المراد الإقسام بحال إظهار النهار للشمس فإنها تنجلى و تظهر إذا انبسط النهار، و فيه أنه لا يلائم ما تقدمه فإن الشمس هى المظهرة للنهار دون العكس.

و قيل: الضمير المؤنث للدنيا، و قيل: للظلمة، و قيل: ضمير الفاعل لله تعالى و ضمير المفعول للشمس، و المعنى و أقسم بالنهار إذا أظهر الله الشمس، و هى وجوه بعيدة.

قوله تعالى: «وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها» أى يغطى الأرض، فالضمير للأرض كما فى «جَلّاها»

ص:297

و قيل: للشمس و هو بعيد فالليل لا يغطى الشمس و إنما يغطى الأرض و ما عليها.

و التعبير عن غشيان الليل الأرض بالمضارع بخلاف تجلية النهار لها حيث قيل: «وَ النَّهارِ إِذا جَلّاها وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها» للدلالة على الحال ليكون فيه إيماء إلى غشيان الفجور الأرض فى الزمن الحاضر الذى هو أوائل ظهور الدعوة الإسلامية لما تقدم أن بين هذه الأقسام و بين المقسم بها نوع اتصال و ارتباط، هذا مضافا إلى رعاية الفواصل.

قوله تعالى: «وَ السَّماءِ وَ ما بَناها وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها » طحو الأرض و دحوها بسطها، و «ما» فى «وَ ما بَناها » و «ما طَحاها» موصولة، و الذى بناها و طحاها هو الله تعالى و التعبير عنه تعالى بما دون من لإيثار الإبهام المفيد للتفخيم و التعجيب فالمعنى و أقسم بالسماء و الشىء القوى العجيب الذى بناها و أقسم بالأرض و الشىء القوى العجيب الذى بسطها.

و قيل: ما مصدرية و المعنى و أقسم بالسماء و بنائها و الأرض و طحوها، و السياق- و فيه قوله: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها» إلخ- لا يساعده.

قوله تعالى: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها » أى و أقسم بنفس و الشى ء ذى القدرة و العلم و الحكمة الذى سواها و رتب خلقتها و نظم أعضاءها و عدل بين قواها.

و تنكير «نَفْسٍ» قيل: للتنكير، و قيل: للتفخيم و لا يبعد أن يكون التنكير للإشارة إلى أن لها وصفا و أن لها نبأ.

و المراد بالنفس النفس الإنسانية مطلقا و قيل: المراد بها نفس آدم (ع) و لا يلائمه السياق و خاصة قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسّاها» إلا بالاستخدام على أنه لا موجب للتخصيص.

قوله تعالى: «فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها » الفجور- على ما ذكره الراغب- شق ستر الديانة فالنهى الإلهى عن فعل أو عن ترك حجاب مضروب دونه حائل بين الإنسان و بينه و اقتراف المنهى عنه شق للستر و خرق للحجاب.

و التقوى- على ما ذكره الراغب- جعل النفس فى وقاية مما يخاف، و المراد بها بقرينة المقابلة فى الآية بينها و بين الفجور التجنب عن الفجور و التحرز عن المنافى و قد فسرت فى الرواية بأنها الورع عن محارم الله.

و الإلهام الإلقاء فى الروع و هو إفاضته تعالى الصور العملية من تصور أو تصديق على النفس.

ص:298

و تعليق الإلهام على عنوانى فجور النفس و تقواها للدلالة على أن المراد تعريفه تعالى للإنسان صفة فعله من تقوى أو فجور وراء تعريفه متن الفعل بعنوانه الأولى المشترک بين التقوى و الفجور کأکل المال مثلا المشترک بين أکل مال اليتيم الذى هو فجور و بين أکل مال نفسه الذى هو من التقوى، و المباشرة المشترکة بين الزنا و هو فجور و النکاح و هو من التقوى و بالجملة المراد أنه تعالى عرف الإنسان کون ما يأتى به من فعل فجورا أو تقوى و ميز له ما هو تقوى مما هو فجور.

و تفريع الإلهام على التسوية فى قوله : «وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها » إلخ للإشارة إلى أن إلهام الفجور و التقوى و هو العقل العملى من تکميل تسوية النفس فهو من نعوت خلقتها کما قال تعالى : «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِکَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»: الروم: ٣٠.

و إضافة الفجور و التقوى إلى ضمير النفس للإشارة إلى أن المراد بالفجور و التقوى الملهمين الفجور و التقوى المختصين بهذه النفس المذکورة و هى النفس الإنسانية و نفوس الجن على ما يظهر من الکتاب العزيز من کونهم مکلفين بالإيمان و العمل الصالح.

قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکّاها وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسّاها» الفلاح هو الظفر بالمطلوب و إدراک البغية، و الخيبة خلافه، و الزکاة نمو النبات نموا صالحا ذا برکة و التزکية إنماؤه کذلک، و التدسى- و هو من الدس بقلب إحدى السينين ياء- إدخال الشیء فى الشیء بضرب من الإخفاء، و المراد بها بقرينة مقابلة التزکية: الإنماء على غير ما يقتضيه طبعها و رکبت عليه نفسها.

و الآية أعنى قوله: «قَدْ أَفْلَحَ» إلخ جواب القسم، و قوله: «وَ قَدْ خابَ» إلخ معطوف عليه.

و التعبير بالتزکية و التدسى عن إصلاح النفس و إفسادها مبتن على ما يدل عليه قوله:

«فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها » على أن من کمال النفس الإنسانية أنها ملهمة مميزة- بحسب فطرتها- للفجور من التقوى أى إن الدين و هو الإسلام لله فيما يريده فطرى للنفس فتحلية النفس بالتقوى تزکية و إنماء صالح و تزويد لها بما يمدها فى بقائها قال تعالى:

«وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِی الْأَلْبابِ»: البقرة: ١٩٧ و أمرها فى الفجور على خلاف التقوى.

ص:299

قوله تعالى: «کَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها» الطغوى مصدر کالطغيان، و الباء للسببية.

و الآية و ما يتلوها إلى آخر السورة استشهاد و تقرير لما تقدم من قوله «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکّاها» إلخ.

قوله تعالى: «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها» ظرف لقوله: «كَذَّبَتْ» أو لقوله: «بِطَغْواها» و المراد بأشقى ثمود هو الذى عقر الناقة و اسمه على ما فى الروايات قدار بن سالف و قد كان انبعاثه ببعث القوم كما تدل عليه الآيات التالية بما فيها من ضمائر الجمع.

قوله تعالى: «فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها » المراد برسول الله صالح (ع) نبى ثمود، و قوله : «ناقَةَ اللَّهِ» منصوب على التحذير، و قوله: «وَ سُقْياها» معطوف عليه.

و المعنى فقال لهم صالح برسالة من الله : احذروا ناقة الله و سقياها و لا تتعرضوا لها بقتلها أو منعها عن نوبتها فى شرب الماء، و قد فصل الله القصة فى سورة هود و غيرها.

قوله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّاها » العقر إصابة أصل الشىء و يطلق على نحر البعير و القتل، و الدمدمة على الشىء الإطباق عليه يقال:

دمدم عليه القبر أى أطبقه عليه و المراد شمولهم بعذاب يقطع دابرهم و يمحو أثرهم بسبب ذنبهم.

و قوله: «فَسَوّاها» الظاهر أن الضمير لثمود باعتبار أنهم قبيلة أى فسواها بالأرض أو هو تسوية الأرض بمعنى تسطيحها و إعفاء ما فيها من ارتفاع و انخفاض.

و قيل: الضمير للدمدمة المفهومة من قوله: «فَدَمْدَمَ» و المعنى فسوى الدمدمة بينهم فلم يفلت منهم قوى و لا ضعيف و لا كبير و لا صغير.

قوله تعالى: «وَ لا يَخافُ عُقْباها» الضمير للدمدمة أو التسوية، و الواو للاستئناف أو الحال.

و المعنى: و لا يخاف ربهم عاقبة الدمدمة عليهم و تسويتهم كما يخاف الملوك و الأقويا ء عاقبة عقاب أعدائهم و تبعته، لأن عواقب الأمور هى ما يريده و على وفق ما يأذن فيه فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى : «لا يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ »: الأنبياء: ٢٣.

و قيل: ضمير «لا يَخافُ» للأشقى، و المعنى و لا يخاف عاقر الناقة عقبى ما صنع بها.

و قيل: ضمير «لا يَخافُ» لصالح و ضمير «عُقْباها» للدمدمة و المعنى و لا يخاف صالح عقبى الدمدمة عليهم لثقته بالنجاة و ضعف الوجهين ظاهر.

ص:PAGE=300ص:

بحث روائى

فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها» قال: خلقها و صورها.

و فى المجمع، و روى زرارة و حمران و محمد بن مسلم عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع)* فى قوله تعالى: «فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» قال: بين لها ما يأتى و ما يترک، و فى قوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها » قال: قد أفلح من أطاع «وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» قال:

قد خاب من عصى.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عمران بن حصين* أن رجلا قال: يا رسول الله- أ رأيت ما يعمل الناس اليوم- و يكدحون فيه شىء قد قضى عليهم- و مضى عليهم فى قدر قد سبق؟ أو فيما يستقبلون به نبيهم و اتخذت عليهم به الحجة؟ قال: بل شىء قضى عليهم.

قال: فلم يعملون إذا؟ قال : من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين هيأه لعملها- و تصديق ذلک فى كتاب الله «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها».

أقول: قوله: أو فيما يستقبلون إلخ الظاهر أن الهمزة فيه للاستفهام و الواو للعطف و المعنى و هل فى طاعتهم لنبيهم قضاء من الله و قدر قد سبق؟ و قوله: فلم يعملون إذا، أى فما معنى عملهم و استناد الفعل إليهم.؟

و قوله (ص): من كان الله إلخ معناه أن وجوب صدور الفعل حسنة أو سيئة منهم بالنظر إلى القضاء و القدر السابقين لا ى نافى إمكان صدوره بالنظر إلى الإنسان و اختياره، و قد اتضح ذلک فى الأبحاث السابقة من الكتاب مرارا.

و فيه، أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن جويبر عن الضحاک عن ابن عباس: سمعت رسول الله ص يقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها» الآية أفلحت نفس زكاها الله- و خابت نفس خيبها الله من كل خير.

أقول: انتساب التزكية و التخييب إليه تعالى بوجه لا ينافى انتسابهما بالطاعة و المعصية إلى الإنسان.

و إنما ينتسب إلى الله سبحانه من الإضلال ما كان على طريق المجازاة كما قال: «وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ»: البقرة: ٢٦.

ص:301

و فى المجمع، و قد صحت الرواية بالإسناد عن عثمان بن صهيب عن أبيه قال *: قال رسول الله ص لعلى بن أبى طالب : من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة. قال: صدقت- فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت: لا أعلم يا رسول الله. قال: الذى يضربک على هذه فأشار إلى يافوخه:.

أقول: و روى فيه هذا المعنى أيضا عن عمار بن ياسر.

و فى تفسير البرهان، : و روى الثعلبى و الواحدى بإسنادهما عن عمار و عن عثمان بن صهيب و عن الضحاک و روى ابن مردويه بإسناده عن جابر بن سمرة و عن عمار و عن ابن عدى أو عن الضحاک و روى الخطيب فى التاريخ، عن جابر بن

سمرة و روى الطبرى و الموصلى و روى أحمد عن الضحاک عن عمار أنه قال ‌*: قال النبى ص: يا على أشقى الأولين عاقر الناقة- و أشقى الآخرين قاتلک، و فى رواية من يخضب هذه من هذا.

(۹۲) سورة الليل مكية و هى إحدى و عشرون آية (۲۱)

[سورة الليل (۹۲): الآيات ۱ الى ۲۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى (۱) وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى (۲) وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (۳) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (۴)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى (۵) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى (۶) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (۷) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى (۸) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى (۹)

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (۱۰) وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (۱۱) إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (۱۲) وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى (۱۳) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (۱۴)

لا يَصْلاها إِلاَّ الْأَشْقَى (۱۵) الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۱۶) وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (۱۷) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (۱۸) وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (۱۹)

إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (۲۰) وَ لَسَوْفَ يَرْضى (۲۱)

ص:302

بيان

غرض السورة الإنذار و تسلک إليه بالإشارة إلى اختلاف مساعى الناس و أن منهم من أنفق و اتقى و صدق بالحسنى فسيمكنه الله من حياة خالدة سعيدة و منهم من بخل و استغنى و كذب بالحسنى فسيسلک الله به إلى شقاء العاقبة، و فى السورة اهتمام و عناية خاصة بأمر الإنفاق المالى.

و السورة تحتمل المكية و المدنية بحسب سياقها.

قوله تعالى: «وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى» إقسام بالليل إذا يغشى النهار على حد قوله تعالى:

«يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ»: الأعراف: ۵۴، و يحتمل أن يكون المراد غشيانه الأرض أو الشمس.

قوله تعالى: «وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى» عطف على الليل، و التجلى ظهور الشىء بعد خفائه، و التعبير عن صفة الليل بالمضارع و عن صفة النهار بالماضى حيث قيل: «يَغْشى» و «تَجَلَّى» تقدم فيه وجه فى تفسير أول السورة السابقة.

قوله تعالى: «وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى» عطف على الليل كسابقه، و «ما» موصولة و المراد به الله سبحانه و إنما عبر بما، دون من، إيثارا للإبهام المشعر بالتعظيم و التفخيم و المعنى و أقسم بالشىء العجيب الذى أوجد الذكر و الأنثى المختلفين على كونهما من نوع واحد.

و قيل: ما مصدرية و المعنى و أقسم بخلق الذكر و الأنثى و هو ضعيف.

و المراد بالذكر و الأنثى مطلق الذكر و الأنثى أينما تحققا، و قيل : الذكر و الأنثى من الإنسان، و قيل : المراد بهما آدم و زوجته حواء، و أوجه الوجوه أولها.

قوله تعالى: «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى» السعى هو المشى السريع، و المراد به العمل من حيث يهتم به، و هو فى معنى الجمع، و شتى جمع شتيت بمعنى المتفرق كمرضى جمع مريض.

و الجملة جواب القسم و المعنى أقسم بهذه المتفرقات خلقا و أثرا أن مساعيكم لمتفرقات فى نفسها و آثارها فمنها إعطاء و تقوى و تصديق و لها أثر خاص بها، و منها بخل و استغناء و تكذيب و لها أثر خاص بها.

قوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى» تفصيل تفرق مساعيهم و اختلاف آثارها.

و المراد بالإعطاء إنفاق المال لوجه الله بقرينة مقابلته للبخل الظاهر فى الإمساك عن

ص:303

إنفاق المال و قوله بعد: «وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى».

و قوله: «وَ اتَّقى» كالمفسر للإعطاء يفيد أن المراد هو الإعطاء على سبيل التقوى الدينية.

و قوله: «وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى» الحسنى صفة قائمة مقام الموصوف و الظاهر أن التقدير بالعدة الحسنى و هى ما وعد الله من الثواب على الإنفاق لوجهه الكريم و هو تصديق البعث و الإيمان به و لازمه ا لإيمان بوحدانيته تعالى فى الربوبية و الألوهية، و كذا الإيمان بالرسالة فإنها طريق بلوغ وعده تعالى للثواب.

و محصل الآيتين أن يكون مؤمنا بالله و رسوله و اليوم الآخر و ينفق المال لوجه الله و ابتغاء ثوابه الذى وعده بلسان رسوله.

و قوله: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى» التيسير التهيئة و الإعداد و اليسرى الخصلة التى فيها يسر من غير عسر، و توصيفها باليسر بنوع من التجوز فالمراد من تيسيره لليسرى توفيقه للأعمال الصالحة بتسهيلها عليه من غير تعسير أو جعله مستعدا للحياة السعيدة عند

ربه و دخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة التی یأتی بها، و الوجه الثانی أقرب و أوضح انطباقا علی ما هو المعهود من مواعد القرآن.

قوله تعالی: «وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنی وَ کَذَّبَ بِالْحُسْنی فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْعُسْری وَ ما یُغْنِی عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّی » البخل مقابل الإعطاء، و الاستغناء طلب الغنی و الثروة بالإمساک و الجمع، و المراد بالتکذیب بالحسنی الکفر بالعدة الحسنی و ثواب الله الذی بلغه الأنبیاء و الرسل و یرجع إلی إنکار البعث.

و المراد بتیسیره للعسری خذلانه بعدم توفیقه للأعمال الصالحة، بتثقیلها علیه و عدم شرح صدره للإیمان أو إعداده للعذاب.

و قوله: «وَ ما یُغْنِی عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّی » التردی هو السقوط من مکان عال و یطلق علی الهلاک فالمراد سقوطه فی حفرة القبر أو فی جهنم أو هلاکه.

و «ما» استفهامیة أو نافیة أی أی شیء یغنیه ماله إذا مات و هلک أو لیس یغنی عنه ماله إذا مات و هلک.

قوله تعالی: «إِنَّ عَلَیْنا لَلْهُدی وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولی » تعلیل لما تقدم من حدیث تیسیره للیسری و للعسری أو الإخبار به بأوجز بیان، محصله أنا إنما نفعل هذا التیسیر أو نبین هذا البیان لأنه من الهدی و الهدی علینا لا یزاحمنا فی ذلک شی ء و لا یمنعنا عنه مانع.

ص:304

فقوله: «إِنَّ عَلَیْنا لَلْهُدی » یفید أن هدی الناس مما قضی سبحانه به و أوجبه علی نفسه بمقتضی الحکمة و ذلک أنه خلقهم لیعبدوه کما قال: «وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلّا لِیَعْبُدُونِ »: الذاریات: ۵۶ فجعل عبادته غایة لخلقهم و جعلها صراطا مستقیما إلیه کما قال: «إِنَّ اللّهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ »: آل عمران: ۵۱، و قال: «وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ صِراطِ اللّهِ»: الشوری: ۵۳ و قضی علی نفسه أن یبین لهم سبیله و یهدیهم إلیه بمعنی إراءة الطریق سواء سلکوها أم ترکوها کما قال: «وَ عَلَی اللّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ وَ مِنْها جائِرٌ»: النحل: ۹، و قال: «وَ اللّهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ»: الأحزاب: ۴ و قال:

«إِنّا هَدَیْناهُ السَّبِیلَ إِمّا شاکِراً وَ إِ مّا کَفُوراً»: الإنسان: ۳ و لا ینافی ذلک قیام غیره تعالی بأمر هذا المعنی من الهدی بإذنه کالأنبیاء کما قال تعالی: «وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ»: الشوری: ۵۲، و قال: «قُلْ هذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللّهِ عَلی بَصِیرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی»: یوسف: ۱۰۸.

و قد تقدم لهذه المسألة بیان عقلی فی مباحث النبوة فی الجزء الثانی من الکتاب.

هذا فی الهدایة بمعنی إراءة الطریق و أما الهدایة بمعنی الإیصال إلی المطلوب- و المطلوب فی المقام الآثار الحسنة التی تترتب علی الاهتداء بهدی الله و التلبس با لعبودیة کالحیاة الطیبة المعجلة فی الدنیا و الحیاة السعیدة الأبدیة فی الآخرة- فمن البین أنه من قبیل الصنع و الإیجاد الذی یختص به تعالی فهو مما قضی به الله و أوجبه علی نفسه و سجله بوعده الحق قال تعالی:

«فَمَنِ اتَّبَعَ هُدایَ فَلا یَضِلُّ وَ لا یَشْقی »: طه: ۱۲۳، و قال: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیاةً طَیِّبَةً وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما کانُوا یَعْمَلُونَ » النحل: ۹۷، و قال: «وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِیلًا»: النساء: ۱۲۲.

و لا ینافی انتساب هذا المعنی من الهدایة إلیه تعالی بنحو الأصالة انتسابه إلی غیره تعالی بنحو التبع بتخلل الأسباب بینه تعالی و بین ما ینسب إلیه من الأثر بإذنه.

و معنی الآیة- إن کان المراد بالهدی إراءة الطریق- أنا إنما نبین لکم ما نبین لأنه من إراءة طریق العبودیة و إراءة الطریق علینا، و إن کان المراد به الإیصال إلی المطلوب أنا إنما نیسر هؤلاء للیسری من الأعمال الصالحة أو من الحیاة السهلة الأبدیة و دخول الجنة لأنه من إیصال الأشیاء إلی غایاتها و علینا ذلک.

و أما التیسیر للعسری فهو مما یتوقف علیه التیسیر للیسری «لِیَمِیزَ اللّهُ الْخَبِیثَ مِنَ

ص:305

الطَّیِّبِ وَ یَجْعَلَ الْخَبِیثَ بَعْضَهُ عَلی بَعْضٍ فَیَرْکُمَهُ جَمِیعاً فَیَجْعَلَهُ فِی جَهَنَّمَ »: الأنفال: ۳۷ و قد قال سبحانه فی القرآن الذی هو هدی للعالمین: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ لا یَزِیدُ الظّالِمِینَ إِلّا خَساراً»: إسراء: ۸۲.

و یمکن أن یکون ا لمراد به مطلق الهدایة أعم من الهدایة التکوینیة الحقیقیة و التشریعیة الاعتباریة- علی ما هو ظاهر إطلاق اللفظ- فله تعالی الهدایة الحقیقیة کما قال: «الَّذِی أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی »: طه: ۵۰، و الهدایة الاعتباریة کما قال: «إِنّا هَدَیْناهُ السَّبِیلَ إِمّا شاکِراً وَ إِمّا کَفُوراً»: الإنسان: ۳.

و قوله: «وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولی » أی عالم البدء و عالم العود فکل ما یصدق علیه أنه شی ء فهو مملوک له تعالی بحقیقة الملک الذی هو قیام وجوده بربه القیوم و یتفرع علیه الملک الاعتباری الذی من آثاره جواز التصرفات.

فهو تعالی یملک کل شیء من کل جهة فلا یملک شیء منه شیئا فلا معارض یعارضه و لا مانع یمنعه و لا شی ء یغلبه کما قال: «وَ اللّهُ یَحْکُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُکْمِهِ»: الرعد: ۴۱ و قال:

«وَ اللّهُ غالِبٌ عَلی أَمْرِهِ»: یوسف: ۲۱، و قال: «وَ یَفْعَلُ اللّهُ ما یَشاءُ»: إبراهیم: ۲۷.

قوله تعالی: «فَأَنْذَرْتُکُمْ ناراً تَلَظّی لا یَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَی الَّذِی کَذَّبَ وَ تَوَلّی » تفریع علی ما تقدم أی إذا کان الهدی علینا فأنذرتکم نار جهنم و بذلک یوجه ما فی قوله:

«فَأَنْذَرْتُکُمْ» من الالتفات عن التکلم مع الغیر إلی التکلم وحده أی إذا کان الهدی مقضیة محتومة فالمنذر بالأصالة هو الله و إن کان بلسان رسوله.

و تلظى النار تلهبها و توهجها، و المراد بالنار التى تتلظى جهنم كما قال تعالى: «كَلَّا إِنَّها لَظى»: المعارج: ١۵.

و المراد بالأشقى مطلق الكافر الذى يكفر بالتكذيب و التولى فإنه أشقى من سائر من شقى فى دنياه فمن ابتلى فى بدنه شقى و من أصيب فى ماله أو ولده مثلا شقى و من خسر فى أمر آخرته شقى و الشقى فى أمر آخرته أشقى من غيره لكون شقوته أبدية لا مطمع فى التخلص منها بخلاف الشقوة فى شأن من شئون الدنيا فإنها مقطوعة لا محالة مرجوة الزوال عاجلا.

فالمراد بالأشقى هو الكافر المكذب بالدعوة الحقة المعرض عنها على ما يدل عليه توصيفه بقوله: «الَّذِی كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» و يؤيده إطلاق الإنذار، و أما الأشقى بمعنى أشقى

ص:306

الناس كلهم فمما لا يساعد عليه السياق البتة.

و المراد بصلى النار اتباعها و لزومها فيفيد معنى الخلود و هو مما قضى الله به فى حق الكافر، قال تعالى : «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ»: البقرة: ٣٩.

و بذلک يندفع ما قيل: إن قوله: «لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى» ينفى عذاب النار عن فساق المؤمنين على ما هو لازم القصر فى الآية، وجه الاندفاع أن الآية إنما تنفى عن غير الكافر الخلود فيها دون أصل الدخول.

قوله تعالى: «وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِی يُؤْتِی مالَهُ يَتَزَكَّى وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى » التجنيب التبعيد، و ضمير «سَيُجَنَّبُهَا» للنار، و المعنى سيبعد عن النار الأتقى.

و المراد بالأتقى من هو أتقى من غيره ممن يتقى المخاطر فهناک من يتقى ضيعة النفوس كالموت و القتل و من يتقى فساد الأموال و من يتقى العدم و الفقر فيمسک عن بذل المال و هكذا و منهم من يتقى الله فيبذل المال، و أتقى هؤلاء الطوائف من يتقى الله فيبذل المال لوجهه و إن شئت فقل يتقى خسران الآخرة فيتزكى بالإعطاء.

فالمفضل عليه للأتقى هو من لا يتقى بإعطاء المال و إن اتقى سائر المخاطر الدنيوية أو اتقى الله بسائر الأعمال الصالحة.

فالآية عامة بحسب مدلولها غير خاصة و يدل عليه توصيف الأتقى بقوله : «الَّذِی يُؤْتِی مالَهُ » إلخ و هو وصف عام و كذا ما يتلوه، و لا ينافى ذلک كون الآيات أو جميع السورة نازلة لسبب خاص كما ورد فى أسباب النزول.

و أما إطلاق المفضل عليه بح يث يشمل جميع الناس من طالح أو صالح و لازمه انحصار المفضل فى واحد مطلقا أو واحد فى كل عصر، و يكون المعنى و سيجنبها من هو أتقى الناس كلهم و كذا المعنى فى نظيره : لا يصلاها إلا أشقى الناس كلهم فلا يساعد عليه سياق آيات صدر السورة، و كذا الإنذار العام الذى فى قو له: «فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى» فلا معنى لأن يقال : أنذرتكم جميعا نارا لا يخلد فيها إلا واحد منكم جميعا و لا ينجو منها إلا واحد منكم جميعا.

و قوله: «الَّذِی یُؤْتِی مالَهُ یَتَزَکَّی» صفة للأتقی أی الذی یعطی و ینفق ماله یطلب بذلک أن ینمو نماء صالحا.

ص:307

و قوله: «وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزی » تقریر لمضمون الآیة السابقة أی لیس لأحد عنده من نعمة تجزی تلک النعمة بما یؤتیه من المال و تکافأ و إنما یؤتیه لوجه الله و یؤید هذا المعنی تعقیبه بقوله: «إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلی ».

فالتقدیر من نعمة تجزی به، و إنما حذف الظرف رعایة للفواصل، و یندفع بذلک ما قیل : إن بناء «تُجْزی» للمفعول لأن القصد لیس لفاعل معین.

قوله تعالی: «إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلی » استثناء منقطع و المعنی و لکنه یؤتی ماله طلبا لوجه ربه الأعلی و قد تقدم کلام فی معنی وجه الله تعالی و فی معنی الاسم الأعلی.

قوله تعالی: «وَ لَسَوْفَ یَرْضی» أی و لسوف یرضی هذا الأتقی بما یؤتیه ربه الأعلی من الأجر الجزیل و الجزاء الحسن الجمیل.

و فی ذکر صفتی الرب و الأعلی إشعار بأن ما یؤتاه من الجزاء أنعم الجزا ء و أعلاه و هو المناسب لربوبیته تعالی و علوه، و من هنا یظهر وجه الالتفات فی الآیة السابقة فی قوله:

«وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلی» من سیاق التکلم وحده إلی الغیبة بالإشارة إلی الوصفین: ربه الأعلی.

بحث روائی

فی الکافی، بإسناده عن محمد بن مسلم قال *: قلت لأبی جعفر (ع): قول الله عز و جل- «وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشی » «وَ النَّجْمِ إِذا هَوی» و ما أشبه ذلک؟ فقال: إن لله عز و جل أن یقسم من خلقه بما شاء، و لیس لخلقه أن یقسموا إلا به:.

أقول: و رواه فی الفقیه، بإسناده عن علی بن مهزیار عن أبی جعفر الثانی (ع):.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشی» قال: حین یغشی النهار و هو قسم.

و عن الحمیری فی قرب الإسناد، عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبی نصر عن أبی الحسن الرضا (ع) قال*: سمعته یقول: فی تفسیر «وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشی » إن رجلا کان لرجل فی حائط‌ه نخلة فکان یضر به- فشکا ذلک إلی رسول الله ص فدعاه- فقال: أعطنی نخلتک بنخلة فی الجنة فأبی- فسمع ذلک رجل من الأنصار یکنی أبا الدحداح- فجاء إلی صاحب النخلة فقال: بعنی نخلتک بحائطی فباعه فجاءه إلی رسول الله ص- فقال: یا رسول الله قد اشتریت نخلة فلان بحائطی- فقال رسول الله: لک بدلها نخلة فی الجنة.

فأنزل الله تعالی علی نبیه «وَ ما خَلَقَ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی- إِنَّ سَعْیَکُمْ لَشَتَّی فَأَمَّا

مَنْ أَعْطى» يعنى النخلة «وَ اتَّقى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى» هو ما عند رسول الله ص- فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى- إلى قوله- تَرَدَّى»:.

أقول: و رواه القمى فى تفسيره، مرسلا مضمرا:

، و قوله: الزوجين تفسير منه (ع) للذكر و الأنثى.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى» قال: أبو الدحداح.

أقول: هذا ما من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت (ع).

و روى الطبرسى فى مجمع البيان، القصة عن الواحدى بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس و فيه "* أن الأنصارى ساوم صاحب النخلة فى نخلة فى نخلته- ثم اشتراها منه بأربعين نخلة ثم وهبها للنبى ص- فوهبها النبى لصاحب الدار، ثم روى الطبرسى عن عطاء أن اسم الرجل أبو الدحداح":، و روى السيوطى فى الدر المنثور، القصة عن ابن أبى حاتم عن ابن عباس و ضعفه.

و قد ورد من طرق أهل السنة أن السورة نزلت فى أبى بكر قال الرازى فى التفسير الكبير، : أجمع المفسرون منا على أن المراد منه- يعنى من الأتقى- أبو بكر، و اعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية، و يقولون إنما نزلت فى حق على بن أبى طالب و الدليل عليه قوله تعالى: «وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» فقوله: «الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى» إشارة إلى ما فى تلك الآية من قوله: «وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» ثم أخذ الأتقى بمعنى أفضل الخلق أى أتقى الناس جميعا و قد تقدم الكلام فيه.

أما ما نسب إلى الشيعة بأسرهم من القول فالمعتمد عليه من طرقهم صحيح الحميرى المتقدم و ما فى معناه من الروايات الدالة على نزولها فى أبى الدحداح الأنصارى.

نعم ورد فى

رواية ضعيفة عن البرقى عن إسماعيل بن مهران عن أيمن بن محرز عن أبى بصير عن أبى عبد الله (ع) و فيها،* و أما قوله: «وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى» قال رسول الله ص و من تبعه، و «الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى» قال: ذاك أمير المؤمنين (ع) و هو قوله:

«وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» و قوله: «وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى » فهو رسول الله الذى ليس لأحد عنده من نعمة تجزى- و نعمته جارية على جميع الخلق (ص).

و الرواية على ضعف «١» سندها من قبيل الجرى و التطبيق دون التفسير و من واضح الدليل عليه تطبيقه الموصوف على رسول الله ص و الوصف على على (ع) ثم الآية

(۱) أيمن بن محرز مجهول.

التالية على النبى ص و لو كانت من التفسير لفسد بذلک النظم قطعا. هذا لو كانت الواو فى قوله: «و الَّذِی یُؤْتِی مالَهُ یَتَزَکّٰی» من الرواية و لو فرضت من الآية كانت الرواية من روايات التحريف المردودة.

و عن الحميرى عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبى نصر عن أبى الحسن الرضا (ع) قال،* قلت: قول الله تبارک و تعالى «إِنَّ عَلَیْنا لَلْهُدیٰ» قال: إن الله يهدى من يشاء و يضل من يشاء.

فقلت له: أصلحک الله إن قوما من أصحابنا يزعمون- أن المعرفة مكتسبة- و أنهم إن ينظروا من وجه النظر أدركوه.

فأنكر ذلک و قال: ما لهؤلاء القوم لا يكتسبون الخير لأنفسهم؟ ليس أحد من الناس- إلا و يجب أن يكون خيرا ممن هو خير منه- هؤلاء بنو هاشم موضعهم موضعهم و قرابتهم قرابتهم- و هم أحق بهذا الأمر منكم- أ فترى أنهم لا ينظرون لأنفسهم؟ و قد عرفتم و لم يعرفوا.

قال أبو جعفر: لو استطاع الناس لأحبونا.

أقول: أما الهداية- و المراد بها الإيصال إلى المطلوب- فهى لله تعالى لأنها من شئون الربوبية، و أما الإضلال و المراد به الإضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائى الذى لا يضاف إليه تعالى فهو لله أيضا لكونه إمساكا عن إنزال الرحمة و عدما للهداية و إذا كانت الهداية له فالإمساک عنه أيضا منسوب إليه تعالى.

(۹۳) سورة الضحى مكية أو مدنية و هى إحدى عشرة آية (۱۱)

[سورة الضحى (۹۳): الآيات ۱ الى ۱۱]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَ الضُّحیٰ (۱) وَ اللَّیْلِ إِذا سَجیٰ (۲) ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلیٰ (۳) وَ لَلْآخِرَةُ خَیْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولیٰ (۴)

وَ لَسَوْفَ یُعْطِیکَ رَبُّکَ فَتَرْضیٰ (۵) أَ لَمْ یَجِدْکَ یَتِیماً فَآویٰ (۶) وَ وَجَدَکَ ضَالاًّ فَهَدیٰ (۷) وَ وَجَدَکَ عائِلاً فَأَغْنیٰ (۸) فَأَمَّا الْیَتِیمَ فَلا تَقْهَرْ (۹)

وَ أَمَّا السّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (۱۰) وَ أَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ (۱۱)

ص:310

بیان

قیل: انقطع الوحی عن النبی ص أیاما حتی قالوا : إن ربه ودعه فنزلت السورة فطیب الله بها نفسه، و السورة تحتمل المکیة و المدنیة.

قوله تعالی: «وَ الضُّحی وَ اللَّیْلِ إِذا سَجی » إقسام، و الضحی - علی ما فی المفردات،- انبساط الشمس و امتداد النهار و سمی الوقت به، و سجو اللیل سکونه و هو غشیان ظلمته.

قوله تعالی: «ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی » التودیع الترک، و القلی بکسر القاف البغض أو شدته، و الآیة جواب القسم، و مناسبة نور النهار و ظلمة اللیل لنزول الوحی و انقطاعه ظاهرة.

قوله تعالی: «وَ لَلْآخِرَةُ خَیْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولی » فی معنی الترقی بالنسبة إلی ما تفیده الآیة السابقة من کونه (ص) علی ما هو علیه من موقف الکرامة و العنایة الإلهیة کأنه قیل : أنت علی ما کنت علیه من الفضل و الرحمة ما دمت حیا فی الدنیا و حیاتک الآخرة خیر لک من حیاتک الدنیا.

قوله تعالی: «وَ لَسَوْفَ یُعْطِیکَ رَبُّکَ فَتَرْضی » تقریر و تثبیت لقوله : «وَ لَلْآخِرَةُ خَیْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولی » و قد اشتمل الوعد علی عطاء مطلق یتبعه رضی مطلق.

و قیل: الآیة ناظرة إلی الحیاتین جمیعا دون الحیاة الآخرة فقط.

قوله تعالی: «أَ لَمْ یَجِدْکَ یَتِیماً فَآوی » الآیة و ما یتلوها من الآیتین إشارة إلی بعض نعمه تعالی العظام علیه (ص) فقد مات أبوه و هو فی بطن أمه ثم ماتت أمه و هو ابن سنتین ثم مات جده الکفیل له و هو ابن ثمان سنین فکفله عمه و رباه.

و قیل: المراد بالیتیم الوحید الذی لا نظیر له فی النا س کما یقال: در یتیم، و المعنی أ لم یجدک وحیدا بین الناس فآوی الناس إلیک و جمعهم حولک.

قوله تعالی: «وَ وَجَدَکَ ضَالًّا فَهَدی » المراد بالضلال عدم الهدایة و المراد بکونه (ص) ضالا حالة فی نفسه مع قطع النظر عن هدایته تعالی فلا هدی له (ص) و لا لأحد من الخلق إ لا بالله سبحانه فقد کانت نفسه فی نفسها ضالة و إن کانت الهدایة الإلهیة ملازمة لها منذ وجدت فالآیة فی معنی قوله تعالی: «ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَ لَا الْإِیمانُ»

ص:311

: الشوری: ۵۲، و من هذا الباب قول موسی علی ما حکی الله عنه : «فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّینَ »: الشعراء: ۲۰ أی لم أهتد بهدی الرسالة بعد.

و یقرب منه ما قیل : إن المراد بالضلال الذهاب من العلم کما فی قوله : «أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَکِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْری »: البقرة: ۲۸۲، و یؤیده قوله: «وَ إِنْ کُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِینَ»: یوسف: ۳.

و قیل المعنی وجدک ضالا بین الناس لا یعرفون حقک فهداهم إلیک و دلهم علیک.

و قیل: إنه إشارة إلی ضلاله فی طریق مکة حینما کانت تجی ء به حلیمة بنت أبی ذؤیب من البدو إلی جده عبد المطلب علی ما روی.

و قیل: إشارة إلی ما روی من ضلاله فی شعاب مکة صغیرا.

و قیل: إشارة إلی ما روی من ضلاله فی مسیره إلی الشام مع عمه أبی طالب فی قافلة میسرة غلام خدیجة.

و قیل: غیر ذلک و هی وجوه ضعیفة ظاهرة الضعف.

قوله تعالی: «وَ وَجَدَکَ عائِلًا فَأَغْنی » العائل الفقیر الذی لا مال له و قد کان (ص) فقیرا لا مال له فأغناه الله بعد ما تزوج بخدیجة بنت خویلد (ع) فوهبت له مالها و کان لها مال کثیر، و قیل المراد بالإغناء استجابة دعوته.

قوله تعالی: «فَأَمَّا الْیَتِیمَ فَلا تَقْهَرْ» قال الراغب: القهر الغلبة و التذلیل معا و یستعمل فی کل واحد منهما، انتهی.

قوله تعالی: «وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ» النهر هو الزجر و الرد بغلظة.

قوله تعالی: «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ» التحدیث بالنعمة ذکرها قولا و إظهارها فعلا و ذلک شکرها، و هذه الأوامر عامة للناس و إن کانت موجهة إلی النبی ص.

و الآیات الثلاث متفرعة علی الآیات الثلاث التی تسبقها و تذکر نعمه تعالی علیه کأنه قیل : فقد وجدت ما یجده الیتیم من ذلة الیتیم و انکساره فلا تقهر الیتیم باستذلاله فی نفسه أو ماله، و وجدت مرارة حاجة الضال إلی الهدی و العائل إلی الغنی فلا تزجر سائلا یسألک رفع حاجته إلی هدی أو معاش، و وجدت أن ما عندک نعمة أنعمها علیک ربک بجوده و کرمه و رحمته فاشکر نعمته بالتحدیث بها و لا تسترها.

ص:312

بحث روائی

فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «وَ الضُّحی» قال: إذا ارتفعت الشمس «وَ اللَّیْلِ إِذا سَجی» قال: إذا أظلم.

و فیه،": فی قوله تعالی «وَ ما قَلی» قال: لم یبغضک.

و فى الدر المنثور،: فى قوله تعالى: «وَ لَسَوْفَ يُعْطِيکَ رَبُّکَ فَتَرْضى»:

أخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ص: إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا- «وَ لَسَوْفَ يُعْطِيکَ رَبُّکَ فَتَرْضى».

و فيه، أخرج العسكرى فى المواعظ و ابن لآل و ابن النجار عن جابر بن عبد الله قال ‌*: دخل رسول الله ص على فاطمة- و هى تطحن بالرحى و عليها كساء من حلة الإبل- فلما نظر إليها قال : يا فاطمة تعجلى- فتجرعى مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غدا- فأنزل الله «وَ لَسَوْفَ يُعْطِيکَ رَبُّکَ فَتَرْضى».

أقول: تحتمل الرواية نزول الآية وحدها بعد نزول بقية آيات السورة قبلها ثم الإلحاق و تحتمل نزولها وحدها ثانيا.

و فيه، أخرج ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية من طريق حرب بن شريح قال ‌*: قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين: أ رأيت هذه الشفاعة التى يتحدث بها أهل العراق أ حق هى؟ قال : إى و الله حدثنى عمى محمد بن الحنفية- عن على أن رسول الله ص قال: أشفع لأمتى حتى ينادينى ربى: أ رضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا رب رضيت.

ثم أقبل على فقال: إنكم تقولون يا معشر أهل العراق، إن أرجى آية فى كتاب الله:

«يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ- لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ- إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» قلت: إنا لنقول ذلک، قال: فكلنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية فى كتاب الله- «وَ لَسَوْفَ يُعْطِيکَ رَبُّکَ فَتَرْضى» الشفاعة.

و فى تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن ابن الجهم عن الرضا (ع)‌* فى مجلس المأمون قال: قال الله تعالى لنبيه محمد ص: «أَ لَمْ يَجِدْکَ يَتِيماً فَآوى» يقول: أ لم يجدک وحيدا فآوى إليک الناس؟ «وَ وَجَدَکَ ضَالًّا» يعنى عند قومک «فَهَدى» أى هداهم إلى معرفتک؟ «وَ وَجَدَکَ عائِلًا فَأَغْنى» يقول: أغناک بأن جعل دعاءک مستجابا؟ فقال

ص:313

المأمون: بارک الله فيک يا ابن رسول الله.

و فيه، عن البرقى بإسناده عن عمرو بن أبى نصر قال ‌*: حدثنى رجل من أهل البصرة قال : رأيت الحسين بن على (ع) و عبد الله بن عمر- يطوفان بالبيت- فسألت ابن عمر فقلت: قول الله تعالى: «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ» قال: أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه.

ثم إنى قلت للحسين بن على (ع): قول الله تعالى: «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ» قال: أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه من دينه.

و فى الدر المنثور، عن البيهقى عن الحسن بن على ‌* فى قوله : «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ» قال: إذا أصبت خيرا فحدث إخوانک.

و فیه، أخرج أبو داود عن جابر بن عبد الله عن النبی ص قال ***:** من أبلی بلاء فذکره فقد شکره- و من کتمه فقد کفره، و من تحلی بما لم یعط فإنه کلابس ثوب زور.

(۹۴) سورة أ لم نشرح مکیة أو مدنیة و هی ثمان آیات (۸)

[سورة الشرح (۹۴): الآیات ۱ الی ۸]

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

أ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ (۱) وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ (۲) اَلَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَکَ (۳) وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ (۴)

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً (۵) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً (۶) فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (۷) وَ إِلی رَبِّکَ فَارْغَبْ (۸)

بیان

أمر بالنصب فی الله و الرغبة إلیه توصل إلیه بتقدمة الامتنان و السورة تحتمل المکیة و المدنیة و سیاق آیاتها أوفق للمدنیة.

و فی بعض الروایات عن أئمة أهل البیت (ع) أن الضحی و أ لم نشرح سورة

ص:314

واحدة، و یروی ذلک أیضا عن طاووس و عمر بن عبد العزیز قال الرازی فی التفسیر الکبیر بعد نقله عنهما و الذی دعاهما إلی ذلک هو أن قوله تعالی : «أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ» کالعطف علی قوله: «أَ لَمْ یَجِدْکَ یَتِیماً» و لیس کذلک لأن الأول کان نزوله حال اغتمام الرسول ص من إیذاء الکفار فکانت حال محنة و ضیق صدر، و الثانی یقتضی أن یکون حال النزول منشرح الصدر طیب القلب فأنی یجتمعان انتهی.

و فیه أن المراد بشرح صدره (ص) فی الآیة جعله بحیث یسع ما یلقی إلیه من الحقائق و لا یضیق بما ینزل علیه من المعارف و ما یصیبه من أذی الناس فی تبلیغها کما سیجیء لا طیب القلب و السرور کما فسره.

و یدل علی ذلک

ما رواه ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر عن ابن عباس قال ***:** قال رسول الله ص: لقد سألت ربی مسألة وددت أنی لم أسأله- قلت: أی رب أنه قد کان أنبیاء قبلی منهم- من سخرت له الریح- و منهم من کان یحیی الموتی . قال: فقال: أ لم أجدک یتیما فآویتک؟ قال: قلت: بلی- قال: أ لم أجدک ضالا فهدیتک؟ قال: قلت:

بلی أی رب. قال: أ لم أشرح لک صدرک و وضعت عنک وزرک؟ قال: قلت: بلی أی رب

، و للكلام تتمة ستوافيک فی تفسير سورة الإيلاف إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ» قال الراغب: أصل الشرح بسط اللحم و نحوه يقال: شرحت اللحم و شرحته و منه شرح الصدر أی بسطته بنور إلهی و سکينة من جهة ا لله و روح منه قال تعالى : «رَبِّ اشْرَحْ لِی صَدْرِی» «أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ» «فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ» انتهى.

و ترتب الآيات الثلاث الأول فی مضامينها ثم تعليلها بقوله : «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً» الظاهر فی الانطباق على حاله (ص) فی أوائل دعوته و أواسطها و أواخرها ثم تکرار التعليل ثم تفريع آيتی آخر السورة کل ذلک يشهد على کون المراد بشرح صدره (ص) بسطه بحيث يسع ما يلقى إليه من الوحی و يؤمر بتبليغه و ما يصيبه من المکاره و الأذى فی الله، و بعبارة أخرى جعل نفسه المقدسة مستعدة تامة الاستعداد لقبول ما يفاض عليها من جانب الله تعالى.

قوله تعالى: «وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ اَلَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَکَ» الوزر الحمل الثقيل، و إنقاض الظهر کسره بحيث يسمع له صوت کما يسمع من السرير و نحوه عند استقرار شیء ثقيل

ص:315

عليه، و المراد به ظهور ثقل الوزر عليه ظهورا بالغا.

و وضع الوزر إذهاب ما يحس من ثقله و جملة: «وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ» معطوفة على قوله: «أَ لَمْ نَشْرَحْ» إلخ لما أن معناه قد شرحنا لک صدرک.

و المراد بوضع وزره (ص) على ما يفيده السياق- و قد أشرنا إليه- إنفاذ دعوته و إمضاء مجاهدته فی الله بتوفيق الأسباب فإن الرسالة و الدعوة و ما يتفرع على ذلک هی الثقل الذی حمله إثر شرح صدره.

و قيل: وضع الوزر إشارة إلى ما وردت به الرواية أن ملکين نزلا عليه و فلقا صدره و أخرجا قلبه و طهراه ثم رداه إلى محله و ستوافيک روايته.

و قيل: المراد بالوزر ما صدر عنه (ص) قبل البعثة، و قيل: غفلته عن الشرائع و نحوها مما يتوقف على الوحی مع تطلبه، و قيل: حيرته فی بعض الأمور کأداء حق الرسالة، و قيل : الوحی و ثقله عليه فی بادئ أمره، و قيل : ما کان يرى من ضلال قومه و عنادهم مع عجزه عن إرشادهم، و قيل: ما کان يرى من تعديهم و مبالغتهم فی إيذائه، و قيل : همه لوفاة عمه أبی طالب و زوجه خديجة، و قيل: الوزر المعصية و رفع الوزر عصمته، و قيل: الوزر ذنب أمته و وضعه غفرانه.

و هذه الوجوه بعضها سخيف و بعضها ضعيف لا يلائم السياق، و هی بين ما قيل به و بين ما احتمل احتمالا.

قوله تعالى: «وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ» رفع الذکر إعلاؤه عن مستوى ذکر غیره من الناس و قد فعل سبحانه به ذلک، و من رفع ذکره أن قرن الله اسمه (ص) باسمه فاسمه قرین اسم ربه فی الشهادتین اللتین هما أساس دین الله، و على کل مسلم أن یذکره مع ربه کل یوم فی الصلوات الخمس المفروضة، و من اللطف وقوع الرفع بعد الوضع فی الآیتین.

قوله تعالى: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً» لا یبعد أن یکون تعلیلا لما تقدم من وضع الوزر و رفع الذکر فما حمله الله من الرسالة و أمر به من الدعوة- و ذلک أثقل ما یمکن لبشر أن یحمله- کان قد اشتد علیه الأمر بذلک، و کذا تکذیب قومه دعوته و استخفافهم به و إصرارهم على إمحاء ذکره کان قد اشتد علیه فوضع الله وزره الذی حمله بتوفیق الناس لإجابة دعوته و رفع ذکره الذی کانوا یریدون إمحاءه و کان ذلک جریا على سنته تعالى فی الکون من الإتیان بالیسر بعد العسر فعلل رفع الشدة عنه (ص) بما أشار إلیه من

ص:316

سنته، و على هذا فاللام فی «العسر» للجنس دون الاستغراق و لعل السنة سنة تحول الحوادث و تقلب الأحوال و عدم دوامها.

و عن الزمخشری فی الکشاف، أن الفاء فی «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ» إلخ فصیحة و الکلام مسوق لتسلیته (ص) بالوعد الجمیل.

قال: کان المشرکون یعیرون رسول الله ص و المؤمنین بالفقر و الضیقة حتى سبق إلى ذهنه الشریف أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله و احتقارهم فذکره سبحانه ما أنعم به علیه من جلائل النعم ثم قال : إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً کأنه قال: خولناک ما خولناک فلا تیأس من فضل الله فإن مع العسر الذی أنتم فیه یسرا.

و ظاهره أن اللام فی العسر للعهد دون الجنس و أن المراد بالیسر ما رزقه الله المؤمنین بعد من الغنائم الکثیرة.

و هو ممنوع فذهنه الشریف (ص) أجل من أن یخفى علیه حالهم و أنهم إنما یرغبون عن دعوته استکبارا على الحق و استعلاء على الله على أن القوم لم یرغبوا فی الإسلام حتى بعد ظهور شوکته و إثراء المؤمنین و قد أیأس الله نبیه من إیمان أکثرهم حیث قال: «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَکْثَرِهِمْ فَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ- إلى أن قال- وَ سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا یُؤْمِنُونَ»: یس: ۱۰ و الآیات مکیة و قال: إِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا یُؤْمِنُونَ»: البقرة: ۶ و الآیة مدنیة.

و لو حمل الیسر بعد العسر على شوکة الإسلام و رفعته بعد ضعته مع أخذ السورة مکیة لم یکن به کثیر بأس.

قوله تعالى: «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً» تکرار للتأکید و التثبیت و قیل: استئناف و ذکروا أن فی الآیتین دلالة على أن مع العسر الواحد یسران بناء على أن المعرفة إذا أعیدت ثانیة فی الکلام کان المراد بها عین الأولى بخلاف النکرة ک ما أنه لو قیل : إذا اکتسبت الدرهم أو درهما فأنفق الدرهم کان المراد بالثانی هو الأول بخلاف ما لو قیل:

إذا اکتسبت درهما فأنفق درهما و لیست القاعدة بمطردة.

و التنوين فی «يُسْراً» للتنويع لا للتفخيم كما ذكره بعضهم، و المعيۀ معيۀ التوالی دون المعيۀ بمعنی التحقق فی زمان واحد.

قوله تعالی: «فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَ إِلی رَبِّکَ فَارْغَبْ» خطاب للنبی ص متفرع

ص:317

علی ما بين قبل من تحميله الرسالۀ و الدعوۀ و منه تعالی عليه بما من من شرح الصدر و وضع الوزر و رفع الذكر و كل ذلک من اليسر بعد العسر.

و عليه فالمعنی إذا كان العسر يأتی بعده اليسر و الأمر فيه إلی الله لا غير فإذا فرغت مما فرض عليک فأتعب نفسک فی الله- بعبادته و دعائه- و ارغب فيه ليمن عليک بما لهذا التعب من الراحۀ و لهذا العسر من اليسر.

و قيل: المراد إذا فرغت من الفرائض فانصب فی النوافل، و قيل : إذا فرغت من الصلاۀ فانصب فی الدعاء، و ما يتضمنه القولان بعض المصاديق.

و قيل: المعنی إذا فرغت من الغزو فاجتهد فی العبادۀ و قيل: المراد إذا فرغت من دنياک فانصب فی آخرتک و قيل غير ذلک و هی وجوه ضعيفۀ.

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج عبد الله بن أحمد فی زوائد الزهد عن أبی بن كعب* أن أبا هريرۀ قال: يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوۀ؟ فاستوی رسول الله ص جالسا و قال : لقد سألت أبا هريرۀ- إنی لفی صحراء ابن عشرين سنۀ و أشهرا- إذا بكلام فوق رأسی و إذا رجل يقول لرجل: أ هو هو؟ فاستقبلانی بوجوه لم أرها لخلق قط، و أرواح لم أجدها فی خلق قط- و ثياب لم أجدها علی أحد قط- فأقبلا إلی يمشيان حتی أخذ كل واحد منهما بعضدی- لا أجد لأحدهما مسا.

فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه فأضجعنی بلا قصر و لا هصر- فقال أحدهما: أفلق صدره فحوی أحدهما إلی صدری- ففلقه فيما أری بلا دم و لا وجع- فقال له: أخرج الغل و الحسد- فأخرج شيئا كهيئۀ العلقۀ ثم نبذها فطرحها- فقال له: أدخل الرأفۀ و الرحمۀ- فإذا مثل الذی أخرج شبه الفضۀ- ثم هز إبهام رجلی اليمنی و قال : اغد و أسلم- فرجعت بها أغدو بها رقۀ علی الصغير و رحمۀ للكبير.

أقول: و فی نقل بعضهم- كما فی روح المعاری،- ابن عشر حجج مكان قوله : ابن عشرين سنۀ و أشهرا، و فی بعض الروايات نقل القصۀ عند نزول سورۀ اقرأ باسم ربک و فی بعضها كما فی صحيح البخاری و مسلم و الترمذی و النسائی نقل القصۀ عند إسراء النبی.

و القصۀ علی أی حال من قبيل التمثل بلا إشكال، و قد أطالوا البحث فی توجيه ما

تتضمنه على أنها واقعة مادية فتمحلوا بوجوه لا جدوى فى التعرض لها بعد فساد أصلها.

و فيه، أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ص قال*: أتانى جبرئيل فقال:

إن ربک يقول: تدرى كيف رفعت ذكرک؟ قلت: الله أعلم- قال: إذا ذكرت ذكرت معى.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و الحاكم و البيهقى عن الحسن قال *: خرج النبى ص يوما مسرورا و هو يضحک و يقول: لن يغلب عسر يسرين «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً».

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَ إِلى رَبِّکَ فَارْغَبْ» معناه فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة- فانصب إلى ربک فى الدعاء و ارغب إليه فى المسألة.: قال:

و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).

(۹۵) سورة التين مكية و هى ثمان آيات (۸)

[سورة التين (۹۵): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (۱) وَ طُورِ سِينِينَ (۲) وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (۴)

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (۵) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۶) فَما يُكَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّينِ (۷) أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (۸)

بيان

تذكر السورة البعث و الجزاء و تسلک إليه من طريق خلق الإن سان فى أحسن تقويم ثم اختلافهم بالبقاء على الفطرة الأولى و خروجهم منها بالانحطاط إلى أسفل سافلين و وجوب التمييز بين الطائفتين جزاء باقتضاء الحكمة.

و السورة مكية و تحتمل المدنية و يؤيد نزولها بمكة قوله: «وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» و ليس بصريح فيه لاحتمال نزولها بعد الهجرة و هو (ص) بمكة.

قوله تعالى: «وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ وَ طُورِ سِينِينَ وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» قيل: المراد بالتين و الزيتون الفاكهتان المعروفتان أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمة و الخواص النافعة، و قيل المراد بهما شجرتا التين و الزيتون، و قيل : المراد بالتين الجبل الذى عليه دمشق و بالزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس، و لعل إطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتيهما و لعل الإقسام بهما لكونهما مبعثى جم غفير من الأنبياء و قيل غير ذلك.

و المراد بطور سينين الجبل الذى كلم الله تعالى فيه موسى بن عمران (ع)، و يسمى أيضا طور سيناء.

و المراد بهذا البلد الأمين مكة المشرفة لأن الأمن خاصة مشرعة للحرم و هى فيه قال تعالى: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً»: العنكبوت: ٦٧ و فى دعاء إبراهيم (ع) على ما حكى الله عنه: «رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً»: البقرة: ١٢٦، و فى دعائه ثانيا: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً»: إبراهيم: ٣٥.

و فى الإشارة بهذا إلى البلد تثبيت التشريف عليه بالتشخيص و توصيفه بالأمين إما لكونه فعيلا بمعنى الفاعل و يفيد معنى النسبةو المعنى ذى الأمن كاللابن و التامر و إما لكونه فعيلا بمعنى المفعول و المراد البلد الذى يؤمن الناس فيه أى لا يخاف فيه من غوائلهم ففى نسبة الأمن إلى البلد نوع تجوز.

قوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» جواب للقسم و المراد بكون خلقه فى أحسن تقويم اشتمال التقويم عليه فى جميع شئونه و جهات وجوده، و التقويم جعل الشيء ذا قوام و قوامِ الشى ء ما يقوم به و يثبت فالإنسان و المراد به الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلقة.

و معنى كونه ذا أحسن قوام بحسب الخلقة على ما يستفاد من قوله بعد : «ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ » إلخ صلوحه بحسب الخلقة للعروج إلى الرفيع الأعلى و الفوز بحياة خالدة عند ربه سعيدة لا شقوة معها، و ذلك بما جهزه الله به من العلم النافع و مكنه منه من العمل الصالح قال تعالى: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها »: الشمس: ٨ فإذا آمن بما علم و زاول صالح العمل رفعه الله إليه كما قال : «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »: فاطر: ١٠، و قال : «وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ»: الحج: ٣٧.

ص:320

و قال: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ»: المجادلة: ١١ و قال:

«فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى »: طه: ٧٥ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ارتفاع مقام الإنسان و ارتقائه بالإيمان و العمل الصالح عطاء من الله غير مجذوذ، و قد سماه تعالى أجرا كما يشير إليه قوله الآتى: «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ».

قوله تعالى: «ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ » ظاهر الرد أن يكون بمعناه المعروف فأسفل منصوب بنزع الخافض، و المراد بأسفل سافلين مقام منحط هو أسفل من سفل من أهل الشقوة و الخسران و المعنى ثم رددنا الإنسان إلى أسفل من سفل من أهل العذاب.

و احتمل أن يكون الرد بمعنى الجعل أى جعلناه أسفل سافلين، و أن يكون بمعنى التغيير و المعنى ثم غيرناه حال كونه أسفل جمع سافلين، و المراد بالسفالة على أى حال الشقاء و العذاب.

و قيل: المراد بخلق الإنسان فى أحسن تقويم ما عليه وجوده أوان الشباب من استقامة القوى و كمال الصورة و جمال الهيئة، و برده إلى أسفل سافلين رده إلى الهرم بتضعيف قواه الظاهرة و الباطنة و نكس خلقته فتكون الآية فى معنى قوله تعالى : «وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ»: يس: ۶۸.

و فيه أنه لا يلائمه ما فى قوله : «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» من الاستثناء الظاهر فى المتصل فإن حكم الخلق عام فى المؤمن و الكافر و الصالح و الطالح و دعوى أن المؤمن أو المؤمن الصالح مصون من ذلک مجازفة.

و كذا القول بأن المراد بالإنسان هو الكافر و المراد بالرد رده إلى جهنم أو إلى نكس الخلق و الاستثناء منقطع.

قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى غير مقطوع استثناء متصل من جنس الإنسان، و تفريع قوله: «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » عليه يؤيد كون المراد من رده إلى أسفل سافلين رده إلى الشقاء و العذاب.

قوله تعالى: «فَما يُكَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ » الخطاب للإنسان باعتبار الجنس، و قيل للنبى ص و المراد غيره، و «فَما» استفهامية توبيخية، و «بِالدِّينِ» متعلق بيكذبک، و الدين الجزاء و المعنى- على ما قيل- ما الذى يجعلک مكذبا بالجزاء يوم القيامة بعد ما جعلنا الإنسان طائفتين طائفة مردودة إلى أسفل سافلين و طائفة مأجورة أجرا غير ممنون.

ص:321

و قوله: «أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ» الاستفهام للتقرير و كونه تعالى أحكم الحاكمين هو كونه فوق كل حاكم فى إتقان الحكم و حقيته و نفوذه من غير اضطراب و وهن و بطلان فهو تعالى يحكم فى خلقه و تدبيره بما من الواجب فى الحكمة أن يحكم به الناس من حيث الإتقان و الحسن و النفوذ و إذا كان الله تعالى أحكم الحاكمين و الناس طائفتان مختلفتان اعتقادا و عملا فمن الواجب فى الحكمة أن يميز بينهم بالجزاء فى حياتهم الباقية و هو البعث.

فالتفريع فى قوله : «فَما يُكَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّينِ» من قبيل تفريع النتيجة على الحجة و قوله : «أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ» تتميم للحجة المشار إليها بما يتوقف عليه تمامها.

و المحصل أنه إذا کان الناس خلقوا فی أحسن تقویم ثم اختلفوا فطائفة خرجت عن تقویمها الأحسن و ردت إلی أسفل سافلین و طائفة بقیت فی تقویمها الأحسن و علی فطرتها الأولی و الله المدبر لأمرهم أحکم الحاکمین، و من الواجب فی الحکمة أن تختلف الطائفتان جزاء، فهناک یوم تجزی فیه کل طائفة بما عملت و لا مسوغ للتکذیب به.

فالآیات- کما تری- فی معنی قوله تعالی: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَ رْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجّارِ»: ص: ۲۸، و قوله: «أَمْ حَسِبَ الَّذِینَ اجْتَرَحُوا السَّیِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ کَالَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ سَواءً مَحْیاهُ مْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما یَحْکُمُونَ»: الجاثیة: ۲۱.

و بعض من جعل الخطاب فی قوله: «فَما یُکَذِّبُکَ» للنبی ص جعل «ما» بمعنی من و الحکم بمعنی القضاء، و علیه فالمعنی إذا کان الناس مختلفین و لازم ذلک اختلاف جزائهم فی یوم معد للجزاء فمن الذی ینسبک إلی الکذب بالجزاء أ لیس الله بأقضی القاضین فهو یقضی بینک و بین المکذبین لک بالدین.

و أنت خبیر بأن فیه تکلفا من غیر موجب.

بحث روائی

فی تفسیر القمی، ": فی قوله تعالی: «وَ التِّینِ وَ الزَّیْتُونِ- وَ طُورِ سِینِینَ وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِینِ » التین المدینة و الزیتون بیت المقدس- و طور سینین الکوفة و هذا البلد الأمین مکة.

أقول: و قد ورد هذا المعنی فی بعض الروایات عن موسی بن جعفر عن آبائه (ع)

عن النبی ص و لا یخلو من شیء،

و فی بعضها: أن التین و الزیتون الحسن و الحسین و الطور علی- و البلد الأمین النبی ص

و لیس من التفسیر فی شیء.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن جابر بن عبد الله* أن خزیمة بن ثابت و لیس بالأنصاری سأل النبی ص- عن البلد الأمین فقال: مکة.

(۹۶) سورة العلق مکیة و هی تسع عشرة آیة (۱۹)

[سورة العلق (۹۶): الآیات ۱ الی ۱۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ (۱) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (۲) اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ (۳) الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴)

عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ (۵) کَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَیَطْغی (۶) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی (۷) إِنَّ إِلی رَبِّکَ الرُّجْعی (۸) أَ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهی (۹)

عَبْداً إِذا صَلَّی (۱۰) أَ رَأَیْتَ إِنْ کانَ عَلَی الْهُدی (۱۱) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوی (۱۲) أَ رَأَیْتَ إِنْ کَذَّبَ وَ تَوَلَّی (۱۳) أَ لَمْ یَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ یَری (۱۴)

کَلاَّ لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِیَةِ (۱۵) ناصِیَةٍ کاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (۱۶) فَلْیَدْعُ نادِیَهُ (۱۷) سَنَدْعُ الزَّبانِیَةَ (۱۸) کَلاَّ لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (۱۹)

بیان

أمر للنبی ص بتلقی القرآن بالوحی منه تعالی و هی أول سورة نزلت من القرآن، و سیاق آیاتها لا یأبی نزولها دفعة واحدة کما سنشیر إلیه، و هی مکیة قطعا.

قوله تعالی: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ» قال الراغب:

و القراءة ضم الحروف و الکلمات بعضها إلی بعض فی الترتیل، و لیس یقال ذلک لکل

ص:323

جمع لا یقال: قرأت القوم إذا جمعتهم، و یدل علی ذلک أنه لا یقال: للحرف الواحد إذا تفوه به: قراءة انتهی.

و علی أی حال، یقال: قرأت الکتاب إذا جمعت ما فیه من الحروف و الکلمات بضم بعضها إلی بعض فی الذهن و إن لم تتلفظ بها، و یقال: قرأته إذا جمعت الحروف و الکلمات بضم بعضها إلی بعض فی التلفظ، و یقال قرأته علیه إذا جمعت بین حروفه و کلماته فی سمعه و یطلق علیها بهذا المعنی التلاوة أیضا قال تعالی: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ یَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً»: البینة: ۲.

و ظاهر إطلاق قوله : «اقْرَأْ» المعنی الأول و المراد به الأمر بتلقی ما یوحیه إلیه ملک الوحی من القرآن فا لجملة أمر بقراءة الکتاب و هی من الکتاب کقول القائل فی مفتتح کتابه لمن أرسله إلیه : اقرأ کتابی هذا و اعمل به فقوله هذا أمر بقراءة الکتاب و هو من الکتاب.

و هذا السیاق یؤید أولا ما ورد أن الآیات أول ما نزل من القرآن علی النبی ص.

و ثانیا أن التقدیر اقرأ القرآن أو ما فی معناه، و لیس المراد مطلق القراءة باستعمال «اقرأ» استعمال الفعل اللازم بالإعراض عن المفعول، و لا المراد القراءة علی الناس بحذف المتعلق و إن کان ذلک من أغراض النزول کما قال : «وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّاسِ عَلی مُکْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِیلًا»: إسراء: ۱۰۶، و لا أن قوله: «بِاسْمِ رَبِّکَ» مفعول «اقْرَأْ» و الباء زائدة و التقدیر اقرأ اسم ربک أی بسمل.

و قوله: «بِاسْمِ رَبِّکَ» متعلق بمقدر نحو مفتتحا و مبتدئا أو باقرأ و الباء للملابسة و لا ینافی ذلک کون البسملة المبتدأة بها السورة جزء من السورة فهی من کلام الله افتتح سبحانه بها و أمر أن یقرأ مبتدئا بها کما أمر أن یقرأ قوله : «اقْرَأْ بِاسْمِ» إلخ ففیه تعلیم بالعمل نظیر الأمر بالاستثناء فی قوله: «وَ لا تَقُولَنَّ لِشَیْءٍ إِنِّی فاعِلٌ ذلِکَ غَداً إِلّا أَنْ یَشاءَ اللّهُ» الکهف: ۲۴ فافهم ذلک.

و فی: قوله «رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ» إشارة إلی قصر الربوبیة فی الله عز اسمه و هو توحید الربوبیة المقتضیة لقصر العبادة فیه فإن المشرکین کانوا یقولون: إن الله سبحانه لیس له إلا الخلق و الإیجاد و أما الربوبیة و هی الملک و التدبیر فلمقربی خلقه من الملائکة و الجن و الإنس فدفعه الله بقوله: «رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ» الناص علی أن الربوبیة و الخلق له وحده.

و قوله: «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ» المراد جنس الإنسان المتناسل و العلق الدم المنجمد

ص:324

و المراد به ما یستحیل إلیه النطفة فی الرحم.

ففی الآیة إشارة إلی التدبیر الإلهی الوارد علی الإنسان من حین کان علقة إلی حین یصیر إنسانا تاما کاملا له من أعاجیب الصفات و الأفعال ما تتحیر فیه العقول فلم یتم الإنسان إنسانا و لم یکمل إلا بتدبیر متعاقب منه تعالی و هو بعینه خلق بعد خلق فهو تعالی ر ب مدبر لأمر الإنسان بعین أنه خالق له فلیس للإنسان إلا أن یتخذه وحده ربا ففی الکلام احتجاج علی توحید الربوبیة.

قوله تعالی: «اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ» أمر بالقراءة ثانیا تأکیدا للأمر الأول علی ما هو ظاهر سیاق الإطلاق.

و قیل: المراد به الأمر بالقراءة علی الناس و هو التبلیغ بخلاف الأمر الأول فالمراد به الأمر بالقراءة لنفسه، کما قیل : إن المراد بالأمرین جمیعا الأمر بالقراءة علی الناس، و الوجهان غیر ظاهرین.

و قوله: «وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ» أی الذی یفوق عطاؤه عطاء ما سواه فهو تعالی یعطی لا عن استحقاق و ما من نعمة إلا و ینتهی إیتاؤها إلیه تعالی.

و قوله: «الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» الباء للسببیة أی علم القراءة أو الکتابة و القراءة بواسطة القلم و الجملة حالیة أو استئنافیة، و الکلام مسوق لتقویة نفس النبی ص و إزالة القلق و الاضطراب عنها حیث أمر بالقراءة و هو أمی لا یکتب و لا یقرأ کأنه قیل : اقرأ

كتاب ربک الذی یوحیه إلیک و لا تخف و الحال أن ربک الأکرم الذی علم الإنسان القراءة بواسطة القلم الذی یخط به فهو قادر علی أن یعلمک قراءة کتابه و أنت أمی و قد أمرک بالقراءة و لو لم یقدرک علیها لم یأمرک بها.

ثم عمم سبحانه النعمة فذکر تعلیمه للإنسان ما لم یعلم فقال : «عَلَّمَ اَلْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ » و فیه مزید تقویة لقلب النبی ص و تطییب لنفسه.

و المراد بالإنسان الجنس کما هو ظاهر السیاق و قیل: المراد به آدم (ع)، و قیل:

إدریس (ع) لأنه أول من خط بالقلم، و قیل: کل نبی کان یکتب و هی وجوه ضعیفة بعیدة عن الفهم.

قوله تعالی: «کَلاّٰ إِنَّ اَلْإِنْسانَ لَیَطْغی أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی» ردع عما یستفاد من الآیات السابقة أنه تعالی أنعم علی الإنسان بعظائم نعم مثل التعلیم بالقلم و سائر ما علم و التعلیم

ص:325

من طریق الوحی فعلی الإنسان أن یشکره علی ذلک لکنه یکفر بنعمته تعالی و یطغی.

و قوله: «إِنَّ اَلْإِنْسانَ لَیَطْغی» أن یتعدی طوره، و هو إخبار بما فی طبع الإنسان ذلک کقوله : «إِنَّ اَلْإِنْسانَ لَظَلُومٌ کَفّٰارٌ»: إبراهیم: ۳۴.

و قوله: «أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی» من الرأی دون الرؤیة البصریة، و فاعل «رَآهُ» و مفعوله الإنسان. و جملة «أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی» فی مقام التعلیل أی لیطغی لأنه یعتقد نفسه مستغنیا عن ربه المنعم علیه فیکفر به، و ذلک أنه یشتغل بنفسه و الأسباب الظاهری ة التی یتوصل بها إلی مقاصده فیغفل عن ربه من غیر أن یری حاجة منه إلیه تبعثه إلی ذکره و شکره علی نعمه فینساه و یطغی.

قوله تعالی: «إِنَّ إِلی رَبِّکَ الرُّجْعی» الرجعی هو الرجوع و الظاهر من سیاق الوعید الآتی أنه وعید و تهدید بالموت و البعث، و الخطاب للنبی ص، و قیل: الخطاب للإنسان بطریق الالتفات للتشدید، و الأول أظهر.

قوله تعالی: «أَ رَأَیْتَ اَلَّذِی یَنْهی عَبْداً إِذا صَلّٰی أَ رَأَیْتَ إِنْ کانَ عَلَی الْهُدی أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوی أَ رَأَیْتَ إِنْ کَذَّبَ وَ تَوَلّٰی أَ لَمْ یَعْلَمْ بِأَنَّ اللّٰهَ یَری» بمنزلة ذکر بعض المصادیق للإنسان الطاغی و هو کالتوطئة لوعیده بتصریح العقاب و النهی عن طاعته و الأمر بعبادته تعالی، و المراد بالعبد الذی کان یصلی هو النبی ص علی ما یستفاد من آخر الآیات حیث ینهاه (ص) عن طاعة ذلک الناهی و یأمره بالسجود و الاقتراب.

و سیاق الآیات- علی تقدیر کون السورة أول ما نزل من القرآن و نزولها دفعة واحدة- یدل علی صلاة النبی ص قبل نزول القرآن و فیه دلالة علی نبوته قبل رسالته بالقرآن.

و أما ما ذكره بعضهم أنه لم يكن الصلاة مفروضة فی أول البعثة و إنما شرعت لیلة المعراج علی ما فی الأخبار و هو قوله تعالی: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلی غَسَقِ اللَّیْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ»: إسراء: ٧٨.

ففیه أن المسلم من دلالتها أن الصلوات الخمس الیومیة إنما فرضت بهیئتها الخاصة رکعتین رکعتین لیلة المعراج و لا دلالة فیها علی عدم تشریعها قبل و قد ورد فی کثیر من السور المکیة و منها النازلة قبل سورة الإسراء کالمدثر و المزمل و غیرهما ذکر الصلاة بتعبیرات مختلفة و إن لم یظهر فیها من کیفیتها إلا أنها کانت مشتملة علی تلاوة شیء من القرآن و السجود.

ص:326

و قد ورد فی بعض الروایات صلاة النبی ص مع خدیجة و علی فی أوائل البعثة و إن لم یذکر کیفیة صلاتهم.

و بالجملة قوله: «أَ رَأَیْتَ» بمعنی أخبرنی، و الاستفهام للتعجیب، و المفعول الأول لقوله:

«أَ رَأَیْتَ» الأول قوله: «الَّذِی یَنْهی» و لأرأیت الثالث ضمیر عائد إلی الموصول، و لأرأیت الثانی ضمیر عائد إلی قوله : «عَبْداً» و المفعول الثانی لأرأیت فی المواضع الثلاث قوله:

«أَ لَمْ یَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ یَری».

و محصل معنی الآیات أخبرنی عن الذی ینهی عبدا إذا صلی و عبد الله ا لناهی یعلم أن الله یری ما یفعله کیف یکون حاله . أخبرنی عن هذا الناهی إن کان ذاک العبد المصلی علی الهدی أو أمر بالتقوی کیف یکون حال هذا الناهی و هو یعلم أن الله یری.

أخبرنی عن هذا الناهی أن تلبس بالتکذیب للحق و التولی عن الإیمان به و نهی العبد المصلی عن الصلا ة و هو یعلم أن الله یری؟ هل یستحق إلا العذاب.؟

و قیل: المفعول الأول لأرأیت فی جمیع المواضع الثلاث هو الموصول أو الضمیر العائد إلیه تحرزا عن التفکیک بین الضمائر.

و الأولی علی هذا أن یجعل معنی قوله : «أَ رَأَیْتَ إِنْ کانَ عَلَی الْهُدی أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوی» أخبرنی عن هذا الناهی إن کان علی الهدی أو أمر بالتقوی و هو یعلم أن الله یری ما ذا کان یجب علیه أن یفعله و یأمر به؟ و کیف یکون حاله و قد نهی عن عبادة الله سبحانه؟

و هو مع ذلک معنی بعید و لا بأس بالتفکیک بین الضمائر مع مساعدة السیاق و إعانة القرائن.

و قوله: «أَ لَمْ یَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ یَری» المراد به العلم علی طریق الاستلزام فإن لازم الاعتقاد بأن الله خالق کل شیء هو الاعتقاد بأن له علما بکل شیء و إن غفل عنه و قد کان الناهی وثنیا مشرکا و الوثنیة معترفون بأن الله هو خالق کل شی ء و ینزهونه عن صفات النقص فیرون أنه تعالی لا یجهل شیئا و لا یعجز عن شیء و هکذا.

قوله تعالى: «كَلّٰا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّٰاصِيَةِ نٰاصِيَةٍ كٰاذِبَةٍ خٰاطِئَةٍ» قال فى المجمع،:

و السفع الجذب الشديد يقال: سفعت بالشىء إذا قبضت عليه و جذبته جذبا شديدا.

انتهى، و فى توصيف الناصية بالكذب و الخطإ و هما وصفا صاحب الناصية مجاز.

و فى الكلام ردع و تهديد شديد، و المعنى ليس الأمر كما يقول و يريد أو ليس له ذلك.

ص:327

أقسم لئن لم يكف عن نهيه و لم ينصرف لنأخذن بناصيته أخذ الذليل المهان و نجذبنه إلى العذاب تلك الناصية التى صاحبها كاذب فيما يقول خاطئ فيما يفعل، و قيل: المعنى لنسمن ناصيته بالنار و نسودنها.

قوله تعالى: «فَلْيَدْعُ نٰادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبٰانِيَةَ » النادى المجلس و كان المراد به أهل المجلس أى الجمع الذين يجتمع بهم، و قيل : الجليس، و الزبانية الملائكة الموكلون بالنار، و قيل:

الزبانية فى كلامهم الشرط، و الأمر تعجيزى أشير به إلى شدة الأخذ و المعنى فليدع هذا الناهى جمعه لينجوه منا سندع الزبانية الغلاظ الشداد الذين لا ينفع معهم نصر ناصر.

قوله تعالى: «كَلّٰا لاٰ تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ » تكرار الردع للتأكيد، و قوله : «لاٰ تُطِعْهُ» أى لا تطعه فى النهى عن الصلاة و هى القرينة على أن المراد بالسجود الصلاة، و لعل الصلاة التى كان (ص) يأتى بها يومئذ كانت تسبيحه تعالى و السجود له و قيل : المراد به السجود لقراءة هذه السورة التى هى إحدى العزائم الأربع فى القرآن.

و الاقتراب التقرب إلى الله، و قيل: الاقتراب من ثواب الله تعالى.

بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و البخارى و مسلم و ابن جرير و ابن الأنبارى فى المصاحف و ابن مردويه و البيهقى من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت *: أول ما بدئ به رسول الله ص من الوحى- الرؤيا الصالحة فى النوم- فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

ثم حبب إليه الخلاء و كان يخلو بغار حراء- فيتحنث فيه و هو التعبد الليالى ذوات العدد- قبل أن ينزع إلى أهله و يتزود لذلك- ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها- حتى جاءه الحق و هو فى غار حراء- فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: قلت: ما أنا بقارئ. قال:

فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى- فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ- قال:

فأخذنی فغطنی الثانیة حتی بلغ منی الجهد- ثم أرسلنی فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ- فأخذنی فغطنی الثالثة حتی بلغ منی الجهد- ثم أرسلنی فقال: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ- خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ- اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ الآیة.

فرجع بها رسول الله ص یرجف فؤاده- فدخل علی خدیجة بنت خویلد فقال: زملونی زملونی فزملوه حتی ذهب عنه الروع- فقال لخدیجة و أخبرها الخبر: لقد خشیت علی نفسی فقالت خدیجة: کلا ما یخزیک الله أبدا إنک لتصل الرحم- و تحمل الکل و تکسب «۱» المعدوم و تقری الضیف- و تعین علی نوائب الحق «۲».

فانطلقت به خدیجة- حتی أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزی- ابن عم خدیجة و کان امرأ قد تنصر فی الجاهلیة، و کان یکتب الکتاب العبرانی- فیکتب من الإنجیل بالعبرانیة ما شاء الله أن یکتب، و کان شیخا کبیرا قد عمی- فقالت له خدیجة: یا ابن عم اسمع من ابن أخیک.

فقال له ورقة: یا ابن أخی ما ذا تری؟ فأخبره رسول الله ص خبر ما رأی- فقال له ورقة: هذا الناموس الذی أنزل الله علی موسی! یا لیتنی أکون فیها جذعا- یا لیتنی أکون فیها حیا إذ یخرجک قومک- فقال رسول الله ص: أ و مخرجی هم؟ قال: نعم لم یأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودی، و إن یدرکنی یومک أنصرک نصرا مؤزرا- ثم لم ینشب ورقة أن توفی و فتر الوحی.

قال ابن شهاب: و أخبرنی أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاری قال و هو یحدث عن فترة الوحی فقال فی حدیثه*: بینما أنا أمشی إذ سمعت صوتا من السماء- فرفعت بصری فإذا الملک الذی جاءنی بحراء- جالس علی کرسی بین السماء و الأرض- فرعبت منه فرجعت فقلت: زملونی زملونی- فأنزل الله: یا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ- وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ فحمی الوحی و تتابع.

و فیه، أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و أبو نعیم فی الدلائل عن عبد الله بن شداد قال *: أتی جبریل محمدا ص فقال: یا محمد اقرأ. قال: و ما أقرأ فضمه ثم قال: یا محمد اقرأ. قال: و ما أقرأ. قال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ. حتی بلغ «ما لَمْ یَعْلَمْ».

فجاء إلی خدیجة فقال: یا خدیجة- ما أراه إلا قد عرض لی- قالت: کلا و الله ما کان ربک یفعل ذلک بک- و ما أتیت فاحشة قط- فأتت خدیجة ورقة فأخبرته الخبر قال: لئن کنت صادقة إن زوجک لنبی- و لیلقین من أمته شدة و لئن أدرکته لأومنن به.

قال: ثم أبطأ علیه جبریل فقالت خدیجة: ما أری ربک إلا قد قلاک فأنزل الله-

---

(۱) تکسی ط.

(۲) الخلق ط.

«وَ الضُّحی وَ اللَّیْلِ إِذا سَجی ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی».

أقول: و فی روایة: أن الذی ألقاه جبریل سورة الحمد.

و القصة لا تخلو من شیء و أهون ما فیها من الإشکال شک النبی ص فی کون ما شاهده وحیا إلهیا من ملک سماوی ألقی إلیه کلام الله و تردده بل ظنه أنه من مس الشیاطین بالجنون، و أشکل منه سکون نفسه فی کونه نبوة إلی قول رجل نصرانی مترهب و قد قال تعالی: «قُلْ إِنِّی عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّی»: الأنعام: ۵۷ و أی حجة بینة فی قول ورقة؟

و قال تعالی: «قُلْ هذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللَّهِ عَلی بَصِیرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی» فهل بصیرته (ص) هی سکون نفسه إلی قول ورقة؟ و بصیرة من اتبعه سکون أنفسهم إلی سکون نفسه إلی ما لا حجة فیه قاطعة؟ و قال تعالی : «إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ»: النساء: ۱۶۳ فهل کان اعتمادهم فی نبوتهم علی مثل ما تقصه هذه القصة؟

و الحق أن وحی النبوة و الرسالة یلازم الیقین من النبی و الرسول بکونه من الله تعالی علی ما ورد عن أئمة أهل البیت (ع).

و فی المجمع،": فی قوله: «أَ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهی » الآیة- أن أبا جهل قال: هل یعفر محمد وجهه بین أظهرکم؟ قالوا : نعم. قال: فبالذی یحلف به- لئن رأیته یفعل ذلک لأطأن رقبته- فقیل له: ها هو ذلک یصلی فانطلق لیطأ علی رقبته- فما فجأهم إلا و هو ینکص علی عقبیه و یتقی بیدیه- فقالوا: ما لک یا أبا الحکم؟ قال: إن بینی و بینه خندقا من نار و هؤلاء أجنحة، و قال نبی الله: و الذی نفسی بیده- لو دنا منی لاختطفته الملائکة عضوا عضوا- فأنزل الله «أَ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهی » إلی آخر السورة".: رواه مسلم فی الصحیح.

و فی تفسیر القمی،": فی الآیة: کان الولید بن المغیرة ینهی الناس عن الصلاة- و أن یطاع الله و رسوله فقال الله : «أَ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهی عَبْداً إِذا صَلَّی».

أقول: مفاده لا یلائم ظهور سیاق الآیات فی کون المصلی هو النبی ص.

و فی المجمع، فی الحدیث عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ص قال*: أقرب ما یکون العبد من الله إذا کان ساجدا.

و فی الکافی، بإسناده إلی الوشاء قال : سمعت الرضا (ع) یقول: أقرب ما یکون العبد من الله و هو ساجد- و ذلک قوله : «وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ».

و فی المجمع، روی عبد الله بن سنان عن أبی عبد الله (ع) قال: العزائم الم التنزیل و حم السجدة و النجم إذا هوی- و اقرأ باسم ربک، و ما عداها فی جمیع القرآن مسنون و لیس بمفروض.

(۹۷) سورة القدر مکیة و هی خمس آیات (۵)

[سورة القدر (۹۷): الآیات ۱ الی ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ (۱) وَ ما أَدْراکَ ما لَیْلَةُ الْقَدْرِ (۲) لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (۳) تَنَزَّلُ الْمَلائِکَةُ وَ الرُّوحُ فِیها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ (۴)

سَلامٌ هِیَ حَتَّی مَطْلَعِ الْفَجْرِ (۵)

بیان

تذکر السورة إنزال القرآن فی لیلة القدر و تعظم اللیلة بتفضیلها علی ألف شهر و تنزل الملائکة و الروح فیها، و السورة تحتمل المکیة و المدنیة و لا یخلو بعض «۱» ما روی فی سبب نزولها عن أئمة أهل البیت (ع) و غیرهم من تأیید لکونها مدنیة.

قوله تعالی: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ» ضمیر «أَنْزَلْناهُ» للقرآن و ظاهره جملة الکتاب العزیز لا بعض آیاته و یؤیده التعبیر بالإنزال الظاهر فی اعتبار الدفعة دون التنزیل الظاهر فی التدریج.

و فی معنی الآیة قوله تعالی: «وَ الْکِتابِ الْمُبِینِ إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ»: الدخان: ۳ و ظاهره الإقسام بجملة الکتاب المبین ثم الإخبار عن إنزال ما أقسم به جملة.

فمدلول الآیات أن للقرآن نزولا جملیا علی النبی ص غیر نزوله التدریجی الذی تم فی مدة ثلاث و عشرین سنة کما یشیر إلیه قوله: «وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النَّاسِ عَلی مُکْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِیلًا»: إسراء: ۱۰۶ و قوله: «وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً کَذلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَکَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِیلًا»: الفرقان: ۳۲.

فلا یعبأ بما قیل: إن معنی قوله: «أَنْزَلْناهُ» ابتدأنا بإنزاله و المراد إنزال بعض القرآن.

---

(۱) و هو ما دل علی أن السورة بعد رؤیا النبی ص أن بنی أمیة یصعدون منبره فاغتم فسلاه الله بها.

ص:331

و ليس فى كلامه تعالى ما يبين أن الليلة أية ليلة هى غير ما فى قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ»: البقرة: ۱۸۵ فإن الآية بانضمامها إلى آية القدر تدل على أن الليلة من ليالى شهر رمضان. و أما تعيينها أزيد من ذلک فمستفاد من الأخبار و سيجىء بعض ما يتعلق به فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

و قد سماها الله تعالى ليلة القدر، و الظاهر أن المراد بالقدر التقدير فهى ليلة التقدير يقدر الله فيها حوادث السنة من الليلة إلى مثلها من قابل من حياة و موت و رزق و سعادة و شقاء و غير ذلک كما يدل عليه قوله فى سورة الدخان فى صفة الليلة: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ»: الدخان: ۶ فليس فرق الأمر الحكيم إلا أحكام الحادثة الواقعة بخصوصياتها بالتقدير.

و يستفاد من ذلک أن الليلة متكررة بتكرر السنين ففى شهر رمضان من كل سنة قمرية ليلة تقدر فيها أمور السنة من الليلة إلى مثلها من قابل إذ لا معنى لفرض ليلة واحدة بعينها أو ليال معدودة فى طول الزمان تقدر فيها الحوادث الواقعة التى قبلها و التى بعدها و إن صح فرض واحدة من ليالى القدر المتكررة ينزل فيها القرآن جملة واحدة.

على أن قوله: «يُفْرَقُ»- و هو فعل مضارع- ظاهر فى الاستمرار، و قوله: «خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» و «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ» إلخ يؤيد ذلک.

فلا وجه لما قيل: إنها كانت ليلة واحدة بعينها نزل فيها القرآن من غير أن يتكرر، و كذا ما قيل: إنها كانت تتكرر بتكرر السنين فى زمن النبى ص ثم رفعها الله، و كذا ما قيل: إنها واحدة بعينها فى جميع السنة و كذا ما قيل: إنها فى جميع السنة غير أنها تتبدل بتكرر السنين فسنة فى شهر رمضان و سنة فى شعبان و سنة فى غيرهما.

و قيل: القدر بمعنى المنزلة و إنما سميت ليلة القدر للاهتمام بمنزلتها أو منز لة المتعبدين فيها، و قيل: القدر بمعنى الضيق و سميت ليلة القدر لضيق الأرض فيها بنزول الملائكة. و الوجهان كما ترى.

فمحصل الآيات- كما ترى- أنها ليلة بعينها من شهر رمضان من كل سنة فيها أحكام الأمور بحسب التقدير، و لا ينافى ذلک وقوع التغير فيها بحسب التحقق فى ظرف السنة فإن التغير فى كيفية تحقق المقدر أمر و التغير فى التقدير أمر آخر كما أن إمكان التغير فى

ص:332

الحوادث الكونية بحسب المشية الإلهية لا ينافى تعينها فى اللوح المحفوظ قال تعالى:

«وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ»: الرعد: ۳۹.

على أن لاستحكام الأمور بحسب تحققها مراتب من حيث حضور أسبابها و شرائطها تامة و ناقصة و من المحتمل أن تقع فی ليلة القدر بعض مراتب الأحكام و يتأخر تمام الأحكام إلى وقت آخر لكن الروايات كما ستأتی لا تلائم هذا الوجه.

قوله تعالى: «وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ» كناية عن جلالة قدر الليلة و عظم منزلتها و يؤكد ذلك إظهار الاسم مرة بعد مرة حيث قيل: «ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ» و لم يقل: و ما أدراك ما هی هی خير.

قوله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» بيان إجمالی لما أشير إليه بقوله: «وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ» من فخامة أمر الليلة.

و المراد بكونها خيرا من ألف شهر خيريتها منها من حيث فضيلة العبادة على ما فسره المفسرون و هو المناسب لغرض القرآن و عنايته بتقريب الناس إلى الله فإحياؤها بالعبادة خير من عبادة ألف شهر، و يمكن أن يستفاد ذلک من المباركة المذكورة فی سورة الدخان فی قوله: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» و هناک معنى آخر سيأتی فی البحث الروائی التالی إن شاء الله.

قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » تنزل أصله تتنزل، و الظاهر من الروح هو الروح الذی من الأمر قال تعالى: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی» إسراء: ٨٥ و الإذن فی الشیء الرخصة فيه و هو إعلام عدم المانع منه.

و «مِنْ» فی قوله: «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» قيل: بمعنى الباء و قيل : لابتداء الغاية و تفيد السببية أی بسبب كل أمر إلهی، و قيل : للتعليل بالغاية أی لأجل تدبير كل أمر من الأمور و الحق أن المراد بالأمر إن كان هو الأمر الإلهی المفسر بقوله «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ»: يس: ٨٢ فمن للابتلاء و تفيد السببية و المعنى تتنزل الملائكة و الرو ح فی ليلة القدر بإذن ربهم مبتدأ تنزلهم و صادرا من كل أمر إلهی.

و إن كان هو الأمر من الأمور الكونية و الحوادث الواقعة فمن بمعنى اللام التعليلية و المعنى تتنزل الملائكة و الروح فی الليلة بإذن ربهم لأجل تدبير كل أمر من الأمور الكونية.

قوله تعالى: «سَلامٌ هِیَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ» قال فی المفردات:، السلام و السلامة التعری

ص:333

من الآفات الظاهرة و الباطنة انتهى فيكون قوله : «سَلامٌ هِیَ» إشارة إلى العناية الإلهية بشمول الرحمة لعباده المقبلين إليه و سد باب نقمة جديدة تختص بالليلة و يلزمه بالطبع وهن كيد الشياطين كما أشير إليه فی بعض الروايات.

و قيل: المراد به أن الملائكة يسلمون على من مروا به من المؤمنين المتعبدين و مرجعه إلى ما تقدم.

و الآيتان أعنی قوله: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ» إلى آخر السورة فی معنى التفسير لقوله:

«لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ».

بحث روائی

فی تفسیر البرهان، عن الشیخ الطوسی عن أبی ذر قال ﷺ: قلت یا رسول الله القدر شی ء یکون علی عهد الأنبیاء- ینزل علیهم فیها الأمر فإذا مضوا رفعت؟ قال:

لا بل هی إلی یوم القیامهٔ.

أقول: و فی معناه غیر واحد من الروایات من طرق أهل السنهٔ.

و فی المجمع، و عن حماد بن عثمان عن حسان بن أبی علی قال ﷺ: سألت أبا عبد الله (ع) عن لیلهٔ القدر- قال: اطلبها فی تسع عشرهٔ- و إحدی و عشرین و ثلاث و عشرین.

أقول: و فی معناه غیرها، و فی بعض الأخبار التردید بین لیلتین الإحدی و العشرین و الثلاث و العشرین کروایهٔ الع یاشی عن عبد الواحد عن الباقر (ع) و یستفاد من روایات أنها لیلهٔ ثلاث و عشرین و إنما لم یعین تعظیما لأمرها أن لا یستهان بها بارتکاب المعاصی.

و فیه، أیضا فی روایهٔ عبد الله بن بکیر عن زرارهٔ عن أحدهما (ع) قال ﷺ: لیلهٔ ثلاث و عشرین هی لیلهٔ الجهنی، و حدیثه أنه قال لرسول الله ص. إن منزلی نائی عن المدینهٔ فمرنی بلیلهٔ أدخل فیها- فأمره بلیلهٔ ثلاث و عشرین.

أقول: و حدیث الجهنی و اسمه عبد الله بن أنیس الأنصاری مروی من طرق أهل السنهٔ أیضا أورده فی الدر المنثور، عن مالک و البیهقی.

و فی الکافی، بإسناده عن زرارهٔ قال ﷺ: قال أبو عبد الله (ع): التقدیر فی تسع عشرهٔ، و الإبرام فی لیلهٔ إحدی و عشرین، و الإمضاء فی لیلهٔ ثلاث و عشرین.

أقول: و فی معناها روایات أخر.

ص:334

فقد اتفقت أخبار أهل البیت (ع) أنها باقیهٔ متکررهٔ کل سنهٔ، و أنها لیلهٔ من لیالی شهر رمضان و أنها إحدی اللیالی الثلاث.

و أما من طرق أهل السنهٔ فقد اختلفت الروایات اختلافا عجیبا یکاد لا یضبط و المعروف عندهم أنها لیلهٔ سبع و عشرون فیها نزل القرآن، و من أراد الحصول علیها فلیراجع الدر المنثور و سائر الجوامع.

و فی الدر المنثور، أخرج الخطیب عن ابن المسیب قال ﷺ: قال رسول الله ص: رأیت بنی أمیهٔ یصعدون منبری فشق ذلک علی- فأنزل الله إنا أنزلناه فی لیلهٔ القدر:

أقول: و روى أيضا مثله عن الخطيب فى تاريخه، عن ابن عباس

، و أيضا ما فى معناه عن الترمذى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى عن الحسن بن على و هناك روايات كثيرة فى هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت (ع) و فيها أن الله تعالى سلا نبيه ص بإعطاء ليلة القدر و جعلها خيرا من ألف شهر و هى مدة ملك بنى أمية.

و فى الكافى، بإسناده عن ابن أبى عمير عن غير واحد عن أبى عبد الله (ع)* قال له بعض أصحابنا و لا أعلمه إلا سعيد السمان: كيف تكون ليلة القدر خيرا من ألف شهر؟

قال: العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر- ليس فيها ليلة القدر.

و فيه، بإسناده عن الفضيل و زرارة و محمد بن مسلم عن حمران * أنه سأل أبا جعفر (ع) عن قول الله عز و جل : «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ » قال: نعم ليلة القدر و هى فى كل سنة فى شهر رمضان- فى العشر الأواخر- فلم ينزل القرآن إلا فى ليلة القدر- قال الله عز و جل:

«فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ».

قال: يقدر فى ليلة القدر كل شى ء- يكون فى تلك السنة إلى مثلها من قابل : خير و شر طاعة و معصية و مولود و أجل أو رزق- فما قدر فى تلك الليلة و قضى فهو المحتوم- و لله عز و جل فيه المشية.

قال: قلت: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» أى شيء عنى بذلك؟ فقال: و العمل الصالح فيها من الصلاة و الزكاة- و أنواع الخير خير من العمل فى ألف شهر- ليس فيها ليلة القدر، و لو لا ما يضاعف الله تبارك و تعالى للمؤمنين ما بلغوا- و لكن الله يضاعف لهم الحسنات.

أقول: و قوله: و لله فيه المشية يريد به إطلاق قدرته تعالى فله أن يشاء ما يشاء

ص:335

و إن حتم فإن إيجابه الأمر لا يفيد القدرة المطلقة فله أن ينقض القضاء المحتوم و إن كان لا يشاء ذلك أبدا.

و فى المجمع، روى ابن عباس عن النبى ص أنه قال *: إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة- الذين هم سكان سدرة المنتهى و منهم جبرائيل- فينزل جبرائيل و معه ألوية- ينصب لواء منها على قبرى و لواء على بيت المقدس- و لواء فى المسجد الحرام و لواء على طور سيناء- و لا يدع فيها مؤمنا و لا مؤمنة إلا سلم عليه- إلا مدمن خمر و آكل لحم الخنزير «۱» و المتضمخ بالزعفران.

و فی تفسیر البرهان، عن سعد بن عبد الله بإسناده عن أبی بصیر قال ※: کنت مع أبی عبد الله (ع) فذکر شیئا من أمر الإمام إذا ولد- فقال: استوجب زیادة الروح فی لیلة القدر- فقلت: جعلت فداک أ لیس الروح هو جبرئیل؟ فقال : جبرئیل من الملائکة و الروح أعظم من الملائکة- أ لیس أن الله عز و جل یقول: «تَنَزَّلُ الْمَلائِکَةُ وَ الرُّوحُ».

أقول: و الروایات فی لیلة القدر و فضلها کثیرة جدا، و قد ذکرت فی بعضها لها علامات لیست بدائمة و لا أکثریة کطلوع الشمس صبیحتها و لا شعاع لها و اعتدال الهواء فیها أغمضنا عنها.

(۹۸) سورة البینة مدنیة و هی ثمان آیات (۸)

[سورة البینة (۹۸): الآیات ۱ الی ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

لَمْ یَکُنِ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ وَ الْمُشْرِکِینَ مُنْفَکِّینَ حَتَّی تَأْتِیَهُمُ الْبَیِّنَةُ (۱) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ یَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (۲) فِیها کُتُبٌ قَیِّمَةٌ (۳) وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّنَةُ (۴)

وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ حُنَفاءَ وَ یُقِیمُوا الصَّلاةَ وَ یُؤْتُوا الزَّکاةَ وَ ذلِکَ دِینُ الْقَیِّمَةِ (۵) إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ وَ الْمُشْرِکِینَ فِی نارِ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها أُولئِکَ هُمْ شَرُّ الْبَرِیَّةِ (۶) إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ (۷) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِکَ لِمَنْ خَشِیَ رَبَّهُ (۸)

---

(۱) تضمخ بالطیب تلطخ به.

بیان

تسجل السورة رسالة محمد ص لعامة أهل الکتاب و المشرکین و بعبارة أخری للملیین و غیرهم و هم عامة البشر فتفید عموم الرسالة و أنها مما کانت تقتضیه السنة الإلهیة- سنة الهدایة- التی تشیر إلیها أمثال قوله تعالی : «إِنَّا هَدَیْناهُ السَّبِیلَ إِمَّا شاکِراً وَ إِمَّا کَفُوراً»: الإنسان: ۳، و قوله: «وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِیها نَذِیرٌ»: فاطر: ۲۴، و تحتج علی عموم دعوته (ص) بأنها لا تتضمن إلا ما یصلح المجتمع الإنسانی من الاعتقاد و العمل علی ما سیتضح إن شاء الله.

و السورة تحتمل المکیة و المدنیة و إن کان سیاقها بالمدنیة أشبه.

قوله تعالى: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» ظاهر الآيات- و هي في سياق يشير إلى قيام الحجة على الذين كفروا بالدعوة الإسلامية من أهل الكتاب و المشركين و على الذين أوتوا الكتاب حينما بدا ف يهم الاختلاف- أن المراد هو الإشارة إلى أن الرسول ص من مصاديق الحجة البينة القائمة على الناس التي تقتضي قيامها السنة الإلهية الجارية في عباده فقد كانت توجب مجيء البينة إليهم كما أوجبته من قبل ما تفرقوا في دينهم.

و على هذا فالمراد بالذين كفروا في الآية هم ا لكافرون بالدعوة النبوية الإسلامية من أهل الكتاب و المشركين، و «مِنْ» في قوله: «مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ» للتبعيض لا للتبيين، و قوله:

و «الْمُشْرِكِينَ» عطف على «أَهْلِ الْكِتابِ» و المراد بهم غير أهل الكتاب من عبدة الأصنام و غيرهم.

ص:337

و قوله: «مُنْفَكِّينَ» من الانفكاك و هو الانفصال عن شدة اتصال، و المراد به- على ما يستفاد من قوله: «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ»- انفكاكهم عما تقتضي سنة الهداية و البيان كان السنة الإلهية كانت قد أخذتهم و لم تكن تتركهم حتى تأتيهم البينة و لما أتتهم البينة تركتهم و شأنهم كما قال تعالى: «وَ ما كانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ»: التوبة: ١١٥.

و قوله: «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» على ظاهره من الاستقبال و البينة هي الحجة الظاهرة و المعنى لم يكن الذين كفر وا برسالة النبي ص أو بدعوته أو بالقرآن لينفكوا حتى تأتيهم البينة و البينة هي محمد ص.

و للقوم اختلاف عجيب في تفسير الآية و معاني مفرداتها حتى قال بعضهم- على ما نقل-: إن الآية من أصعب الآيات القرآنية نظما و تفسيرا . انتهى، و الذي أوردناه من المعنى هو الذي يلا ئمه سياقها من غير تناقض بين الآيات و تدافع بين الجمل و المفردات، و من أراد الاطلاع على تفصيل ما قيل و يقال فعليه أن يراجع المطولات.

قوله تعالى: «رَسُولٌ مِنَ اللّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ » بيان للبينة و المراد به محمد رسول الله ص قطعا على ما يعطيه السياق.

و الصحف جمع صحيفة و هي ما يكتب فيها، و المراد بها أجزاء القرآن النازلة و قد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الصحف على أجزاء الكتب السماوية و منها القرآن الكريم قال تعالى: «فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ»: عبس: ١۶.

و المراد بكون الصحف مطهرة تقدسها من قذارة الباطل بمس الشياطين، و قد تكرر منه تعالى أنه حق مصون من مداخلة الشياطين و قال: «لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»: الواقعة: ٧٩.

و قوله: «فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ» الكتب جمع كتاب و معناه المكتوب و يطلق على اللوح و القرطاس و نحوهما المنقوشة فيها الألفاظ و على نفس الألفاظ التي تحكى عنها النقوش، و ربما يطلق على المعاني بما أنها محكية بالألفاظ، و يطلق أيضا على الحكم و

القضاء يقال كتب عليه كذا أى قضى أن يفعل كذا قال تعالى : «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ»: البقرة: ١٨٣ و قال: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ»: البقرة: ٢١٦.

و الظاهر أن المراد بالكتب التى فى الصحف الأحكام و القضايا الإلهية المتعلقة بالاعتقاد

و العمل، و من الدليل عليه توصيفها بالقيامة فإنها من القيام بالشى ء بمعنى حفظه و مراعاة مصلحته و ضمان سعادته قال تعالى : «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»: يوسف: ۴۰، و معلوم أن الصحف السماوية إنما تقوم بأمر المجتمع الإنسانى و تحفظ مصلحته بما فيها من الأحكام و القضايا المتعلقة بالاعتقاد و العمل.

فمعنى الآيتين: الحجة البينة التى أتتهم رسول من الله يقرأ صحائف سماوية مطهرة من دنس الباطل فى تلك الصحائف أحكام و قضايا قائمة بأمر المجتمع الإنسانى حافظة لمصالحه.

قوله تعالى: «وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ مُ الْبَيِّنَةُ» كانت الآية الأولى «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ» إلخ تشير إلى كفرهم بالنبى ص و كتابه المتضمن للدعوة الحقة و هذه الآية تشير إلى اختلافهم السابق على الدعوة الإسلامية و قد أشير إلى ذلك فى مواضع من القرآن الكريم كما قال تعالى: «وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ»: آل عمران: ١٩ إلى غير ذلك من الآيات.

و مجى ء البينة لهم هو البيان النبوى الذى تبين لهم فى كتابهم أو أوضحه لهم أنبياؤهم قال تعالى : «وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّی وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ»: الزخرف: ۶۵.

فإن قلت: ما باله تعرض لاختلاف أهل الكتاب و تفرقهم فى مذاهبهم و لم يتعرض لتفرق المشركين و إعراضهم عن دين التوحيد و إنكارهم الرسالة.

قلت: لا يبعد أن يكون قوله : «وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» إلخ شاملا للمشركين كما هو شامل لأهل الكتاب فقد بدل أهل الكتاب- و هم فى عرف القرآن اليهود و النصارى و الصابئون و المجوس أو اليهود و النصارى- من الذين أوتوا الكتاب، و التعبيران متغايران، و قد صرح تعالى بأنه أنزل الكتاب- و هو الشريعة المفروضة عليهم الحاكمة فى اختلافاتهم فى أمور الحياة- أول ما بدا الاختلافات الحيوية بينهم ثم اختلفوا فى الدين بعد تبين الحق لهم و قيام الحجة عليهم فعامة البشر آتاهم الله كتابا ثم اختلفوا فيه فمنهم من نسى ما أوتيه، و منهم من أخذ به محرفا و منهم من حفظه و آمن به، قال تعالى : «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّا سِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ

مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ»: البقرة: ۲۱۳ و قد مر تفسير الآية.

و فی هذا المعنى قوله تعالى: «تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ- إلى أن قال- وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ»: البقرة: ۲۵۳.

و بالجملة فالذين أوتوا الكتاب أعم من أهل الكتاب فقوله: «وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» إلخ يشمل المشركين كما يشمل أهل الكتاب.

قوله تعالى: «وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ» إلخ ضمير «أُمِرُوا» للذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين أی لم يتضمن رسالة الرسول ص و الكتب القيمة التی فی صحف الوحی إلا أمرهم بعبادة الله تعالى بقيد الإخلاص فی الدين فلا يشركوا به شيئا.

و قوله: «حُنَفاءَ» حال من ضمير الجمع و هو جمع حنيف من الحنف و هو الميل عن جانبی الإفراط و التفريط إلى حاق وسط الاعتدال و قد سمى الله تعالى الإسلام دينا حنيفا لأنه يأمر فی جميع الأمور بلزوم الاعتدال و التحرز عن الإفراط و تفريط.

و قوله: «وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ» من قبيل ذكر الخاص بعد العام أو الجزء بعد الكل اهتماما بأمره فالصلاة و الزكاة على أركان الإسلام و هما التوجه العبودی الخاص إلى الله و إنفاق المال فی الله.

و قوله: «وَ ذلِکَ دِينُ الْقَيِّمَةِ» أی دين الكتب القيمة على ما فسروا، و المراد بالكتب القيمة إن كان جميع الكتب السماوية أعنی كتاب نوح و من دونه من الأنبياء (ع) فالمعنى أن هذا الذی أمروا به و دعوا إليه فی الدعوة المحمدية هو الدين الذی كلفوا به فی كتبهم القيمة و ليس بأمر بدع فدين الله واحد و عليهم أن يدينوا به لأنه القيم.

و إن كان المراد به ما كان يتلوه النبی ص من الكتب القيمة التی فی الصحف المطهرة فالمعنى أنهم لم يؤمروا فی الدعوة الإسلامية إلا بأحكام و قضايا هی القيمة الحافظة لمصالح المجتمع الإنسانی فلا يسعهم إلا أن يؤمنوا بها و يتدينوا.

فالآية على أی حال تشير إلى كون دين التوحيد الذی يتضمنه القرآن الكريم المصدق لما بين يديه من الكتاب و المهيمن «۱» عليه فيما يأمر المجتمع البشری قائما بأمرهم حافظا

---

(۱) سورة المائدة، آية ۴۸.

لمصالح حياتهم كما يبينه بأوفى البيان قوله تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِکَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»: الروم: ۳۰.

و بهذه الآية يكمل بيان عموم رسالة النبى ص و شمول الدعوة الإسلامية لعامة البشر فقوله : «لَمْ يَكُنِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ» إلخ يشير إلى أنه كان من الواجب فى سنة الهداية الإلهية أن تتم الحجة على من كفر بالدعوة من أهل الكتاب و المشركين، و هؤلاء و إن كانوا بعض أهل الكتاب و المشركين لكن من الضرورى أن لا فرق بين البعض و ا لبعض فى تعلق الدعوة فتعلقها بالبعض لا ينفک عن تعلقها بالكل.

و قوله: «رَسُولٌ مِنَ اللّهِ» إلخ يشير إلى أن تلک البينة محمد ص، و قوله «وَ ما تَفَرَّقَ» إلخ يشير إلى أن تفرقهم و كفرهم السابق بالحق أيضا كان بعد مجىء البينة.

و قوله: «وَ ما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ» إلخ يفيد أن الذى دعوا إليه و أمروا به دين قيم حافظ لمصالح المجتمع البشرى فعليهم جميعا أن يؤمنوا به و لا يكفروا.

قوله تعالى: «إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِى نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِکَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» لما فرغ من الإشارة إلى كفرهم بالبينة التى كانت توجبها سنة الهداية الإلهية و ما كانت تدعو إليه من الدين القيم أخذ فى الإنذار و التبشير بوعيد الكفار و وعد المؤمنين، و البرية الخلق، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» فيه قصر الخيرية فى المؤمنين الصالحين كما أن فى الآية السابقة قصر الشرية فى الكفار.

قوله تعالى: «جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ - إلى قوله- ذلِکَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» العدن الاستقرار و الثبات فجنات عدن جنات خلود و دوام و توصيفها بقوله: «خالِدِينَ فِيها أَبَداً» تأكيد بما يدل عليه الاسم.

و قوله: «رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ» الرضى منه تعالى صفة فعل و مصداقه الثواب الذى أعطاهموه جزاء لإيمانهم و عملهم الصالح.

و قوله: «ذلِکَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» علامة مضروبة لسعادة الدار الآخرة و قد قال تعالى:

«إِنَّما يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ»: فاطر: ٢٨ فالعلم بالله يستتبع الخشية منه، و الخشية منه تستتبع الإيمان به بمعنى الالتزام القلبى بربوبيته و ألوهيته ثم العمل الصالح.

و اعلم أن لهم فى تفسير مفردات هذه الآيات اختلافا شديدا و أقوالا كثيرة لا جدوى فى التعرض لها من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

ص:341

بحث روائى

فى تفسير القمى، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع) قال: البينة محمد رسول الله ص.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن عائشة قالت*: قلت: یا رسول الله من أکرم الخلق علی الله؟ قال : یا عائشة أ ما تقرئین «إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ- أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّهِ»؟

و فیه، أخرج ابن عساکر عن جابر بن عبد الله قال *: کنا عند النبی ص فأقبل علی- فقال النبی ص: و الذی نفسی بیده- إن هذا و شیعته لهم الفائزون یوم القیامة- و نزلت «إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ- أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّهِ » فکان أصحاب النبی ص إذا أقبل علی قالوا: جاء خیر البریة.

أقول: و روی هذا المعنی أیضا عن ابن عدی عن ابن عباس، و أیضا عن ابن مردویه عن علی (ع) و رواه أیضا فی البرهان، عن الموفق بن أحمد فی کتاب المناقب عن یزید بن شراحیل الأنصاری کاتب علی عنه، و کذا فی المجمع، عن کتاب شواهد التنزیل للحاکم عن یزید بن شراحیل عنه، و لفظه : سمعت علیا یقول: قبض رسول الله ص- و أنا مسنده إلی صدری فقال : یا علی أ لم تسمع قول الله : «إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ- أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّهِ » هم شیعتک و موعدی و موعدکم الحوض- إذا اجتمع الأمم للحساب یدعون غرا محجلین.

و فی المجمع، عن مقاتل بن سلیمان عن الضحاک عن ابن عباس"* فی قوله: «هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّهِ» قال: نزلت فی علی و أهل بیته.

(۹۹) سورة الزلزال مدنیة و هی ثمان آیات (۸)

[سورة الزلزلة (۹۹): الآیات ۱ الی ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (۱) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (۲) وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها (۳) یَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (۴)

بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحی لَها (۵) یَوْمَئِذٍ یَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِیُرَوْا أَعْمالَهُمْ (۶) فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّهٍ خَیْراً یَرَهُ (۷) وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّهٍ شَرًّا یَرَهُ (۸)

ص:342

بیان

ذکر للقیامة و صدور الناس للجزاء و إشارة إلی بعض أشراطها و هی زلزلة الأرض و تحدیثها أخبارها. و السورة تحتمل المکیة و المدنیة.

قوله تعالی: «إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها » الزلزال مصدر کالزلزلة، و إضافته إلی ضمیر الأرض تفید الاختصاص، و المعنی إذا زلزلت الأرض زلزلتها الخاصة بها فتفید التعظیم و التفخیم أی أنها منتهیة فی الشدة و الهول.

قوله تعالی: «وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها» الأثقال جمع ثقل بفتحتین بمعنی المتاع أو خصوص متاع المسافر أو جمع ثقل بالکسر فالسکون بمعنی الحمل، و علی أی حال المراد بأثقالها التی تخرجها، الموتی علی ما قیل أو الکنوز و المعادن التی فی بطنها أو الجمیع و لکل قائل و أول الوجوه أقربها ثم الثالث لتکون الآیة إشارة إلی خروجهم للحساب، و قوله : «یَوْمَئِذٍ یَصْدُرُ النَّاسُ» إشارة إلی انصرافهم إلی الجزاء.

قوله تعالی: «وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها» أی یقول مدهوشا متعجبا من تلک الزلزلة الشدیدة الهائلة : ما للأرض تتزلزل هذا الزلزال، و قیل: المراد بالإنسان الکافر غیر المؤمن بالبعث، و قیل غیر ذلک کما سیجیء.

قوله تعالی: «یَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحی لَها» فتشهد علی أعمال بنی آدم کما تشهد بها أعضاؤهم و کتاب الأعمال من الملائکة و شهداء الأعمال من البشر و غیرهم.

و قوله: «بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحی لَها» اللام بمعنی إلی لأن الإیحاء یتعدی بإلی و المعنی تحدث أخبارها بسبب أن ربک أوحی إلیها أن تحدث فهی شاعرة بما یقع فیها من الأعمال خیرها و شرها متحملة لها یؤذن لها یوم القیامة بالوحی أن تحدث أخبارها و تشهد بما تحملت، و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لکِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ»: إسراء: ۴۴، و قوله: «قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ» حم السجدة: ۲۱ أن المستفاد من کلامه سبحانه أن الحیاة و الشعور ساریان فی الأشیاء

ص:343

و إن کنا فی غفلة من ذلک.

و قد اشتد الخلاف بینهم فی معنی تحدیث الأرض بالوحی أ هو بإعطاء الحیاة و الشعور للأرض المیتة حتی تخبر بما وقع فیها أو بخلق صوت عندها و عد ذلک تکلما منها أو دلالتها بلسان الحال بما وقع فیها من الأعمال، و لا محل لهذا الاختلاف بعد ما سمعت و لا أن الحجة تتم علی أحد بهذا النوع من الشهادة.

قوله تعالی: «یَوْمَئِذٍ یَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِیُرَوْا أَعْمالَهُمْ» الصدور انصراف الإبل عن الماء بعد وروده، و أشتات کشتی جمع شتیت بمعنی المتفرق، و الآیة جواب بعد جواب لإذا.

و المراد بصدور الناس متفرقین یومئذ انصرافهم عن الموقف إلی منازلهم فی الجنة و النار و أهل السعادة و الفلاح منهم متمیزون من أهل الشقاء و الهلاک، و إراءتهم أعمالهم إراءتهم جزاء أعمالهم بالحلول فیه أو مشاهدتهم نفس أعمالهم بناء علی تجسم الأعمال.

و قیل: المراد به خروجهم من قبورهم إلی الموقف متف رقین متمیزین بسواد الوجوه و بیاضها و بالفزع و الأمن و غیر ذلک لإعلامهم جزاء أعمالهم بالحساب و التعبیر عن العلم بالجزاء بالرؤیة و عن الاعلام بالإراءة نظیر ما فی قوله تعالی : «یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ»: آل عمران: ۳۰، و الوجه الأول أقرب و أوضح.

قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » المثقال ما يوزن به الأثقال، و الذرة ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء، و تقال لصغار النمل.

تفريع على ما تقدم من إراءتهم أعمالهم، فيه تأكيد البيان فى أنه لا يستثنى من الإراءة عمل خيرا أو شرا كبيرا أو صغيرا حتى مثقال الذرة من خير أو شر، و بيان حال كل من عمل الخير و الشر فى جملة مستقلة لغرض إعطاء الضابط و ضرب القاعدة.

و لا منافاة بين ما تدل عليه الآيتان من العموم و بين الآيات الدالة على حبط الأعمال، و الدالة على انتقال أعمال الخير و الشر من نفس إلى نفس كحسنات القاتل إلى المقتول و سيئات المقتول إلى القاتل، و الدالة على تبديل السيئات حسنات فى بعض التائبين إلى غير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه فى بحث الأعمال فى الجزء الثانى من الكتاب و كذا فى تفسير قوله : «لِيَمِيزَ اللّٰهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» الآية: الأنفال: ٣٧.

و ذلک لأن الآيات المذكورة حاكمة على هاتين الآيتين فإن من حبط عمله الخير محكوم بأنه لم يعمل خيرا فلا عمل له خيرا حتى يراه و على هذا القياس فى غيره فلفهم.

ص:344

بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس بن مالک أن رسول الله ص قال ❊: إن الأرض لتخبر يوم القيامة- بكل ما عمل على ظهرها- و قرأ رسول الله ص «إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها » حتى بلغ «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها» قال أ تدرون ما أخبارها؟ جاءنى جبريل قال: خبرها إذا كان يوم القيامة أخبرت بكل عمل عمل على ظهرها:.

أقول: و روى مثله عن أبى هريرة.

و فيه، أخرج الحسين بن سفيان فى مسنده و أبو نعيم فى الحلية عن شداد بن أوس قال❊:

سمعت رسول الله ص يقول:.

أيها الناس إن الدنيا عرض حاضر- يأكل منه البر و الفاجر، و إن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملک قادر- يحق فيها الحق و يبطل الباطل.

أيها الناس كونوا من أبناء الآخرة- و لا تكونوا من أبناء الدنيا- فإن كل أم يتبعها ولدها- اعملوا و أنتم من الله على حذر، و اعلموا أنكم معروضون على أعمالكم- و أنكم ملاقوا الله لا بد منه- فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره- و من يعمل مثقال ذرة شرا يره.

و فى تفسير القمى، ": فى قوله تعالى : «وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها » قال: من الناس- «وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها » قال: ذلک أمير المؤمنين (ع) «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها - إلى قوله- أَشْتاتاً» قال: يجيئون أشتاتا مؤمنين و كافرين و منافقين «لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ» قال: يقفون على ما فعلوه.

و فيه، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع): فى قوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ » يقول: إن كان من أهل النار- قد عمل مثقال ذرة فى الدنيا خيرا (كان عليه ظ) يوم القيامة حسرة- إن كان عمله لغير الله «وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» يقول: إن كان من أهل الجنة- راى ذلک الشر يوم القيامة ثم غفر له.

(١٠٠) سورة العاديات مدنية و هى إحدى عشرة آية (١١)

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً (١) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (٢) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (۴)

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (۵) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (۶) وَ إِنَّهُ عَلى ذلِکَ لَشَهِيدٌ (٧) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِى الْقُبُورِ (٩)

وَ حُصِّلَ ما فِى الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

ص:345

بيان

تذكر السورة كفران الإنسان لنعم ربه و حبه الشديد للخير عن علم منه به و هو حجة عليه و سيحاسب على ذلک.

و السورة مدنية بشهادة ما فى صدرها من الإقسام بمثل قوله : «وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً» إلخ الظاهر فى خيل الغزاة المجاهدين على ما سيجىء، و إنما شرع الجهاد بعد الهجرة و يؤيد ذلک ما ورد من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت (ع) أن السورة نزلت فى على (ع) و سريته فى غزوة ذات السلاسل، و يؤيده أيضا بعض الروايات من طرق أهل السنة على ما سنشير إليه فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

قوله تعالى: «وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً» العاديات من العدو و هو الجرى بسرعة و الضبح صوت أنفاس الخيل عند عدوها و هو المعهود المعروف من الخيل و إن ادعى أنه يعرض لكثير من الحيوان غيرها، و المعنى أقسم بالخيل اللاتى يعدون يضبحن ضبحا.

و قيل: المراد بها إبل الحاج فى ارتفاعها بركبانها من الجمع إلى منى يوم النحر، و قيل:

إبل الغزاة، و ما فى الآيات التالية من الصفات لا يلائم كون الإبل هو المراد بالعاديات.

قوله تعالى: «فَالْمُورِياتِ قَدْحاً» الإيراء إخراج النار و القدح الضرب و الصك المعروف يقال : قدح فأورى إذا أخرج النار بالقدح، و المراد بها الخيل تخرج النار بحوافرها إذا عدت على الحجارة و الأرض المحصبة.

و قيل: المراد بالإيراء مكر الرجال فى الحرب، و قيل: إيقادهم النار، و قيل:

الموريات ألسنة الرجال تورى النار من عظيم ما تتكلم به، و هى وجوه ظاهرة الضعف.

قوله تعالى: «فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً» الإغارة و الغارة الهجوم على العدو بغتة بالخيل و هى

ص:346

صفة أصحاب الخيل و نسبتها إلى الخيل مجاز، و المعنى فأقسم بالخيل الهاجمات على العدو بغتة فى وقت الصبح.

و قيل: المراد بها الآبال ترتفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى و السنة أن لا ترتفع حتى تصبح، و الإغارة سرعة السير و هو خلاف ظاهر الإغارة.

قوله تعالى: «فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً» أثرن من الإثارة بمعنى تهييج الغبار و نحوه، و النقع الغبار، و المعنى فهيجن بالعدو و الإغارة غبارا.

قيل: لا بأس بعطف «فَأَثَرْنَ» و هو فعل على ما قبله و هو صفة لأنه اسم فاعل و هو فى معنى الفعل كأنه قيل : أقسم باللاتى عدون فأورين فأغرن فأثرن.

قوله تعالى: «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً» وسط و توسط بمعنى، و ضمير «بِهِ» للصبح و الباء بمعنى فى أو الضمير للنقع و الباء للملابسة.

و المعنى فصرن فى وقت الصبح فى وسط جمع و المراد به كتيبة العدو أو المعنى فتوسطن جمعا ملابسين للنقع.

و قيل: المراد توسط الآبال جمع منى و أنت خبير بأن حمل الآيات الخمس بما لمفرداتها من ظواهر المعانى على إبل الحاج الذين يفيضون من جمع إلى منى خلاف ظاهرها جدا.

فالمتعين حملها على خيل الغزاة و سياق الآيات و خاصة قوله : «فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً» «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً» يعطى أنها غزاة بعينها أقسم الله فيها بخيل المجاهدين العاديات و الفاء فى الآيات الأربع تدل على ترتب كل منها على ما قبلها.

قوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ» الكنود الكفور، و الآية كقوله : «إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ»: الحج: ۶۶، و هو إخبار عما فى طبع الإنسان من اتباع الهوى و الانكباب على عرض الدنيا و الانقطاع به عن شكر ربه على ما أنعم عليه.

و فيه تعريض للقوم المغار عليهم، و كان المراد بكفرانهم كفرانهم بنعمة الإسلام التى أنعم الله بها عليهم و هى أعظم نعمة أوتوها فيها طيب حياتهم الدنيا و سعادة حياتهم الأبدية الأخرى.

قوله تعالى: «وَ إِنَّهُ عَلى ذلِکَ لَشَهِيدٌ» ظاهر اتساق الضمائر أن يكون ضمير «وَ إِنَّهُ» للإنسان فيكون المراد بكونه شهيدا على كفران نفسه بكفران نفسه علمه المذموم و تحمله له.

فالمعنى و إن الإنسان على كفرانه بربه شاهد متحمل فالآية فى معنى قوله : «بَلِ

ص:347

الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ»: القيامة: ۱۴.

و قيل: الضمير لله و اتساق الضمائر لا يلائمه.

قوله تعالى: «وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» قيل: اللام فى «لِحُبِّ الْخَيْرِ» للتعليل و الخير المال، و المعنى و إن الإنسان لأجل حب المال لشديد أى بخيل شحيح، و قيل : المراد أن الإنسان لشديد الحب للمال و يدعوه ذلك إلى الامتناع من إعطاء حق الله، و الإنفاق فى الله. كذا فسروا.

و لا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقة و يكو ن المراد أن حب الخير فطرى للإنسان ثم إنه يرى عرض الدنيا و زينتها خيرا فتنجذب إليه نفسه و ينسيه ذلك ربه أن يشكره.

قوله تعالى: «أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِی الْقُبُورِ- إلى قوله- لَخَبِيرٌ» البعثرة كالبحثرة البعث و النشر، و تحصيل ما فى الصدور تمييز ما فى باطن النفوس من صفة الإيمان و الكفر و رسم الحسنة و السيئة قال تعالى : «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ»: الطارق: ۹، و قيل: هو إظهار ما أخفته الصدور لتجازى على السر كما تجازى على العلانية.

و قوله: «أَ فَلا يَعْلَمُ» الاستفهام فيه للإنكار، و مفعول يعلم جملة قائمة مقام المفعولين يدل عليه المقام. ثم استؤنف فقيل: إذا بعثر ما فى القبور إلخ تأكيدا للإنكار، و المراد بما فى القبور الأبدان.

و المعنى- و الله أعلم- أ فلا يعلم الإنسان أن لكنوده و كفرانه بربه تبعة ستلحقه و يجازى بها، إذا أخرج ما فى القبور من الأبدان و حصل و ميز ما فى سرائر النفوس من الإيمان و الكفر و الطاعة و المعصية إن ربهم بهم يومئذ لخبير فيجازيهم بما فيها.

بحث روائى

فى المجمع، قيل": بعث رسول الله ص سرية إلى حى من كنانة- فاستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصارى أحد النقباء- فتأخر رجوعهم فقال المنافقون: قتلوا جميعا- فأخبر الله تعالى عنها بقوله: «وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً»": عن مقاتل.

و قیل: نزلت السورة لما بعث النبی ص علیا (ع)- إلی ذات السلاسل فأوقع بهم- و ذلک بعد أن بعث علیهم مرارا غیره من الصحابة- فرجع کل منهم إلی رسول الله ص:.

و هو المروی عن أبی عبد الله (ع) فی حدیث طویل.

ص:348

قال: و سمیت هذه الغزوة ذات السلاسل لأنه أسر منهم و قتل و سبی و شد أسراؤهم فی الحبال مکتفین کأنهم فی السلاسل.

: و لما نزلت السورة خرج رسول الله ص إلی الناس- فصلی بهم الغداة و قرأ فیها «وَ الْعادِیاتِ» فلما فرغ من صلاته قال أصحابه: هذه سورة لم نعرفها- فقال رسول الله ص: نعم إن علیا ظفر بأعداء الله- و بشرنی بذلک جبریل فی هذه اللیلة- فقدم علی (ع) بعد أیام بالغنائم و الأساری.

(۱۰۱) سورة القارعة مکیة و هی إحدی عشرة آیة (۱۱)

[سورة القارعة (۱۰۱): الآیات ۱ الی ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الْقارِعَةُ (۱) مَا الْقارِعَةُ (۲) وَ ما أَدْراکَ مَا الْقارِعَةُ (۳) یَوْمَ یَکُونُ النَّاسُ کَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (۴)

وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (۵) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِینُهُ (۶) فَهُوَ فِی عِیشَةٍ راضِیَةٍ (۷) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ (۸) فَأُمُّهُ هاوِیَةٌ (۹)

وَ ما أَدْراکَ ما هِیَهْ (۱۰) نارٌ حامِیَةٌ (۱۱)

بیان

إنذار و تبشیر بالقیامة یغلب فیه جانب الإنذار، و السورة مکیة.

قوله تعالی: «الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ» مبتدأ و خبر، و القارعة من القرع و هو الضرب باعتماد شدید، و هی من أسماء القیامة فی القرآن. قیل: سمیت بها لأنها تقرع القلوب بالفزع و تقرع أعداء الله بالعذاب.

و السؤال عن حقیقة القارعة فی قوله : «مَا الْقارِعَةُ» مع کونها معلومة إشارة إلی تعظیم أمرها و تفخیمها و أنها لا تکتنه علما، و قد أکد هذا التعظیم و التفخیم بقوله بعد:

«وَ ما أَدْراکَ مَا الْقارِعَةُ».

ص:349

قوله تعالی: «یَوْمَ یَکُونُ النَّاسُ کَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ» ظرف متعلق بفعل مقدر نحو اذکر و تقرع و تأتی، و الفراش علی ما نقل عن الفراء الجراد الذی ینفرش و یرکب بعضه بعضا و هو غوغاء الجراد . قیل: شبه الناس عند البعث بالفراش لأن الفراش إذا ثار لم یتجه إلی جهة واحدة کسائر الطیر و کذلک الناس إذا خرجوا من قبورهم أحاط بهم الفزع فتوجهوا جهات شتی أو توجهوا إلی منازلهم المختلفةسعادة و شقاء. و المبعوث من البث و هو التفریق.

قوله تعالی: «وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» العهن الصوف ذو ألوان مختلفة، و المنفوش من النفش و هو نشر الصوف بندف و نحوه فالعهن المنفوش الصوف المنتشر ذو ألوان مختلفة إشارة إلی تلاشی الجبال علی اختلاف ألوانها بزلزلة الساعة.

قوله تعالی: «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِینُهُ فَهُوَ فِی عِیشَةٍ راضِیَةٍ» إشارة إلی وزن الأعمال و أن الأعمال منها ما هو ثقیل فی المیزان و هو ما له قدر و منزلة عند الله و هو الإیمان و أنواع الطاعات، و منها ما لیس کذلک و ه و الکفر و أنواع المعاصی و یختلف القسمان أثرا فیستتبع الثقیل السعادة و یستتبع الخفیف الشقاء، و قد تقدم البحث عن معنی المیزان فی تفسیر السور السابقة.

و قوله: «فِی عِیشَةٍ راضِیَةٍ» العیشة بکسر العین کالجلسة بناء نوع، و توصیفها براضیة- و الراضی صاحبها- من المجاز العقلی أو المعنی فی عیشة ذات رضی.

قوله تعالی: «وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ فَأُمُّهُ هاوِیَةٌ» الظاهر أن المراد بهاویة جهنم و تسمیتها بهاویة لهوی من ألقی فیها أی سقوطه إلی أسفل سافلین قال تعالی: «ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِینَ إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا»: التین: ۶.

فتوصیف النار بالهاویة مجاز عقلی کتوصیف العیشة بالراضیة و عد هاویة إما للداخل فیها لکونها مأواه و مرجعه الذی یرجع إلیه کما یرجع الولد إلی أمه.

و قیل: المراد بأمه أم رأسه و المعنی فأم رأسه هاویة أی ساقطة فیها لأنهم یلقون فی النار علی أم رأسهم، و یبعده بقاء الضمیر فی قوله: «ما هِیَهْ» بلا مرجع ظاهر.

قوله تعالی: «وَ ما أَدْراکَ ما هِیَهْ» ضمیر هی لهاویة، و الهاء فی «هِیَهْ» للوقف و الجملة تفسیر تفید تعظیم أمر النار و تفخیمه.

قوله تعالی: «نارٌ حامِیَةٌ» أی حارة شدیدة الحرارة و هو جواب الاستفهام فی «ما هِیَهْ» و تفسیر لهاویة.

ص:350

بحث روائی

فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» قال: العهن الصوف، و فی قوله:

«وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ» قال: من الحسنات، و فی قوله: «فَأُمُّهُ هاوِیَةٌ» قال: أم رأسه، یقذف فی النار علی رأسه.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن أبی أیوب الأنصاری أن رسول الله ص قال ❊: إن نفس المؤمن إذا قبضت- یلقاها أهل الرحمة من عباد الله- کما یلقون البشیر من أهل الدنیا فیقولون : انظروا صاحبکم یستریح فإنه کان فی کرب شدید- ثم یسألونه ما فعل فلان و فلانة؟

هل تزوجت؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فیقول : هیهات قد مات ذاک قبلی فیقولون : إنا لله و إنا إلیه راجعون ذهب به إلی أمه الهاویة- فبئست الأم و بئست المربیة:.

أقول: و روی هذا المعنی عن أنس بن مالک و عن الحسن و الأشعث بن عبد الله الأعمی عنه (ص).

(۱۰۲) سورة التکاثر مکیة و هی ثمان آیات (۸)

[سورة التکاثر (۱۰۲): الآیات ۱ الی ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

أَلْهاکُمُ التَّکاثُرُ (۱) حَتَّی زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (۲) کَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳) ثُمَّ کَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۴)

کَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ (۵) لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ (۶) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَیْنَ الْیَقِینِ (۷) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ (۸)

بیان

توبیخ شدید للناس علی تلهیهم بالتکاثر فی الأموال و الأولاد و الأعضاء و غفلتهم عما وراءه من تبعة الخسران و العذاب، و تهدید بأنهم سوف یعلمون و یرون ذلک و یسألون عن

هذه النعم التی أوتوها لیشکروا فتلهوا بها و بدلوا نعمة الله کفرا.

و السورة بما لها من السیاق تحتمل المکیة و المدنیة، و سیأتی ما ورد فی سبب نزولها فی البحث الروائی إن شاء الله.

قوله تعالی: «أَلْهاکُمُ التَّکاثُرُ حَتَّی زُرْتُمُ الْمَقابِرَ» قال فی المفردات،: اللهو ما یشغل الإنسان عما یعنیه و یهمه . قال، و یقال: ألهاه کذا أی شغله عما هو أهم إلیه، قال تعالی:

«أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ » انتهى.

و قال: و المكاثرة و التكاثر التبارى فى كثرة المال و العز، انتهى . و قال: المقبرة بكسر الميم- و المقبرة- بفتحها- موضع القبور و جمعها مقابر، قال تعالى: «حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ» كناية عن الموت، انتهى.

فالمعنى على ما يعطيه السياق شغلكم التكاثر فى متاع الدنيا و زينتها و التسابق فى تكثير العدة و العدة عما يهمكم و هو ذكر الله حتى لقيتم الموت فعمتكم الغفلة مدى حياتكم.

و قيل: المعنى شغلكم التباهى و التبارى بكثرة الرجال بأن يقول هؤلاء: نحن أكثر رجالا، و هؤلاء: نحن أكثر حتى إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى القبور فعددتم الأموات من رجالكم فتكاثرتم بأمواتكم.

و هذا المعنى مبنى على ما ورد فى أسباب النزول أن قبيلتين من الأنصار تفاخرتا بالأحياء ثم بالأموات، و فى بعضها أن ذلك كان بمكة بين بنى عبد مناف و بنى سهم فنزلت السورة، و سيأتى القصة فى البحث الروائى.

قوله تعالى: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» ردع عن اشتغالهم بما لا يهمهم عما يعنيهم و تخطئة لهم، و قوله : «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» تهديد معناه على ما يفيده المقام سوف تعلمون تبعة تلهيكم هذا و تعرفونها إذا انقطعتم عن الحياة الدنيا.

قوله تعالى: «ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ » تأكيد للردع و التهديد السابقين، و قيل: المراد بالأول علمهم بها عند الموت و بالثانى علمهم بها عند البعث.

قوله تعالى: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» ردع بعد ردع تأكيدا و اليقين العلم الذى لا يداخله شك و ريب.

و قوله: «لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » جواب لو محذوف و التقدير لو تعلمون الأمر علم اليقين لشغلكم ما تعلمون عن التباهى و التفاخر بالكثرة، و قوله: «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» استئناف فى

ص:352

الكلام، و اللام للقسم، و المعنى أقسم لترون الجحيم التى جزاء هذا التلهى كذا فسروا.

قالوا: و لا يجوز أن يكون قوله: «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» جواب لو الامتناعية لأن الرؤية محقق الوقوع و جوابها لا يكون كذلک.

و هذا مبنى على أن يكون المراد رؤية الجحيم يوم القيامة كما قال : «وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى »: النازعات: ٣۶ و هو غير مسلم بل الظاهر أن المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤية البصيرة و هى رؤية القلب التى هى من آثار اليقين على ما يشير إليه، قوله تعالى: «وَ كَذلِکَ نُرِی إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ»: الأنعام: ٧۵، و قد تقدم الكلام فيها، و هذه الرؤية القلبية قبل يوم القيامة غير محققة لهؤلاء المتلهين بل ممتنعة فى حقهم لامتناع اليقين عليهم .

قوله تعالی: «ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَیْنَ الْیَقِینِ » المراد بعین الیقین نفسه، و ا لمعنی لترونها محض الیقین، و هذه بمشاهدتها یوم القیامة، و من الدلیل علیه قوله بعد ذلک «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ» فالمراد بالرؤیة الأولی رؤیتها قبل یوم القیامة و بالثانیة رؤیتها یوم القیامة.

و قیل: الأولی قبل الدخول فیها یوم القیامة و الثانیة إذ دخلوها.

و قیل: الأولی بالمعرفة و الثانیة بالمشاهدة، و قیل : المراد الرؤیة بعد الرؤیة إشارة إلی الاستمرار و الخلود، و قیل غیر ذلک و هی وجوه ضعیفة.

قوله تعالی: «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ» ظاهر السیاق أن هذا الخطاب و کذلک الخطا بات المتقدمة فی السورة للناس بما أن فیهم من اشتغل بنعمة ربه عن ربه فأنساه التکاثر فیها عن ذکر الله، و ما فی السورة من التوبیخ و التهدید متوجه إلی عامة الناس ظاهرا واقع علی طائفة خاصة منهم حقیقة و هم الذین ألهاهم التکاثر.

و کذا ظاهر السیاق أن المراد بالنعیم مطلقة و هو کل ما یصدق علیه أنه نعمة فالإنسان مسئول عن کل نعمة أنعم الله بها علیه.

و ذلک أن النعمة- و هی الأمر الذی یلائم المنعم علیه و یتضمن له نوعا من الخیر و النفع- إنما تکون نعمة بالنسبة إلی المنعم علیه إذا استعملها بحیث یسعد بها فینتفع و أما لو استعملها علی خلاف ذلک کانت نقمة بالنسبة إلیه و إن کانت نعمة بالنظر إلی نفسها.

و قد خلق الله تعالی الإنسان و جعل غایة خلقته التی هی سعادته و منتهی کماله التقرب العبودی إلیه کما قال : «وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ»: الذاریات ۵۶ و هی

ص:353

الولایة الإلهیة لعبده، و قد هیأ الله سبحانه له کل ما یسعد و ینتفع به فی سلوکه نحو الغایة التی خلق لها و هی النعم فأسبغ علیه نعمه ظاهرة و باطنة.

فاستعمال هذه النعم علی نحو یرتضیه الله و ینتهی بالإنسان إلی غایته المطلوبة هو الطریق إلی بلوغ الغایة و هو الطاعة، و استعمالها بالجمود علیها و نسیان ما وراءها غی و ضلال و انقطاع عن الغایة و هو المعصیة، و قد قضی سبحانه قضاء لا یرد و لا یبدل أن یرجع الإنسان إلیه فیسأله عن عمله فیحاسبه و یجزیه، و عمله هو استعماله للنعم الإلهیة قال تعالی : «وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُری ثُمَّ یُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفی وَ أَنَّ إِلی رَبِّکَ الْمُنْتَهی»: النجم: ۴۲، فالسؤال عن عمل العبد سؤال عن النعیم کیف استعمله أ شکر النعمة أم کفر بها.

بحث روائی

فی المجمع، قیل ": نزلت فی الیهود قالوا: نحن أكثر من بنی فلان، و بنو فلان أكثر من بنی فلان- ألهاهم ذلک حتی ماتوا ضلالا": عن قتادة.

و قیل": نزلت فی فخذ من الأنصار تفاخروا ": عن أبی بریدة، و قیل ": نزلت فی حیین من قریش: بنی عبد مناف بن قصی- و بنی سهم بن عمر- و تكاثروا و عدوا أشرافهم- فكثرهم بنو عبد مناف. ثم قالوا: نعد موتانا حتی زاروا القبور- فعدوهم و قالوا: هذا قبر فلان و هذا قبر فلان- فكثرهم بنو سهم لأنهم كانوا أكثر عددا فی الجاهلیة": عن مقاتل و الكلبی.

و فی تفسیر البرهان، عن البرقی عن أبیه عن ابن أبی عمیر عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله (ع)* فی قوله تعالی: «لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ» قال: المعاینة.

أقول: الروایة تؤید ما قدمناه من المعنی.

و فی تفسیر القمی، بإسناده عن جمیل عن أبی عبد الله (ع) قال*: قلت له: «لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ » قال: تسأل هذه الأمة عما أنعم الله علیها برسوله- ثم بأهل بیته.

و فی الكافی، بإسناده عن أبی خالد الكابلی قال *: دخلت علی أبی جعفر (ع) فدعا بالغذاء فأكلت معه طعاما- ما أكلت طعاما أطیب منه قط و لا ألطف- فلما فرغنا من الطعام قال: یا أبا خالد كیف رأیت طعامک؟ أو قال: طعامنا؟ قلت: جعلت فداک

ص:354

ما أكلت طعاما أطیب منه قط و لا أنظف- و لكن ذكرت الآیة التی فی كتاب الله عز و جل «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ» فقال أبو جعفر (ع): إنما یسألكم عما أنتم علیه من الحق.

و فیه، بإسناده عن أبی حمزة قال : كنا عند أبی عبد الله (ع) جماعة- فدعا بطعام ما لنا عهد بمثله لذاذة و طیبا- و أتینا بتمر تنظر فیه أوجهنا من صفائه و حسنه- فقال رجل:

لتسألن عن هذا النعیم الذی تنعمتم به- عند ابن رسول الله- فقال أبو عبد الله إن الله عز و جل أكرم و أجل- أن یطعم طعاما فیسوغكموه ثم نسألكم عنه- إنما یسألكم عما أنعم علیكم بمحمد و آل محمد ص.

أقول: و هذا المعنی مروی عن أئمة أهل البیت (ع) بطرق أخری و عبارات مختلفة و فی بعضها أن النعیم ولایتنا أهل البیت، و یئول المعنی إلی ما قدمناه من عموم النعیم لكل نعمة أنعم الله بها بما أنها نعمة.

بیان ذلک أن هذه النعم لو سئل عن شی ء منها فلیست یسأل عنها بما أنها لحم أو خبز أو تمر أو ماء بارد أو أنها سمع أو بصر أو ید أو رجل مثلا و إنما یسأل عنها بما أنها نعمة خلقها الله للإنسان و أوقعها فی طریق كماله و الحصول علی التقرب العبودی كما تقدمت الإشارة إلیه و ندبه إلی أن یستعملها شكرا لا كفرا.

فالمسئول عنها هى النعمة بما أنها نعمة، و من المعلوم أن الدال على نعيمية النعيم و كيفية استعماله شكرا و المبين لذلك كله هو الدين الذى جاء به النبى ص و نصب لبيانه الأئمة من أهل بيته فالسؤال عن النعيم مرجعه السؤال عن العمل بالدين فى كل حركة و سكون و من المعلوم أيضا أن السؤال عن النعيم الذى هو الدين سؤال عن النبى ص و الأئمة من بعده الذين افترض الله طاعتهم و أوجب اتباعهم فى السلوك إلى الله الذى طريقه استعمال النعم كما بينه الرسول و الأئمة.

و إلى كون السؤال عن النعيم سؤالا عن الدين يشير ما فى رواية أبى خالد من قوله:

«إنما يسألكم عما أنتم عليه من الحق».

و إلى كونه سؤالا عن النعيم الذى هو النبى و أهل بيته يشير ما فى روايتى جميل و أبى حمزة السابقتين من قوله : «يسأل هذه الأمة عما أنعم الله عليها برسوله ثم بأهل بيته» أو ما فى معناه،

و فى بعض الروايات: «النعيم هو رسول الله ص- أنعم الله به على أهل العالم-

ص:355

فاستنقذهم من الضلالة»

، و فى بعضها: أن النعيم ولايتنا أهل البيت

، و المال واحد و من ولاية أهل البيت افتراض طاعتهم و اتباعهم فيما يسلكونه من طريق العبودية.

و فى المجمع، و قيل": النعيم الصحة و الفراغ": عن عكرمة، و يعضده ما

رواه ابن عباس عن النبى ص قال: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة و الفراغ.

و فيه، و قيل": هو يعنى النعيم الأمن و الصحة ": عن عبد الله بن مسعود و مجاهد، و روى ذلك عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).

أقول: و فى روايات أخرى من طرق أهل السنة أن النعيم هو التمر و الماء البارد و فى بعضها غيرهما، و ينبغى أن يحمل الجميع على إيراد المثال.

و فى الحديث النبوى من طرقهم أيضا :: ثلاث لا يسأل عنها العبد : خرقة يوارى بها عورته- أو كسرة يسد بها جوعته- أو بيت يكنه من الحر و البرد. الحديث

، و ينبغى أن يحمل على خفة الحساب فى الضروريات و نفى المناقشة فيه و الله أعلم.

(۱۰۳) سورة العصر مكية و هى ثلاث آيات (۳)

[سورة العصر (۱۰۳): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْعَصْرِ (۱) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (۲) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ (۳)

بيان

تخلص السورة جميع المعارف القرآنية و تجمع شتات مقاصد القرآن فى أوجز بيان، و هى تحتمل المكية و المدنية لكنها أشبه بالمكية.

قوله تعالى: «وَ الْعَصْرِ» إقسام بالعصر و الأنسب لما تتضمنه الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنسانى إلا لمن اتبع الحق و صبر عليه و هم المؤمنون الصالحون عملا، أن يكون المراد بالعصر عصر النبى ص و هو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشرى و ظهور الحق على الباطل.

و قيل: المراد به وقت العصر و هو الطرف الأخير من النهار لما فيه من الدلالة على

ص:356

التدبير الربوبى بإدبار النهار و إقبال الليل و ذهاب سلطان الشمس، و قيل: المراد به صلاة العصر و هى الصلاة الوسطى التى هى أفضل الفرائض اليومية، و قيل الليل و النهار و يطلق عليهما العصران، و قيل الدهر لما فيه من عجائب الحوادث الدالة على القدرة الربوبية و غير ذلك.

و قد ورد فى بعض الروايات أنه عصر ظهور المهدى (ع) لما فيه من تمام ظهور الحق على الباطل.

قوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ» المراد بالإنسان جنسه، و الخسر و الخسران و الخسار و الخسارة نقص رأس المال قال الراغب: و ينسب ذلك إلى الإنسان فيقال:

خسر فلان و إلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، انتهى. و التنكير فى «خُسْرٍ» للتعظيم و يحتمل التنويع أى فى نوع من الخسر غير الخسارات المالية و الجاهية قال تعالى: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ»: الزمر ۱۵.

قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» استثناء من جنس الإنسان الواقع فى الخسر، و المستثنون هم الأفراد المتلبسون بالإيمان و الأعمال الصالحة فهم آمنون من الخسر.

و ذلک أن کتاب الله یبین أن للإنسان حیاة خالدة مؤبدة لا تنقطع بالموت و إنما الموت انتقال من دار إلی دار کما تقدم فی تفسیر قوله تعالی: «عَلی أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَکُمْ وَ نُنْشِئَکُمْ فِی ما لا تَعْلَمُونَ»: الواقعة ۶۱، و یبین أن شطرا من هذه الحیاة و هی الحیاة الدنیا حیاة امتحانیة تتعین بها صفة الشطر الأخیر الذی هو الحیاة الآخرة المؤبدة من سعادة و شقاء قال تعالی : «وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنیا فِی الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ»: الرعد ۲۶، و قال: «کُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوکُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَیْرِ فِتْنَةً»: الأنبیاء ۳۵.

و یبین أن مقدمیة هذه الحیاة لتلک الحیاة إنما هی بمظاهرها من الاعتقاد و العمل فالاعتقاد الحق و العمل الصالح ملاک السعادة الأخرویة و الکفر و الفسوق ملاک الشقاء فیها قال تعالی : «وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُری ثُمَّ یُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفی»، و قال: «مَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ یَمْهَدُونَ» الروم ۴۴، و قال: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَیْها»: حم السجدة ۴۶، و قد سمی الله تعالی ما سیلقاه الإنسان فی الآخرة جزاء و أجرا فی آیات کثیرة.

و یتبین بذلک کله أن الحیاة رأس مال للإنسان یکسب به ما یعیش به فی حیاته الآخرة فإن اتبع الحق فی العقد و العمل فقد ربحت تجارته و بورک فی مکسبه و أمن الشر

ص:357

فی مستقبله، و إن اتبع الباطل و أعرض عن الإیمان و العمل الصالح فقد خسرت تجارته و حرم الخیر فی عقباه و هو قوله تعالی: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ».

و المراد بالإیمان الإیمان بالله و من الإیمان با لله الإیمان بجمیع رسله و الإیمان بالیوم الآخر فقد نص تعالی فیمن لم یؤمن ببعض رسله «۱» أو بالیوم الآخر إنه غیر مؤمن بالله.

و ظاهر قوله : «وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» التلبس بجمیع الأعمال الصالحة فلا یشمل الاستثناء الفساق بترک بعض الصالحات من المؤمنین و لازمه أن یکون الخسر أعم من الخسر فی جمیع جهات حیاته کما فی الکافر المعاند للحق المخلد فی العذاب، و الخسر فی بعض جهات حیاته کالمؤمن الفاسق الذی لا یخلد فی النار و ینقطع عنه العذاب بشفاعة و نحوها.

قوله تعالی: «وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ» التواصی بالحق هو أن یوصی بعضهم بعضا بالحق أی باتباعه و الدوام علیه فلیس دین الحق إلا اتباع الحق اعتقادا و عملا و التواصی بالحق أوسع من الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر لشموله الاعتقادیات و مطلق الترغیب و الحث علی العمل الصالح.

ثم التواصی بالحق من العمل ا لصالح فذکره بعد العمل الصالح من قبیل ذکر الخاص بعد العام اهتماما بأمره کما أن التواصی بالصبر من التواصی بالحق و ذکره بعده من ذکر الخاص بعد العام اهتماما بأمره، و یؤکد تکرار ذکر التواصی حیث قال : «وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ» و لم یقل: و تواصوا بالحق و الصبر.

و علی الجملة ذکر تواصیهم بالحق و بالصبر بعد ذکر تلبسهم بالإیمان و العمل الصالح للإشارة إلی حیاة قلوبهم و انشراح صدورهم للإسلام لله فلهم اهتمام خاص و اعتناء تام بظهور سلطان الحق و انبساطه علی الناس حتی یتبع و یدوم اتباعه قال

تعالی: «أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلی نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَیْلٌ لِلْقاسِیَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِکْرِ اللَّهِ أُولئِکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ »: الزمر ۲۲.

و قد أطلق الصبر فالمراد به أعم من الصبر علی طاعة الله، و الصبر عن معصیته، و الصبر عند النوائب التی تصیبه بقضاء من الله و قدر.

---

(۱) النساء: ۱۵۰- ۱۵۱.

بحث روائی

فی تفسیر القمی، بإسناده عن عبد الرحمن بن کثیر عن أبی عبد الله (ع)* فی قوله تعالی: «إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا» إلخ، فقال: استثنی أهل صفوته من خلقه.

أقول: و طبق فی ذیل الروایة الإیمان علی الإیمان بولایة علی (ع)، و التواصی بالحق علی توصیتهم ذریاتهم و أخلافهم بها.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن ابن عباس"* فی قوله: «وَ الْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ» یعنی أبا جهل بن هشام «إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» ذکر علیا و سلمان.

(۱۰۴) سورة الهمزة مکیة و هی تسع آیات (۹)

[سورة الهمزة (۱۰۴): الآیات ۱ الی ۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (۱) الَّذِی جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ (۲) یَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (۳) کَلاَّ لَیُنْبَذَنَّ فِی الْحُطَمَةِ (۴)

وَ ما أَدْراکَ مَا الْحُطَمَةُ (۵) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (۶) الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ (۷) إِنَّها عَلَیْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (۸) فِی عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (۹)

بیان

وعید شدید للمغرمین بجمع المال المستعلین به علی الناس المستکبرین علیهم فیزرون بهم و یعیبونهم بما لیس بعیب، و السورة مکیة.

قوله تعالى: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» قال فی المجمع،: الهمزة الکثیر الطعن علی غیره بغیر حق العائب له بما لیس بعیب، و أصل الهمز الکسر. قال: و اللمز العیب أیضا و الهمزة و اللمزة بمعنی، و قد قیل : بینهما فرق فإن الهمزة الذی یعیبک بظهر الغیب، و اللمزة الذی یعیبک فی وجهک. عن اللیث.

و قیل: الهمزة الذی یؤذی جلیسه بسوء لفظه، و اللمزة الذی یکسر عینه علی جلیسه

ص:359

و یشیر برأسه و یومئ بعینه . قال: و فعله بناء المبالغة فی صفة من یکثر منه الفعل و یصیر عادة له تقول : رجل نکحة کثیر النکاح و ضحکة کثیر الضحک و کذا همزة و لمزة انتهی.

فالمعنی ویل لکل عیاب مغتاب، و فسر بمعان أخر علی حسب اختلافهم فی تفسیر الهمزة و اللمزة.

قوله تعالی: «اَلَّذِی جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ یَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ» بیان لهمزة لمزة و تنکیر «مالاً» للتحقیر فإن المال و إن کثر ما کثر لا یغنی عن صاحبه شیئا غیر أن له منه ما یصرفه فی حوائج نفسه الطبیعیة من أکلة تشبعه و شربة ماء ترویه و نحو ذلک و «عَدَّدَهُ» من العد بمعنی الإحصاء أی أنه لحبه المال و شغفه بجمعه یجمع المال و یعده عدا بعد عد التذاذا بتکثره . و قیل: المعنی جعله عدة و ذخرا لنوائب الدهر.

و قوله : «یَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ » أی یخلده فی الدنیا و یدفع عنه الموت و الفناء فالماضی أرید به المستقبل بقرینة قوله : «یَحْسَبُ».

فهذا الإنسان لإخلاده إلی الأرض و انغماره فی طول الأمل لا یقنع من المال بما یرتفع به حوائج حیاته القصیرة و ضروریات أیامه المعدودة بل کلما زاد مالا زاد حرصا إلی ما لا نهایة له فظاهر حاله أنه یری أن المال یخلده، و لحبه الغریزی للبقاء یهتم بجمعه و تعدیده، و دغاه ما جمعه و عدده من المال و ما شاهده من الاستغناء إلی الطغیان و الاستعلاء علی غیره من الناس کما قال تعالی: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَیَطْغی أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی»: العلق ٧، و یورثه هذا الاستکبار و التعدی الهمز و اللمز.

و من هنا یظهر أن قوله : «یَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ » بمنزلة التعلیل لقوله : «اَلَّذِی جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ »، و قوله : «اَلَّذِی جَمَعَ» إلخ بمنزلة التعلیل لقوله: «وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ».

قوله تعالی: «کَلاّ لَیُنْبَذَنَّ فِی الْحُطَمَةِ » ردع عن حسبانه الخلود بالمال، و اللام فی «لَیُنْبَذَنَ» للقسم، و النبذ القذف و الطرح، و الحطمة مبالغة من الحطم و هو الکسر و جاء بمعنی الأکل، و هی من أسماء جهنم علی ما یفسرها قوله الآتی : «نارُ اللّهِ الْمُوقَدَةُ».

و المعنی لیس مخلدا بالمال کما یحسب أقسم لیموتن و یقذفن فی الحطمة.

قوله تعالی: «وَ ما أَدْراکَ مَا الْحُطَمَةُ» تفخیم و تهویل.

قوله تعالی: «نارُ اللّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ » إیقاد النار إشعالها و الاطلاع و الطلوع علی الشیء الإشراف و الظهور، و الأفئدة جمع فؤاد و هو القلب، و المراد به فی

ص:360

القرآن مبدأ الشعور و الفکر من الإنسان و هو النفس الإنسانیة.

و کان المراد من اطلاعها علی الأفئدة أنها تحرق باطن الإنسان کما تحرق ظاهره بخلاف النار الدنیویة التی إنما تحرق الظاهر فقط قال تعالی: «وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَةُ»: البقرة ۲۴.

قوله تعالی: «إِنَّها عَلَیْهِمْ مُؤْصَدَةٌ» أی مطبقة لا مخرج لهم منها و لا منجا.

قوله تعالی: «فِی عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ» العمد بفتحتین جمع عمود و التمدید مبالغة فی المد قیل : هی أوتاد الأطباق التی تطبق علی أهل النار، و قیل: عمد ممددة یوثقون فیها مثل المقاطر و هی خشب أو جذو ع کبار فیها خروق توضع فیها أرجل المحبوسین من اللصوص و غیرهم، و قیل غیر ذلک.

بحث روائی

فی روح المعانی،": فی قوله تعالی: «وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» نزل ذلک علی ما أخرج ابن أبی حاتم- من طریق ابن إسحاق عن عثمان بن عمر فی أبی بن خلف، و علی ما أخرج عن السدی فی أبی بن عمر و الثقفی- الشهیر بالأخنس بن شریق- فإنه کان مغتابا کثیر الوقیعة.

و علی ما قال ابن إسحاق فی أمیة بن خلف الجمحی- و کان یهمز النبی ص.

و علی ما أخرج ابن جریر و غیره عن مجاهد فی جمیل بن عامر- و علی ما قیل فی الولید بن المغیرة- و اغتیابه لرسول الله ص و غضه منه، و علی قول فی العاص بن وائل.

أقول: ثم قال: و یجوز أن یکون نازلا فی جمع من ذکر . انتهی و لا یبعد أن یکون من تطبیق الرواة و هو کثیر فی أسباب النزول.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ» قال: الذی یغمز الناس و یستحقر ا لفقراء، و قوله: «لُمَزَةٍ» یلوی عنقه و رأسه- و یغضب إذا رأی فقیرا أو سائلا «الَّذِی جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ» قال: أعده و وضعه.

و فيه،": قوله تعالى: «الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ » قال: تلتهب على الفؤاد- قال أبو ذر رضى الله عنه : بشر المتكبرين بكى فى الصدور و سحب على الظهور. قوله «إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ» قال: مطبقة «فِی عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ» قال: إذا مدت العمد عليهم أكلت و الله الجلود.

و فى المجمع، روى العياشى بإسناده عن محمد بن النعمان الأحول عن حمران بن أعين عن أبى جعفر (ع) قال*: إن الكفار و المشركين يعيرون أهل التوحيد فى النار- و يقولون:

ص:361

ما نرى توحيدكم أغنى عنكم شيئا- و ما نحن و أنتم إلا سواء- قال: فيأنف لهم الرب تعالى فيقول للملائكة: اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله- ثم يقول للنبيين: اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله- ثم يقول للمؤمنين: اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله- و يقول الله: أنا أرحم الراحمين اخرجوا برحمتى- فيخرجون كما يخرج الفراش.

قال: ثم قال أبو جعفر (ع): ثم مدت العمد و أوصدت عليهم و كان و الله الخلود.

(۱۰۵) سورة الفيل مكية و هى خمس آيات (۵)

[سورة الفيل (۱۰۵): الآيات ۱ الى ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (۱) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِی تَضْلِيلٍ (۲) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (۳) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (۴)

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (۵)

بيان

فيها إشارة إلى قصة أصحاب الفيل إذ قصدوا مكة لتخريب الكعبة المعظمة فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، و هى من آيات الله الجلية التى لا سترة عليها، و قد أرخوا بها و ذكرها الجاهليون فى أشعارهم، و السورة مكية.

قوله تعالى: «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ» المراد بالرؤية العلم الظاهر ظهور الحس، و الاستفهام إنكارى، و المعنى أ لم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، و قد كانت الواقعة عام ولد فيه النبى ص.

قوله تعالی: «أَ لَمْ یَجْعَلْ کَیْدَهُ مْ فِی تَضْلِیلٍ » المراد بکیدهم سوء قصدهم بمکة و إرادتهم تخریب البیت الحرام، و التضلیل و الإضلال واحد، و جعل کیدهم فی تضلیل جعل سعیهم ضالا لا یهتدی إلی الغایة المقصودة منه فقد ساروا لتخریب الکعبة و انتهی بهم إلی هلاک أنفسهم.

ص:362

قوله تعالی: «وَ أَرْسَلَ عَلَیْهِمْ طَیْراً أَبابِیلَ » الأبابیل- کما قیل- جماعات فی تفرقة زمرة زمرة، و المعنی و أرسل الله علی أصحاب الفیل جماعات متفرقة من الطیر و الآیة و التی تتلوها عطف تفسیر علی قوله: «أَ لَمْ یَجْعَلْ کَیْدَهُمْ فِی تَضْلِیلٍ».

قوله تعالی: «تَرْمِیهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّیلٍ» أی ترمی أبابیل الطیر أصحاب الفیل بحجارة من سجیل، و قد تقدم معنی السجیل فی تفسیر قصص قوم لوط.

قوله تعالی: «فَجَعَلَهُمْ کَعَصْفٍ مَأْکُولٍ» العصف ورق الزرع و العصف المأکول ورق الزرع الذی أکل حبه أو قشر الحب الذی أکل لبه و المراد أنهم عادوا بعد وقوع السجیل علیهم أجسادا بلا أرواح أو أن الحجر بحرارته أحرق أجوافهم، و قیل:

المراد ورق الزرع الذی وقع فیها الأکال و هو أن یأکله الدود فیفسده و فسرت الآیة ببعض وجوه أخر لا یناسب الأدب القرآنی.

بحث روائی

فی المجمع،": أجمعت الرواة علی أن ملک الیمن الذی قصد هدم الکعبة هو أبرهة بن الصباح الأشرم و قیل : إن کنیته أبو یکسوم و نقل عن الواقدی أنه جد النجاشی الذی کان علی عهد رسول الله ص.

ثم ساق الکلام فی قصة استیلائه علی ملک الیمن إلی أن قال : ثم إنه بنی کعبة بالیمن و جعل فیها قبابا من ذهب فأمر أهل مملکته بالحج إلیها یضاهی بذلک البیت الحرام، و إن رجلا من بنی کنانة خرج حتی قدم الیمن فنظر إلیها ثم قعد فیها یعنی لحاجة الإنسان فدخلها أبرهة فوجد تلک العذرة فیها فقال: من اجترأ علی بهذا؟ و نصرانیتی لأهدمن ذلک البیت حتی لا یحجه حاج أبدا و دعا بالفیل و أذن قومه بالخروج و من اتبعه من أهل الیمن، و کان أکثر من اتبعه منهم عک و الأشعرون و خثعم.

قال: ثم خرج یسیر حتی إذا کان ببعض طریقه بعث رجلا من بنی سلیم لیدعو الناس إلی حج بیته الذی بناه فتلقاه أیضا رجل من الحمس من بنی کنانة فقتله فازداد بذلک حنقا و حث السیر و الانطلاق.

و طلب من أهل الطائف دلیلا فبعثوا معه رجلا من هذیل یقال له نفیل فخرج بهم یهدیهم حتی إذا کانوا بالمغمس نزلوه و هو من مکة علی ستة أمیال فبعثوا مقدماتهم إلی

ص:363

مکۀ فخرجت قریش عبادید فی رءوس الجبال و قالوا : لا طاقۀ لنا بقتال هؤلاء و لم یبق بمکۀ غیر عبد المطلب بن هاشم أقام علی سقایته و غیر شیبۀ بن عثمان بن عبد الدار أقام علی حجابۀ البیت فجعل عبد المطلب یأخذ بعضادتی الباب ثم یقول:

لا هم أن المرء یمنع رحله فامنع جلالک | لا یغلبوا بصلیبهم و محالهم عدوا محالک

لا یدخلوا البلد الحرام إذا فأمر ما بدا لک

ثم إن مقدمات أبرهۀ أصابت نعما لقریش فأصابت فیها مائتی بعیر لعبد المطلب بن هاشم فلما بلغه ذلک خرج حتی أتی القوم، و کان حاجب أبرهۀ رجلا من الأشعرین و کان له بعبد المطلب معرفۀ فاستأذن له علی الملک و قال له: أیها الملک جاءک سید قریش الذی یطعم إنسها فی الحی و وحشها فی الجبل فقال له : ائذن له.

و کان عبد المطلب رجلا جسیما جمیلا فلما رآه أبو یکسوم أعظمه أن یجلسه تحته و کره أن یجلسه معه علی سریره فنزل من سریره فجلس علی الأرض و أجلس عبد المطلب معه ثم قال : ما حاجتک؟ قال: حاجتی مائتا بعیر لی أصابتها مقدمتک فقال أبو یکسوم:

و الله لقد رأیتک فأعجبتنی ثم تکلمت فزهدت فیک فقال : و لم أیها الملک؟ قال : لأنی جئت إلی بیت عزکم و منعتکم من العرب و فضلکم فی الناس و شرفکم علیهم و دینکم الذی تعبدون فجئت لأکسره و أصیبت لک مائتا بعیر فسألتک عن حاجتک فکلمتنی فی إبلک و لم تطلب إلی فی بیتکم.

فقال له عبد المطلب: أیها الملک أنا أکلمک فی مالی و لهذا البیت رب هو یمنعه لست أنا منه فی شیء فراع ذلک أبو یکسوم و أمر برد إبل عبد المطلب علیه ثم رجع و أمست لیلتهم تلک اللیلۀ کالحۀ نجومها کأنها تکلمهم کلاما لاقترابها منهم فأحست نفوسهم بالعذاب.

إلی أن قال: حتی إذا کان مع طلوع الشمس طلعت علیهم الطیر معها الحجارۀ فجعلت ترمیهم، و کل طائر فی منقاره حجر و فی رجلیه حجران و إذا رمت بذلک مضت و طلعت أخری فلا یقع حجر من حجارتهم تلک علی بطن إلا خرقه و لا عظم إلا أوهاه و ثقبه، و ثاب أبو یکسوم راجعا قد أصابته بعض الحجارۀ فجعل کلما قدم أرضا انقطع له فیها إرب حتی إذا انتهی إلی الیمن لم یبق شیء إلا باده فلما قدمها تصدع صدره و انشق بطنه فهلک و لم یصب من الأشعرین و خثعم أحد، الحدیث.

أقول: و فى الروايات اختلاف شديد فى خصوصيات القصة من أراد الوقوف عليها فعليه بمطولات السير و التواريخ.

(۱۰۶) سورة قريش مكية و هى أربع آيات (۴)

[سورة قريش (۱۰۶): الآيات ۱ الى ۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (۱) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ (۲) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (۳) الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (۴)

بيان

تتضمن السورة امتنانا على قريش بإيلافهم الرحلتين و تعقبه بدعوتهم إلى التوحيد و عبادة رب البيت، و السورة مكية.

و لمضمون السورة نوع تعلق بمضمون سورة الفيل و لذا ذهب قوم من أهل السنة إلى كون الفيل و لإيلاف سورة واحدة كما قيل بمثله فى الضحى و أ لم نشرح لما بينهما من الارتباط كما نسب ذلك إلى المشهور بين الشيعة و الحق أن شيئا مما استندوا إليه لا يفيد ذلك.

أما القائلون بذلك من أهل السنة فإنهم استندوا فيه إلى ما روى أن أبى بن كعب لم يفصل بينهما فى مصحفه بالبسملة، و بما روى عن عمرو بن ميمون الأزدى قال: صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب فقرأ فى الركعة الأولى و التين و فى الثانية أ لم تر و لإيلاف قريش من غير أن يفصل بالبسملة.

و أجيب عن الرواية الأولى بمعارضتها بما روى أنه أثبت البسملة بينهما فى مصحفه، و عن الثانية بأن من المحتمل على تقدير صحتها أن يكون الراوى لم يسمع قراءتها أو يكون قرأها سرا. على أنها معارض بما روى عن النبى ص أن الله فضل قريشا بسبع خصال و فيها «و نزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم: لإيلاف قريش».

الحديث على أن الفصل متواتر.

و أما القائلون بذلك من الشيعة فاستندوا فيه

إلى ما فى المجمع، عن أبى العباس عن أحدهما (ع) قال: أ لم تر كيف فعل ربك و لإيلاف قريش سورة واحدة

، و ما

فى التهذيب، بإسناده عن العلاء عن زيد الشحام قال❊: صلى بنا أبو عبد الله (ع) الفجر- فقرأ الضحى و أ لم نشرح فى ركعة

، و ما فى المجمع، عن العياشى عن المفضل بن صالح عن أبى عبد الله (ع) قال❊: سمعته يقول: لا تجمع بين سورتين فى ركعة واحدة إلا الضحى- و أ لم نشرح و أ لم تر كيف و لإيلاف قريش : و رواه المحقق فى المعتبر، نقلا من كتاب الجامع لأحمد بن محمد بن أبى نصر عن المفضل: مثله.

أما رواية أبى العباس فضعيف لما فيها من الرفع.

و أما رواية الشحام فقد رويت عنه بطريقين آخرين: أحدهما

ما فى التهذيب، بإسناده عن ابن مسكان عن زيد الشحام قال❊: صلى بنا أبو عبد الله (ع) فقرأ بنا بالضحى و أ لم نشرح

، و ثانيهما

عنه عن ابن أبى عمير عن بعض أصحابنا عن زيد الشحام قال❊: صلى بنا أبو عبد الله (ع) فقرأ فى الأولى الضحى- و فى الثانية أ لم نشرح لک صدرک.

و هذه أعنى صحيحة ابن أبى عمير صريحة فى قراءة السورتين فى ركعتين و لا يبقى معها لرواية العلاء ظهور فى الجمع بينهما، و أما رواية ابن مسكان فلا ظهور لها فى الجمع و لا صراحة، و أما حمل ابن أبى عمير على النافلة فيدفعه قوله فيها : «صلى بنا» فإنه صريح فى الجماعة و لا جماعة فى نفل.

و أما رواية المفضل فهى أدل على كونهما سورتين منها على كونهما سورة واحدة حيث قيل:

لا تجمع بين سورتين ثم استثنى من السورتين الضحى و أ لم نشرح و كذا الفيل و لإيلاف.

فالحق أن الروايات إن دلت فإنما تدل على جواز القرآن بين سورتى الضحى و أ لم نشرح و سورتى الفيل و لإيلاف فى ركعة واحدة من الفرائض و هو ممنوع فى غيرها، و يؤيده

رواية الراوندى فى الخرائج، عن داود الرقى عن أبى عبد الله (ع) فى حديث قال❊: فلما طلع الفجر قام فأذن و أقام- و أقامنى عن يمينه و قرأ فى أول ركعة الحمد و الضحى- و فى الثانية بالحمد و قل هو الله أحد- ثم قنت ثم سلم ثم جلس.

قوله تعالى: «لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ » الألف بكسر الهمزة اجتماع مع التئام كما قاله الراغب و منه الألفة، و قال فى الصحاح، : و فلان قد ألف هذا الموضع بالكسر يألفه ألفا و آلفه إياه غيره، و يقال أيضا : آلفت الموضع أولفه إيلافا، انتهى.

و قريش عشيرة النبى ص و هم ولد النضر بن كنانة المسمى قريشا، و الرحلة حال السير على الراحلة و هى الناقة القوية على السير كما فى المجمع، و المراد بالرحلة خروج قريش

ص:366

من مكة للتجارة و ذلک أن الحرم واد جديب لا زرع فيه و لا ضرع فكانت قريش تعيش فيه بالتجارة، و كانت لهم فى كل سنة رحلتان للتجارة رحلة فى الشتاء إلى اليمن و رحلة بالصيف إلى الشام، و كانوا يعيشون بذلک و كان الناس يحترمونهم لمكان البيت الحرام فلا يتعرضون لهم بقطع طريقهم أو الإغارة على بلدهم الأمن.

و قوله: «لِإِيلافِ قُرَيْشٍ» اللام فيه للتعليل، و فاعل الإيلاف هو الله سبحانه و قريش مفعوله الأول و مفعوله الثانى محذوف يدل عليه ما بعده، و قوله : «إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ » بدل من إيلاف قريش، و فاعل إيلافهم هو الله و مفعوله الأول ضمير الجمع و مفعوله الثانى رحلة إلخ، و التقدير لإيلاف الله قريشا رحلة الشتاء و الصيف.

قوله تعالى: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ» الفاء فى «فَلْيَعْبُدُوا» لتوهم معنى الشرط أى أى شیء كان فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافه أيام الرحلتين أو لتوهم التفصيل أى مهما يكن من شی ء فليعبدوا رب هذا البيت إلخ، فهو كقوله تعالى : «وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ »: المدثر: ٧.

و محصل معنى الآيات الثلاث ليعبد قريش رب هذا البيت لأجل إيلافه إياهم رحلة الشتاء و الصيف و هم عائشون بذلک فى أمن.

هذا بالنظر إلى كون السورة منفصلة عما قبلها ذات سياق مستقل فى نفسها، و أما على تقدير كونها جزء من سورة الفيل متممة لها فذكروا أن اللام فى «لِإِيلافِ» تعليلية متعلقة بمقدر يدل عليه المقام و المعنى فعلنا ذلک بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش مضافة إلى نعمتنا عليهم فى رحلة الشتاء و الصيف فكأنه قال : نعمة إلى نعمة و لذا قيل : إن اللام مؤدية معنى إلى و هو قول الفراء.

و قيل: المعنى فعلنا ذلک بأصحاب الفيل لتألف قريش بمكة و يمكنهم المقام بها أو لنؤلف قريشا فإنهم هابوا من أبرهة لما قصدها و هربوا منه فأهلكناهم لترجع قريش إلى مكة و يألفوا بها و يولد محمد ص فيبعث إلى الناس بشيرا و نذيرا هذا، و الكلام فى استفادة هذه المعانى من السياق.

قوله تعالى: «الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » إشارة إلى ما فى إيلافهم الرحلتين من منه الواضح و نعمته الظاهرة عليهم و هو الإطعام و الأمن فيعيشون فى أرض لا خصب فيها و لا أمن لغيرهم فليعبدوا ربا يدبر أمرهم أحس ن التدبير و هو رب البيت.

ص:367

بحث روائی

فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ» قال: نزلت فی قريش لأنه كان معاشهم من الرحلتين- رحلة فی الشتاء إلی اليمن، و رحلة فی الصيف إلی الشام، و كانوا يحملون من مكة الأدم و اللب- و ما يقع من ناحية البحر من الفلفل و غيره- فيشترون بالشام الثياب و الدرمک و الحبوب، و كانوا يتألفون فی طريقهم و يثبتون فی الخروج- فی كل خرجة رئيسا من رؤساء قريش- و كان معاشهم من ذلک.

فلما بعث الله نبيه استغنوا عن ذلک- لأن الناس وفدوا علی رسول الله ص و حجوا إل ی البيت- فقال الله: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ- الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ» لا يحتاجون أن يذهبوا إلی الشام «وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» يعنی خوف الطريق.

أقول: قوله: فلما بعث الله إلخ خفی الانطباق علی سياق آيات السورة، و لعله من كلام القمی أخ ذه من بعض ما روی عن ابن عباس.

(١٠٧) سورة الماعون مدنية أو مكية و هی سبع آيات (٧)

[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الی ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ رَأَيْتَ الَّذِی يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذلِکَ الَّذِی يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَ لا يَحُضُّ عَلی طَعامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (٦) وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ (٧)

بيان

وعيد لمن كان من المنتحلين بالدين متخلقا بأخلاق المنافقين كالسهو عن الصلاة و الرياء فی الأعم ال و منع الماعون مما لا يلائم التصديق بالجزاء.

و السورة تحتمل المكية و المدنية، و قيل: نصفها مكی و نصفها مدنی.

ص:PAGE=368ص:

قوله تعالی: «أَ رَأَيْتَ الَّذِی يُكَذِّبُ بِالدِّينِ» الرؤية تحتمل الرؤية البصرية و تحتمل أن تكون بمعنی المعرفة، و الخطاب للنبی ص بما أنه سامع فيتوجه إلی كل سامع، و المراد بالدين الجزاء يوم الجزاء فالمكذب بالدين منكر المعاد و قيل المراد به الدين بمعنی الملة.

قوله تعالى: «فَذلِکَ الَّذِی یَدُعُّ الْیَتِیمَ » الدع هو الرد بعنف و جفاء، و الفاء فی «فَذلِکَ» لتوهم معنى الشرط و التقدیر أ رأیت الذی یکذب بالجزاء فعرفته بصفاته اللازمة لتکذیبه فإن لم تعرفه فذلک الذی یرد الیتیم بعنف و یجفوه و لا یخاف عاقبة عمله السیئ و لو لم یکذب به لخافها و لو خافها لرحمه.

قوله تعالى: «وَ لا یَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْکِینِ» الحض الترغیب، و الکلام على تقدیر مضاف أی لا یرغب الناس على إطعام طعام المسکین قیل: إن التعبیر بالطعام دون الإطعام للإشعار بأن المسکین کأنه مالک لما یعطى له کما فی قوله تعالى : «وَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ»: الذاریات: ١٩ و قیل: الطعام فی الآیة بمعنى الإطعام.

و التعبیر بالحض دون الإطعام لأن الحض أعم من الحض العملی الذی یتحقق بالإطعام.

قوله تعالى: «فَوَیْلٌ لِلْمُصَلِّینَ الَّذِینَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ » أی غافلون لا یهتمون بها و لا یبالون أن تفوتهم بالکلیة أو فی بعض الأوقات أو تتأخر عن وقت فضیلتها و هکذا.

و فی الآیة تطبیق من یکذب بالدین على هؤلاء المصلین لمکان فاء التفریع و دلالة على أنهم لا یخلون من نفاق لأنهن یکذبون بالدین عملا و هم یتظاهرون بالإیمان.

قوله تعالى: «الَّذِینَ هُمْ یُراؤُنَ» أی یأتون بالعبادات لمراءاة الناس فهم یعملون للناس لا لله تعالى.

قوله تعالى: «وَ یَمْنَعُونَ الْماعُونَ» الماعون کل ما یعین الغیر فی رفع حاجة من حوائج الحیاة کالقرض تقرضه و المعروف تصنعه و متاع البیت تعیره و إلى هذا یرجع متفرقات ما فسر به فی کلماتهم.

بحث روائی

فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالى: «أَ رَأَیْتَ الَّذِی یُکَذِّبُ بِالدِّینِ» قال: نزلت فی أبی جهل و کفار قریش، و فی قوله: «الَّذِینَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ» قال: عنی به تارکون لأن کل إنسان یسهو فی الصلاة- قال أبو عبد الله (ع): تأخیر الصلاة عن أول وقتها لغیر عذر.

و فی الخصال، عن علی (ع) فی حدیث الأربعمائة قال : لیس عمل أحب إلى الله عز و جل من الصلاة- فلا یشغلنکم عن أوقاتها شیء من أمور الدنیا- فإن الله عز و جل ذم أقواما فقال : «الَّذِینَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ » یعنی أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها.

و فی الکافی، بإسنا ده عن محمد بن الفضیل قال : سألت عبدا صالحا (ع) عن قول الله عز و جل : «الَّذِینَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ» قال هو التضییع.

أقول: و فی هذه المضامین روایات أخر.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و البیهقی فی سننه عن علی بن أبی طالب ❊ «الَّذِینَ هُمْ یُراؤُنَ» قال: یراءون بصلاتهم.

و فیه، أخرج أبو نعیم و الدیلمی و ابن عساکر عن أبی هریرة عن النبی ص ❊ فی قوله «وَ یَمْنَعُونَ الْماعُونَ» قال: ما تعاون الناس بینهم الفأس و القدر و الدلو و أشباهه.

و فی الکافی، بإسناده عن أبی بصیر عن أبی عبد الله (ع) فی حدیث قال❊: و قوله عز و جل: «وَ یَمْنَعُونَ الْماعُونَ» هو القرض تقرضه و المعروف تصنعه- و متاع البیت تعیره و منه الزکاة.

أقول: و تفسیر الماعون بالزکاة مروی من طرق أهل السنة أیضا

عن علی (ع) کما فی الدر المنثور، و لفظه: الماعون الزکاة المفروضة- یراءون بصلاتهم و یمنعون زکاتهم.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن قانع عن علی بن أبی طالب قال سمعت رسول الله ص یقول ❊: المسلم أخو المسلم إذا لقیه حیاة بالسلام- و یرد علیه ما هو خیر منه لا یمنع الماعون- قلت: یا رسول الله ما الماعون؟ قال (ص): الحجر و الحدید و الماء و أشباه ذلک.

أقول: و قد فسر (ص) فی روایة أخری الحدید بقدور النحاس و حدید الفأس و الحجر بقدور الحجارة.

(۱۰۸) سورة الکوثر مکیة و هی ثلاث آیات (۳)

[سورة الکوثر (۱۰۸): الآیات ۱ الی ۳]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ

إِنّٰا أَعْطَیْنٰاکَ الْکَوْثَرَ (۱) فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ (۲) إِنَّ شٰانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ (۳)

ص:370

بیان

امتنان علی النبی ص بإعطائه الکوثر و تطییب لنفسه الشریفة بأن شانئه هو الأبتر، و هی أقصر سورة فی القرآن و قد اختلفت الروایات فی کون السورة مکیة أو مدنیة، و الظاهر أنها مکیة، و ذکر بعضهم أنها نزلت مرتین جمعا بین الروایات .

قوله تعالی: «إِنّٰا أَعْطَیْنٰاکَ الْکَوْثَرَ» قال فی المجمع، الکوثر فوعل و هو الشی ء الذی من شأنه الکثرة، و الکوثر الخیر الکثیر، انتهی.

و قد اختلفت أقوالهم فی تفسیر الکوثر اختلافا عجیبا فقیل : هو الخیر الکثیر، و قیل نهر فی الجنة، و قیل : حوض النبی ص فی الجنة أو فی المحشر، و قیل : أولاده و قیل: أصحابه و أشیاعه (ص) إلی یوم القیامة، و قیل: علماء أمته (ص)، و قیل القرآن و فضائله کثیرة، و قیل النبوة و قیل: تیسیر القرآن و تخفیف الشرائع و قیل: الإسلام و قیل التوحید، و قیل: العلم و الحکمة، و قیل: فضائله (ص)، و قیل المقام المحمود، و قیل : هو نور قلبه (ص) إلی غیر ذلک مما قیل، و قد نقل عن بعضهم أنه أنهی الأقوال إلی ستة و عشرین.

و قد استند فی القولین الأولین إلی بعض الروایات، و باقی الأقوال لا تخلو من تحکم و کیفما کان فق وله فی آخر السورة : «إِنَّ شٰانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ» و ظاهر الأبتر هو المنقطع نسله و ظاهر الجملة أنها من قبیل قصر القلب- أن کثرة ذریته (ص) هی المرادة وحدها بالکوثر الذی أعطیه النبی ص أو المراد بها الخیر الکثیر و کثرة الذریة مرادة فی ضمن الخیر الکثیر و لو لا ذلک لکان تحقیق الکلام بقوله: «إِنَّ شٰانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ» خالیا عن الفائدة.

و قد استفاضت الروایات أن السورة إنما نزلت فیمن عابه (ص) بالبتر بعد ما مات ابناه القاسم و عبد الله، و بذلک یندفع ما قیل: إن مراد الشانئ بقوله: «الْأَبْتَرُ» المنقطع عن قومه أو المنقطع عن الخیر فرد الله علیه بأنه هو المنقطع من کل خیر.

و لما فی قوله: «إِنّٰا أَعْطَیْنٰاکَ» من الامتنان علیه (ص) جیء بلفظ المتکلم مع الغیر الدال علی العظمة، و لما فیه من تطییب نفسه الشریفة أکدت الجملة بإن و عبر بلفظ الإعطاء الظاهر فی التملیک.

ص:371

و الجملة لا تخلو من دلالة علی أن ولد فاطمة (ع) ذریته (ص)، و هذا فی نفسه من ملاحم القرآن الکریم فقد کثر الله تعالی نسله بعده کثرة لا یعادلهم فیها أی نسل آخر مع ما نزل علیهم من النوائب و أفنی جموعهم من المقاتل الذریعة.

قوله تعالی: «فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ» ظاهر السیاق فی تفریع الأمر بالصلاة و النحر علی الامتنان فی قوله : «إِنّٰا أَعْطَیْنٰاکَ الْکَوْثَرَ» إنه من شکر النعمة و المعنی إذا مننا علیک بإعطاء الکوثر فاشکر لهذه النعمة بالصلاة و النحر.

و المراد بالنحر علی ما رواه الفریقان عن النبی ص و عن علی (ع) و روته الشیعة عن الصادق (ع) و غیره من الأئمة هو رفع الیدین فی تکبیر الصلاة إلی النحر.

و قیل: معنی الآیة صل لربک صلاة العید و انحر البدن، و قیل: یعنی صل لربک و استو قائما عند رفع رأسک من الرکوع و قیل غیر ذلک.

قوله تعالی: «إِنَّ شٰانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ» الشانئ هو المبغض و الأبتر من لا عقب له و هذا الشانئ هو العاص بن وائل.

و قيل: المراد بالأبتر المنقطع عن الخير أو المنقطع عن قومه، و قد عرفت أن روايات سبب نزول السورة لا تلائمه و ستجيء.

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج البخاری و ابن جریر و الحاکم من طریق أبی بشر عن سعید بن جبیر عن ابن عباس أنه قال"*: الکوثر الخیر الذی أعطاه إیاه- قال أبو بشر قلت لسعید بن جبیر- فإن ناسا یزعمون أنه نهر فی الجنة- قال: النهر الذی فی الجنة من الخیر الذی أعطاه الله إیاه.

و فیه، أخرج ابن أبی حاتم و الحاکم و ابن مردویه و البیهقی فی سننه عن علی بن أبی طالب قال*: لما نزلت هذه السورة علی النبی ص «إِنّٰا أَعْطَیْنٰاکَ الْکَوْثَرَ» قال النبی ص لجبریل: ما هذه النحیرة التی أمرنی بها ربی؟ قال: إنها لیست بنحیرة- و لکن یأمرک إذا تحرمت للصلاة- أن ترفع یدیک إذا کبرت- و إذا رکعت و إذا رفعت رأسک من الرکوع- فإنها صلاتنا و صلاة الملائکة الذین فی السماوات السبع، و أن لکل شیء زینة- و زینة الصلاة رفع الیدین عند کل تکبیرة.

قال النبی ص: رفع الیدین من الاستکانة التی قال الله: «فَمَا اسْتَکٰانُوا لِرَبِّهِمْ

وَ مٰا یَتَضَرَّعُونَ»:.

أقول: و رواه فی المجمع، عن المقاتل عن الأصبغ بن نباتة عنه (ع) ثم قال: أورده الثعلبی و الواحدی فی تفسیرهما

، و قال أیضا: إن جمیع عترته الطاهرة رووا عنه (ع): أن معنی النحر رفع الیدین إلی النحر فی الصلاة.

و فیه، أخرج ابن جریر عن أبی جعفر * فی قوله: «فَصَلِّ لِرَبِّکَ» قال: الصلاة «وَ انْحَرْ» قال یرفع یدیه أول ما یکبر فی الافتتاح.

و فیه، أخرج ابن مردویه عن ابن عباس "* فی قوله: «فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ» قال: إن الله أوحی إلی رسوله- أن ارفع یدیک حذاء نحرک إذا کبرت للصلاة فذاک النحر.

و فی المجمع، فی الآیة عن عمر بن یزید قال سمعت أبا عبد الله (ع) یقول* فی قوله «فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ» هو رفع یدیک حذاء وجهک:.

أقول: ثم قال: و روی عنه عبد الله بن سنان مثله، و روی أیضا قریبا منه عن جمیل عنه (ع).

و فی الدر المنثور، أخرج ابن سعد و ابن عساکر من طریق الکلبی عن أبی صالح عن ابن عباس قال ":کان أکبر ولد رسول الله ص القاسم- ثم زینب ثم عبد الله ثم أم کلثوم ثم فاطمة ثم رقیة- فمات القاسم و هو أول میت من ولده بمکة- ثم مات عبد الله- فقال العاص بن وائل السهمی قد انقطع نسله فهو أبتر- فأنزل الله «إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

و فیه، أخرج الزبیر بن بکار و ابن عساکر عن جعفر بن محمد عن أبیه قال : توفی القاسم بن رسول الله بمکة- فمر رسول الله ص و هو آت من جنازته- علی العاص بن وائل و ابنه عمرو- فقال حین رأی رسول الله ص : إنی لأشنؤه- فقال العاص بن وائل: لا جرم لقد أصبح أبتر- فأنزل الله «إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

و فیه، أخرج ابن أبی حاتم عن السدی قال ": کانت قریش تقول- إذا مات ذکور الرجل- بتر فلان- فلما مات ولد النبی ص- قال العاص بن وائل: بتر و الأبتر الفرد.

أقول: و فی بعض الآثار أن الشانئ هو الولید بن المغیرة، و فی بعضها أبو جهل و فی بعضها عقبة بن أبی معیط، و فی بعضها کعب بن الأشرف، و المعتمد ما تقدم.

و یؤیده ما

فی الاحتجاج الطبرسی، عن الحسن بن علی (ع): فی حدیث یخاطب فیه عمرو بن العاصی : و أنک ولدت علی فراش مشترک- فتحاکمت فیک رجال قریش

ص:373

منهم أبو سفیان بن حرب- و الولید بن المغیرة و عثمان بن الحارث- و النضر بن الحارث بن کلدة و العاص بن وائل- کلهم یزعم أنک ابنه- فغلبهم علیک من بین قریش ألأمهم حسبا- و أخبثهم منصبا و أعظمهم بغیة.

ثم قمت خطیبا و قلت: أنا شانئ محمد- و قال العاص بن وائل: إن محمدا رجل أبتر لا ولد له- قد مات انقطع ذکره- فأنزل الله تبارک و تعالی: «إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

الحدیث.

و فی تفسیر القمی،": «إِنَّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ» قال: الکوثر نهر فی الجنة أعطی الله محمدا ص- عوضا عن ابنه إبراهیم.

أقول: الخبر علی إرساله و إضماره معارض لسائر الروایات و تفسیر الکوثر بنهر فی الجنة لا ینافی التفسیر بالخیر الکثیر کما تقدم فی خبر ابن جبیر.

(۱۰۹) سورة الکافرون مکیة و هی ست آیات (۶)

[سورة الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (٢) وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (٣) وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (۴)

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (۵) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ (۶)

بيان

فيها أمره (ص) أن يظهر للكفار براءته من دينهم و يخبرهم بامتناعهم من دينه فلا دينه يتعداه إليهم و لا دينهم يتعداهم إليه فلا يعبد ما يعبدون أبدا و لا يعبدون ما يعبد أبدا فلييأسوا من أى نوع من المداهنة و المساهلة.

و اختلفوا فى كون السورة مكية أو مدنية، و الظاهر من سياقها أنها مكية.

قوله تعالى: «قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ» الظاهر أن هؤلاء قوم معهودون لا كل كافر و يدل على ذلک أمره (ص) أن يخاطبهم ببراءته من دينهم و امتناعهم من دينه.

قوله تعالى: «لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ» الآية إلى آخر السورة مقول القول، و المراد بما

ص:374

تعبدون الأصنام التى كانوا يعبدونها، و مفعول «تَعْبُدُونَ» ضمير راجع إلى الموصول محذوف لدلالة الكلام عليه و لرعاية الفواصل، و كذا مفاعيل الأفعال التالية: «أَعْبُدُ» و «عَبَدْتُّمْ» و «أَعْبُدُ».

و قوله: «لا أَعْبُدُ» نفى استقبالى فإن لا لنفى الاستقبال كما أن ما لنفى الحال، و المعنى لا أعبد أبدا ما تعبدونه اليوم من الأصنام.

قوله تعالى: «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ » نفى استقبالى أيضا لعبادتهم ما يعبده (ص) و هو إخبار عن امتناعهم عن الدخول فى دين التوحيد فى مستقبل الأمر.

و بانضمام الأمر الذى فى مفتتح الكلام تفيد الآيتان إن الله سبحانه أمرنى بالدوام على عبادته و أن أخبركم أنكم لا تعبدونه أبدا فلا يقع بينى و بينكم اشتراک فى الدين أبدا.

فالآية فى معنى قوله تعالى : «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ »: يس: ٧، و قوله : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»: البقرة: ۶.

و كان من حق الكلام أن يقال: و لا أنتم عابدون من أعبد. لكن قيل: ما أعبد ليطابق ما فی قوله: «لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ».

قوله تعالی: «وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْ بُدُ» تکرار لمضمون الجملتین السابقتین لزیادة التأکید، کقوله : «کَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ کَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» التکاثر: ۴ و قوله: «فَقُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ»: المدثر: ۲۰.

و قیل: إن ما فی «ما عَبَدْتُّمْ» و «ما أَعْبُدُ» مصدریة لا موصولة و المعنی و لا أنا عابد عبادتکم و لا أنتم عابدون عبادتی أی لا أشارککم و لا تشارکوننی لا فی المعبود و لا فی العبادة فمعبودی هو الله و معبودکم الوثن و عبادتی ما شرعه الله لی و عبادتکم ما ابتدعتموه جهلا و افتراء، و علی هذا فالآیتان غیر مسوقتی ن للتأکید، و لا یخلو من بعد و سیأتی فی البحث الروائی التالی وجه آخر للتکرار لطیف.

قوله تعالی: «لَکُمْ دِینُکُمْ وَ لِیَ دِینِ» تأکید بحسب المعنی لما تقدم من نفی الاشتراک، و اللام للاختصاص أی دینکم و هو عبادة الأصنام یختص بکم و لا یتعداکم إلی و دینی یختص بی و لا یتعدانی إلیکم و لا محل لتوهم دلالة الآیة علی إباحة أخذ کل بما یرتضیه من الدین و لا أنه (ص) لا یتعرض لدینهم بعد ذلک فالدعوة الحقة التی یتضمنها القرآن تدفع ذلک أساسا.

ص:375

و قیل: الدین فی الآیة بمعنی الجزاء و المعنی لکم جزاؤکم و لی جزائی، و ق یل: إن هناک مضافا محذوفا و التقدیر لکم جزاء دینکم و لی جزاء دینی، و الوجهان بعیدان عن الفهم.

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن الأنباری فی المصاحف عن سعید بن میناء مولی أبی البختری قال "*: لقی الولید بن المغیرة و العاص بن وائل- و الأسود بن المطلب و أمیة بن خلف- رسول الله ص- فقالوا: یا محمد هلم فلنعبد ما تعبد و تعبد ما نعبد- و لنشترک نحن و أنت فی أمرنا کله- فإن کان الذی نحن علیه أصح من الذی أنت علیه- کنت قد أخذت منه حظا- و إن کان الذی أنت علیه أصح من الذی نحن علیه- کنا قد أخذنا منه حظا- فأنزل الله «قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ» حتی انقضت السورة:.

أقول: و روی الشیخ فی الأمالی، بإسناده عن میناء عن غیر واحد من أصحابه قریبا منه.

و فی تفسیر القمی، عن أبیه عن ابن أبی عمیر قال*: سأل أبو شاکر أبا جعفر الأحول عن قول الله : «قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ- وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ- وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ » فهل یتکلم الحکیم بمثل هذا القول، و یکرر مرة بعد مرة؟ فلم یکن عند أبی جعفر الأحول فی ذلک جواب.

فدخل المدینة فسأل أبا عبد الله (ع) عن ذلک- فقال: کان سبب نزولها و تکرارها- أن قریشا قالت لرسول الله ص: تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهک سنة- و تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهک سنة- فأجابهم الله بمثل ما قالوا فقال فیما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: قُلْ یا

أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ، و فيما قالوا: نعبد إلهک سنة: وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ، و فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: «وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ» و فيما قالوا: نعبد إلهک سنة: «وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ».

قال: فرجع أبو جعفر الأحول إلى أبي شاكر- فأخبره بذلک فقال أبو شاكر:

هذا حملته الإبل من الحجاز.

أقول: مفاد التكرار في كلام قريش الاستمرار على عبادة آلهتهم سنة و عبادة الله تعالى سنة.

ص:376

(١١٠) سورة النصر مدنية و هي ثلاث آيات (٣)

[سورة النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (١) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (٣)

بيان

وعد له (ص) بالنصر و الفتح و أنه سيرى الناس يدخلون في الإسلام فوجا بعد فوج و أمره بالتسبيح حينئذ و التحميد و الاستغفار، و السورة مدنية نزلت بعد صلح الحديبية و قبل فتح مكة على ما سنستظهر.

قوله تعالى: «إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ» ظهور «إذا» المصدرة بها الآية في الاستقبال يستدعي أن يكون مضمون الآية إخبارا بتحقق أمر لم يتحقق بعد، و إذا كان المخبر به هو النصر و الفتح و ذلک مما تقر به عين النبي ص فهو وعد جميل و بشرى له (ص) و يكون من ملاحم القرآن الكريم.

و ليس المراد بالنصر و الفتح جنسهما حتى يصدقا على جميع المواقف التي أيد الله فيها نبيه ص على أعدائه و أظهر دينه على دينهم كما في حروبه و مغازيه و إيمان الأنصار و أهل اليمن كما قبل إذ لا يلائمه قوله بعد : «وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً».

و ليس المراد بذلک أيضا صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى فتحا إذ قال «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً»: الفتح: ١ لعدم انطباق الآية الثانية بمضمونها عليه.

و أوضح ما يقبل الانطباق عليه النصر و الفتح المذكوران فى الآيهٔ هو فتح مكهٔ الذى هو أم فتوحاته «(ص)» فى زمن حياته و النصر الباهر الذى انهدم به بنيان الشرك فى جزيرهٔ العرب.

و يؤيده وعد النصر الذى فى الآيات النازلهٔ فى الحديبيهٔ «إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ وَ يَهْدِيَکَ صِراطاً مُسْتَقِيماً وَ يَنْصُرَکَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً»: الفتح: ٣ فإن من القريب جدا أن يكون ما فى الآيات وعدا بنصر عزيز يرتبط بفتح الحديبيهٔ و هو نصره تعالى نبيه «ص» على قريش حتى فتح مكهٔ بعد

مضى سنتين من فتح الحديبيهٔ.

و هذا الذى ذكر أقرب من حمل الآيهٔ على إجابهٔ أهل اليمن الدعوهٔ الحقهٔ و دخولهم فى الإسلام من غير قتال، فالأقرب إلى الاعتبار كون المراد بالنصر و الفتح نصره تعالى نبيه «ص» على قريش و فتح مكهٔ، و أن تكون السورهٔ نازلهٔ بعد صلح الحديبيهٔ و نزول سورهٔ الفتح و قبل فتح مكهٔ.

قوله تعالى: «وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً» قال الراغب: الفوج الجماعهٔ المارهٔ المسرعهٔ، و جمعه أفواج . انتهى. فمعنى دخول الناس فى دين الله أفواجا دخولهم فيه جماعهٔ بعد جماعهٔ، و المراد بدين الله الإسلام قال تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ»: آل عمران: ١٩.

قوله تعالى: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» لما كان هذا النصر و الفتح إذلالا منه تعالى للشرك و إعزازا للتوحيد و بعبارهٔ أخرى إبطالا للباطل و إحقاقا للحق ناسب من الجههٔ الأولى تنزيهه تعالى و تسبيحه، و ناسب من الجههٔ الثانيهٔ- التى هى نعمهٔ- الثناء عليه تعالى و حمده فلذلک أمره «(ص)» بقوله: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ».

و هاهنا وجه آخر يوجه به الأمر بالتسبيح و التحميد و الاستغفار جميعا و هو أن للرب تعالى على عبده أن يذكره بصفات كماله و يذكر نفسه بما له من النقص و الحاجهٔ و لما كان فى هذا الفتح فراغه «(ص)» من جل ما كان عليه من السعى فى إماطهٔ الباطل و قطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلک بجلاله و هو التسبيح و جماله و هو التحميد و أن يذكره بنقص نفسه و حاجته إلى ربه و هو طلب المغفرهٔ و معناه فيه «(ص)»- و هو مغفور- سؤال إدامهٔ المغفرهٔ فإن الحاجهٔ إلى المغفرهٔ بقاء كالحاجهٔ إليها حدوثا فافهم ذلک، و بذلک يتم شكره لربه تعالى و قد تقدم «١» كلام فى معنى مغفرهٔ الذنب فى الأبحاث السابقهٔ.

و قوله: «إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» تعليل للأمر بالاستغفار لا يخلو من تشويق و تأكيد.

بحث روائى

فى المجمع، عن مقاتل: لما نزلت هذه السورهٔ قرأها «(ص)» على أصحابه- ففرحوا و استبشروا و سمعها العباس فبكى- فقال «(ص)» ما يبكيک يا عم؟ قال: أظن أنه قد

(۱) فی آخر الجزء السادس من الکتاب.

ص:378

نعیت إلیک نفسک یا رسول الله- فقال: إنه لکما تقول فعاش بعدها سنتین- ما رئی بعدها ضاحکا مستبشرا.

أقول: و روی هذا المعنی فی عدة روایات بألفاظ مختلفة و قیل فی وجه دلالتها أن سیاقها یلوح إلی فراغه « (ص)» مما علیه من السعی و المجاهدة و تمام أمره، و عند الکمال یرقب الزوال.

و فیه، عن أم سلمة قالت : کان رسول الله «ص» بالآخرة لا یقوم- و لا یقعد و لا یجی ء و لا یذهب إلا قال : سبحان الله و بحمده استغفر الله و أتوب إلیه- فسألناه عن ذلک فقال: إنی أمرت بها- ثم قرأ «إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِّٰ وَ الْفَتْحُ».

أقول: و فی هذا المعنی غیر واحد من الروایات مع اختلاف ما فیما کان یقوله « (ص)».

و فی العیون، بإسناده إلی الحسین بن خالد قال: قال الرضا (ع) سمعت أبی یحدث عن أبیه (ع): أن أول سورة نزلت «بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ»- و آخر سورة نزلت «إِذا جاءَ نَصْرُ اللّٰهِ».

أقول: لعل المراد به أنها آخر سورة نزلت تامة کما قیل.

و فی المجمع، فی قصة فتح مکة: لما صالح رسول الله ص قریشا عام الحدیبیة- کان فی أشراطهم أنه من أحب- أن یدخل فی عهد رسول الله ص- دخل فیه فدخلت خزاعة فی عقد رسول الله ص- و دخلت بنو بکر فی عقد قریش، و کان بین القبیلتین شر قدیم.

ثم وقعت فیما بعد بین بنی بکر و خزاعة مقاتلة- و رفدت قریش بنی بکر بالسلاح- و قاتل معهم من قریش من قاتل باللیل مستخفیا، و کان ممن أعان بنی بکر علی خزاعة بنفسه- عکرمة بن أبی جهل و سهیل بن عمرو.

فرکب عمرو بن سالم الخزاعی- حتی قدم علی رسول الله ص المدینة- و کان ذلک مما هاج فتح مکة- فوقف علیه و هو فی المسجد بین ظهرانی القوم و قال:

لا هم إنی ناشد «1» محمدا حلف أبینا و أبیه الأتلدا«2»

إن قريشا أخلفوک الموعدا و نقضوا ميثاقک المؤكدا

و قتلونا ركعا و سجدا

(١) الناشد: الطالب و المذكر.

(٢) الأتلد: القديم.

فقال رسول الله ص: حسبک يا عمرو- ثم قام فدخل دار ميمونة و قال: اسكبی لی ماء فجعل يغتسل و هو يقول: لا نصرت إن لم أنصر بنی كعب- و هم رهط عمرو بن سالم- ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعی- فی نفر من خزاعة- حتى قدموا على رسول الله ص- فأخبروه بما أصيب منهم- و مظاهرة قريش بنی بكر عليهم- ثم انصرفوا راجعين إلى مكة- و قد كان (ص) قال للناس: كأنكم بأبی سفيان قد جاء ليشدد العقد- و يزيد فی المدة و سيلقى بديل بن ورقاء- فلقوا أبا سفيان بعسفان- و قد بعثته قريش إلى النبی ص ليشدد العقد.

فلما لقی أبو سفيان بديلا قال: من أين أقبلت يا بديل- قال: سرت فی هذا الساحل و فی بطن هذا الوادی- قال: ما أتيت محمدا؟ قال: لا فلما راح بديل إلى مكة- قال أبو سفيان: لئن كان جاء من المدينة- لقد علف بها النوى- فعمد إلى مبرک ناقته و أخذ من بعرها- ففته فرأى فيها النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم إلى رسول الله «ص» فقال: يا محمد احقن دماء قومک- و أجر بين قريش و زدنا فی المدة- فقال: أ غدرتم يا أبا سفيان؟ قال: لا- فقال:

فنحن على ما كنا عليه فخرج فلقی أبا بكر فقال: أجر بين قريش- قال: ويحک و أحد يجير على رسول الله ص؟ ثم لقی عمر بن الخطاب- فقال له مثل ذلک ثم خرج- فدخل على أم حبيبة فذهب ليجلس على الفراش- فأهوت إلى الفراش فطوته- فقال: يا بنية أ رغبت بهذا الفراش عنی؟ فقالت: نعم هذا فراش رسول الله «ص» ما كنت لتجلس عليه و أنت رجس مشرک.

ثم خرج فدخل على فاطمة (ع)- فقال يا بنت سيد العرب تجيرين بين قريش- و تزيدين فى المدة فتكونين أكرم سيدة فى الناس؟ فقالت: جوارى جوار رسول الله ص. قال: أ تأمرين ابنيک أن يجيرا بين الناس؟ قالت: و الله ما بلغ ابناى أن يجيرا بين الناس- و ما يجير على رسول الله «ص» أحد- فقال: يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت على- فانصحنى فقال على (ع): إنک شيخ قريش- فقم على باب المسجد و أجر بين قريش- ثم الحق بأرضک- قال: و ترى ذلک مغنيا عنى شيئا؟ قال:

لا و الله ما أظن ذلک و لکن لا أجد لک غير ذلک- فقام أبو سفيان فى المسجد فقال: يا أيها الناس إنى قد أجرت بين قريش- ثم رکب بعيره فانطلق.

فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءک؟ فأخبرهم بالقصة فقالوا: و الله إن زاد على بن أبى طالب- على أن لعب بک فما يغنى عنا ما قلت؟ قال: لا و الله ما وجدت غير ذلک.

قال: فأمر رسول الله ص بالجهاز لحرب مکة- و أمر الناس بالتهيئة و قال: اللهم خذ العيون و الأخبار عن قر يش- حتى نبغتها فى بلادها، و کتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش- فأتى رسول الله ص الخبر من السماء- فبعث عليا (ع) و الزبير حتى أخذا کتابه من المرأة- و قد مضت هذه القصة فى سورة الممتحنة.

ثم استخلف رسول الله ص أبا ذر الغفارى- و خرج عامدا إلى مکة لعشر مضين من شهر ر مضان- سنة ثمان فى عشرة آلاف من المسلمين- و نحو من أربعمائة فارس- و لم يتخلف من المهاجرين و الأنصار عنه أحد.

و قد کان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب- و عبد الله بن أمية بن المغيرة- قد لقيا رسول الله ص بنيق العقاب- فيما بين مکة و المدينة- فالتمسا الدخول عليه فلم يأذن لهما- فکلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمک و ابن عمتک و صهرک- قال لا حاجة لى فيهما أما ابن عمى فهتک عرضى، و أما ابن عمتى و صهرى- فهو الذى قال لى بمکة ما قال- فلما خرج الخبر إليهما بذلک- و مع أبى سفيان بنى له قال: و الله ليأذنن لى أ و لآخذن بيد بنى هذا- ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا و جوعا- فلما بلغ ذلک رسول الله ص رق لهما- فأذن لهما فدخلا عليه فأسلما.

فلما نزل رسول الله ص مر الظهران- و قد غمت الأخبار عن قريش- فلا يأتيهم عن رسول الله ص خبر- خرج فى تلک الليلة أبو سفيان بن حرب- و حکيم بن حزام و بديل بن ورقاء- يتجسسون الأخبار و قد قال العباس ليلتئذ: يا سوء صباح قريش- و الله لئن بغتها رسول الله ص فى بلادها- فدخل مکة عنوة أنه لهلاک قريش إلى آخر الدهر- فخرج على بغلة رسول الله ص و قال: أخرج إلى الأراک لعلى أرى خطابا- أو صاحب لبن أو داخلا ى دخل مکة- فيخبرهم بمکان رسول الله ص فيأتونه فيستأمنونه.

قال العباس فوالله إنی لأطوف فی الأراک- ألتمس ما خرجت له- إذ سمعت صوت أبی سفیان- و حکیم بن حزام و بدیل بن ورقاء- و سمعت أبا سفیان یقول: و الله ما رأیت کاللیلة قط نیرانا- فقال بدیل: هذه نیران خزاعة- فقال أبو سفیان: خزاعة الأم من ذلک-

قال: فعرفت صوته فقلت: یا أبا حنظلة یعنی أبا سفیان- فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم- قال: لبیک فداک أبی و أمی ما وراءک؟ فقلت: هذا رسول الله وراءک- قد جاء بما لا قبل لکم به بعشرة آلاف من المسلمین.

قال: فما تأمرنی؟ قلت : ترکب عجز هذه البغلة- فاستأمن لک رسول الله ص- فوالله لئن ظفر بک لیضربن عنقک فردفنی- فخرجت أرکض به بغلة رسول الله ص- فکلما مررت بنار من نیران المسلمین قالوا : هذا عم رسول الله ص علی بغلة رسول الله- حتی مررت بنار عمر بن الخطاب- فقال یعنی عمر : یا أبا سفیان- الحمد لله الذی أمکن منک بغیر عهد و لا عقد- ثم اشتد نحو رسول الله ص- و رکضت البغلة حتی اقتحمت باب القبة- و سبقت عمر بما یسبق به الدابة البطیئة الرجل البطیء.

فدخل عمر فقال: یا رسول الله- هذا أبو سفیان عدو الله- قد أمکن الله منه بغیر عهد و لا عقد- فدعنی أضرب عنقه- فقلت: یا رسول الله إنی قد أجرته- ثم إنی جلست إلی رسول الله ص- و أخذت برأسه و قلت: و الله لا یناجیه الیوم أحد دونی- فلما أکثر فیه عمر قلت: مهلا یا عمر- فوالله ما یصنع هذا الرجل- إلا أنه رجل من آل بنی عبد مناف- و لو کان من عدی بن کعب ما قلت هذا- قال: مهلا یا عباس لإسلامک یوم أسلمت- کان أحب إلی من إسلام الخطاب لو أسلم- فقال (ص): اذهب فقد آمناه حتی تغدو به علی فی الغداة.

قال: فلما أصبح غدوت به علی رسول الله ص- فلما رآه قال: ویحک یا أبا سفیان- أ لم یأن لک أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال: بأبی أنت و أمی ما أوصلک و أکرمک- و أرحمک و أحلمک- و الله لقد ظننت أن لو کان معه إله- لأغنی یوم بدر و یوم أحد- فقال:

ویحک یا أبا سفیان أ لم یأن لک- أن تعلم أنی رسول الله؟ فقال : بأبی أنت و أمی أما هذه فإن فی النفس منها شیئا- قال العباس: فقلت له: ویحک- اشهد بشهادة الحق قبل أن یضرب عنقک فتشهد.

فقال (ص) للعباس: انصرف یا عباس- فاحبسه عند مضیق الوادی حتی یمر علیه جنود الله- قال: فحبسته عند خطم «۱» الجبل بمضیق الوادی- و مر علیه القبائل قبیلة قبیلة و هو یقول: من هؤلاء؟ و أقول: أسلم و جهینة و فلان- حتی مر رسول الله ص فی الکتیبة الخضراء- من المهاجرین و الأنصار فی الحدید- لا یری منهم إلا الحدق- فقال:

---

(۱) خطم الجبل: أنفه.

من هؤلاء يا أبا الفضل؟ قلت : هذا رسول الله فى المهاجرين و الأنصار- فقال: يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيک عظيما، فقلت: ويحک أنها النبوة فقال: نعم إذا.

و جاء حکيم بن حزام و بديل بن ورقاء- رسول الله ص- و أسلما و بايعاه فلما بايعاه بعثهما رسول الله ص- بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام- و قال: من دخل دار أبى سفيان و هى بأعلى مکة فهو آمن، و من دخل دار حکيم و هى بأسفل مکة فهو آمن، و من أغلق بابه و کف يده فهو آمن.

و لما خرج أبو سفيان و حکيم- من عند رسول الله ص عامدين إلى مکة- بعث فى أثرهما الزبير بن العوام- و أمره على خيل المهاجرين- و أمره أن يغرز رايته بأعلى مکة بالحجون- و قال له: لا تبرح حتى آتيک- ثم دخل رسول الله ص مکة و ضربت هناک خيمته، و بعث سعد بن عبادة فى کتيبة الأنصار فى مقدمته، و بعث الخالد بن الوليد فيمن کان أسلم من قضاعة و بنى سليم- و أمره أن يدخل أسفل مکة- و يغرز رايته دون البيوت.

و أمرهم رسول الله ص جميعا- أن يکفوا أيديهم و لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، و أمرهم بقتل أ ربعة نفر عبد الله بن سعد بن أبى سرح- و الحويرث بن نفيل و ابن خطل و مقبس بن ضبابة- و أمرهم بقتل قينتين کانتا تغنيان بهجاء رسول الله ص- و قال: اقتلوهم و إن وجدتموهم متعلقين بأستار الکعبة- فقتل على (ع) الحويرث بن نفيل- و إحدى القينتين و أفلتت الأخرى، و قتل مقيس بن ضبابة فى السوق، و أدرک ابن خطل و هو متعلق بأستار الکعبة- فاستبق إليه سعيد بن حريث و عمار بن ياسر- فسبق سعيد عمارا فقتله.

قال: و سعى أبو سفيان إلى رسول الله ص- و أخذ غرزه أى رکابه فقبله ثم قال:

بأبى أنت و أمى أ ما تسمع ما يقول سعد إنه يقول:

اليوم يوم الملحمة	اليوم تسبى الحرمة

فقال (ص) لعلى (ع): أدرکه و خذ الراية منه- و کن أنت الذى يدخل بها- و أدخلها إدخالا رفيقا- فأخذها على (ع) و أدخلها کما أمر.

و لما دخل رسول الله ص مکة- دخل صناديد قريش الکعبة- و هم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم- و أتى رسول الله ص و وقف قائما على باب الکعبة- فقال: لا إله إلا الله وحده وحده- أنجز وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده- ألا إن کل مال أو مأثرة و دم يدعى- فهو تحت قدمى هاتين- إلا سدانة الکعبة و سقاية الحاج- فإنهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إن

مكة محرمة بتحريم الله- لم تحل لأحد كان قبلى و لم تحل لى إلا ساعة من نهار- و هى محرمة إلى أن تقوم الساعة لا يختلى خلاها، و لا يقطع شجرها و لا ينفر صيدها، و لا تحل لقطتها إلا لمنشد.

ثم قال : ألا لبئس جيران النبى- كنتم لقد كذبتم و طردتم و أخرجتم و آذيتم- ثم ما رضيتم حتى جئتمونى فى بلادى تقاتلوننى- فاذهبوا فأنتم الطلقاء فخرج القوم- فكأنما أنشروا من القبور و دخلوا فى الإسلام، و كان الله سبحانه أمكنه من رقابهم عنوة- فكانوا له فيئا فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء.

و جاء ابن الزبعرى إلى رسول الله ص و أسلم و قال:

يا رسول الإله إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور«1»

إذ أبارى «2» الشيطان فى سنن«3» الغى و من مال ميله مثبور

آمن اللحم و العظام لربى ثم نفسى الشهيد أنت النذير

قال: و عن ابن مسعود قال : دخل النبى ص يوم الفتح- و حول البيت ثلاثمائة و ستون صنما- فجعل يطعنها بعود فى يده و يقول: «جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ- إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً».

و عن ابن عباس قال : لما قدم النبى ص إلى مكة- أبى أن يدخل البيت و فيه الآلهة- فأمر بها فأخرجت و صورة إبراهيم و إسماعيل (ع)- و فى أيديهما الأزلام- فقال (ص) قاتلهم الله أما و الله- لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط.

أقول: و الروايات حول قصة الفتح كثيرة من أراد استقصاءها فعليه بكتب السير و جوامع الأخبار و ما تقدم كالملخص منها .

(١١١) سورة تبت مكية و هى خمس آيات (۵)

[سورة المسد (١١١): الآيات ١ الى ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ (۱) ما أَغْنی عَنْهُ مالُهُ وَ ما کَسَبَ (۲) سَیَصْلی ناراً ذاتَ لَهَبٍ (۳) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (۴)

فِی جِیدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (۵)

---

(۱) البور: الهالک.

(۲) المباراة: المباهاة.

(۳) السنن: وسط الطریق.

ص:384

بيان

وعيد شديد لأبی لهب بهلاک نفسه و عمله و بنار جهنم و لامرأته، و السورة مكية.

قوله تعالى: «تَبَّتْ يَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ » التب و التباب هو الخسران و الهلاک على ما ذكره الجوهری، و دوام الخسران على ما ذكره الراغب، و قيل: الخيبة، و قيل الخلو من كل خير و المعانی- كما قيل- متقاربة فيد الإنسان هی عضوه الذی يتوصل به إلى تحصيل مقاصده و ينسب إليه جل أعماله، و تباب يديه خسرانهما فيما تكتسبانه من عم ل و إن شئت فقل : بطلان أعماله التی يعملها بهما من حيث عدم انتهائها إلى غرض مطلوب و عدم انتفاعه بشی ء منها و تباب نفسه خسرانها فی نفسها بحرمانها من سعادة دائمة و هو هلاكها المؤبد.

فقوله: «تَبَّتْ يَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ » أی أبو لهب، دعاء عليه بهلاک نفسه و بطلان ما كان يأتيه من الأعمال لإطفاء نور النبوة أو قضاء منه تعالى بذلک.

و أبو لهب هذا هو أبو لهب بن عبد المطلب عم النبی ص كان شديد المعاداة للنبی ص مصرا فی تكذيبه مبالغا فی إيذائه بما يستطيعه من قول و فعل و هو الذی قال للنبی ص : تبا لک لما دعاهم إلى الإسلا م لأول مرة فنزلت السورة و رد الله التباب عليه.

و ذكر بعضهم أن أبا لهب اسمه و إن كان فی صورة الكنية، و قيل : اسمه عبد العزى و قيل: عبد مناف و أحسن ما قيل فی ذكره فی الآية بكنيته لا باسمه إن فی ذلک تهكما به لأن أبا لهب يشعر بالنسبة إلى لهب النار كما يقال أبو الخير و أبو الفضل و أبو الشر فی النسبة إلى الخير و الفضل و الشر فلما قيل : «سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ» فهم منه أن قوله: «تَبَّتْ يَدا أَبِی لَهَبٍ» فی معنى قولنا: تبت يدا جهنمی يلازم لهبها.

و قيل: لم يذكر باسمه و هو عبد العزى لأن عزى اسم صنم فكره أن يعد بحسب اللفظ عبدا لغير الله و هو عبد الله و إن كان الاسم إنما يقصد به المسمى.

قوله تعالى: «ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ» ما الأولى نافية و ما الثانية موصولة

ص:385

و معنى «ما كَسَبَ» الذى كسبه بأعماله و هو أثر أعماله أو مصدرية و المعنى كسبه بيديه و هو عمله، و المعنى ما أغنى عنه عمله.

و معنى الآية على أى حال لم يدفع عنه ماله و لا عمله- أو أثر عمله- تباب نفسه و يديه الذى كتب عليه أو دعى عليه.

قوله تعالى: «سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ» أى سيدخل نارا ذات لهب و هى نار جهنم الخالدة، و فى تنكير لهب تفخيم له و تهويل.

قوله تعالى: «وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » عطف على ضمير الفاعل المستكن فى «سَيَصْلى» و التقدير: و ستصلى امرأته إلخ و «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» بالنصب وصف مقطوع عن الوصفية للذم أى أذم حمالة الحطب، و قيل : حال من «امْرَأَتُهُ» و هو معنى لطيف على ما سيأتى.

قوله تعالى: «فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ» المسد حبل مفتول من الليف، و الجملة حال ثانية من امرأته.

و الظاهر أن المراد بالآيتين أنها ستتمثل فى النار التى تصلاها يوم القيامة فى هيئتها التى كانت تتلبس بها فى الدنيا و هى أنها كانت تحمل أغصان الشوك و غيرها تطرحها بالليل فى طريق رسول الله ص تؤذيه بذلک فتعذب بالنار و هى تحمل الحطب و فى جيدها حبل من مسد.

قال فى مجمع البيان،: و إذا قيل: هل كان يلزم أبا لهب الإيمان بعد هذه السورة و هل كان يقدر على الإيمان و لو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله سبحانه بأنه سيصلى نارا ذات لهب.

فالجواب أن الإيمان يلزمه لأن تكليف الإيمان ثابت عليه و إنما توعده الله بشرط أن لا يؤمن انتهى موضع الحاجة.

أقول: مبنى الإشكال على الغفلة من أن تعلق القضاء الحتمى منه تعالى بفعل الإنسان الاختيارى لا يستوجب بطلان الاختيار و اضطرار الإنسان على الفعل فإن الإرادة الإلهية- و كذا فعله تعالى- إنما يتعلق بفعله الاختيارى على ما هو عليه أى إن يفعل الإنسان باختياره كذا و كذا فلو لم يقع الفعل اختيارا تخلف مراده تعالى عن إرادته و هو محال و إذا كان الفعل المتعلق للقضاء الموجب اختياريا كان تركه أيضا اختياريا و إن كان لا يقع فافهم و قد تقدم هذا البحث فى غير موضع من المباحث السابقة.

ص:386

فقد ظهر بذلک أن أبا لهب کان فی اختیاره أن یؤمن و ینجو بذلک عن النار التی کان من المقضی المحتوم أن یدخلها بکفره.

و من هذا الباب الآیات النازلهٔ فی کفار قریش أنهم لا یؤمنون کقوله : «إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا یُؤْمِنُونَ»: البقرهٔ: ۶، و قوله : «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلی أَکْثَرِهِمْ فَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ »: یس: ۷، و من هذا الباب أیضا آیات الطبع علی القلوب.

بحث روائی

فی المجمع،": فی قوله تعالی: «وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ» عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآیهٔ صعد رسول الله ص الصفا- فقال: یا صباحاه فاجتمعت إلیه قریش فقالوا:

ما لک؟ فقال: أ رأیتکم إن أخبرتکم أن العدو مصبحکم و ممسیکم- ما کنتم تصدقوننی؟

قالوا: بلی. قال: فإنی نذیر لکم بین یدی عذاب شدید- قال أبو لهب: تبا لک أ لهذا دعوتنا جمیعا؟ فأنزل الله عز و جل «تَبَّتْ یَدا أَبِی لَهَبٍ».

أقول: و رواه أیضا فی تفسیر السورهٔ عن سعید بن جبیر عن ابن عباس "* و لم یذکر فیه کون الدعوهٔ عند نزول آیهٔ «وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ» الآیهٔ.

و فیه، أیضا عن طارق المحاربی قال : بینما أنا بسوق ذی المجاز إذا أنا بشاب- یقول أیها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، و إذا برجل خلفه یرمیه قد أدمی ساقیه و عرقوبیه- و یقول: یا أیها الناس إنه کذاب فلا تصدقوه- فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد یزعم أنه نبی- و هذا عمه أبو لهب یزعم أنه کذاب.

و فی قرب الإسناد، بإسناده إلی موسی بن جعفر (ع) فی حدیث طویل یذکر فیه آیات النبی ص قال : من ذلک أن أم جمیل امرأهٔ أبی لهب- أتته حین نزلت سورهٔ تبت- و مع النبی ص أبو بکر بن أبی قحافهٔ- فقال: یا رسول الله هذه أم جمیل محفظهٔ- أی مغضبهٔ تریدک و معها حجر ترید أن ترمیک به- فقال (ص): إنها لا ترانی- فقالت لأبی بکر: أین صاحبک؟ قال: حیث شاء الله- قالت: جئته و لو أراه لرمیته- فإنه هجانی و اللات و العزی إنی لشاعرهٔ- فقال أبو بکر: یا رسول الله لم ترک؟ قال (ص):

لا. ضرب الله بینی و بینها حجابا.

أقول: و روی ما یقرب منه بغیر واحد من طرق أهل السنهٔ.

و فی تفسیر القمی، ": فی قوله تعالی : «وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَهَ الْحَطَبِ » قال: کانت أم جمیل بنت صخر- و کانت تنم علی رسول الله ص و تنقل أحادیثه إلی الکفار.

(۱۱۲) سورة الإخلاص مكية و هى أربع آيات (۴)

[سورة الإخلاص (۱۱۲): الآيات ۱ الى ۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (۱) اللَّهُ الصَّمَدُ (۲) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (۳) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (۴)

بيان

السورة تصفه تعالى بأحدية الذات و رجوع ما سواه إليه فى جميع حوائجه الوجودية من دون أن يشاركه شى ء لا فى ذاته و لا فى صفاته و لا فى أفعاله، و هو التوحيد القرآنى الذى يختص به القرآن الكريم و يبنى عليه جميع المعارف الإسلامية.

و قد تكاثرت الأخبار فى فضل السورة حتى ورد من طرق الفريقين أنها تعدل ثلث القرآن كما سيجىء إن شاء الله.

و السورة تحتمل المكية و المدنية، و الظاهر من بعض ما ورد فى سبب نزولها أنها مكية.

قوله تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» هو ضمير الشأن و القصة يفيد الاهتمام بمضمون الجملة التالية له، و الحق أن لفظ ال جلالة علم بالغلبة له تعالى بالعربية كما أن له فى غيرها من اللغات اسما خاصا به، و قد تقدم بعض الكلام فيه فى تفسير سورة الفاتحة.

و أحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجا و لا ذهنا و لذلک لا يقبل العد و لا يدخل فى العدد بخلاف الواحد فإن كل واحد له ثانيا و ثالثا إما خارجا و إما ذهنا بتوهم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيرا، و أما الأحد فكل ما فرض له ثانيا كان هو هو لم يزد عليه شىء.

و اعتبر ذلک فى قولک: ما جاءنى من القوم أحد فإنک تنفى به مجىء اثنين منهم و أكثر كما تنفى مجىء واحد منهم بخلاف ما لو قلت: ما جاءنى واحد منهم فإنک إنما تنفى به مجى ء واحد منهم بالعدد و لا ينافيه مجى ء اثنين منهم أو أكثر، و لإفادته هذا المعنى لا يستعمل فى الإيجاب مطلقا إلا فيه تعالى و من لطيف البيان فى هذا الباب قول

على عليه أفضل السلام فى بعض خطبه فى توحيده تعالى : كل مسمى بالوحدة غيره قليل، و قد أوردنا طرفا من كلامه (ع) فى التوحيد فى ذيل البحث عن توحيد القرآن فى الجزء السادس من الكتاب.

قوله تعالى: «اللَّهُ الصَّمَدُ» الأصل فى معنى الصمد القصد أو القصد مع الاعتماد يقال:

صمده يصمده صمدا من باب نصر أى قصده أو قصده معتمدا عليه، و قد فسروا الصمد- و هو صفة- بمعانى متعددة مرجع أكثرها إلى أنه السيد المصمود إليه أى المقصود فى الحوائج، و إذا أطلق فى الآية و لم يقيد بقيد فهو المقصود فى الحوائج على الإطلاق.

و إذا كان الله تعالى هو الموج د لكل ذى وجود مما سواه يحتاج إليه فيقصده كل ما صدق عليه أنه شى ء غيره، فى ذاته و صفاته و آثاره قال تعالى : «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ »: الأعراف: ۵۴ و قال و أطلق : «وَ أَنَّ إِلى رَبِّکَ الْمُنْتَهى»: النجم: ۴۲ فهو الصمد فى كل حاجة فى الوجود لا يقصد شيئا إلا و هو الذى ينتهى إليه قصده و ينجح به طلبته و يقضى به حاجته.

و من هنا يظهر وجه دخول اللام فى الصمد و أنه لإفادة الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الإطلاق، و هذا بخلاف أحد فى قوله «اللَّهُ أَحَدٌ» فإن أحدا بما يفيده من معنى الوحدة الخاصة لا يطلق فى الإثبات على غيره تعالى فلا حاجة فيه إلى عهد أو حصر.

و أما إظهار اسم الجلالة ثانيا حيث قيل : «اللَّهُ الصَّمَدُ» و لم يقل: هو الصمد، و لم يقل: الله أحد صمد فالظاهر أن ذلک للإشارة إلى كون كل من الجملتين وحدها كافية فى تعريفه تعالى حيث إن المقام مقام تعريفه تعالى بصفة تختص به فقيل : الله أحد الله الصمد إشارة إلى أن المعرفة به حاصلة سواء قيل كذا أو قيل كذا.

و الآيتان مع ذلک تصفانه تعالى بصفة الذات و صفة الفعل جميعا فقوله : «اللَّهُ أَحَدٌ» يصفه بالأحدية التى هى عين الذات، و قوله: «اللَّهُ الصَّمَدُ» يصفه بانتهاء كل شىء إليه و هو من صفات الفعل.

و قيل: الصمد بمعنى المصمت الذى ليس بأجوف فلا يأكل و لا يشرب و لا ينام و لا يلد و لا يولد و على هذا يكون قوله : «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ» تفسيرا للصمد.

قوله تعالى: «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ» الآيتان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيئا بتجزيه فى نفسه فينفصل عنه شىء سنخه بأى معنى أريد من الانفصال

ص:389

و الاشتقاق كما يقول به النصارى فى المسيح (ع) إنه ابن الله و كما يقول الوثنية فى بعض آلهتهم أنهم أبناء الله سبحانه.

و تنفيان عنه أن يكون متولدا من شى ء آخر و مشتقا منه بأى معنى أريد من الاشتقاق كما يقول الوثنية ففى آلهتهم من هو إله أبو إله و من هو آلهة أم إله و من هو إله ابن إله.

و تنفيان أن يكون له كفؤ يعدله فى ذاته أو فى فعله «۱» و هو الإيجاد و التدبير و لم يقل أحد من المليين و غ يرهم بالكفؤ الذاتى بأن يقول بتعدد واجب الوجود عز اسمه، و أما الكفؤ فى فعله و هو التدبير فقد قيل به كآلهة الوثنية من البشر كفرعون و

نمرود من المدعين للألوهية و ملاک الکفاءة عندهم استقلال من یرون ألوهیته فی تدبیر ما فوض إلیه تدبیره کما أنه تعالی مستقل فی تدبیر من یدبره و هم الأرباب و الآلهة و هو رب الأرباب و إله الآلهة.

و فی معنی کفاءة هذا النوع من الإله ما یفرض من استقلال الفعل فی شی ء من الممکنات فإنه کفاءة مرجعها استغناؤه عنه تعالی و هو محتاج من کل جهة و الآیة تنفیها.

و هذه الصفات الثلاث المنفیة و إن أمکن تفریع نفیها علی صفة أحدیته تعالی بوجه لکن الأسبق إلی الذهن تفرعها علی صفة صمدیته.

أما کونه لم یلد فإن الولادة التی هی نوع من التجزی و التبعض بأی معنی فسرت لا تخلو من ترکیب فیمن یلد، و حاجة المرکب إلی أجزائه ضروریة و الله سبحانه صمد ینتهی إلیه کل محتاج فی حاجته و لا حاجة له، و أما کونه لم یولد فإن تولد شیء من شیء لا یتم إلا مع حاجة من المتولد إلی ما ولد منه فی وجوده و هو سبحانه صمد لا حاجة له، و أما أنه لا کفؤ له فلأن الکفؤ سواء فرض کفوا له فی ذاته أو فی فعله لا تتحقق کفاءته إلا مع استقلاله و استغنائه عنه تعالی فیما فیه الکفاءة و الله سبحانه صمد علی الإطلاق یحتاج إلیه کل من سواه من کل جهة مفروضة.

فقد تبین أن ما فی الآیتین من النفی متفرع علی صمدیته تعالی و مآل ما ذکر من صمدیته تعالی و ما یتفرع علیه إلی إثبات توحده تعالی فی ذاته و صفاته و أفعاله بمعنی أنه واحد لا یناظره شیء و لا یشبهه فذاته تعالی بذاته و لذاته من غیر استناد إلی غیره و احتیاج إلی من سواه و کذا صفاته و أفعاله، و ذوات من سواه و صفاتهم و أفعالهم بإفاضة منه علی ما یلیق بساحة کبریائه و عظمته فمحصل السورة وصفه تعالی بأنه أحد واحد.

---

(۱) لم نذکر الصفة لأنها إما صفة الذات فهی عین الذات و إما صفة الفعل منتزعة عن الفعل، منه.

و مما قیل فی الآیة إن المراد بالکفؤ الزوجة فإن زوجة الرجل کفؤه فیکون فی معنی قوله : «تَعالی جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً» و هو کما تری.

بحث روائی

فی الکافی، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبی عبد الله (ع) قال: إن الیهود سألوا رسول الله ص فقالوا: انسب لنا ربک فلبث ثلاثا لا یجیبهم- ثم نزلت «قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ» إلی آخرها.

أقول: و فی الاحتجاج، عن العسکری (ع): إن السائل عبد الله بن صوریا الیهودی

، و فی بعض روایات أهل السنة ": أن السائل عبد الله بن سلام سأله (ص) ذلک بمکة- ثم آمن و کتم إیمانه، و فی بعضها أن أناسا من الیهود سألوه ذلک، و فی غیر واحد من روایاتهم": أن مشرکی مکة سألوه ذلک

، و کیف کان فالمراد بالنسبة النعت و الوصف.

و فی المعانی، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة عن علی (ع) فی حدیث*: نسبة الله عز و جل قل هو الله.

و فی العلل، بإسناده عن الصادق (ع) فی حدیث المعراج: أن الله قال له أی للنبی ص:

اقرأ قل هو الله أحد کما أنزلت- فإنها نسبتی و نعتی.

أقول: و روی أیضا بإسناده إلی موسی بن جعفر (ع) ما فی معناه.

و فی الدر المنثور، أخرج أبو عبید فی فضائله عن ابن عباس عن النبی ص قال* قل هو الله أحد ثلث القرآن.

أقول: و قد تکاثرت الروایات من طرقهم فی هذا المعنی رووه عن عدة من الصحابة کابن عباس و قد مر و أبی الدرداء و ابن عمر و جابر و ابن مسعود و أبی سعید الخدری و معاذ بن أنس و أبی أیوب و أبی أمامة و غیرهم عن النبی ص، و ورد أیضا فی عدة من الروایات عن أئمة أهل البیت (ع)، و قد وجهوا کون السورة تعدل ثلث القرآن بوجوه مختلفة أعدلها أن ما فی القرآن من المعارف تنحل إلی الأصول الثلاثة: التوحید و النبوة و المعاد و السورة تتضمن واحدا من الثلاثة و هو التوحید.

و فی التوحید، عن أمیر المؤمنین (ع): رأیت الخضر (ع) فی المنام قبل بدر بلیلة- فقلت له: علمنی شیئا أنصر به علی الأعداء- فقال: قل: یا هو یا من لا هو إلا هو- فلما أصبحت قصصتها علی رسول الله ص- فقال لی: یا علی علمت الاسم الأعظم- فکان علی

لسانی یوم بدر.

و إن أمیر المؤمنین (ع) قرأ قل هو الله أحد- فلما فرغ قال: یا هو یا من لا هو إلا هو- اغفر لی و انصرنی علی القوم الکافرین.

و فی نهج البلاغة،: الأحد لا بتأویل عدد.

أقول: و رواه فی التوحید، عن الرضا (ع) و لفظه: أحد لا بتأویل عدد.

و فی أصول الکافی، بإسناده عن داود بن القاسم الجعفری قال *: قلت لأبی جعفر الثانی (ع): ما الصمد؟ قال (ع): السید المصمود إلیه فی القلیل و الکثیر.

أقول: و فى تفسير الصمد معان أخر مروية عنهم (ع)

فعن الباقر (ع): الصمد السيد المطاع الذى ليس فوقه آمر و ناه

، و عن الحسين (ع): الصمد الذى لا جوف له و الصمد الذى لا ينام، و الصمد الذى لم يزل و لا يزال

، و عن السجاد (ع): الصمد الذى إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون، و الصمد الذى أبدع الأشياء- فخلقها أضدادا و أشكالا و أزواجا- و تفرد بالوحدة بلا ضد و لا شكل و لا مثل و لا ند.

و الأصل فى معنى الصمد هو الذى رويناه عن أبى جعفر الثانى (ع) لما فى مادته لغة فى معنى القصد فالمعانى المختلفة المنقولة عنهم (ع) من التفسير يلازم المعنى فإن المعانى المذكورة لوازم كونه تعالى مقصودا يرجع إل يه كل شى ء فى كل حاجة فإليه ينتهى الكل من دون أن تتحقق فيه حاجة.

و فى التوحيد، عن وهب بن وهب القرشى عن الصادق عن آبائه (ع)* أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن على (ع)- يسألونه عن الصمد فكتب إليهم: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد- فلا تخوضوا فى القرآن و لا تجادلوا فيه- و لا تتكلموا فيه بغير علم- فقد سمعت جدى رسول الله ص يقول : من قال فى القرآن بغير علم- فليتبوأ مقعده من النار، و إن الله سبحانه فسر الصمد فقال : الله أحد الله الصمد ثم فسره فقال: لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد.

و فيه، بإسناده إلى ابن أبى عمير عن موسى بن جعفر (ع) أنه قال*: و اعلم أن الله تعالى واحد أحد صمد- لم يلد فيورث و لم يولد فيشارك.

و فيه، فى خطبة أخرى لعلى (ع): الذى لم يولد فيكون فى العز مشاركا- و لم يلد فيكون موروثا هالكا.

ص:392

و فيه، فى خطبة له (ع): تعالى أن يكون له كفؤ فيشبه به.

أقول: و فى المعانى المتقدمة روايات أخرى.

(١١٣) سورة الفلق مكية و هى خمس آيات (٥)

[سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (٢) وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (٣) وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (۴)

وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (۵)

بيان

أمر للنبى ص أن يعوذ بالله من كل شر و من بعضه خاصة و السورة مدنية على ما يظهر مما ورد فى سبب نزولها.

قوله تعالى: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» العوذ هو الاعتصام و التحرز من الشر بالالتجاء إلى من يدفعه، و الفلق بالفتح فالسكون الشق و الفرق، و الفلق بفتحتين صفة مشبهة بمعنى المفعول كالقصص بمعنى المقصوص، و الغالب إطلاقه على الصبح لأنه المشقوق من الظلام، و عليه فالمعنى أعوذ برب الصبح الذى يفلقه و يشقه و مناسبة هذا التعبير للعوذ من الشر الذى يستر الخير و يحجب دونه ظاهر.

و قيل: المراد بالفلق كل ما يفطر و يفلق عنه بالخلق و الإيجاد فإن فى الخلق و الإيجاد شقا للعدم و إخراجا للموجود إلى الوجود فيكون مساويا للمخلوق، و قيل هو جب فى جهنم و يؤيده بعض الروايات.

قوله تعالى: «مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ» أى من شر من يحمل شرا من الإنس و الجن و الحيوانات و سائر ما له شر من الخلق فإن اشتمال مطلق ما خلق على الشر لا يستلزم الاستغراق.

قوله تعالى: «وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ» فى الصحاح،: الغسق أول ظلمة الليل و قد غسق الليل يغسق إذا أظلم و الغاسق الليل إذا غاب الشفق. انتهى، و الوقوب الدخول فالمعنى و من شر الليل إذا دخل بظلمته . و نسبة الشر إلى الليل إنما هى لكونه بظلمته يعين

ص:393

الشرير فى شره لستره عليه فيقع فيه الشر أكثر مما يقع منه بالنهار، و الإنسان فيه أضعف منه فى النهار تجاه هاجم الشر، و قيل: المراد بالغاسق كل هاجم يهجم بشره كائنا ما كان.

و ذكر شر الليل إذا دخل بعد ذكر شر ما خلق من ذكر الخاص بعد العام لزيادة الاهتمام و قد اهتم فى السورة بثلاثة من أنواع الشر خاصة هى شر الليل إذا دخل و شر سحر السحرة و شر الحاسد إذا حسد لغلبة الغفلة فيهن.

قوله تعالى: «وَ مِنْ شَرِّ النَّفّاثاتِ فِي الْعُقَدِ» أى النساء الساحرات اللاتى يسحرن بالعقد على المسحور و ينفثن فى العقد . و خصت النساء بالذكر لأن السحر كان فيهن و منهم أكثر من الرجال، و فى الآية تصديق لتأثير السحر فى الجملة، و نظيرها قوله تعالى: فى قصة هاروت و ماروت «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ»: البقرة: ۱۰۲ و نظيره ما فى قصة سحرة فرعون.

و قیل: المراد بالنفاثات فی العقد النساء اللاتی یملن آراء أزواجهن إلی ما یرینه و یردنه فالعقد هو الرأی و النفث فی العقد کنایهٔ عن حله، و هو بعید.

قوله تعالی: «وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ» أی إذا تلبس بالحسد و عمل بما فی نفسه من الحسد بترتیب الأثر علیه.

و قیل: الآیهٔ تشمل العائن فعین العائن نوع حسد نفسانی یتحقق منه إذا عاین ما یستکثره و یتعجب منه.

بحث روائی

فی الدر المنثور، أخرج عبد بن حمید عن زید بن أسلم قال ❊: سحر النبی ص رجل من الیهود فاشتکی- فأتاه جبریل فنزل علیه بالمعوذتین و قال : إن رجلا من الیهود سحرک و السحر فی بئر فلان- فأرسل علیا فجاء به فأمره أن یحل العقد و یقرأ آیهٔ- فجعل یقرأ و یحل حتی قام النبی ص کأنما نشط من عقال:.

أقول: و عن کتاب طب الأئمهٔ، بإسناده إلی محمد بن سنان عن المفضل عن الصادق (ع): مثله

و فی هذا المعنی روایات کثیرهٔ من طرق أهل السنهٔ باختلاف یسیرهٔ، و فی غیر واحد منها أنه أرسل مع علی (ع) زبیرا و عمارا و فیه روایات أخری أیضا من طرق أئمهٔ أهل البیت (ع).

و ما استشکل به بعضهم فی مضمون الروایات أن النبی ص کان مصونا من تأثیر السحر کیف؟ و قد قال الله تعالی : «وَ قالَ الظّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلًا مَسْحُوراً انْظُرْ

ص:394

کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلًا»: الفرقان: ٩.

یدفعه أن مرادهم بالمسحور و المجنون بفساد العقل بالسحر و أما تأثره عن السحر بمرض یصیبه فی بدنه و نحوه فلا دلیل علی مصونیته منه.

و فی المجمع، و روی: أن النبی ص کان کثیرا ما- یعوذ الحسن و الحسین (ع) بهاتین السورتین.

و فیه، عن عقبهٔ بن عامر قال: قال رسول الله ص: أنزلت علی آیات لم ینزل مثلهن المعوذتان:، أورده فی الصحیح.

أقول: و أسندها فی الدر المنثور، إلی الترمذی و النسائی و غیرهما أیضا، و روی ما فی معناه أیضا عن الطبرانی فی الأوسط عن ابن مسعود، و لعل المراد من عدم نزول مثلهن أنهما فی العوذهٔ فقط و لا یشارکهما فی ذلک غیرهما من السور.

و فی الدر المنثور، أخرج أحمد و البزار و الطبرانی و ابن مردویه من طرق صحیحة عن ابن عباس و ابن مسعود "* أنه کان یحک المعوذتین من المصحف و یقول: لا تخلطوا القرآن بما لیس منه- إنهما لیستا من کتاب الله- إنما أمر النبی أن یتعوذ بهما، و کان ابن مسعود لا یقرأ بهما.

أقول: ثم قال السیوطی قال البزار: و لم یتابع ابن مسعود أحد من الصحابة و قد صح عن النبی ص أنه قرأ بهما فی الصلاة و قد أثبتنا فی المصحف انتهی.

و فی تفسیر القمی، بإسناده عن أبی بکر الحضرمی قال *: قلت لأبی جعفر (ع)- إن ابن مسعود کان یمحو المعوذتین من المصحف. فقال: کان أبی یقول: إنما فعل ذلک ابن مسعود برأیه- و هو [هماظ] من القرآن.

أقول: و فی هذا المعنی روایات کثیرة من طرق الفریقین علی أن هناک تواترا قطعیا من عامة المنتحلین بالإسلام علی کونهما من القرآن، و قد استشکل بعض المنکرین لإعجاز القرآن أنه لو کان معجزا فی بلاغته لم یختلف فی کون السورتین من القرآن مثل ابن مسعود، و أجیب بأن التواتر القطعی کاف فی ذلک علی أنه ل م ینقل عنه أحد أنه قال بعدم نزولهما علی النبی ص أو قال بعدم کونهما معجزتین فی بلاغتهما بل قال بعدم کونهما جزء من القرآن و هو محجوج بالتواتر.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن جریر عن أبی هریرة عن النبی ص قال*: الفلق جب فی جهنم مغطی.

أقول: و فی معناه غیر واحد من الروایات

فی بعضها: قال (ص): باب فی النار إذ

ص:395

فتح سعرت جهنم: رواه عقبة بن عامر

، و فی بعضها: بئر فی جهنم إذا سعرت جهنم فمنه تسعر:، رواه عمرو بن عنبسة إلی غیر ذلک.

و فی المجمع، و قیل ": الفلق جب فی جهنم- یتعوذ أهل جهنم من شدة حره ": عن السدی و رواه أبو حمزة الثمالی و علی بن إبراهیم فی تفسیرهما.

و فی تفسیر القمی، عن أبیه عن النوفلی عن السکونی عن أبی عبد الله (ع) قال*: قال رسول الله ص: کاد الفقر أن یکون کفرا- و کاد الحسد أن یغلب القدر:.

أقول: الروایة مرویة بلفظها عن أنس عنه (ص).

و فی العیون، بإسناده عن السلطی عن الرضا عن أبیه عن آبائه عن النبی ص قال*: کاد الحسد أن یسبق القدر.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبة عن أنس قال*: قال رسول الله ص: إن الحسد ليأكل الحسنات كما يأكل النار الحطب.

(١١۴) سورة الناس مدنية و هى ست آيات (۶)

[سورة الناس (١١۴): الآيات ١ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (۴)

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (۵) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (۶)

بيان

أمر للنبى ص أن يعوذ بالله من شر الوسواس الخناس و السورة مدنية كسابقتها على ما يستفاد مما ورد فى سبب نزولها بل المستفاد من الروايات أن السورتين نزلتا معا.

قوله تعالى: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلهِ النَّاسِ » من طبع الإنسان إذا أقبل عليه شر يحذره و يخافه على نفسه و أحسن من نفسه الضعف أن يلتجئ بمن يقوى على دفعه و يكفيه وقوعه و الذى يراه صالحا للعوذ و الاعتصام به أحد ثلاثة إما رب يلى أمره و يدبره و يربيه يرجع إليه فى حوائجه عامة، و مما يحتاج إليه فى بقائه دفع ما يهدده من

الشر، و هذا سبب تام فى نفسه، و إما ذو قوة و سلطان بالغة قدرته نافذ حكمه يجيره إذا استجاره فيدفع عنه الشر بسلطته كملك من الملوك، و هذا أيضا سبب تام مستقل فى نفسه.

و هناک سبب ثالث و هو الإله المعبود فإن لازم معبودية الإله و خاصة إذا كان واحدا لا شريک له إخلاص العبد نفسه له فلا يدعو إلا إياه و لا يرجع فى شىء من حوائجه إلا إليه فلا يريد إلا ما أراده و لا يعمل إلا ما يشاؤه.

و الله سبحانه رب الناس و ملک الناس و إله الناس كما جمع الصفات الثلاث لنفسه فى قوله : «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ»: الزمر: ۶ و أشار تعالى إلى سببية ربوبيته و ألوهيته بقوله : «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» المزمل: ٩، و إلى سببية ملكه بقوله: «لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ»: الحديد: ۵ فإن عاذ الإنسان من شر يهدده إلى رب فالله سبحانه هو الرب لا رب سواه و إن أراد بعوذه ملكا فالله سبحانه هو الملک الحق له الملک و له الحكم «١» و إن أراد لذلک إلها فهو الإله لا إله غيره.

فقوله تعالى: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » إلخ أمر لنبيه (ص) أن يعوذ به لأنه من الناس و هو تعالى رب الناس ملک الناس إله الناس.

و مما تقدم ظهر أولا وجه تخصيص الصفات الثلاث : الرب و الملک و الإله من بين سائر صفاته الکريمة بالذکر و کذا وجه ما بينها من الترتيب فذکر الرب أولا لأنه أقرب من الإنسان و أخص ولاية ثم الملک لأنه أبعد منالا و أعم ولاية يقصده من لا ولی له يخصه و يکفيه ثم الإله لأنه ولی يقصده الإنسان عن إخلاصه لا عن طبعه المادی.

و ثانيا وجه عدم وصل قوله : «مَلِکِ النَّاسِ إِلهِ النَّاسِ» بالعطف و ذلک للإشارة إلی کون کل من الصفات سببا مستقلا فی دفع الشر فهو تعالی سبب مستقل لکونه ربا لکونه ملکا لکونه إلها فله السببية بأی معنی أريد السبب و قد مر نظير الوجه فی قوله «اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ».

و بذلک يظهر أيضا وجه تکرار لفظ الناس من غير أن يقال : ربهم و إلههم فقد أشير به إلی أن کلا من الصفات الثلاث يمکن أن يتعلق بها العوذ وحدها من غير ذکر الأخريين لاستقلالها و لله الأسماء الحسنی جميعا، و للقوم فی توجيه اختصاص هذه الصفات

---

(۱) التغابن: ۱.

ص:397

و سائر ما مر من الخصوصيات وجوه لا تغنی شيئا.

قوله تعالى: «مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ» قال فی المجمع، : الوسواس حديث النفس بما هو کالصوت الخفی انتهی فهو مصدر کالوسوسة کما ذکره و ذکروا أنه سماعی و القياس فيه کسر الواو کسائر المصادر من الرباعی المجرد و کيف کان فالظاهر کما استظهر أن المراد به المعنی الوصفی مبالغة، و عن بعضهم أنه صفة لا مصدر.

و الخناس صيغة مبالغة من ا لخنوس بمعنی الاختفاء بعد الظهور قيل : سمی الشيطان خناسا لأنه يوسوس للإنسان فإذا ذکر الله تعالی رجع و تأخر ثم إذا غفل عاد إلی وسوسته.

قوله تعالى: «الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » صفة للوسواس الخناس، و المراد بالصدور هی النفوس لأن متعلق الوسوسة هو مبدأ الإدراک من الإنسان و هو نفسه و إنما أخذت الصدور مکانا للوسواس لما أن الإدراک ينسب بحسب شيوع الاستعمال إلی القلب و القلب فی الصدر کما قال تعالی : «وَ لکِنْ تَعْمَی الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »: الحج: ۴۶ قوله تعالى: «مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ» بيان للوسواس الخناس و فيه إشارة إلی أن من الناس من هو ملحق بالشياطين و فی زمرتهم کما قال تعالی : «شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ»: الأنعام: ۱۱۲.

بحث روائی

فی المجمع،: أبو خدیجة عن أبی عبد الله (ع) قال*: جاء جبرئیل إلی النبی ص و هو شاک- فرقاه بالمعوذتین و قل هو الله أحد و قال: بسم الله أرقیک و الله یشفیک من کل داء یؤذیک- خذها فلتهنیک فقال: بسم الله الرحمن الرحیم- قل أعوذ برب الناس إلی آخر السورة.

أقول: و تقدم بعض الروایات الواردة فی سبب نزول السورة.

و فیه، روی أن أنس بن مالک قال*: قال رسول الله ص: إن الشیطان واضع خطمه علی قلب ابن آدم- فإذا ذکر الله خنس و إذا نسی التقم- فذلک الوسواس الخناس.

و فیه، روی العیاشی بإسناده عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد (ع) قال*: قال رسول الله ص: ما من مؤمن إلا و لقلبه فی صدره أذنان- أذن ینفث فیها الملک و أذن ینفث فیها ا لوسواس الخناس- فیؤید الله المؤمن بالملک، و هو قوله سبحانه : «وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ».

و فی أمالی الصدوق، بإسناده إلی الصادق (ع) قال: لما نزلت هذه الآیة «وَ الَّذِینَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً- أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَکَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» صعد إبلیس جبلا بمکة یقال له ثویر- فصرخ بأعلی صوته بعفاریته فاجتمعوا إلیه- فقالوا: یا سیدنا لم دعوتنا؟

قال: نزلت هذه الآیة فمن لها؟ فقام عفریت من الشیاطین فقال: أنا لها بکذا و کذا.

قال: لست لها فقام آخر فقال مثل ذلک فقال لست لها.

فقال الوسواس الخناس : أنا لها . قال: بما ذا؟ قال : أعدهم و أمنیهم حتی یواقعوا الخطیئة- فإذا واقعوا الخطیئة أنسیتهم الاستغفار- فقال: أنت لها فوکله بها إلی یوم القیامة.

أقول: تقدم بعض الکلام فی الشیطان فی أوائل الجزء الثامن من الکتاب.

تم الکتاب و الحمد لله و اتفق الفراغ من تألیفه فی لیلة القدر المبارکة الثالثة و العشرین من لیالی شهر رمضان من شهور سنة اثنتین و تسعین و ثلاثمائة بعد الألف من الهجرة و الحمد لله علی الدوام، و الصلاة علی سیدنا محمد و آله و السلام.